

تأريخ المسيح

تأليف

العلامة الاب مرتين اليسوعي

نقله الى العربية

رشيد الحوري الشرتوني

ببعض تصرف واختصار



حقوق طبعه محفوظة للمطبعة

في مطبعة الابهاء اليسوعيين بيروت سنة ١٨٨٩

obeykandi.com

مقدمة

١

في ان لبنان قسم من ارض الميعاد (١)
 لما احب الله جل شأنه ان يصطنى من البشر شعباً إعداداً لحجيء
 المسيح وشاء ان يحفظ الحقائق والتقاليد الالهية من غير ان يعتورها
 انثلام من جاب الوثنية اتزل ذلك الشعب المصطنى وطناً طيباً في
 ارض مباركة . ثم اخذ مدة امدٍ طويل يباشر في تلك الارض حقوق
 سيادته العامة وترك سائر الشعوب في بقية الانحاء تتوغل في ظلمات
 الضلال وعبادة الاصنام
 والحال ان جبل لبنان هو من جملة الارض المنعم بها على ذلك
 الشعب المصطنى كما يثبت بآيات الكتاب المقدس واقوال المؤرخين على
 ما سترى

(١) حاشية للمترجم : ان المؤلف رحمه الله قد بوب كتابه
 ابواباً واسعة تنضم على مباحث ووجوه شتى قسمت كل باب الى
 فصول كما ترى وعنونت كل فصل بما يدور عليه الكلام فيه والغرض
 من ذلك سرعة التناول وقرب المأخذ

منذ دعا الله ابراهيم من وطنه ليجمعه ابا لشعب عظيم في ارض جديدة وعده اجمالاً بجميع ارض كنعان قال له : « انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك الى الارض التي اريك . . . لنسلك اعطي هذه الارض » (١) ثم قال له بعد ذلك : « ارفع طرفك وانظر من الموضع الذي انت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . ان جميع الارض التي تراها لك اعطيها ولنسلك الى الابد . . . قم فامش في الارض طولها وعرضها فاني لك اعطيها » (٢)

نعم ان الكنعانيين كانوا لذلك العهد استوطنوا لبنان غير ان ما اوردناه ليس فيه بيان شافٍ لاجل تحديد مسافة الارض التي وعد الله بها شعبه المصطفى . ولكن لدينا شواهد أخرى من الكتاب المقدس تدلُّ دلالة واضحة ان لبنان داخل في جملة ارض الموعد . من ذلك قوله : « بتَّ الرب مع ابراهيم عهداً قائلاً : لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » (٣)

ودونك ايضاً نصاً آخر من الكتاب المقدس فيه مزيد دلالة

(١) سفر التكوين ف ١٢ ع ١ و ٧

(٢) التكوين ف ١٣ ع ١٤ و ١٥ و ١٧

(٣) تك ف ١٥ ع ١٨

على ان لبنان باجمعه هو ارض مقدسة من جملة ارض الموعد. قال الرب لموسى: « وهذا يكون لكم التخم الشمالي. من البحر الكبير (١) تخطون لكم الى جبل هور ومن جبل هور تخطون الى مدخل حماة ويكون منفذ الحد الى صدّد. ثم ينفذ الى زفرون وينتهي الى حصر عينان. هذا يكون حدكم الشمالي» (٢). وقد تكلم يشوع ايضاً عن مدخل حماة في التّحديد الاخير الموحى اليه من عند الله (٣)

وانما اقتصرنا على هذا التخم الشمالي لان البحث عنه هو الذي يتكفل ببيان أن جبل لبنان بجملته محسوب من جملة ارض الميعاد وهذا التخم المحدّد من نحو اربعة الاف سنة لا يزال الى يومنا معروفاً حق المعرفة. كيف لا ومدينة حماة قائمة الى الآن وكذلك قرية زفرون موجودة في بركة حمص وقرية صدّد على بعض كيلومترات عنها في بادية تدمر. فمن يجد بعد هذا وجهاً الارتياب في ان جميع هذه الاماكن

(١) وهو البحر المتوسط

(٢) سفر العدد ف ٣٤ ع ٧ و ٨ و ٩

(٣) سفر يشوع ف ١٣ ع ٥: « وارض الجلبسين وجميع

لبنان جهة مشرق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون الى مدخل حماة »

قائمة في شمالي لبنان او من يشك ان جميع ارض لبنان داخلة ضمن
التخوم التي جعلها الله حدًا لارض الموعد

هذا فضلًا عن ان لبنان قد وردت تسميته صريحًا في الكلام
الذي القاه موسى على جميع آل اسرائيل في عبر الاردن قال : « تحولوا
وارتحلوا وادخلوا ارض الكنعانيين ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات .
انظروا اني قد جعلت الارض بين ايديكم فادخلوا واملِكُوا
الارض » (١)

وعليه فقولهُ تعالى : « انها لي الارض » (٢) قد عني به لبنان
ايضًا لانه قسم من ارضه المقدسة . واهم الاسباب التي حملت العبرانيين
على ان يدعوا وطنهم مقدسًا اعتمادهم على كلام الله الذي تقدم
ايراده . والحال ان كلام الله يطلق على لبنان ايضًا كما يطلق على بلاد
فلسطين

وبعد ان فرغنا من ايراد نصوص الكتاب المقدس الناطقة
صريحًا بما نريد اثباته نعدل الى الاستشهاد باقوال المؤرخين من قدماء
ومحدثين بيانًا لهذه الحقيقة فنقول : ان عامة الكتب في قديم الدهر

(١) تثنية الاشتراع ف ١ ع ٧ و ٨

(٢) الاحبار ف ٢٥ ع ٢٣

وحديثه مجمعون على ادخال لبنان في اقسام الارض المقدسة
صرح المؤرخ اليهودي فلاف يوسف الرجل المطلع حق
الاطلاع على شؤون امته ان المدينة التي كانت تسمى في عهده ايفانيا
في سورية المجوقة هي نفس حماة التي عينها موسى حداثاً شمالاً لارض
اسرائيل (١)

واصحاب التلمود استناداً الى ما لديهم من التقاليد القديمة
من هذه الحثية يجعلون للبنان مقاماً وسطاً بين المواطن الوثنية النجسة
(بين) ارض اسرائيل المقدسة. فذكر ميمونيد ان اليهود الذين
اقاموا بلبنان كان لهم ثلاثة امتيازات قال : « ان سورية تشبه ارض
اسرائيل في ثلاثة امور . الاول ان من ملك ارضاً في لبنان فأرضه
مقدسة كما لو كانت تحت اسوار اورشليم . الثاني انهم يُجبرون على
تأدية العشور والقيام بحقوق سنة الرجعة اي سنة اليوبيل . الثالث ان
كل اسرائيلي يدخل الى سورية من غير ان يمر بارض الامم فانه
يدخل ارضاً طاهرة كانها الارض المقدسة بعينها » (٢) فلبنان اذاً
بحسب شريعة اليهود القديمة ليس مقدساً ولا نجساً بل هو وسط بين
الامرين

1. Joseph. Ant. 1. 9. 17.

2. Maimon. Comm. Cap. XVIII. Mischna Oholoth,
— ap. Reland. Palestin. 1. 1. c. 2.

وقال القديس هيرونيم : « ليس في ارض الموعد اكثر ارتفاعاً
واوفر غاباتٍ واكثف ظلالاً من لبنان » (١)
اما كوارسم فقد لخص احسن تلخيص آراء العلماء في هذا الشأن
فقال . « ينبغي القول على الاطلاق ان لبنان خاص بارض الميعاد
لانه دخل ضمن تحومها إما لكونه وُعد به ابناء اسرائيل وإما لانه
قسم بين الاسباط ولو انه لم يدخل مطلقاً بجملته في ملكهم » (٢)
ولايضاح كلام كوارسم نقول : ان لبنان بجملته قد وعد به الله
ابراهيم (٣) وموسى (٤) ويشوع (٥) نظير جزء متمم لهذه الارض
المباركة التي تدرّ ابناً وعسلاً (٦) ونظير ارض مقدسة لشعبه المصطفى
بل نظير ميراث للمسيح ابن الله الوحيد . غير ان اسباط اسرائيل
مع ما جاءهم من وعد الله حرموا نفوسهم بمعصيتهم من ان يمتلكوا لبنان
امتلاكاً نهائياً . فلبثوا من ثم في اسافل مبعدين من الدخول اليه كما

(١) في شرحه زكرياء ك ٣ ف ١١ . (حاشية للمترجم) :

نقلنا هذه الشهادة والتي قبلها عن كتاب للمؤلف عنوانه « البتول مريم
ولبنان »

2 Quaresmius, Elucid. Terr. S., lib. VII, c. 3.

(٣) تكوين ١٥ : ١٨ (٤) العدد ٣٤ : ٧

(٥) يشوع ١٣ : ٥ (٦) خروج ٣ - ٨ و ١٧ الخ

كان آدم بعد الجريمة على باب الفردوس وكما اقام موسى قبالة هذه الارض الكريمة مواجهًا لحسن لبنان ولم يستطع ان يجوز اليها او يستمتع بمجاسنها الآن بعد (١)

ثبت اذاً مما تقدم ان لبنان من ارض الموعد ولو أن بني اسرائيل لم يعمروا الا اسافله ولم يتغلغلوا فيه . فان كلام الله لادعى بل اوجب (٢) لتقديسه من ان تطأه اقدام الوف من مثل الشعب الاسرائيلي

٢

في الداعي الى كتابة هذا التاريخ

ان الارض المقدسة بحث فيها المؤرخون بحثاً عنيفاً وتفحصوها الفحص الضروري ولكنهم تغافلوا بعض التغافل عن ان يدونوا تاريخاً مدققاً للبنان فاقترضوا على ايراد لمع مجملة عن الفينيقيين وتجارتهم وعن عظمة صور وصيداء وما آل اليه امرهما بعد ذلك من الخراب وخمول الذكر

اما نحن فلما لاح لنا ان هنالك ايضاً مباحث ذات فائدة في ما

(١) تشية الاشتراع ف ٣: ٢٦ وف ٣٤

(٢) الى العبرانيين ١٢: ٤

يتعلق بلبنان هممنا أن نجتمع كل ما دوّنه أهل البحث والعلم في شأنه حتى تبدو للجميع منزلته الرفيعة في احكام الله ما بين ممالك المشرق والمغرب الكبيرة. فضلاً عن ان مساحته ليست دون مساحة ارض فلسطين (١) التي عمرها اسباط بني اسرائيل وملأوها حتى غصت بهم . ولذلك وقفنا ما تسنى لنا من اوقات الفراغ من اعمال الرسالة على ان نبحث عن وطننا هذا الجديد وندون ما ألمّ به من التقلبات لاجل ان يتلاًّ في الناس مجد عناية الله به

ولما كان الله قدسُهُ منذ القديم باختياره وقد تشرف بمن نبغ فيه من الابطال وبما حاز من المجد وبما ارتقى اليه من معارج الحضارة الاولى ودھمه ما دھمه من الاضطراب والنكبات من الممالك القديمة

(١) مساحة الارض المقدسة هي من درجتين جغرافيتين او ٢٢٢ كيلومتراً و ٢٢٢ متراً. لان بترسبع هي في الدرجة ٣١ والدقيقة ١٦ من العرض الشمالي ودان هي في الدرجة ٣٣ والدقيقة ١٦ من العرض المذكور. واما لبنان او فينيقية القديمة فتربي على فلسطين اتساعاً . لان عكا في الدرجة ٣٢ و ٥ دقيقة من العرض الشمالي. وارواد في الدرجة ٣٥ و ٢٠ دقيقة من العرض المذكور وعليه فمسافة لبنان اذا درجتان ونصف درجة او ٢٧٧ كيلومتراً و ٧٧٧ متراً

والحديثة كان ولا شك مجراً يتدفق بالفوائد التاريخية وحققاً متسعاً
مخصباً بصنوف الاخبار

فمن قمة لبنان هذا الذي كان في الايام الغابرة مركزاً دينياً
وصناعياً واصبح في الايام الحاضرة ملجأً مسيحياً وسياسياً نطلع على
حالة العالم القديم التاريخية وكيفية تحوله الى عالم نصراني جديد .
وذلك اعظم مشهد الاتعاظ بالتعاليم التي تشاء العناية الالهية ان
ترشدنا بها في الحوادث التي ملأت الدهور

٣

في حدود لبنان

ولا بد قبل الشروع في تدوين تاريخ هذه البقعة من الارض ان
نذكر نبذة جغرافية تسهيلاً لفهم ما وقع فيها من الحوادث فنقول
لما ذكرنا حد ارض الميعاد الشمالي قد عولنا على ان نقف ابجاثنا
التاريخية عند هذا الحد المرسوم من الله لشعبه والمنتهي عند ارض
حماة وارواد . فاذا اتجهت من هنالك الى الجنوب رأيت حداً من
الارض حرجاً في عرض نحو من ١٣٣ كيلومتراً بين البحر المتوسط
وبادية سورية يمتد في طول نحو من ٢٧٨ كيلومتراً الى آخر اسناد
لبنان في سهول الجليل وادية جلعاد التي يسميها الكتاب رأس

لبنان كما ورد في نبوءة ارميا (١)

ان جبال الجليل تظهر انها ليست قسماً من لبنان لكنها في الحقيقة تنتمي لسلسلة الطبيعة والجليل الاعلى لم يتصل العبرانيون الى الاستيلاء عليه والاقامة به ولذلك سماه الكتاب المقدس بمجلىل الامم (٢) ومن ثم يحق لنا ان ندخله في جملة الاراضي اللبنانية التي نأخذ في تدوين تاريخها اما الجليل الاسفل الذي يحدها فهو الارض المقدسة بمحصر القول وقد بحث عنها المسيحيون اشد البحث وعرفوها تمام المعرفة فما بقي للكلام فيها مجال

٤

في سلسلتي لبنان واسمه

ان جبلي لبنان الغربي والشرقي هما اخص جبال سورية واعلاها

(١) ارميا ٢٢: ٦ . ان القديس هيرونيم قد اثبت هذا التفسير بقوله : « ان جبل جلعاد هو في مؤخر فينيقية وجزيرة العرب متحد بتلال لبنان » (De loc. hebr.) وكذلك اهل القرون المتوسطة وبروكرد وغيره ذهبوا الى نفس ما ذهب اليه الاقدمون من ان لبنان يمتد الى جبال جلعاد وجبل الكرمل

(٢) اشعيا ١: ٩ وسفر المكايين الاول ٢١: ٥ ومتى ١٥: ٤

الكتاب المقدس كثيراً ما يتغزل مجاسنهما ومجدهما (١) وهما على شواطئ البحر المتوسط سلسلتان متقاربتان متناوحتان متحدتان غاية الاتحاد تسيران جهة الشاطئ من الشمال (٢) الى الجنوب (٣) وتقسمان البلاد الى جهتين مختلفتين وهاتان السلسلتان لا يُستطاع اعتبارهما نظير سلسلتين منفصلتين حقيقةً بسبب تقارب خطوطهما في اعظم جزء من طولهما واتفاقهما في اتجاه مراكزهما وتركيب طبقاتهما الارضية وعمر تكوينهما وزمن شخوصهما واطلاق اسم لبنان على كليتيهما . فعلى هذا هما جبل واحد ينقسم الى قسمين عظيمين يفصلهما وادٍ متسع كثير الخصب والريف

اعتاد الاوربيون ان يدعوا احدى السلسلتين بلبنان والاخرى بأنتيلبنان (اي المناوحة للبنان) لكن الكتاب المقدس لا يطلق عليهما في الغالب إلا اسماً واحداً اي لبنان (٤) وكذلك سكان الجبلين المذكورين لا يفرقون الى الان بينهما إلا بقولهم لبنان الشرقي ولبنان

(١) اشعيا ٣٥ : ٢

(٢) الدرجة ٣٤ والدقيقة ٥٠ من العرض الشمالي

(٣) الدرجة ٣٢ والدقيقة ٥٠ من العرض الشمالي

(٤) نشيد الاناشيد ٧ : ٤

الغربي ونحن ايضاً لا نفرق بينهما جرياً على ما تقدم او كثيراً ما يراد بلبنان في كتابنا مجموع البلاد المطيقة بهذا الجبل والتي تتكون عنها سورية المتوسطة الموعود بها شعب الله

والظاهر ان هذه التسمية من اصطلاح اهل القرون الاولى ايضاً لان اشعيا وفقاً لرأي المفسرين يسمي سورية بهذا الاسم اي بلبنان وذلك عند ما عزا الى سنحاريب قوله: « بكثرة مراكي صعدت الى قم الجبال وربي لبنان » (١)

٥

في خطوط لبنان

ولعرفة حدود لبنان معرفة مكثفة بالتدقيق نبدأ بذكر الجبل برجل (٢) الذي يرتفع شرقي سهل ارواد فهذا الجبل القليل الارتفاع يمتد على طول وادي العاصي وساحل البحر ويسمى هناك بجبل النصيرية والكليبية والاسماعيلية نسبة الى القبائل الساكنة فيه وينتهي عند وادي الحسن بازاء لبنان ومن قعر هذا الوادي الضيق تأخذ في البروز

(١) اشعيا ٣٧: ٢٤ راجع تفسير العجري في الآية المذكورة

(٢) كذا سماه الاقدمون « Bargylus » (بلين ٥: ١٧ : ٤)

وبرجل اصلها برزل ومعناها بالفينيقية الحديد

اسناد لبنان الشمالي ثم تشخص شخوصاً سريعاً في بلاد عكار ويتكون عنها فوق مدينة طرابلس رِعان ترُبل (١) وقن المكمل العظام وهي اعلى ما في هذه السلسلة اما لبنان الشرقي فيأخذ في الارتفاع حيال الغربي على مسافة نحو الشرق مائلاً الى جهة الشمال قبالة سهل حمص وبادية تدمر

وهذان الجبلان المنفصلان في ممرهما بمسافة بضعة عشر كيلومتراً تتجه خطوطهما المتسعة نحو الجنوب بمحاذاة البحر ثم يتقاربان ويقتربان عند وادي التيم في سفح جبل الشيخ ثم ينشعبان انشعاباً جديداً ثم ينخفضان انخفاضاً سريعاً الى ان يختلطا بالسهل

والجبل الشرقي ينخفض الى ان يتصل ببجيرة طبرية وسهل حوران وباتصاله بجبل جلعاد يتصل بجبال العربية المتجهة نحو السويس والحجاز اما الغربي فينخفض الى شاطئ البحر المتوسط اي الى سهل عكا والجليل قبالة جبل الكرمل وجبال السامرة المتصلة بسلسلة طور سيناء فاللبنانان اذا هما قسم من مجموع جبال اكثر اتساعاً يسميها اهل المغرب بالجبال السورية الحجازية. ولكن فيها مميزات كافية يمكن معها

(١) ولعل تربل هي تحريف لفظ Tripolis (طرابلس) في اللغة

افرادهما من جهة الاسم ومن جهة الطبيعة

واما السلسلة اللبنانية فلها في خطها الطويل اهمية عظيمة من جهة
رسمها المكاني لان كثيراً من التشعبات العظيمة تتفرع من كل جهة
عن اصل هذه السلسلة ثم يضحل بعضها في البادية حيث يتكون عنها
اراضٍ قاحلة ترتفع بالتدريج الى هضاب آسية الداخلية وبعضها يترامى
الى عدوة البحر فاما ان يكون سقوطه سريعاً او بطيئاً يختلط تدريجاً
بالسهل

٦

مشهد لبنان

ان هذه الجبال الباذخة المتجللة بالمهابة نظراً الى ارتفاعها الشامخ
المكتسية بالبهجة بما فيها من اختلاف المناظر بين صخور وتلال
وسهول ووهاد عميقة يوشحها الربيع ثوباً مدتبجاً باصناف من الانبتة
ترداد غمواً وقوة لما تلاقي من حرارة الشمس في المشرق وما هنالك
من المراعي الموفورة التي تسقيها ينابيع الغزيرة وما فيها من الحدائق
والبساتين وما ثمة من الغابات التي هي حطام تلك الاشجار العظيمة
بقية القرون الخالية كل ذلك يكوّن خضرة بهيجة يروق منظرها
بمعارضة ما في لبنان من الصخور الرمادية اللون فتدفع الملالة من رؤية
البرزاري والقفار التي حيالة

فاذا جاء كانون الثاني اخذ الربيع يزرع على سواحل البحر شقائق
النعمان وعلق يتصاعد هذا الفصل تدريجاً الى الصرود (الجرود) حتى
ينتهي الى رعان الجبال فيث فيها ازاهيره وينزل ضيفاً في لبنان نحواً
من نصف سنة . فاذا انقضى ذلك الزمن وجاء الحر المحرق تجردت الجروم
(السواحل) من خضرتها وجاءت دواة النخل والجميز والزيتون والرمان
والبرتقان والموز وقصب السكر والصبير الشائك الذي يتقوت به الفقير
قطعة من الصيف وغير ذلك من الاشجار التي لا تعيش الا في البلاد
الحارة

واذا انتقلت الى وسط لبنان رأيت في منحدر التلال واغوار
الوهاد وسطوح الجبال وحيناً في خلال الصخور المجردة شجر التوت
والتين ودوالي العنب مصيبة اتم ما يمكن من الخصب وكذا الفستق
والخروب والجوز والسنديان والسرو والسنوبر والشرين وعلى الخصوص
غابات الارز التي تفوق سائر الاشجار علواً وقدامية . وبالجملة فان
هنالك اخصب نبات تحت اجمل سماء في الدنيا

غير انك اذا ارتفعت من هنالك الى اماكن الثلوج (١) لم

(١) ان اعظم قمم لبنان لا يكسوها الثلج كلها دائماً لان

الارتفاع المطلوب لديمومة الثلوج هو في الدرجة ٣٤١١ من العرض

تقع عينك ثمة ألا على بعض أنبتة اشبه شيء بأنبتة جبال الالب (١)
ورأيت بعض شجيرات ضعافاً قصاراً
وفي الحق ان طبيعة لبنان القويّة مما يتعجب لها الانسان لأنها
جامعة مع ما بها من الصخور الشواهد والشعاف البواذخ لكل صنف
من اثمار كل فصل من السنة ووجه من الارض

٧

في تباين السلسلتين

ان اللبنايين الشرقي والغربي اللذين خصتهما الطبيعة باحسن
ما لديها هما اخوان شقيقان غير انهما يتباينان من جهة وجوه فالغربي
اكثر ارتفاعاً واوفر حزوناً ووعوراً واكمل خصباً وغناء . اما الجبل
الشرقي فارضه اكثر اطمئناناً واقل سكاناً وعمراناً . وطرقه اقل

الشمالي نحو ٣٥٠٠ متر . ولذلك لا يبقى الثلج زمن الصيف في لبنان
الا في الصدوع العميقة والنحاريب الغائرة . وقد تذوب برمتها في السنين
التي يشتد فيها الحر نحو سنة ١٨٧٣ وقد اخبرني بعض الشيوخ الثقات
ممن يربون على المائة ان قد ذاب الثلج بتمامه قبل السنة المذكورة بثمانين
سنة

(١) (Les Alpes) جبال بين فرنسا وايطاليا والمانيا

حزونة وهضابُهُ أكثر اتساعاً وصخوره أقل استقامة في خط ارتفاعها ومشاهدُهُ أكثر ايناساً . ولكن في الغربي طرقاً بهيجة وعيوناً غزاراً وجبالاً فيها درجات على هيئة السلام ترتكز عليها الاراضي والاشجار والمزروعات وفيهِ ما لا يحصى من القرى والاديار والبيع كأنها الأكَلَّة على هامهِ ناهيك عن انه مطلٌّ على زرقة البحر . وجهتهُ الشرقية قاحلة جديبة بخلاف لبنان الشرقي فان الجذب انما يعترضه في الجهة الغربية منه على حين ان جهتهُ الشرقية زاهية بانواع الالنبته مصيبة او فرنصيب من بهجة بساتين دمشق ورونقها

واغرب ما هنالك ان كل سلسلة من هاتين تأخذ خطة مخالفة للآخرى في انتشارها وانبساطها من عند ذيل جبل الشيخ الذي هو الرابط بين اللبنانيين والجامع بينهما

ان لبنان الغربي يأتي من تلك الجهة بانخفاض ثم ترتفع في شماليهِ اعلى قممهِ واولى تلك القمم وارفعها في السلسلتين قمة المكمل او قم الميزاب الذي يبلغ علوه ٣٠٦٣ متراً . واذا تزلت من هنالك متجهاً الى الجنوب رأيت فوق بيروت جبل صنين وهو قمة عالية ايضاً الا انه لا يتجاوز ٢٦٠٧ امتار . واذا سرت ايضاً وصلت الى ما فوق صيداء الى جبل نيجا الذي يسمى حرقاه الاعليان اي جناحاه توأمات جزين وليس لهما من العلو الا ١٨٥٠ متراً . ثم تأخذ هذه الجبال من

هنالك في الانخفاض مارةً بقمم اقل ارتفاعاً مثل قمم الشقيف وعطير
وجرمق الى ان تختلط بسهول فلسطين او تتراعى الى ساحل البحر
اما الجبل الشرقي فبعكس ذلك لا يبلغ أقصى علوه إلا في
الطرف الجنوبي . لان حروف جبل الشيخ الثلاثة ترتفع بمرّة الى الف
متر فوق سائر السلسلة وتتعالى عليها تعالي الجبابرة بارتفاع ٢٨٥٧ متراً
عن مساواة البحر المتوسط

ويأخذ الجبل من هذه الشعقة الباذخة جهة الشمال والجنوب من
غير ان يُرى فيه إلا سلسلة قمم لا يُحفل بها . وارتفاع هذه السلسلة
في الجملة انقص بكثير من ارتفاع السلسلة الغربية . غير ان المحل
السائد على اكثر اماكنها يسلب هاتيك الجبال والآكام والاودية
معظم جمالها ورونقها وليس فيها من الاراضي العامرة إلا الجانب
الشرقي خصوصاً سقي نهر بردى

٨

في منطقته البركانية

اما الجانب الجنوبي في اللبنانيين فبركاني اي ناري . وذلك ان
منطقة عريضة نارية على قاعدة جصية تأخذ من هضاب صفد ناحية
حضيض جبل الشيخ وتنفذ في وادي التيم وترتد ناحية جبل حيش
وتطيف بالسلسلة المذكورة وبالاطواد التي هي شرقي بحيرة طبرية

حتى نهر اليرموك . ومن هنالك تذهب نحو اللجاة وحوران وتصعد جهة دمشق وتكون على افق هذه المدينة مفازة سورية الكثيرة الصدوع والحصباء بما يجتمع فيها من ركام الحمم التي تنقذف الى بعيد كأنها بحر جائش . ثم تظهر هذه المنطقة النارية في الجانب الشمالي من لبنان الذي هو شمالي بقاع العزيز وجبل عكار . وتنتشر عند حمص وحماة حيث تسير الى جهة البحر مارة بجبل النصيرية وبسهول الساحل حتى تتصل الى حد جزيرة ارواد ومن هنا تصعد جهة انطاكية وحلب وتضل في وادي الفرات

٩

في صخور لبنان

إن المنطقة البركانية المشار اليها تحيط باللبنانيين (الشرقي والغربي) من كل جهاتهما . ولكنها لا تبلغ الى الصخور الداخلية التي ليس تكونها في الجملة بركانياً . وقد اشتدت القوة البركانية في كثير من الاماكن القريبة من هذه المنطقة حتى ملأت صدوع الصخور الجصية حمماً . والصخور المشار اليها طباشيرية وجورية (اي تشبه في تركيبها صخور جبال جورا الفاصلة بين فرنسا وسويسرا) وهي من العمر الثاني الجيولوجي . والصخور المذكورة هي القاعدة الاولى لتراكيب اللبنانيين الارضية . اما الحجارة فصلبة شديدة ودقائقها خشنة مختلفة الالوان

من البياض الى الحمرة والمرمرى . وطبقاتها منضدة سافات مختلفة
الميلان ومصاطب تكون في الكثير قليلة الانتظام والتناسب كأنها
أزعجت ازعاجاً شديداً في بروزها ولا محالة ان هذه الصخور الجصية قد
نشأت من غور البحار بنتوء الاراضي الثانوية او اراضي الانتقال وربما
كان فيها مصاطب من رسوبات الاراضي الثالثة

وفي جسم هذه الصخور الجصية تجد مواد متباينة منها الدملق اي الحصى
المستديرة اما منفردة او متحدة ببعضها على هيئة صخور عظيمة ومنها
حجارة ذات تجايف مملوءة رملاً او بلوراً . وصفوف طباشيرية وجصية
مركبة من كربونات الكلس وصدفية وصخور رملية ناصعة اللون وخميرة
معدنية وصوانية . ومنها الغنيس والكوارتز اي البلور الصخري . ومنها
البصار وهي حجارة بيض رخوة والكذبان ومنها متجمدات بلورية وآلية الخ
وكثيراً ما ترى تراكم طباشيرية او رملية تعاقب طبقات
اخرى بين شديدة الصلابة وقليلتها وقد احدثت الطبيعة بين هذه
الصخور المختلفة احداثات حجة غريبة منها مغاور بعيدة القعر توقع الداخل
في العله لكثرة تشعباتها وتتدلى من سقفها حلقات من الماء جامدة
وتتكون فيها صفائح عظام من الاصداف اكثرها من الاموني والبلمني
وفيه رسوم من الهياكل العظمية للزحافات وكثير من المرجان الاحمر
الناصع . اما الصخور الشستية من المرن الطباشيري فهي كثيرة

عند الحجر وفي الجبال ايضاً حول طرابلس والبترون وكسروان والشوف
وعليها رسوم هياكل عظمية عديدة لاكثر من ثلاثين صنفاً من
الاسماك قضي الاقدمون منها العجب واثبتت حقيقة الطوفان في اعين
المسيحيين الاولين (١)

١٠

في خصب تربته

اما الارض النباتية المرتكزة على الصخور المشار اليها او المتراكبة
في الوديان فهي منضدة سافات وصفوفاً بيضاء وسوداء وحمرًا
وتلك الارض مربعة كريمة المنبت يتوفر لها الخصب بما يدخل في
تراكيبها عادةً من المرن الرمي والصلصال وبقايا الهوالك من الاجسام
العضوية ناهيك عن ان نباتها يحرز اوفى نصيب من النضارة والغضاضة

(١) تاريخ اروس ١: ٣ وجرج سنكل سنة ١٣٠٧ ومينخائيل
كليكا وغيره من مؤرخي القسطنطينية . وفي الحجارة الشستية بين
طبقاتها رسوم اصداغ او انبثة منحصر بالذكر منها بصل البحر . والظاهر ان
هذه التراكيب احدث زمنًا بالنسبة الى التراكيب المتقدمة . واكثر
هذه الاسماك تختص بالطائفة السلاكية . (بكته (Pictet) في وصف
الاسماك المتحجرة في جبل لبنان)

بما يلاقي من اسعاف حرارة الجو وقد كان خصب لبنان وسورية في
الايام الغابرة مثلاً يُتمثل به واحداً مستطيرة في الآفاق لان الزرع
فيه سهل ان تعطي ثلاثين في الواحد

وقد يجعل الفلاحون في الأصباب السريعة الانحدار وقايةً للارض
من جائحة السيل حيطاناً عظماً يشرعون في بنائها من سفوح الجبل
حتى يتصلوا الى ذراته فيغنموا بذلك تربة عذبة صالحة للزرع . وكان
بك عندما تقع عينك على هذه السلام العظيمة تحال ان درجاتها لم يكن
اعدادها لوقاية الاشجار والغلال باحق من ان تكون قد هُيئت مقاعد
لرط من الجبابرة . وعلى هذا فكانهم قد اكرهوا الصخور على ان تأتي
بالخشب وقلما تجد في بلاد اسية ارضاً عامرة نظير لبنان ولكنها مع
جودة تربتها والعناية المصروفة من جانب اهلها الى توفير عمارتها لا
تسكاد تقوم بمعاشهم اكثر من نصف سنة وما ذلك الا بالنظر الى كثرة
السكان وقلة الاراضي المهيأة للزراعة بما فيها من الصخور والحدورات
الجديدة

١١

في السهول المحيطة باللبنانيين

ان لبنان بقسميه لطيف به ويتوسطه ثلاثة اغوار بعيدة المسافة
عميقة القرار تتكون عنها السهول التي سماها الاقدمون الفينيقيّة

والكيليسورية والدمشقية . اما الغور الشرقي فيكون سهل دمشق الذي يمتد من أقبال الجبل الشرقي الى بادية سورية او بادية تدمر . فعند تخوم هذه البادية غوطة اريضة من اجمل ما احدثت يد الطبيعة تشققها الانهار الكثيرة وتكسوها الخضرة ويغشيها النبات الغض الوفور عرضها نحو ستين كيلومتراً . وما كسبت الارض المذكورة هذه الشهرة المستطيرة الا بسبب ما يجاورها من بسايتين دمشق الغناء المبسوطة على مدى السهل ناشرة ارواح ازاهيرها وبأثة عرف انوارها ولقد اكثر الشعراء من وصفها والتفنن في مدحها حتى شبهوا روائحها بروائح الجنان . وليس لهذا السطح الجبلي البهيج من العلو الا ٧٣٠ متراً عن مساواة البحر ويتصل من جهة الجنوب بسهول حوران المتسعة ومن جهة الشمال بوادي العاصي الاريض وتلك المواضع محسوبة عند الاقدمين والمحدثين اهراء سورية

كان اليونان يسمون السهل المنبسط الفاصل بين الجبل الغربي والشرقي سورية المجوفة (كيليسورية) (١) وتسمى اليوم البقاع وقد سماها الاقدمون من العبرانيين والفينيقيين بهذا اللفظ عينه

(بقعة) (١) وهي وادٍ بهيج مخطط خطوطاً عظيمة تكتنفه الجبال من جميع جهاته فينبسط انبساط بحيرات الماء الى مسافة اكثر من تسعين كيلومتراً من الشمال الى الجنوب ونحو ٩ الى ١٣ كيلومتراً من الشرق الى الغرب. وهذا المجموع ملء العين عجباً ولكنه قليل النبت فلا يتنعم الناظر منه الا بروية نبذ من العشب آونة الربيع فاذا ولى الربيع صار موحشاً جديباً. وفي فم الجهة الشمالية من هذا الوادي ترى قلعة بعلبك منتصبة بين الاخربة انتصاب حارس ضاق ذرعاً عن صيانتها وفي الجهة الجنوبية تلتقي تشعبات الجبالين حتى تصير كأنها سور منيع من دونه. غير ان انسداد هذا الوادي بالصخور يتحصل عنه صعوبة في جريان المياه فتصير المستنقعات التي تفسد عذارة الهواء. وما هذه المستنقعات الا

(١) ان هذا السهل متكون من ارض خصيبة جرفتها اليه المياه سمكها من ثمانية الى عشرة امتار. فهو يشبه مركباً عظيماً جانباً للبنانان. ولا تجد فيه من الاخربة القديمة الا شيئاً قليلاً وما كان ذلك الا لوباء هوائه المستر الى يومنا وخصوصاً لانه كان بحرة متسعة من زمن متعارف واما مركز مدينتي بعلبك وخلقيس اللتين كانتا فيه فهو ارفع من بقية السهل

بقية الامواه التي تخلفت عنها تربة هذا السهل الخصيب (١) ومعدل ارتفاعه عن سطح البحر ٩٠٠ متر

اما السهل الممتد بين شاطئ البحر واوائل تلال لبنان فهو اشهر من السهالين اللذين تقدم ذكرهما لالانتساع مساحته ولحسنه بل لانه مشهد حي لا قدم حضارة في الدنيا واول مركز لا قدم مدن العالم واذا تتبعنا مسير هذا السهل آتيا من امام جزيرة ارواد مارا على ارياف طرطوس في مواجهة جونة عكار وجدته تضيق كلما اخذ في المسير جهة سفح لبنان مع ان عرضه في الجهة الشمالية نحو من ٢٣ او ٢٦ كيلومترا . حتى ان تربة طرابلس الخصبة تكاد تضيق عن ثلاثة كيلومترات . ثم ياخذ لبنان في زيادة التقرب من البحر عند راس النورية ووجه الحجر (٢) شمالي البترون حيث يلج في البحر ولا يدع مجازا للعابرين

(١) يوسف ١١ : ١٧ وبوليب (٥ - ٥٩ - ١٠) يسميها

« اميكس بذيون » اي سهل عميق او العميقة

(٢) راس الحجر هو اقرب راس الى البترون وهو مترجم عن

الكلمة اليونانية « ليشوبروسوبون » وكان اليونان يسمونه قبل المسيح

وجه الله « ثاوبروسوبون »

ويتسع السهل نحو كيلومتر واحد في اراضي البترون وجبيل
وبين راس الشقيف و (بين) راس نهر الكلب . ومن هنالك تأخذ
في الاتساع شيئاً فشيئاً سهل بيروت التي تبرز فيها على طول ٢٦
كيلومتراً في عرض تسعة كيلومترات تقريباً آكام متخالفة الهيئات
مرصعة بالقرى العديدة وحقول مبهجة مدبجة بانضر النبات وينتهي من
جهة الجنوب بارمال آخذة في الازدياد والتقدم وتعرضه من وراء
ذلك الجبال الجديبة فتمتع انبساطه غير تاركة على شاطئ البحر ألا
مجازاً ضيقاً يمتد من عند مضيق الدامور الى راس الرميصة قريباً من
بساتين صيداء الشهيرة

اما سهل صيداء الذائع الشهرة في التاريخ فلا يبلغ عرضه اكثر
من اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر . وطوله الى حد رأس صرند
الذي يحده جنوباً ١٣ كيلومتراً ونصف كيلومتر وما وراء ذلك من
الارض المستغرة في بعض اماكنها والتي تمتد من هنالك على حاشية
البحر الى حد نهر القاسمية يوشك عرضها ان لا يتصل الى كيلومتر واحد
ومتى عبرت هذا النهر رأيت سهل صور الذي كان قديماً مجال
النشاط والحياة ومضمار المدن والحضارة برّاً قفراً وبيء الهواء تُغير
عليه الرمال

والسهل المشار اليه يبلغ عرضه في بعض الاماكن ثمانية كيلومترات

وطوله من القاسية اي من رأس الابيض الى رأس الاسود نحو ٢٣
 كيلومتراً . وترتبه سوداء سهلة الحراثة وقوتها النباتية وخصبها
 عجيبان غير ان رداءة هوائها الناشئة عن الابجرة المتصاعدة عمّا فيها
 من المستنقعات والآجام تبعد عنها الفلاحين واهل الزراعة
 والصخور الاخيرة من لبنان تُكوّن رأس الابيض والجهة في
 البحر فتشخص فوق المياه شخوصاً اسطوانياً حتى تسد كل منفذ. ولذلك
 اقتضى الامر ان تتخذ الطريق في غلظ الجبل ما بين رأس الابيض
 ورأس الناقورة ورأس المشيرفة . ومن رأس المشيرفة المذكورة تشرف
 على سهل عكا المتسع الذي يحده جبل الكرمل وآخر تلال لبنان اعني
 الجليل الاعلى الذي يبعد عن البحر نحو ١٣ كيلومتراً

١٢

في هواء لبنان

واعلم انك لا تجد للبنان في جميع نواحي اوربا ضرباً يماثله تمام
 المماثلة من جهة هوائه . فمن حيث انه بين الدرجة ٣٥ و ٣٣ من
 العرض فمركزه اكثر اتجاهاً الى الجنوب من اغريقيا (اليونانية)
 وايطاليا واسبانيا فيكون في نفس العرض الذي عليه شمالي افريقيا
 ومكسيكو والهند وبناء عليه امكن تشبيهه في الحق بالجهات المذكورة

من حيث الهواء والفصول والخواصل غير ان اعاليه المشرفة على ما
حواليه من السهل تخفف بما تتعمم به من الثلوج حرارة الهواء وتلطف
صرّة القيظ

وعلى هذا فان لبنان يُقسم الى مناطق عديدة ترى في ترفعاتها
المختلفة من النبات والرطوبة ما يختص ببلدان واقعة في اقاليم متباينة
لانك اذا ارتقيت الى رؤوسه شعرت ببرد مثل برد الجهات الشمالية
وانت من فوق النخيل والافراس المختصة بالبلاد الحارة مما تقتزين به
سواحل البحر

والحرارة تتناقص تناقصاً سريعاً على مقدار الارتفاع في شعابه
المستوعرة لانك كلما ارتفعت الى سطوحه المتباينة وجدت لكل مئتي
متر علواً نقصاناً في الحرارة معدله درجة واحدة كما يتحصل تقريباً عن
قطع مسافة درجتين عرضاً وعليه كان لبنان جامعاً لعامة صنوف
الاهوية والاحوال الجوية والفصول

ثم ان الاختلاف بين اربعة فصول السنة في اوربا يتبين جلياً
في اعالي لبنان ولكن في السواحل لا يوجد حقيقة الا فصلان اي
الصيف والشتاء والكتاب المقدس لا يذكر غيرهما (١) كما ان العرب

(١) تك ٨ : ٢٢ ومزمور ٧٣ : ١٧ ونشيد ٢ : ١١ وزكريا ١٤ : ٨

في مفارضاتهم المعتادة قلما يذكرون الفصلين الآخرين اي الخريف والربيع
لعدم تميزهما تميزاً ظاهراً

اما هواء سورية فهو صافٍ متناه في شفافه وفي تمام الملاءمة
للصحة خصوصاً في الجبل ولذلك قلما تجد امراضاً عزيمة اذ ان الندى
المتساقط في الليل يسعف على ترطيب الجو ويزيد الهواء ملاءمة
للناس والنبات. ومع ذلك فان السواحل البحرية تستولي فيها الحميات
المتقطعة والمتناوبة وتتزايد في الاماكن المستنقعة

١٣

في نبات لبنان

نبات لبنان مختلف وذلك ان الجبل ينقسم طبيعياً الى ثلاث
نواح نباتية احداها الصرود (الجرود) ونبات هذه الجهة يشابه
نبات بلاد ساقوا وسويسرة. ومما تنفرد به شجر الارز (١) والجوز
والسنديان وسائر الغراس التابعة للاشجار المذكورة. والثانية الساحل البحري

(١) ذكر الاقدمون ان الارز ليس من الاشجار التي يتعذر
وجودها في غير لبنان لان كلاً من تارفرست بتاريخه ٣ - ١٣ - ٣
و ٤ - ٥ - ٢ وبلين في تاريخه الطبيعي (١٦ - ٥٦) يتكلمان عن
ارز فينيقية وليكية وايدا وتراكية وفريجية

والمراد بها شواطئ البحر وسفوح لبنان الغربية ويضاهيها سهل البقاع
وحمص وهذه الناحية تمتاز بالصنوبر الساحلي المكثّل والنخل والفسق
والبرتقال والجميز والدفلى وغيرها. والثالثة الوسط والمراد بها جوانب
الجليل الشرقي من جهة الشرق وسهل دمشق الجنوبي وباديتها وهذه
الناحية لا تتميز عن السابقة إلا بكون نباتها اقوى واشد حاجة الى الحر
اذ ان النخل يكثر فيها جداً كما انه ينجح فيها البلسم والطرفاء والنباتات
الدهنية

وبالجملة فان اكثر الاصناف النباتية في لبنان مختلف عن التي
في اوربا (١) فضلاً عن ان الاصناف المشتركة لكليهما ترى لها في
الكثير فروقاً مهمة من جهة اللون والقوام والرائحة والخاصة . فان
حرّ الشمس وجودة الارض يؤثران في نبات لبنان تأثيرات عجيبة .
اما الغراس العطرية فوجودها كثير والكرم والحنطة والزيتون والتبغ
والقطن والخروع وقصب السكر وجميع البقول على اختلاف اصنافها
تنجح فيها اعظم نجاح

ثم ان الارض الصالحة للفلاحة تنتهي على علو ٢٠٠٠ متر تقريباً

(١) ان العشائين اهرنبرج وهمبرنج جمعا من لبنان في مدة

شهرين اكثر من الف ومائة نوع من النبات

وهناك ينمو نبت البقل (١) الذي هو من خصائص جبال الالب .
وبعد ذلك لا تصادف النباتات قليلة يوشك ان لا يتجاوز علوها سطح
الارض

وهنا لا بد ان نأتي على ذكر اهم الاشجار التي كانت مجداً
لفينيقيّة القديمة والقت اليها مقاليد سيادة البحر دهرًا طويلاً وهي :
النخل وهو من نباتات البلاد الحارّة وقد كان رمزاً مقدساً عند
الفينيقيين واول ما ينبت على ارياف فينيقيّة غير انه يكون في جهات
طرابلس ضئيلاً على اسواً حال خلافاً لبيروت فانه ينبجح فيها ويستوفي
تمام خصبه في سهول صور وعكا .

والارز وهو شجر مستفيض الذكر في الكتاب المقدس كان
يستخدم قديماً لعمارة السفن واقامة الابنية العظيمة فكان لذلك كثير
الاعتبار في عيون الناس قديماً وحديثاً ويوجد الى الان في لبنان ليس
بصفة آجام ملتفة الاشجار بل بهيئة قطع غابات قليلة مبثوثة على اعالي
الجبال لدى آخر حد تقف عنده الانبتة الكبيرة . ويصادف فوق
طرابلس قريباً من بشرّي والحداث وفوق دير القمر وفي اقليم جزين من
جنوبي لبنان وما هو الا بقية نفيسة تُعيد على الخواطر ذكر القرون
الماضية . واهل العلم يقسمون الارز ثلاثة انواع ولكن ارز لبنان هو اصل

(1) Rhododendron

هذه الانواع وافضلها . اما الارز الاتلتيكي فقال جمهور علماء الطبيعة
بانه ليس نوعاً بل مجرد فرع كما قالوا ايضاً عن الارز المدعو بالفضي عند
اصحاب الجنائن فلا يتبقى عندهم من الانواع الا الارز المدعو داودورا
وهو الذي ينبت في الامكنة الرطبة من جبال حماليا

والسنديان الذي يظهر ان بعض انواعه مختصة ببلبنان ينمو فيه نماء
غريباً ولذلك نذكر منه الانواع الآتية لسبب الاسماء الوطنية التي دُعيت
بها عند اهل هذا الفن وهي :

السنديان السوري . ويوجد على الخصوص في وادي قنوبين
وبكفيا وجهة زحلة واليمونة

والسنديان اللبناني . وهو شجرة عظيمة لها منظر يروق العين يباغ
علوها اكثر من عشرة امتار . ولها قشرة سمراء غائرة الشقوق وورقها
صغير متنوع الاشكال وعرها قصير اسطواناني

والسنديان الارزي . سمي بهذه التسمية لانه اكثر ما يكون قريباً
من الارز . ساقه مرتفعة مستدقة واغصانه طويلة قليلة الورق ورأسه
متطاوّل جميل (١)

والسرو والسنوبر والشربين التي كانت ممتدة في قسم كبير من
الجليل يوجد منها الى اليوم آجام قليلة

والقيقب (الازدرخت) هو شجر منتشر في سورية ولعله كان
كذلك منذ القديم وهم يزرعونه لاجل ظله وبالخصوص لصلابة خشبه
وطول بقائه مع كونه سريع النمو

والجميز هو شجرة عظيمة تنجح كثيراً في سهول سورية ولها خشب
فاخر واغصان عريضة ذات ظل متسع شائق

ومن اشجاره ايضاً اللبني التي اشتهرت كثيراً عند القدماء حتى
توهم بعض المؤلفين ان اسم لبنان مأخوذ منها (١) فلهذا الشجر لحاء
طيب الرائحة زكي العرف يعطي صمغاً يشبه البخور كان يستعمل عند
الاقدمين استعمال البخور نفسه (٢)

وغابات هذه الاشجار وغيرها مما كان في القديم ككبرياء
لبنان اوشكت ان تفتنى تماماً من ساحة الوجود . فان شجر التوت
قد سبب من الاضرار التي لا تعوّض لسائر اشجار لبنان فوق ما تسبب
لها من ائتكبات التي المت بسورية فان ماله من المنافع العديدة قد
اغرى شعب لبنان من اجل الفاقة وقلة الايسار ان يؤثره على غابات

(١) ان لبنان واللبنى والبخور تدعى كلها في اللاتينية واليونانية

باسم واحد (ليبَنوس)

(٢) نشيد (٤ : ١١) ابن سيراخ (٢٩ : ١٨) و (٢٤ : ٢١)

الارز والسرو والصنوبر وغيرها من الاشجار القديمة . فاصبح التوت على هذا المنوال مدار الفلاحة في الجبل ينتفع الفلاح بحطبهِ وثمره وورقه الذي تُطعمهُ المواشي مدة من السنة خصوصاً حاصلات الحرير التي اصبحت في ايامنا اهم ثروة هذه الجهة . وكل سنة يبلغ ثمن الصادر عنه اربعة ملايين من الفرنكات فضلاً عن انه اصبح الآن المرتق الوحيد الناجم في لبنان

اما استخراج الاسفنج من شواطئ البترون وارواد فهو فرع آخر مهم من صادرات لبنان يبلغ دخله مليوناً من الفرنكات

١٤

في معادن لبنان

وفي الجبل ايضاً ثروة معدنية يمكن ان يتحصل عنها لاهل البلاد منافع اخرى لان طبقات اراضيه يتخللها صفوف من الفحم الحفري (التحجر) خصوصاً حوالي ميروبا وقالوغا غير ان الفحم المذكور يدخله من الحامض الكبريتيك ما يجعل استخدامه متعسراً في المواقد الكبيرة التي هي قليلة في لبنان . وقد اقدم اهل البلاد على استخراجهِ من مناجمه عدة دفعات فاخفقوا واصبحوا لا يستعملونه اليوم الاًدواء نافعاً لاصلاح الجرح واندماله

واللبنانيون قد احتفروا في القديم (١) كثيراً من معادن الحديد (٢) ولكنهم لم يعمقوا في الحفر حتى يتصلوا الى درجة عميقة . وحديدهم نظراً الى سهولة تطريقه وتصفيجه كانوا يفضلونه في اعمالهم على ما يرد اليهم من بلاد الاجانب فضلاً عن ان المشوب منه في معدنه يعطي ٩٠ جزءاً من الحديد الخالص وانما صدّهم عن التوغل في استخراجهم على درجة اعمق ما يقتضيه الشروع في ذلك من النفقات الباهظة والكلف الكثيرة. وهكذا القول عن سائر المعادن التي تأكد وجودها في اراضي لبنان كالنحاس والتوتيا وكذلك الذهب والفضة. والمظنون ان الفينيقيين الذين كانوا يسافرون الى البلاد البعيدة لاجل استخراج المعادن لم يغفلوا عن معادن بلادهم ولدينا على هذا براهين وضعية مما نراه من آثار الحفر ومما قد وجد من نفاية المعادن المصهورة على بعض رؤوس الجبل

وقد شرع البعض في ايامنا يستخرجون في وادي التيم غربي حاصبيا معدناً من الحمر فاخر الجنس لونه اسود لامع وصادفوا بذلك نجاحاً

(١) تثنية الاشتراع ٨ : ٩ و ٣٣ : ٢٥

(٢) من هذه المعادن معدن فوق العاقورة واخربقرب الشوير

في حيوانات لبنان

ثم ان المملكة الحيوانية في سورية ولبنان ليست دون المملكة النباتية والمعدنية ثروة وغناء . لان هذه البلاد تشتمل على جميع ما في اوربا من الحيوانات الداجنة الاهلية وتزيد عليها بما فيها من الجمال الملقبة بمراكب البر والجواميس التي هي مع كراهة منظرها سهلة الانقياد لا تأتي بمضرة ولا اذى . اما الخيل الكريمة كما وصفها ايوب (١) فهي مورد ثروة للسوريين والعرب يباهون بها ويتنافسون فيها . وعندهم اغنام ألي اي ذوات الية كبيرة يعلفها الفلاح ويذخر لحمها الى آونة الشتاء كما يفعل فلاحو اوربا بالخنزير وهي جنس نفيس منحصر في المشرق وشمالى افريقية . والعز الطويل الاذان مع قصر القرون هو جنس مخصوص بلبنان ايضا لا يوجد في غيره

وكان وجود الاسد والثمر من الحيوانات البرية كثيراً في لبنان قديماً غير انهما انقرضا بانقراض ما كان فيه من الغابات المتكاثفة والآجام الكبيرة . اما الدب والخنزير البري والقنفذ والفهد والنمس فوجودها اليوم نادر منحصر في بعض جهاته لكن الضبع والذئب وابن

آوى كثيرة الوجود شائعة في جميع الاطراف . اما ابن آوى فهو حيوان بين الذئب والكلب يجتمع زمراً وعصائب في اوائل الليل خصوصاً في اَبان الشتاء ويعوي حول القرى عواءً مديداً كـريهاً

وحیوانات القنص قليلة اخصها الحُرَّار (وهو الارنب البري) والغزال على انه يُصادف على ما قيل ارابي وارانب الخ ولكنها نادرة وكانت الطيور في القديم كثيرة جداً بلبنان ولكنها اليوم قليلة بسبب انقراض الغابات وقلة مرتقها على انه لم يزل فيه ايضاً كثير من الجمال والسماوي والحمام واليام (الترغل) والغربان والنسور والصقور . وبالجملة يصح القول ان في لبنان اغلب اجناس الطير من النسر الكبير حتي اصغر العصافير

اما صغار الحيوانات فكثيرة جداً . منها دود القز وتربيته تنجح نجاحاً عظيماً في عامة انحاء الجبل ومنها النحل الذي كان عسله مشهوراً في القديم ولكن لا تتجمع تربيته الان الا في الصرود (الجرود) العالية وذلك لانه لا يجد في السواحل في شطر عظيم من السنة مقداراً وافياً من الزهور يقوم بغذائه

ويسطو الجراد على لبنان في بعض السنين خصوصاً اذا كان الشتاء غير شديد فيقدم الوفاً مؤلفة حتى يسد الفضاء ويحجب نور الشمس ثم يحلُّ على الحقول فيتلغ الزروع ويجتاحها اي اجتياح . وعند مروره بالارض

ينقهرها اي يكثر فيها من بيضه ولا يمضي زمن على ذلك حتى يبرز
(يفقس) بيضه جيوشاً جارة وترحف على الحقول وتستوفي اتلاف
ما ابقى سالفها من الزروع حتى لا تذر للحبوب اثراً ولا للشجار غصناً
ناضراً

ألا ان للجراد عدواً شديداً وهو طير يقال له السموم فاذا ابصر
الجراد شئ عليه الغارة من كل وجه وكثيراً ما يسوقه طريداً امامه
حتى يلقيه في البحر

ومن الهوام المؤذية العقرب وهو كثير الوجود غير ان سمه
لا يقتل إلا نادراً. ومنها الحية وهي انواع مختلفة منتشرة في جميع الامكنة
ولبعضها سم نافع بالغ. والحية تؤثر السكنى في البيوت وتستر في اجسارها
مطمئنة الى ان يتعرض لها بأذى فتتفر

١٦

في انهار لبنان

قد تقدم لنا من الكلام العام ما هو واف بمقصودنا غير ان
ذلك لا ينيلنا معرفة وافية بمجموع البلاد بالاضافة الى التاريخ فرأينا
من ثم ان نضم الى ما تقدم لمحة توقفنا على اخص انهارها وتقاسيمها
الإدارية

ان المياه التي تنهمر من اللبنانيين (١) وتسقي الوديان والسهول من فينيقية وسورية المحبقة (كيليسورية) وتوزع النماء والخصب على جميع انحاء البلاد كما ان الثرايين والاوردة في الجسم توزع الحياة على سائر اعضائه هي شرط جوهري لاجل اقبال الغلال وعمران الارض خصوصاً مع ما للشمس في المشرق من الحرارة الشديدة المحرقة. وذلك اعمرى اعظم ثروة واكبر خير يستطيع ان يمنَّ به الوطن على ابنائه . اما لبنان فقد خصه الله من هذا القليل على بقية جهات الشرق

اعلم ان الخط الذي يقسم مياه آسية يقطع اللبنانيين من الشمال الى الجنوب. وللبنان الغربي منحدران احدهما الى الغرب والآخر الى الشرق وكلاهما يرسلان مياههما من الشمال والجنوب الى البحر المتوسط ما عدا جزءاً من المنحدر الجنوبي حيث يمر خط القسمة بمجبال عطير وجرمق ويدفع مياه الشرق الى داخل البلاد. اما لبنان الشرقي فيرسل المياه النابعة من منحدره الغربي الى البحر المتوسط ويدفع ما يخرج من منحدره الشرقي الى جهة الاوقيانوس الهندي . غير ان عدم استواء الارض يوقف جري المياه فتجتمع كلها الى بحرين داخليين وهما البحر الميت وبحيرات المريج شرقي غوطة دمشق

ولمّا كان احد شعراء العرب قد لقب الاردن (١) ببكر لبنان
راينا ان نقتتح الكلام من هذا النهر المقدس والمبارك خصوصاً لان
الكتاب المقدس قد اكثر من ذكره

ان اخص ينابيع الاردن من لحف جبل الشيخ . فالاردن الاعلى
مخرجه الاصيلي من قاعدة الجبل المذكور الغربية بطولها الى اصل الوادي
الذي ياخذ من هضبة الجديدة حيث يحصل انقسام المياه نحو منتصف
الجبل الشرقي . اما العيون الكثيرة التابعة في هذا الوادي من عين
فالوج الى عين عرب فيتكون عن اجتماعها الى مياه راشيا نهر عظيم في
الشتاء ولكنها تنضب في الصيف فيبقى مسيل للماء ناشفاً جافاً ولا يرى
الينبوع الاصيلي الثابت للاردن الاعلى الا على مسافة كيلومترين وربع
كيلومتر فوق قسبة حاصبيا في وادٍ عميق ضيقٍ

ويسمى هذا النهر المتكون عن العين التابعة عند حاصبيا بالخاصباني
وهو يجري في وادي التيم في مسيل ذي حجارة سوداء بركانية وينضم

(١) ان معنى الاردن النهر وهو مأخوذ من (يرد) ومعناها
بالعبرانية تزل وسال . وزعم القديس هيرونيم ان الاردن مشتق من
(يأر) اي نهر و(دن) اي دان وهو علم والحال ان اسم الاردن
معروف قبل ولادة دان وتسمية مدينة لايش باسمه (القضاة ١٨ : ٢٩)

اليه في مسافة جريه التي تبلغ نحو ٢٧ او ٣٠ كيلومتراً عدة نهيرات
وجداول ثم يصب في سهل الحولة . ويصب ايضاً في بحرة الحولة من
الهضبة القرية القائمة عليها مرجعيون نبع كبير من الاردن يسمى
دردار (١) ولم يذكر هذه العيون اي ينابيع الاردن الاعلى قبل سياح
عصرنا الا فيلستر (٢) الذي يحددها على مسافة عشرين ميلاً نحو
قمة لبنان

اما الاردن الادنى فهو معروف اكثر من الاعلى وله نبعان اصليان
ذكرهما فلاق يوسف (٣) وتابعه على ذلك جميع الاقدمين وسمى الاول
الاردن الكبير والثاني الاردن الصغير . اما الكبير فيدعى اليوم البانياسي
نسبة الى بانياس القديمة المعروفة بقيصرية فيلبس التي يجري بالقرب منها
ان هذه المياه الصافية تتدفق بلا خير في مجرى عريض من
اسفل الصخر الكلسي المقطوع عمودياً والمحفورة في جوفه مغارة بان
القديمة في اصل جبل الشيخ عينه

(١) دردار لفظ عبراني معناه الشوك . سمي هكذا لما هنالك

من الدردار الشائك الذي يكثر على جانبيه

(2) Philostorg. Supplem. ed. Vales. p. 554.

(٣) فلاق يوسف حرب اليهودية ك ١ ف ١ وك ٣ ف ١٠

وتاريخ الاثار القديمة ك ١٥ ف ١٠

واستناداً الى شهادة فلاف يوسف (١) اعتقد القدماء منذ قرون عديدة ان نبع الاردن هذا ينبجر من مكان اعلى ويسيل بين طبقات الصخور في جوف الجبل متقطراً من بحيرة فيالي الصغيرة (٢) التي تعرف اليوم ببركة الران . وهي حوض يملأ عند منحدر جبل الشيخ الشرقي على علو ١٠٤٠ متراً عن سطح البحر فوهة بركان منطفي لا يتجاوز مسافة قطره اكثر من كيلومترين . غير ان تفحص هذه البحيرة يوضح في الظاهر ان الاتصالية التي افترضها يوسف بينها وبين الاردن مستحيلة . لان بين خواص ماء النبع المذكور وماء البركة بوناً كاملاً ولان الطبقات الارضية يظهر انها تتنافى وجود مسلك في جوف الارض . والذي ينقض ذلك باجلى بيان هو ان البحيرة المذكورة لا ينصب اليها في الصيف اقل نهر او جدول فلو كانت مياه البانياسي خارجة منها لكانت نضبت في يوم واحد والحال ان سطح مائها ثابت لا يعتريه انخفاض

(١) حرب اليهودية لك ٣ ف ١٠

(٢) معنى فيالي في اليونانية كأس او قدح وهو اسم يطابق مسماه غاية المطابقة لان البحيرة لم تُدعَ بهذا الاسم الا لان هيئتها تظهر للعين من بعيد كأنها كأس في غور الوادي

اما الاردن الصغير فانما سماه الاقدمون بهذه التسمية لقصر المسافة التي يقطعها قبل ان يصب في بحيرة الحولة لا لكمية مياهها فانها تعادل سائر ينابيع الاردن كلها معاً وتجعله من اكبر ينابيع الدنيا ويعرف اليوم بنهر اللداني وتنفجر هذه المياه من ذيل تل جميل يسمى تل القاضي وهو التل الذي بنيت عليه مدينة دان (ودان عبرانية ومعناها قاضٍ وديان)

ثم ان هذه الانهر الثلاثة الحاصباني والبنياصي واللداني وكثير غيرها من الينابيع الصغيرة مع ما يجتمع في الوديان من السيول آونة الشتاء تندفع منحجرة الى البطائح الشاغلة اكبر قسم من السهل . ويتكون عن اجتماعها هنالك نهر الاردن وذلك قبل دخولها على مسافة يسيرة في بحيرة الحولة التي هي ميروم القديمة (١) او سمكونيتس (٢) اما هذه البحيرة فذات شطوط مستغدة وحدود غير منتظمة تشغل غور الوادي على طول نحو من سبعة كيلومترات في عرض خمسة ولا جرم ان ما يترتب من الفوائد على الكلام في منابع هذا النهر

(١) يوسف (ك ١١ ف ٥) ومعنى ميروم العالي او المياه

العالية (٢) يوسف حرب اليهودية ك ٣ ف ١٠ ولعلها تسمت

هكذا من مدينة سمكون القريبة منها وهي المعروفة اليوم بمدينة سمك

المبارك الملقب بـبكر لبنان يشفع لنا عند ارباب المطالعة بما نتحرى من الاسهاب في شأنه

ان الاردن المتكون على الضفة التي تقدم ذكرها يمر في بحيرة الحولة ويخرج منها عند الفوهة الجنوبية وتكون مياهه في معظم السنة صفراء على مثال نهر التبر برومة . ويسيل من هنالك بهدوء مسافة اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر تقريباً بين آجام من القصب . وعند جسر بنات يعقوب (١) يندفع مزيداً في مسيل كثير التحدر مغشئاً بالخصباء البركانية الى سهل البطيخة على الشمال الشرقي من بحيرة طبرية فيقطعها ويذهب في خلال سهل اليهودية الى ان يصب في البحر الميت بعد ان يجري مسافة ١٢٠ كيلومتراً

ان نهر قيشون الذي تجتمع اليه مياه الجليل عند انقسامها بين البحر الميت والبحر المتوسط يمر في خلال مرج ابن عامر ويدفعنا من شواطئ الاردن الى الكلام في بقية انهار لبنان . وهو الخلد الذي يتوقف تاريخنا عنده في الجانب الجنوبي من الجبل

(١) لعل هذا الجسر سمي هكذا لتوهم البعض ان يعقوب عبر النهر من المكان المذكور . غير ان الخاضة التي جازها يعقوب (التكوين ف ٣٢ ع ٢٢) يظهر جلياً انها كانت تحت بحيرة طبرية

ان الكتاب المقدس قد اتى على ذكر هذا النهر خمس مرّات
غير انه لا يتكلم عن مجراه سواء كان ذلك في معرض انتصار
دابورة (١) او في صدّد ذبيحة ايليا (٢) إلّا حال بعده عن البحر
في وادي الجليل او مرج ابن عامر حيث يكون جافاً في اكثر ايام
السنة . وانما يتكون هذا النهر في سفح جبل طابور وجبل الجلبوع
وحرمون الاصغر . ثم تجتمع اليه مياه الناصرة فيتصل الى سهل
عكا من الوادي الضيق المطيف بجبل الكرمل الشمالي على طوله .
اما منبعه الثابت فلا ينبجس إلّا بعد خروجه من الوادي المشار اليه
على مسافة اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر من حيفا . وذلك المنبع
يعرف اليوم بالسعدية اما طعمه فالى اللوحة واما ارتفاعه عن سطح
البحر فقليل غير انه غزير جداً بحيث يشق بمفرده مجرى من الماء متسعاً
عميقاً . ثم ينساب من هنالك بهدوء في خلال المرج الى ان يصب في
البحر ويلقب هناك بالمقطع . واذا سرنا من هذا المكان غير ملتفتين الى
جداول المياه التي لا يتعلّق عليها اهمية تاريخية صادفنا على شواطئ البحر
المتوسط هذه الانهر الآتي ذكرها

(١) القضاة ف ٤ ع ٧ و ١٣ مزموذ ٨٢ ع ١٠

(٢) الملوك الثالث ف ١٨ ع ٤٠

نهر النعمان = هو بياوس القديم او باجيذا (١) الذي جعله بطليموس حداً جنوبياً لفينيقيّة . اعلم ان هذا النهر المشهور عند الاقدمين برمله الصالح لاصطناع الزجاج يخرج من نبع واحد ينفجر من تحت تل الكرداني وهذا النبع يشبه النهر نفسه غزارة عند مصبه وتتكون عنه قريباً من مخرجه بحيرة صناعية يبلغ محيطها نحو اربعة كياومترات . وقد تكونت تلك البحيرة في قديم الزمان بواسطة سد متين بُني في اسفل الوادي ولا شك ان هذه البحيرة هي بحيرة كنداقيّة (Palus Condevia) التي تكلم عنها بلين (٢) اما مياه النهر فتتلون عند السد المذكور ماون ضارب الى السواد وتكون في غاية الاضرار بالصحة . ثم تسيل ببطء نحو الغرب وتنضم اليها مياه وادي شعب وعبلين (وهو وادي يفتاحل القديم) ويتكون عنها غدران كثيرة بسبب قلة تحدر مجراها وتصب في البحر على مسافة قليلة جنوبي عكاء بعد مسير نحو تسعة كياومترات لا غير

نهر القاسمية = يُعد هذا النهر من اكبر انهار سورية ولم يسم بهذا الاسم عند مصبه الا من عهد قريب وسببه انه كان على ايام

(١) بلين ٥ - ١٧

(٢) بلين ٥ - ١٧ و ٣٦ - ٦٥

بعض الباشوات فاصلاً بين باشوية عكاء وباشوية صيداء اما في القديم فكان اليونان والرومان يسمونه لاونتس وينبغي ان تكون هذه التسمية نفس تسميته السامية حرفها اليونان على منحاهم من لفظة ليطا اوليطاني (١) علي ما يسميه السكان الى اليوم في كامل مسيره خلال سهول البقاع وشعاب لبنان الجنوبي . اما نبع الليطاني فمخرجه من المنحدر الشرقي للبنان من نبع العليق في شمالي البقاع وبناءً عليه كان ما زعمه البعض من ان نبعه متجس من بعلبك غير صواب . وذلك لان النبع المسمى بعين الشمس الذي ينبفج من فوق المدينة المذكورة على مسافة قليلة لا يستعمل الا لاسقي اراضيها فتذهب مياهه جميعاً فيما جاوره من الحقول ولا يصل منها شيء الى الليطاني

ان الليطاني متى تزل من شعاب لبنان الى سهول البقاع اجتمعت اليه عامة مياه هذا الوادي الكبير من حد قرية دير الاحمر التي يصير

(١) هي كلمة سريانية معناها الملعون والممنوع والحرام او المقدس فمعناها على ذلك كمعنى حرمون على ما سيجي ولعل السكان فضلوا المعنى الاخير كما قالوا في نهر قديشا (المقدس) وقد ذكره القديس ثاوفان وسماه ليطا وقسره بالشرير او الردي (في تاريخه السنة ٦٢٣٥ للعالم)

بالقرب منها انقسام المياه بين النهر المذكور ونهر العاصي . وذلك انه ينصب اليه عشرة نهور اعظمها من جهة الغرب نهر البرذونة الذي يخرج من لحف جبل صنين ومن جهة الشرق نهر الغزير الذي يتكون من عدة ينابيع منبعثة من الجبل الشرقي خصوصاً من نبع عين الحجر . فاذا اجتمعت اليه هذه الانهار سار ليفتح في آخر السهل مخرجاً وعراً بين مضائق الجبال العميقة التي تسد هذا الوادي من جهة الجنوب فيغور تحت صخور الكوة المتكون عنها جسر طبيعي يأخذ بالابصار . وفي مدة اندفاعه في هذا المسيل المتحدّر يتقرب بتعاريجه من الاردن الاعلى على مسافة اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر فقط . وبعد ذلك يتجه الى الغرب اتجاهاً مستقيماً ويصب في البحر المتوسط بين صور وصيدا بعد مسير ثمانية عشر كيلومتراً تقريباً

نهر الأولى = قال احد شعراء الاقدمين (١) « صيداء الزاهرة قائمة بالقرب من النهر البصري (٢) البهيج » اما البصري هذا فهو المعروف اليوم في ساحل البحر بنهر الأولى (اي نهر المدينة الاولى)

(1) Dionysius Perieg. Descr. orb. v. 912.

(٢) Bostrenus نسبة الى بصري ولعل معنى بصري كبصره في

وسمي بهذا الاسم الاخير من بعد ان صارت صيداء قاعدة للبنان الجنوبي عموماً اي لايالة صيداء في اوائل القرن السادس عشر . وكان العرب يسمونه قديماً نهر الفراديس إماً لسبب ما حول هذه المدينة من البساتين الشهيرة التي تستقي بمائه وإماً لان منبعه من وادٍ يُقال انه وادي الفراديس (١) . والوادي المشار اليه هو فوق قصبة دير القمر وفيه يتكوّن النهر من ثلاثة ينابيع كبيرة تندفع من ثم في خلال جبال الدروز باسم نهر الباروك (اي المبارك) . وعند سهل بسري ينضم اليه النهر الجزيني ذو الشلالات المشهورة آتياً من قصبة جزين ونواحيها ويسير الى البحر ماراً ما بين الجبال في مضائق عميقة . ومتى افضى الى الساحل تُوزّع مياهه باقنية عديدة على البساتين المتزينة بها ضواحي المدينة . غير انه لا يكون غزيراً الا في فصل الشتاء ومسافة سيره نحو من ٥٣ كيلومتراً

نهر الدامور = وهو المعروف عند الاقدمين بنهر داموراس او تاميراس . هذا النهر يجتمع في جهات دير القمر من اربعة نهيرات وهي نهيرات الغابون والصفاء والقاعة وعين دارة فتلتقي هذه الانهر جميعها عند جسر القاضي وتندفع بسرعة مائلة الى الجنوب وتصب في بحر

الروم بالقرب من معلقة الدامور على مسافة متساوية ما بين صيدا وبيروت. اما مسافة سيره فنحو من اثنين وثلاثين كيلومتراً

نهر بيروت = والظاهر انه هو الذي سمّاه بلين نهر ماغوراس (١) ان هذا النهر ينبع من تحت دير القلعة ثم يتصل من وادي ضيق الى سهل بيروت الذي يسقيه بواسطة الاقنية المتعددة وينصب في البحر قريباً من خليج مار جرجس الذي هو على مسافة نحو من كيلومترين وربع كيلومتر شرقي بيروت بعد قطع نحو من عشرين كيلومتراً

نهر الكلب = وهو ليكس القديم. ان منبع هذا النهر الذي لا تنقطع مياهه عن الانصباب في البحر مدة الصيف كله يخرج على مسافة تسعة كيلومترات من بطن الجبال المتكون بينها مضيق النهر المذكور. فهو يتجسّس غزيراً من مغارة تدعى مغارة جعيتا ذات ثلاثة منافذ وهذه المغارة مشهورة بمساحتها المتسعة وغورها المبهج ومتجمداتها المائية في سقوفها وارضها. اما في الشتاء فتتحدّر اليه السيول المتصبية من اعالي كسروان مع نبع العسل ونبع اللبن ونبع

(١) بلين ٥ - ١٧. قد اتفق جمهور العلماء على ان بلين خصص

نهر بيروت باسم ماغوراس. وان كان ظاهر عبارته الاشارة الى نهر غدير الذي هو على جنوبي هذه المدينة

الصليب ولكنها مع ذلك لا تجعله نهراً كبيراً من الشهور المعدودة
نهر ابراهيم = وهو الذي لقبه القدماء بنهر ادونيس (١) . يخرج

(١) ان مودرل (Mawdrel) السائح البروتستاني عند مروره بنهر
ابراهيم سنة ١٦٩٧ توهم انه سمي بنهر ابراهيم نسبة الى واحد من
الباشوات اسمه ابراهيم جدّ بناء جسر . مع ان اسم ابراهيم المعطى
لهذا النهر هو اقدم من ذلك العهد لان المؤرخين المعاصرين الذين
كتبوا تاريخ الزخفة الصليبية الاولى يسمون هذا النهر بنهر برائيم (Braim)
وعليه قد اعطي هذا الاسم منذ افتتاح العرب الاول للبلاد ولعلمهم
كرهوا اسم ادونيس الوثني وبدّلوه باسم ابراهيم تبرُّكاً

نعم ان المسيو رنان (Mission de Phénicie II. 3.) توهم
وجود علاقة بين ابراهيم وايل اله جبيل ولكن اي مسلم او مسيحي او
يهودي في القرن السابع خلط ابراهيم مع اله بل اله كنعاني ؟ فهذا لا
يكاد يمرّ بخاطر احد الا بخاطر رنان الذي ادّعا

وقيل ان هذا النهر منسوب الى ملك لبناني اسمه ابراهيم وسنبحث
في محله في ما اذا كان في ذلك العهد ملوك للنصارى في لبنان

(للمترجم) ان المشهور الان عند اللبنانيين هو ان نهر ابراهيم منسوب
الى الامير ابراهيم ابن اخت القديس يوحنا مارون سابع امراء المردة

هذا النهر متدفقاً كالسيل من مغارة افقا العميقة . والمظنون عند الاهالي ان نبع هذه المغارة العظيم آتٍ من بحرة اليمونة (اي اليم الصغير) التي ترتفع عن النهر مسافة ١٣ كيلومتراً على معدل طيران الطائر . وهذه البحرة العجيبة هي في لطف المكمل وهي مكتنفة من كل جهاتها بالجبال العالية وليس لها من منفذ ألا هاوية تنفتح في اسفل قرارها . اما سطح مائها فيختلف قياسه بحسب الفصول . فانها في الربيع تمتلئ امتلاءً رويدياً بواسطة فيضان النبع الكبير المسمى بعين الاربعين شهيداً والذي ينبجس سريعاً كأنه سيل شديد من بئر هناك عميقة في يوم عيد الاربعين شهيداً الواقع في ٩ اذار (١) . وحينئذ تملأ المياه اسفل الوادي

(١) ان هذا الفيضان المنتظم الفجائي لهذا النبع الذي تدور عليه في الحال ارحية كثيرة قد ادهش بصائر سكان تلك الجبال لانهم رأوا فيه امرأً معجباً . وانما سموه بنبع الاربعين شهيداً لانه يستأنف الجري عادة كل سنة في صباح عيد الشهداء المذكورين ولو كان يتأخر في بعض السنين عن هذا الميعاد بعض ايام . ولاشك ان هذا المظهر الغريب المتسبب طبيعياً عن ذوبان الثلوج لم يظهر عجيباً في عيون الشعب فقط بل ظهر كذلك لكوارسم ايضاً (Elucid. T. S. lib. VII. c. 5.) فجعل الانفجار السنوي المذكور على مسافة ٢٦ كيلومتراً واكثر تحت

فتكون بحيرة ذات شكل بيضي لطيف عرضها نحو من خمسمائة متر في طول الف متر تقريباً . ولكن بعد اربعة شهور عند اوائل تموز تنضب العين المذكورة وتفرغ تلك البحيرة بعد ذلك الزمن بقليل . اما سواقي هذا الوادي العجيب فلا تزال تندفع اليها اندفاعها الى مصب لا قرار له . واما نبع افقا فانه يعتره بانتظام ما يعترى تلك البحيرة من التقلبات وذلك ما يسوقنا الى موافقة اللبنانيين بلا تردد على القول بوجود اتصالية بينهما في جوف الارض . هذا وان نهر ابراهيم الخارج من مغارة افقا على الوصف المتقدم يندفع منها مزبداً في مجرى صخري عميق ضيق مكثف بالجبال العالية . ومن ثم فلا تأتي مياهه بفائدة للزراعة الا عند بلوغه الى سهيل مدينة جبيل حيث يسير بهدوء ويسقيه بتعاريجه المتعددة ما بين القصب والدفل و صفوف من الاشجار ملتفة تجعل على ضفتيه

هيكل كنيسة القديس عبدا باهدن في اول يوم من شهر ايار وذلك مما لم يحدث مطلقاً . غير ان الامر الصادق في خبره هو ان الموارنة تأثروا تأثراً كلياً في سنة قبولهم الحساب الغريغوري من فيضان النبع في عين اليوم الموافق لعيد الاربعين شهيداً بمقتضى الحساب الجديد مع انه كان يتأخر في السنين السالفة نحو عشرة ايام بمقتضى الحساب القديم

غاباتٍ من الخضرة ناضرة بهيجة . ثم ينصبّ في البحر على مسافة تسعة كيلومترات تقريباً جنوبي المدينة المذكورة وذلك بعد مسير نحو من عشرين كيلومتراً . وعندما يفيض فيضاً كبيراً ترتفع مياهه الى اراضٍ حمراء وتنصبّ اليه سواقي متعكرة تصبغ مياهه بلون دموي

نهر قديشا (اي المقدس) = منبعه الاعلى في لحف ارز لبنان المشهور وهو يجري في وادٍ ضيق يُقال له وادي قديشا نسبةً اليه وهناك تنصبّ اليه انهار غزيرة آتية من اعالي (جرود) لبنان

وبعد ذلك تتوزع مياهه باقية كثيرة في سهل مدينة طرابلس لاجل سقي الارض والمزروعات . ومتى اجتاز هذه الجبال تعرّى من لقيه الجميل (اي المقدس) ومرّ في طرابلس مكثى بنهر أبي علي ولعل تغيير هذا الاسم كان بامر احد امراء العرب . وهناك ينصبّ في البحر بعد قطع مسافة نحو من ثلاثة وعشرين كيلومتراً

النهر البارد = يجري هذا النهر مع نهر عرقا ونهر عكار من جبال عكار التي هي آخر أسناد لبنان ويجتاز السهل المنسوب الى عكار فاصلاً بينه وبين الجونة ثم يصبّ في البحر على مسافة ١٣ كيلومتراً تقريباً شمالي طرابلس . والظاهر من عبارة استرابون (١)

ان هذا النهر هو الذي سماه الاقدمون بنهر الوطار (Eleuthérus)
 (١) غير انه يوجد نصوص يؤخذ منها نسبة هذا الاسم الى النهر التابع
 النهر الكبير = يخرج هذا النهر من اواخر رُبى لبنان واوائل
 اودية جبال النصيرية ويجري في مضيق عميق فاصل بين هذين الجبلين
 ويجتاز سهلاً منبسطاً محفوفاً على جانبيه بخط متسع من الخضرة
 والدفلى وتسري فيه عامة السنة كمية كبيرة من المياه تجعله من الانهار
 الكبيرة في سورية ثم يصب في البحر على مسافة ٩ كيلومترات تقريباً
 جنوبي طرطوس (انطرطوس) . وكان على قول بطليم تَحْماً بين
 سلوقية وفينيقية الشمالية

ويوجد ايضاً نهر آخر يُسمى « النهر الكبير » يصب في البحر على
 مسافة ٤٤ كيلومتراً ونصف كيلومتر فوق ذلك قريباً من اللاذقية .
 قال بلين « ان مياهه تكثر فيها السلاحف جداً » (٢)

(١) ولعل الوطار مشتقة من اللفظ الفينيقي « العطر » ومعناه
 متاخم ومحيط ومحامٍ خلافاً لما قيل من انها مشتقة من اسم الاله
 « الوطارس او الفطارس بحسب اللفظ اليوناني » ومعناه الحر وهو الاله
 بكس وملاحوا اليونان يسمونه الى اليوم « الفلاتس » وهو تصحيف
 « الفطارس » (٢) بلين ك ٩ ف ١٢

نهر الارنط = يسميه العرب اليوم نهر العاصي . وسماه اليونان
نهر اكسيوس باسم احد انهارهم في مقدونية فلا يبعد ان يكون العاصي
تحريفًا لهذا الاسم (١)

وقد جعل بلين (٢) منابع العاصي في ما حوالي مدينة هليوبول
(بعلبك) وذلك لان انقسام المياه الحقيقي بين نهر العاصي المذكور
و (بين) نهر الليطاني انما يحصل في اعالي الجبل الشرقي فوق المدينة
المشار اليها وعند لحف لبنان الغربي قبالتها . غير ان اكبر منابع العاصي
الثابتة يخرج من اللبوة في وادي بعلبك وخصوصاً في لحف جبل الهرمل
من مغارة الراهب عند مدخل سهل حمص

(١) قال ابو الفداء ان نهر حماه يُسمى المقلوب لجريه من الجنوب
الى الشمال ويُسمى العاصي لان غالب الانهر تسقي الاراضي بغير
دواليب ولا نواعير بل بانفسها تركب البلاد ونهر حماه لا يسقي الا
بنواعير تنزع منه الماء (تقويم البلدان في الكلام عن الانهار) . غير
ان اصل الاسم يوناني . وذلك لان المقدونيين الاولين لما سموا حماة
ببلا (Pella) اسم وطنهم سمو هذا النهر ايضاً باسم اكسيوس الذي
يسقي اراضي بلادهم (بطليم ٣٠ وتيت ليف ٤٤)

(٢) بلين ك ه ف ١٨

ان النهر المتكون عن هذه الينابيع الكبيرة يسير جهة الشمال ويصبّ على نحو تسعة كيلومترات من حمص في بحيرة بيهية صنعها المتقدمون في القرون السالفة بان جعلوا لها سدوداً مرتفعة ليتمكنوا من سقي الاراضي . وكانوا يسمونها في القديم قدس (١) واما اليوم فيسمونها بحيرة حمص . اما مياه هذه البحيرة المكثفة بالتلال الصخرية المجدة ذات الهياث المختلفة فعرضها الف وستمئة متر في طول اربعة الاف وثمانائة متر . ومنها يخرج نهر العاصي غزيراً صافياً ويسير في مجرى عميق على مسافة كيلومترين وربع كيلومتر غربي حمص ويقطع حماة ثم يدخل في وادٍ طويل ضيق ينتسب اليه ومنه يتصل الى سهل انطاكية ويمرّ على سور المدينة محيطاً بقواعد الجبل الاقرع (كاسيوس) ويصبّ في البحر بعد قطع مسافة نحو من ٢٦٧ كيلومتراً

نهر بردى = (اي البارد) وهو الذي سماه الكتاب المقدس

(١) قد سماها ابو الفداء في جغرافيته قدس ايضاً وبمثل ذلك سماها زكرياء القزويني (في كتابه عجائب الخلق) ومعنى قدس المقدس وذلك يدل على ان الاقدمين كانوا يعدّون البحيرة مقدسة او النهر مقدساً . وفي الآثار المصرية ما يدل على قدامه هذا الاسم

بنهر ابانة (١) والذي سماه اليونان كريسراس (مجرى الذهب)
تخرج ينابيع هذا النهر من أحد الاسطحة الكثيرة الارتفاع شمالي الجبل
الشرقي على علو اربعائة متر من مساواة ارض دمشق في لحف الصخور
العالية التي تحدّد من جهة الشرق سهل الزبداني

اما نبعه هذا الموصوف بالبرودة فيخرج فوّاراً من ارض مرمة
ويتكوّن عنه لدى انصبابه بحيرة محيطها نحو من كيلومتر ومنها تخرج المياه
بعزم شديد وتندفع في واد عميق يسير في جهة الجنوب . وينصب إليه
في وسط منحدر الجبل نهر غزير يبعد مسافة ستائة متر فقط عن منبعه
من صخر عين الفيجة

ان نبع عين الفيجة الذي يندفع بشدة من الصخر المشار اليه هو
من الينابيع المشهورة في المشرق . ثم ينساب هذا النهر في واد ضيق حتى

(١) الملوك الرابع ف ٥ ع ١٨ . لما كان بردى اهم نهري دمشق
قدّم بالذكر في الكتاب المقدس ومن حيث انه يسقي المدينة بفردّه فهو
اهم النهرين وبالنتيجة يجب القول انه هو المراد به ابانة (وفي العبرانية
ابنا اي مياه الصخر) . وهم يقرأونها انة التي كانت اسماً لاحدى جهات
لبنان (نشيد ف ٤ ع ٨) والحال ان المياه لا يمكن ان تصل من هذه
الجهة الى دمشق

يتصل الى سهل دمشق حيث ينقسم الى شعب سبع ويتوزع في اقنية متعددة تجعل دمشق وارضها غوطة بديعة معجبة ثم يسير من تلك الغوطة وينتهي على مسافة ٣٦ كيلومتراً الى تخوم البادية في البطائح المسماة ببخيرة المرج . وتسمى هذه البحيرة ايضاً بالبحيرة القبلية تميزاً لها من غدر أخرى تسمى بالبحيرة الشرقية تبعد عن الاولى مسافة قليلة في الجهة الشمالية الشرقية وهي التي تنصب اليها مياه الجبال الشمالية الدمشقية

النهر الاعوج = ويفهم به بعضهم نهر فرفر المذكور في الكتاب المقدس (١) يجري هذا النهر في جنوبي دمشق من وديان جبل الشيخ واخص ينابيعه ثلاثة : الجنائي وهو فيض تارة وينقطع اخرى على مثال عين الجر . والثاني العربي والثالث الصيراني وعند ما تلتقي هذه النهور الثلاثة تسمى بالنهر الاعوج وتدخل في سهل دمشق بتعاريج كثيرة ويتصل احد اقنيتها الى حد المدينة

(١) ان النهر الاعوج يجري في وادٍ يسمى الى اليوم وادي بربر الذي يذكرنا بلفظ فرفر الوارد في التوراة . والراجح عندي ان ابانة وفرفر اللذين ذكرهما النعمان ما كانا الا شعبتين كبيرتين او وحيدين لنهر بردى في دمشق

غير ان اكثر مياهه تغيب عند الشرق كنهر بردى في مستنقع
يُدعى بحيرة الهيجانة التي تنصب فيها ايضاً مياه حوران
ان البحيرات الثلاث الكبيرة التي اتينا على ذكرها هي اشبه شيء
عند تخوم بادية تدمر بالبحر الميت
فان هذه البحيرات ولو كانت اقل منه اتساعاً وملوحة غير انها
لا تختلف عنه في احوالها وبيئاتها . وذلك لان مياهها في الصيف
تتناقص كثيراً بسبب التجزأ اما امطار الشتاء فتزيد لها اتساعاً وتجعل
محيطها نحواً من ٥٦ كيلومتراً

١٧

اقسام لبنان

بقي علينا اخيراً ان نذكر بايجاز اقسام لبنان ومقاطعاته الادارية
ان اقسام الجبل المبنية على طبيعة اماكنه وعلاقات الاهالي
بعضهم مع بعض منذ القديم هي راسخة في عوائدهم اصيلة فيهم لانهم
يحبون كبقية اهل الشرق المحافظة على العوائد القديمة وبقاء اسماء البلاد
على ما سماها به اجدادهم . ومن المحتمل ان تكون اقسام الجبل
التي اعتراها على كرور الايام شيء من الثقل والتغير قديمة العهد جداً
في معظمها . فان الاشوريين واليونان والرومان بدلوا هيئة تقسيم
ووضعوا اسماء جديدة لكل قسم وواجبوا مراعاتها . ولكن لما انقرض

سلطانهم عاد اللبنانيون فتمسكوا بأشد من قبل بالاقسام التي قسموها
والاسماء التي وضعوها. ولما افتتح العرب البلاد زادوهم تمسكاً بها لانهم لم
يتعرضوا مطلقاً للتقاسيم الجغرافية في كل بلاد افنتحوها بل كانوا يجرون
على عادة اهلها خلافاً لبقية الامم المفتحة

وعلى ذلك فان تقسيم مقاطعات لبنان التابع ولو كان لا ينطبق
كله على تقسيم الادارة السياسية الحاضرة هو ذو اهمية عمومية

- ١ جزيرة ارواد وهي مقاطعة بمفردها
- ٢ سهل طرطوس يمتد من جبال النصيرية وتحوم مقاطعة اللاذقية
الى النهر الكبير . قصبته طرطوس وصافيتا
- ٣ قضاء حصن الاكراد يشتمل على قسم من الجبل وقسم من
السهل اللذين هما على شمالي لبنان الى عكار
- ٤ سنجق حماة يتناول جبل الكلبية وقسمًا كبيراً من وادي

العاصي
٥ بلد عكار يعم الجبل والجونة الممتدين من النهر الكبير الى

النهر البارد

- ٦ الزاوية من ضفة النهر البارد الى نهر قديشا
- ٧ الضنية تضم الجبال الموجودة في شرقي المقاطعة المتقدمة
- ٨ طرابلس وارضها

٩ الكورة وهي من نهر قديشا الى نهر العصفور واكبر قراها في قسميها اميون ونحلة

١٠ جبة بشرّي (١) تشتل على اعالي لبنان في سفح المكمل واخص قراها بشرّي واهدن . وفيها دير قنوين وعدد كثير من الديارات

١١ القويطع يمتد من نهر العصفور الى نهر الجوز

١٢ بلاد البترون من عدوة نهر الجوز الى نهر المدفون

١٣ بلاد جبيل من نهر المدفون الى نهر الفيदार

١٤ بلاد المنيطرة (اي الحافظة) تشتل من الساحل الى الجبل

على الارض الموجودة بين نهر الفيदार ونهر ابرهيم

١٥ الفتوح وهي من نهر ابرهيم الى المعاملتين

١٦ كسروان (٢) وكانت في القديم من نهر ابرهيم الى نهر

(١) الجبة والقاطع بمعنى من جبة اذا قطعه . ولكن الاوفق ان

تكون مأخوذة عن الفينيقي من لفظ « جبه » اي ارتفع ومعنى « جب » المكان المرتفع

(٢) قيل ان كسروان نسبة الى رجل يدعى كسرى اقطعه

الامراء هذه الجهة لحسن بلائه في عدة مواقع . وكانت تسمى قبل

الجعماني وراء بيروت اما اليوم فمن نهر المعاملتين الى نهر الكلب وما بينهما من الجبال . وقصبتها غزير

١٧ القاطع (اي المقطوع عن كسروان) يمتد من نهر الكلب الى نهر انطلياس (وربما كانت منحوتة من انطون والياس) وقصبتها بكفيا

١٨ الماتن من نهر انطلياس الى نهر بيروت وام قراه المتين

١٩ ساحل بيروت وهو من نهر بيروت الى نهر غدير

٢٠ الغرب ينقسم الى قسمين وهو يشتمل على ما بين نهر غدير ونهر

الغابون ومن امهات قراه الشويفات وعيتات

٢١ الشحار من جسر القاضي الى الدامور قصبتها عبيه

٢٢ الجرد من نهر الغابون الى نهر الصفا وهو قسمان : الجنوبي

واكبر قراه رشيا والشمالي وقصبتها بتاتر

ذلك (عاصية) نظراً الى وعورة جبالها وشجاعة سكانها

(حاشية للمترجم) ان كسرى الذي نسبت اليه كسروان

على ما ورد في التواريخ اللبنانية هو ثاني امراء المردة وكانت تسمى قبله

الداخلة ومن ذلك جسر الداخلة عند المعاملتين الذي على ما قيل بناه

سليمان بن عراب وهو الذي بنى حصن معراب شرقي غزير

٢٣ المناصف (اي المنصفة) تمتد من جسر القاضي الى وادي بيت الدين وقصبتها دير القمر

٢٤ العرقوب (اي العقبة) وهي من شرقي المناصف الى قمة جبل الباروك

٢٥ الشوف من نهر بتدين الى قمة الجبل واكبر قراه المختارة وبعقلين

٢٦ اقليم الخروب من الدامور الى نهر الاولى واكبر قراه شحيم

٢٧ اقليم جزين يمتد من الشوف الى جبال جزين وقصبتها جزين

٢٨ شوف البيادر يشتمل على المنحدر الشرقي من لبنان وقصبتها زحلة

٢٩ اقليم التفاح يتناول ضواحي صيدا من فوق الساحل

٣٠ صيدا وساحلها

٣١ جبل الريحان يعمّ منحدرَي هذا الجبل المسمى بالاسم

المذكور

٣٢ شومار يبتدئ من نهر الزهراني حتى يتصل الى القاسمية واكبر

قراه البابلية

٣٣ صور وساحلها

٣٤ عكا وساحلها

٣٥ بلاد الشقيف تبتدئ من جبل الريحان وتنتهي عند نهر الليطاني واكبر قراها النبطية

٣٦ بلاد بشارة تمتد فوق صور من نهر الليطاني الى الجليل الاسفل ويدخل فيها ايضاً جليل الامم المذكور في الكتاب المقدس . وكان الجميز عند علماء التلمود (١) دليلاً فارقاً بين الجليلين لانه لا ينبت في الجليل الاعلى . ومن امهاتها تبنين وبنت جبيل

٣٧ بلاد صفد تشمل الجبال التي فوق بحيرة طبرية

٣٨ مرج عيون تحتوي على سطح جبلي قائم بين الليطاني والاردن الاعلى . واكبر قراها الجديدة

٣٩ الحولة تتضمن وادي الحولة والقرى التي بجوارها . واكبر امهاتها بانياس

٤٠ وادي التيم ينبسط على طول وادي الاردن الاعلى برمته اي على طول قاعدة جبل الشيخ الغربية واكبر قراه حاصبيا وراشيا

٤١ البقاع وام قراها المعلقة

٤٢ سنجق بعلبك يمتد من البقاع الى سهل حمص

٤٣ سنجق حمص يحتوي على جميع السهل المذكور من البادية الى

اللبتانيين

٤٤ جبل قلمون عند شمالي الجبل الشرقي واكبر قراه الزيداني
٤٥ وادي بردى يتضمن الوادي الذي يسقيه نهر بردى في مجراه
الاعلى وساثر الوديان التي تجاوره

٤٦ دمشق وما يليها

٤٧ مرج النروطة والمفهوم به السهل الممتد شرقي دمشق
٤٨ وادي العجم والمراد به السهل المنبسط على جنوبي المدينة
المذكورة

٤٩ اقليم البلان يراد به السفح الشرقي من جبل الشيخ
٥٠ الجيدور (ايطورية) ويكن ان نعتبره خاتمة للجبل الشرقي
واراضي دمشق

وراء ذلك نواح شهيرة قديماً وهي الجولان (جلعاد) واللحاجه
(تراكونيتس) وهوران والبثنية (باسان) على انها ولو كانت مما
يشرف عليه جبل الشيخ نعدل عن البحث فيها آسفين لانها خارجة عن
خطة تاريخنا

سكان لبنان

ثم ان سكان هذه المقاطعات كما يؤخذ عن اوثق المصادر واجلها يبلغ على التقريب ٩٥٨٠٠٠ لا غير . ولا تكاد توجد نسبة بين سكانها في القديم وسكانها اليوم لانهم كانوا اوفر من الحال الحاضرة بكثير ولم تظفر جهة في العالم السالف بما فازت به هذه النواحي من الشهرة في العمران والنماء

انتهت المقدمة



تقسيم المدات



اذا نظرت نظرة خفيفة في سلسلة الاعصار التي تصرمت على لبنان امكنك ان تلاحظ فيها سبع مدات متميزة تلازم كل واحدة منها مع ما يجري من اختلاف الحوادث هيئة خاصة مفردة لها عما سواها فيتحصل من ذلك قسمة طبيعية لتاريخ الجبل

المدة الاولى: يُراد بها العصور التي نشأت وتنظمت فيها طوائف لبنان المختلفة . ولا غرو ان هذه العصور المتقدمة قد خلّفت لنا آثاراً نفيسة ولكنها ولو كانت في اكثر الاوقات مبرقة يواقع الابهام والحرقاة لا يستحيل على الحبير ان يكشف اسرارها ويمزق الريب عن خفيها

وقد سمينا هذا الزمن بالمدة الاولى التي تتصل الى منتصف القرن

الثالث عشر قبل المسيح (١٢٥٢)

المدة الثانية : يفهم بها ابهج الازمنة التي مضت على شعوب لبنان . لان اتحاد اهليه ومستعمراتهم الكبيرة وتجارتهم واستقلالهم وهمتهم ونشاطهم كل ذلك قد رقي بهم اوج العمران والسعادة . وهذه

المدة سمينها المدة الوطنية والاستقلالية دامت من سنة ١٢٥٢ الى سنة ٧٤٠ قبل المسيح

المدة الثالثة : نعني بها الازمنت التي طمحت فيها ابصار الفاتحين الى الاستيلاء على لبنان وهذه المدة دعوناها المدة الاجنبية او مدة الاسترقاق بتبدئ من سنة ٧٤٠ الى اوائل التاريخ المسيحي

المدة الرابعة : تحتوي على جهاد النصرانية وظفرها وانضمام فينيقية وسورية تحت لوائها مع ما جرى من التقلبات السياسية المهمة على رغم معارضات الوثنيين وشدة الملوك الجائرين وارباب البدع . وهذه هي المدة النصرانية التي تنتهي عند افتتاح العرب سنة ٦٣٢

المدة الخامسة : استيلاء الدولة العربية التي نشأت في اوائلها منشأً مجيداً ولكنها ما لبثت ان سارت بسرعة الى الخراب والدمار وهذه المدة تسمى المدة العربية بدايتها سنة ٦٣٢ ونهايتها سنة ١٠٩٩

المدة السادسة : استيلاء الفرنج على لبنان وقبر المسيح سمينها بالمدة الافرنجية او الصليبية التي استمر تأثيرها في لبنان امدًا طويلاً من بعد رحيل الفرنج وبدؤها سنة ١٠٩٩ ونهايتها افتتاح العثمانيين ١٥١٦

المدة السابعة : بتبدئ من تولي العثمانيين على لبنان منذ سنة ١٥١٦ الى الايام الحاضرة. وهذه المدة نلقبها بالمدة العثمانية

الكتاب الاول

المدة الاولى

من خلق الدنيا الى سنة ١٢٥٢ قبل المسيح

ان الاعصار التي تنطوي عليها هذه المدة مغشاة بظلمات كثيفة ترد طرف البصيرة عن استكناه حقيقة نشأة الشعوب في لبنان . ومن باب التوسع شرعنا فيها من مبادئ التاريخ واولى حضارة الفينيقيين . وتمتد منهم وختمناها بسقوط صيداء في القرن الثالث عشر قبل المسيح . غير ان جل ما فيها من الحوادث متشابه لا يحصل منه فائدة الا الوقوف على ترتب هيئة اولى اجتماعية

الفصل الاول

في

اسماء لبنان

ليس للمؤرخ طريقة وثيقة لاجل احياء الامم السالفة افضل من البحث عن اسمائهم القديمة واسماء مساكنهم لان الاسماء في اكثر الاوقات

ينبعث عنها نور متقد تشرق لك من ورائه اسرة الممالك المنطمسة
 ان الاسماء المشار اليها رددتها اصداء لبنان دهرًا طويلًا بمجد
 ومحبة غير انها انقطعت عن ترجيع اكثرها منذ ازمان مديدة حتى
 صارت نسيًا منسيًا واصبحت قبل القرن الحاضر مهجورة ومزدرة عند
 اهل العلم في اوربا وذلك لانهم لما كان من دأبهم ان لا يبحثوا عن
 تاريخ الحضارة الا في ايطاليا واغريقيا (اليونانية) احتقروا ما سواهما
 من جهات الارض وكان اهل التاريخ منهم يقصرون كلامهم على مباحث
 محصورة ولا يكادون يذكرون الاسماء الشرقية التي للفينيقيين والكنعانيين
 والاراميين الا استطرادًا متى جاء ذكرها في عرض حوادث التاريخ
 المقدس او تاريخ المغرب

ولكنهم لما شرعوا من اوائل هذا القرن الحاضر في البحث جملة
 عما توالى على جميع فروع العائلة البشرية لم يعد مستطاعًا لهم ان يجتزلوا
 بتاريخ عام يتوقف معظمه على حوادث اوربا واخبار رومة واثينا فصاروا
 ميالين الى الوقوف على احوال المشرق واستطلاع اسراره الغامضة .
 ولما جدوا في تحصيل تواريخ الامم السالفة ومعرفة اصولهم بعثهم ذلك
 على طلب الحل الذي كان مهدًا للبشرية والديانة فاحتفروا الحفر
 الكثيرة ونقبوا في مطاوي الارض القديمة حتى ظفروا باخبار من تقدم
 من الامم ومخبروها تجميعًا الى ان صار بحجمهم هذا نورًا كشف عن

احوال تلك الاعصار وشؤون اهلها ظلمات الخفاء التي اوشكت ان
تغشيها ابد الدهر

واذ قد تقرر ان علم التاريخ قد فاز بحقيقة اخبار من سلف من
اجيال الشرق صار يتعلّق فائدة جديدة على تاريخ لبنان وتواريخ جميع
الامم التي عمرته ولهذا اضحى في وسعنا ان نذكر اسماء الشهيرة ونحن على
ثقة من انها تلاقي في صدور المطالعين قبولا وانسراحا لانها من جملة
فتوحات الحقيقة عند اصحاب العلم والدين

ومع هذا فانهم الى اليوم يوجزون في تاريخ الفينيقيين وسائر قبائل لبنان
ايجازا غير مرضي ألا ترى انهم يطنبون في حضارة المصريين والاشوريين
ويتغاضون عن ذكر الآثار وتحري التحقيقات التي يتبيّن منها ان اللبنانيين
كانوا قرناء بقية الشعوب المشرقية

وبما ان ما كشف حديثا بلبنان قد افسح في بعض المرات مجالا
لتأويلات كاذبة وللوقعة بشعب الله وبالوحي الالهي ايضا حدثت من
ثم مضار واغلاط قبيحة ولا شيء يقوم بدفع هذه المضار واصلاح تلك
الاغلاط الا الاتيان بتاريخ صادق يجري على جادة الانصاف

ومن الحق ان يعطى المقام المتميز في التاريخ لهذه البلاد لانها كانت
مركزا انتشر منه التمدن القديم وشرق على سائر انحاء المعمورة ولانها
ارض موعودة تساوي الارض المقدسة في مساحتها لاسيا لان تاريخها

ممتزج اشدّ امتزاج بتاريخ الاسرائيليين ولانها ارشدت اوربا القديمة الى
معرفة الصنائع والعلوم

فاخرج اذا يا لبنان القديم من خفائك فقد حان لنا ان نخبر بمفاخرك
السالفة ونقص الحوادث العظيمة التي جرت في ارضك والعجائب التي
شاء الله ان يظهرها فيك . وها نحن اولاً نشرع في البحث عن اسم
لبنان اجلّ اسماء هذا الجبل واكرمها

١

في اسم لبنان

لا ريب ان اعظم شيء أثار التأثير البالغ في من سكنوا لبنان اولاً
انما هو تكلّل هامته بثلج دائم (١) يشتعل بياضاً فوق اعلى رؤوسه
على رغم ما للشمس من الحرارة في مثل العرض الذي هو فيه . فارجبهم
المنظر المذكور بالطبع ان يسموه باسم مشتق من بياض اكليبه فاطلقوا

(١) ان الثلج المشار اليه كما سلف لنا في المقدمة لا يصح القول بانه
لا يعرض له ذوبان البتة فاني قد رأيته سنة ١٨٧٣ قد ذاب برمته .
غير ان ذلك نادر لا يُعتد به

وذكر ارميا ثلج لبنان قال : هل يخلو صخر الصحراء من ثلج لبنان ام
تنضب المياه الباردة المنفجرة الجارية (١٨ : ١٤)

عليه اسم لبنان (١) لان معناه البياض (٢) وهكذا جبال الالب وجبل بلان (٣) في اوربا أطلقت عليها هذه التسمية لسبب تعميم رؤوسها بالتلوج البيضاء.

ولنفس السبب الذي مرَّ ذكره يسمي اهل لبنان حرمون الكبير بجبل الشيخ وسماه ابو الفداء (٤) جبل الثلج وكلاهما بمعنى واحد ان لبنان كان يتناول كما اشرنا اليه في المقدمة كلتا السلسلتين

(١) لبنان يكتب في العبرانية (لبنون) وبأل التعريف (هلبنن) وهو مشتق من فعل (لَبَنَ) اي ابيض. اما (لبن) فمعناه الابيض و(لبنه) البياض (تثنية الاشتراع ٢ : ٢٥ والملوك الثالث : ٥ : ٢٠ والمزمور ٢٩ : ٦)

(٢) ان القديس هيرونيم اثبت هذا التفسير بقوله « ان لبنان معناه البياض (adv. Jovin.) وقد كرر هذا القول في جملة مواضع حتى لم يدع وجهاً الى الارتياب

(٣) الالب (Alpes) معناها في اللاتينية (الجبال) البيض (Albi) وجبل بلان (Blanc) معناه بالفرنسية الابيض

(٤) ابو الفداء (تقويم البلدان: في ذكر الجبال) والوجه في تسميته بجبل الشيخ انهم شبهوه لاكتسائه قمته بالثلج بالرجل المسن الذي ابيض

وكان لكل قُمة شجرة منه اسم خصوصي نظير حرمون وامانة (١) ولكن هاتين السلسلتين المتأزيتين اللتين سماهما اليونان بلبنان وانتيلبنان (المناوح للبنان) يظهر ان العبرانيين كانوا في قديم الزمان يسمونهما بالجبل الشرقي (٢) والجبل الغربي على ما هو في مصطلح اهليهما في ايامنا هذه . ومع هذا فان التسمية اليونانية في غاية الموافقة لانها حافظت على اسم لبنان الشائع منذ القديم بين السلسلتين وازافت اليه معنى المناوحة والمقابلة بينهما . ولما جاء الرومانيون بعد ذلك وسعوا نطاق المعنى الاصلي واطلقوا اسم لبنان على جميع الارض المشرف عليها الجبل المذكور وسموا بالاقليم اللباني او فينيقية اللبانية (٣) جميع الارض الممتدة من الساحل الى انتيلبنان مع قسم كبير من الجهة الشرقية هذا ولم يتفق جميع المؤرخين على ان اصل تسمية لبنان مأخوذ من بياض ثلوجه . فادعى بعضهم ان ذلك لبياض صخوره الكلسية وهو مردود بان معظم صخوره يُرى قائم اللون لا يمكن ان يكون داعياً

شعر رأسه ومثله جبل القوقاز سمي كذلك لبياض قمته فان قوه قاف بالفارسية معناها الجبال البيضاء

(١) اناشيد ٤ — ٨ (٢) يشوع ١٣ — ٥

(3) *Phoenices maritima et Phoenices Libanesia* (Diatyposis Leonis Aug.)

او سبباً للتسمية المشار اليها خصوصاً لما كانت الصخور مستترة بل مغشاة
بغابات الاشجار الكبيرة

وذهب آخرون الى ان اصل تسميته من شجرة عطرية مشهورة
عند الساميين بشجرة اللبان او اللبني (١) . اما اوصاف هذه الشجرة
التي تنبت في لبنان بلا عناية فهي ان اوراقها كثيفة ذات خضرة
حسنة ولها زهر ابيض يشبه زهر الليمون . واذا سُقَّتْ قشرتها قطر منها
صمغ بلسمي طيب الرائحة . وكان القدماء . يفتخرون به كما يفتخرون بمخالص
النجور ولذلك كانوا في اكثر الاوقات لا يعيزون بينه وبين النجور
الحقيقي (٢) . والدلائل متظاهرة على انهم كانوا اذا لم يجدوا نجوراً
يستعملون هذا الصمغ مكانه . فهذا الامر المهم حمل بعض المؤلفين

(١) التكوين ٣٠ : ٣٧ الاحبار ٢ : ١ و ١٥ انشيد ٤ : ٦ و ١٤

اشعيا ٦٠ : ٦ هوشع ٤ : ١٣ الخ

(٢) قال القديس هيرونيم : لينوس عند اليونان والعبرانيين يُسمى

به احد الجبال والنجور (Epis. ad. Hos. 14) لان النجور يقال له

في العبرانية والفينيقية لبنه وعنهم اخذ اليونان فقالوا لينوس

وقد اكتشف العلماء على كتابات باللغة الحميرية يسمون فيها

النجور لبناً كما يسمى عند العرب (ف . لزمان Lettr. assyr. IV, p. 38.)

المتقدمين على القول بان اسم لبنان مشتق من اللبني او اللبان . ويرجح في ظني ان لبنان لم يأخذ اسمه من شجر اللبني او اللبان ولا اللبان مشتق من اسم لبنان . غير ان الاثنين نسب اليهما هذا الاسم الدال على البياض اما لبنان فلبياض ثلوجه واما اللبني فلبياض لبنها او دخانه (١)

٢

في اسم الشام

ان الساميين يطلقون هذا الاسم الآن على بلاد سورية بكاملها وفي وجه تسميتها بذلك اقوال اصحها عندي انها سُميت بسام بن نوح (واصله في العبرانية والسريانية شام او شم) فالشعوب الاولى التي

(١) ان شجرة اللبني اللبنانية هي المدعوة عند اليونان استيركس وعند الفرنج اليبوفيه ولكن صمغها ليس بالنجور الحقيقي لان النجور الحقيقي يجلب من اليمن او بلاد الهند . ثم ان هذه الشجرة لا تنبت في نفس الجبل في بل السهول المحدقة بلحفه . فان كان قد حاز هذا الصمغ في القديم بعض الشهرة فقد خمل ذكره اليوم كل الخمول . ولا نرى للبني صفة توجب لها شرف اعطاء اسمها للبنان

عمرت جهتي لبنان الشرقية والغربية كانت في ارجح الظن من ذرية
 سام المباركة وعلى هذا حيي اسمه بحياة اسم الارض التي تزل فيها ابناءؤه
 ان جميع الشرقيين يسمون سورية بلاد الشام غير انهم يخصصون
 بهذه التسمية مدينة دمشق لا لكونها قاعدة البلاد فقط بل لانها ايضا
 كانت مركز الساميين في آسية

ولا يغرب عنا ان لفظ الشام يحتمل غير هذه التأويلات . اذ قد
 ذهب بعضهم انه سمي شاماً لانه عن مشامة القبلة خلافاً للين لانها
 سميت بذلك لكونها على ميمنة القبلة . غير ان هذا التفسير المقبول في
 كتب اللغة العربية لا يصد المؤرخ عن الارتقاء الى اصل اقدم يوجب
 نسبة الاسم المذكور الى نفس الي الذرية السامية والى البلاد التي
 سكنها ولما كان منبت العرب من بلاد الشام فلا بد انهم عند رحيلهم
 عنها وتفرقهم في جنوبها لم ينسوا اسم ابيهم ولذلك ما كفوا عن
 تسميتها باسمه

غير انه يوجد بين اسم سورية واسم الين فرق جوهري يمنع
 تشبيه الواحد بالآخر من حيث الاصل . وذلك لان اسم الين سمي به
 العرب اولاً جميع تلك البلاد باسرها . مع ان الشام أطلق اولاً على
 مدينة دمشق ثم عمم منها على بقية انحاء البلاد . ومن ثم لا يتصور
 ان العرب على بعد بلادهم عن سورية يسمون احدى مدنها بمدينة

المشأمة لان هذه المدينة ليست بمفردها على مشأمتهم اي على
ميسرتهم . ولهذا وجب القول لن المقابلة بين اسم سام ابي الطوائف
السامية و (بين) اسم الشام التي حلت بها ذراريه بعدد وافر من
سالف الازمان ليس مجرد اتفاق . وزد على ذلك ان العرب الشديدي
التمسك بالاسماء والانساب اثبتوا ان اسم الشام المسماة به سورية هو
مأخوذ عن اسم سام بن نوح . قال ابو الفداء امير حماة « قال ابن سعيد
ان الشام سميت بسام بن نوح لان هذا الاسم بالسريانية بشين
مُعجمة » (١) . وعلى هذا فقد تقرر ان سام بن نوح هو الذي
سميت به سورية كما ان حاماً سميت به مصر (٢)

٣

في اسم آرام

ان الاسم الذي لقب به الساميون بلا مراء مُعظم لبنان وسورية
وما بين النهرين هو اسم آرام آخر اولاد سام (٣) لان الظاهر ان

(١) ذكر ذلك ابو الفداء في تاريخه في الفصل الخامس الصفحة

١٠٢ من طبعة مصر . وذكره ايضاً في كتاب تقويم البلدان متابعة

لصاحب القاموس والصحاح وغيرهما

(2) Champollion, l'Egypte sous les Pharaons, I,

p. 104.

(٣) التكوين ١٠ : ٢٢

الجهات الدمشقية خاصة كانت في قسمه . اما اولاد أرام فما زالوا يسمون أراميين الى حد اوائل التاريخ المسيحي . والكتاب المقدس يعني باسم ارام جميع البلاد الواقعة في الشمال الشرقي من فلسطين (١) الى ما بين النهرين (٢) واشور (٣) . اما في النسخة اللاتينية واليونانية فقد تُرجم بلفظة سورية . غير ان هذا الاسم الكثير الشهرة في القرون الاولى قد اخذ في الاضحلال عن مكان اصله منذ غارة اليونان على الشرق فانقردت العامة أولاً باستعماله ثم اضمحل كل الاضحلال عند ظهور النصرانية . وذهب البعض مع هذا ان اسم أرام بقي محفوظاً في اسم ارمينية على ان تكون هذه الجهة قد سُميت بذلك نسبة الى بعض قبائل أرامية شنت عليها الغارة نحو القرن السابع قبل المسيح وانها

(١) كلمة أرام يراد بها دمشق ونواحيها (اشعيا ٧ : ٨ الملوك الثالث ١١ : ٢٥ الخ) خصوصاً لما استولت على ما حولها من الممالك وكانت تلك الممالك كثيرة ذكر منها في الكتاب المقدس أرام صعوبة (الملوك الاول ١٤ : ٤٧ الخ) وأرام بيت رخب (الملوك الثاني ١٠ : ٦) ورام معكة (اخبار الايام الاول ١٩٠ : ٦)

(٢) التكوين ٢٤ : ١٠ و ٣١ : ٢٠ و ٢٤ : يهوديت ٣ : ٨

(٣) الملوك الرابع ١٨ : ٢٦ اشعيا ٣٦ : ١١ ارميا ٣٥ : ١١

كانت تسمى قبل ذلك اراراط او أوررتي (١)
ولا نريد في ما قدّمناه ان اليونان والرومان غابت عنهم على
الاطلاق معرفة هذا الاسم اذ نرى آثاره في اشعار هوميرو (٢)
وهسيود (٣) والمؤرخ استرابون (٤) اليوناني الذي كان يعتمد في نقوله
على بوصيدون السوري ومن بعده المؤرخ اسطفان البزنطي (٥) خصصا
هذا الاسم بالسوريين تخصيصاً صريحاً. ألا ان اسم آرام لما بطل استعماله
عند اليونان سقط ذكره ايضاً لدى الاراميين اعينهم . ولا شك انه لم
يقع لهم تناسي هذا الاسم المعزوز عندهم ولم يتم سقوطه عن السنتهم بعد
توارثهم له خلفاً عن سلفٍ إلا تدريجاً مع كبر الايام لان فلاف يوسف
(٦) ذكر ان اليونان في ايامه كانوا يدعون سوريين القوم الذين يسمون
نفوسهم آراميين او أريعيين . ألا انه لما ظهرت النصرانية في سورية

(١) التكوين ٨ : ٤ والكتابات الاشورية

(2) Homer. Iliad. II. 783 Ἀράμους. et Odyss. III. 84.
Ερέμβοι.

(3) Hésiod. Theog. v. 304 Ἀράμοι.

(٤) استرابون ١ : ٢ : ٣٤ و ١٣ : ٤ : ٦ و ١٦ : ٤ : ٢٧

(5) Steph. Bys. Ἀράμα, Ἀραμαῖος.

(٦) فلاف يوسف في تاريخ القدميات ١ : ٦

تلف الاسم المذكور سريعاً . وصار اسم الارامي مثل اليوناني مرادفاً للوثني (١) في اصطلاح اهل الدين وتواري مع تواري بقية الوثنيين عند الفتح العربي ولما كثرت اسماء الفرق النصرانية والاسلامية اجهزت عليه بالمرّة وعُتت ما كان قد بقي له من رسوم الحياة

٤

في اسم كنعان

ان كنعان ابن اللغنة لم يُجرّم ايضاً من الشرف المارّ ذكره اي ان يتسمى باسمه قسم عظيم من لبنان وسورية مدى اعصار طوال . وكنعان هذا هو كنعان بن حام بن نوح (٢) . وهذا الاسم الذي

(1) Quatremère, Mém. sur les Nabathéens.

ان لفظة « ارميا » تستعمل غالباً في الترجمة السريانية البسيطة للعهدين العتيق والجديد بمعنى الاممي والوثني وبهذا المعنى تستعمل الترجمة اليونانية لفظة هلينس (اي اليوناني) (غلاطية ٢: ١٤ و ٣: ٢٨) وانما اتخذ النصارى الاولون هذا الاستعمال من اليهود (Onkelos. Targ. Lev, 25.) غير ان هذه الكلمة ولو كانت اولاً بمعنى الاممي صارت فيما بعد لا تستعمل الا امامة الشعب والوثنيين

(٢) التكوين ١٨: ٩ و ١٠: ٦

يُتَكَرَّر ذِكْرُهُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ مُرَادًا بِهِ أَرْضَ الْمِيْعَادِ (١)
 لَمْ يَكُنْ يُطْلَقُ عَادَةً إِلَّا عَلَى الْجِهَةِ الْمَمْتَدَّةِ مِنَ الْأُرْدُنِّ إِلَى الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ
 وَلَكِنَّهُ قَدْ كَانَ يُقَالُ أَيْضًا عَلَى لُبْنَانَ وَخُصُوصًا عَلَى أَرِيَافِ فِينِيقِيَّةِ الْمَأْهُولَةِ
 بِالْكَعْنَانِيِّينَ (٢) . وَبِمَا أَنَّ الْكَعْنَانِيِّينَ فِي فِينِيقِيَّةٍ كَانُوا مِنْ أَشْهُرِ تِجَارَةِ
 الْأَقْدَمِينَ أَمْسَى اسْمُهُمْ عِنْدَ الْعِبْرَانِيِّينَ بِمَعْنَى التَّاجِرِ (٣)
 وَاسْتَدْلُ مِنْ مَسْكُوكَاتِ الْفِينِيقِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَوْنَ
 بِلَادَهُمْ فِي عَهْدٍ مُسْتَحْدَثٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْعَهْدِ الْمَتَقَدِّمِ بِبِلَادِ كَعْنَانَ (٤)
 وَذَكَرَ الْقَدِيسُ أَوْغُسْطِينَ أَنَّ ابْنَاءَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ الْفِينِيقِيَّةِ الْقَدِيمَةِ فِي أَفْرِيقِيَّةٍ
 لَمْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا فِي أَيَّامِهِ اسْمَ وَطَنِهِمُ الْأَوَّلِ قَالَ : كَانَ إِذَا سُئِلَ

(١) التَّكْوِينُ ١٢ : ١٥ و ١٦ : ٣ : الْخُرُوجُ ١٥ : ١٥ يَهُودِيَّتِ ٣ : ١

(٢) إِشْعِيَا ٢٣ : ١١ عِبْدِيَا ٢٠

(٣) الْأَمْثَالُ ٣١ : ٢٤ : هُوشَع ١٢ : ٧ : صَفْنِيَا ١ : ١١

أَشْعِيَا ٢٣ : ٨ و ١١ . حَزَقِيَالُ ٢٧ : ٣

(٤) Mionnet. T. V. Recueil de méd. — Gesen. monum. Phoen. P. 270. Tab. 35.

أَنَّ الْإِقُونَةَ الْمَضْرُوبَةَ فِي لَادْكَا لُبْنَانِ (وَلَعَلَّهَا هِيَ الْمَكْتَشَفَةُ قَرِيبًا
 عِنْدَ صُورٍ فِي أَمِّ الْعَوَامِيدِ) نُقِشَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْكِتَابَةُ « لَادْكََا أَمِّ
 بَكْعَنْز » وَمَعْنَاهَا : فِي لَادْكََا (مَدِينَةٍ) أَمِّ فِي كَعْنَانَ

الفلاح عندنا : مَنْ هو ؟ اجاب بلغته : انا كنعاني (Chanani) (١)
ثم ان هذه التسمية لم تكن مجهولة من اليونان بل استعملوها في ازمة
متأخرة ونقلوها بلغتهم الى صور مختلفة (٢)

وزعم بعض المفسرين المحدثين ان لفظ كنعان الذي يتناول مع
الارض المقدسة قسماً كبيراً من لبنان لا يراد به إلا وصف الهيئة
المكانية . وانما عوّّلوا في ذلك على اصل اشتقاق هذه اللفظة التي معناها
السافل (٣) . فكنعان بحسب هذا الزعم معناه البلاد السافلة بالمخالفة
لأرام اي العالي او البلاد العالية . غير ان نسبة هذا المعنى الى لفظ
كنعان ليست امرأ جديداً بالتام كما يستدل من كلام القديس اوغسطين
قال : « سبب تسمية ارض الميعاد بارض كنعان يُعرف من معن، هذا

(١) في شرح الرسالة الى اهل رومية ١٣

(2) Steph. Byz. v. *χνᾱ́, χνᾱ́ος*; Sanchon : *χνᾱ́*; Herodian. (Frag. Hecat. mil) : *χνᾱ́*; Joseph. *χνᾱ́ανος*;

(مع ال التعريف الفينيقية) *Ὁχνᾱ́*; Septuag. *χνᾱ́αν*;

(٣) اصل هذه التسمية مأخوذ من (كنع) وهو لفظ ممات في

العبرانية معناه ركع ومن باب الحجاز وطو . ومعناه في البكلدانية خزي
وفي العربية خضع

اللفظ لان كنعان معناه المنخفض (١) . والقديس هيرونيم ذكر نفس المعنى المشار اليه مستشهداً باثنين غيره ممن تقدّمه (٢)

غير ان هذين القديسين مع جمهور العلماء الذين يسلّمون بهذا التفسير لا يريدون بذلك القاء الريب على ما كان كنعان ابي الكنعانيين من التأثير في التسمية المشار اليها وبكثهم ارادوا فقط الدلالة على حقيقة حال كنعان الادبية بما تزل عليه من لعنة جدّه نوح وما عنوا وصف الجهة التي سكنها لان هذه التصورات الجغرافية لم تخطر لهم في بال كما انها لم تخطر مطلقاً في بال اولاد كنعان . والصحيح انهم جروا على عادة غيرهم من ذراريّ الاباء فاعطوا اسم ابيهم للناحية التي اتخذوها وطناً

ومن حيث ان اصحاب مذهب العقلين تذرّعوا بذلك الى انكار حقيقة الاسماء والمسميات المذكورة في التوراة صار التقصي في البحث عن الاسم المشار اليه امرأ مهمّاً لازماً . هل كان ياترى في

(١) القديس اوغسطين في شرحه الزمور ١٠٤

(٢) القديس هيرونيم في كلامه عن الاسماء العبرانية . (في كلمة

كنعان) اما اوريجان ففسرها بالمتحرك والمضطرب (المير السادس

في الخروج)

الهيئة العمومية للاماكن التي استوطنها اولاد كنعان داعٍ يحتمل ان يوجبهم على تسميتها بالبلاد السافة كما تسمى مملكة هولندا ؟ (Pays-bas) . فان مواطن الكنعانيين حتى على ساحل البحر لا تحسب سهولاً او ارضاً واطئة الاً من طريق العرض بل بعكس ذلك فان الغالب على ارضهم الجبال التي تتصل الى البحر وتقطع من كل جهة سهول الساحل الضيقة بالوديان المتعددة فضلاً عن ان اكثر تلك السهول هي اقل اتساعاً بكثير من سهول آرام كسورية المجوقة (البقاع) وارض دمشق وما جاورها

وكذلك كان تصور الناس من سالف الزمان في الارض المذكورة بكون الغالب عليها الجبال وهذا يثبت من كلام موسى اذ قال لبني اسرائيل « لكن الارض التي اتم عابرون اليها لتلكوها هي ارض جبال وادية » (١)

ويؤيدهُ ايضاً ما قاله عسكر آرام بعد ذلك « ان آلهة العبرانيين آلهة الجبال فلذلك قوّوا علينا فلو حاربناهم في السهل فاننا نقوى عليهم » (٢) مع ان هؤلاء بحسب الرأي المشار اليه كانت مواطنهم في البلاد العالية

(١) تثنية الاشتراع ١١: ١١ (٢) الملوك الثالث ٢٠: ٢٢

وذكر حزقيال النبي وطنه فسمّاه أيضاً «جبال اسرائيل» (١)
ولما اخبر الكتاب المقدس بخروج بنهدد ملك ارام من دمشق وزحفته
على ارض اسرائيل اي ارض كنعان قال «صعداً وحاصراً» فيكون على
ذلك قد خرج من بلاده الى بلاد اعلى منها (٢)

واذا عمدت الى خريطة من خرائط لبنان وفلسطين كفاك ذلك
للاقتناع بان هاتين الجهتين تتخترقهما سلاسل من الجبال متفرعة الى
عدة شعب متسعة تكسب عموم البلاد علواً وارتفاعاً . فأنتى سافرت
فيهما استقبلك جبال عالية توشك لعظم كبرها ان تردّ البصر عن
استجلاء السفوح وروية الوهاد والهضاب . وشخصت امامك من كل
وجه قم مرتفعات في الجبلين الغربي والشرقي وجبل الكرمل وبرزت
لك جبال الجليل وجمعاة والسامرة واليهودية والعربية

ثم ان سهل صيداء الذي وجب ان يكون بحسب القول الحديث
من اخص الاسباب الحاملة على تسمية كنعان بالبلاد السافلة لا يبلغ
طوله في الحقيقة اكثر من ١٣ كيلومتراً ونصف كيلومتر في عرض
اربعة كيلومترات ونحو نصف آخر فقط وهذه مسافة يكاد لا يُنتبه اليها
بالنظر الى علو جبال الريحان التي بازائها

ولنأتِ الآنَ الى البحث عن لفظ ارام الذي فسّره بالمرتفع او بالارتفاع (١) مقابلة للفظ كنعان الذي عنوا به الارض المنخفضة فاذا نظرنا في مسماه لا نجد شيئاً يؤيد تفسيرهم او يثبت قولهم في اصل اشتقاقه . فان ارام يُطلق أولاً على اقطار واسعة حتى يتناول ايضاً سهول ما بين النهرين مع بعدها الشاسع عن بلاد كنعان ومن المستحيل ان تسمى هذه السهول بالاسم المذكور لارتفاع فيها عن ارض كنعان . ومع هذا فلا حاجة بنا الى الخروج عن حدود لبنان لتخطئة هذا الزعم فهذه حديقة دمشق او كورتهها تلقب بالغوطة (٢) وهذا سهل البقاع كان القدماء يلقبونه بالعميق وسماه اليونان سورية المجوّفة

وجملة القول ان زعم المحدثين ليس له من اساس حقيقي في طبيعة

(١) ارام عبراني مشتق من « ارم » وهو لفظ لا يُعرف اصل معناه بحسب زعم جسين (Gésenius) ويقرب من لفظة « روم » بالعبرانية اي ارتفع و (وَرِمَ) بالعربية اي انتفخ

(٢) الغوطة الوهدة في الارض المطمئنة . والغوطة مجتمع النباتات

والماء

الامكنة ولا في الكتاب المقدس وان هو الا مجرد وهم . ومن ثم فان التعويل على الاصول المريبة والاستعانة بالكاذب الجغرافية كلاهما لا ينقض في شيء المعنى البديهي المقصود من عبارات الكتب المقدسة ولا يحط الاباء عن شرف اعطائهم اسماءهم لجهات لبنان وغيرها من النواحي بل يكتب صحة وجودهم بخطوط وحروف الحقيقة معادلة في العظمة والمتانة حروف الجبال اللبنانية وخطوطها

٥

في اسم سوربة

قال دي شاتوبريان : كان اليونان من اكبر المفسدين للفظ الحروف الهجائية . ومن حيث ان آذانهم كانت تنفر من الكلام الثقيلة وتستأنس بالريقة كانوا اذا نقلوا الاسماء الاجنبية الى لغتهم لم يلتفتوا الى طريقة لفظها عند اهلها بل نطقوا بها على حسب ما تستحسنه آذانهم ويسهل على السنتهم (١) . وهذه ملاحظة اصاب كبد الصواب فان اليونان كما سيظهر لك مما يلي من تاريخنا صحفوا جميع اسماء لبنان . وتحريفهم للكلم الارامية والكنعانية هو في الكثير غاية في الغرابة

ألا انهم لم يقتصروا على التبديلات الهجائية فقط بل انهم نسخوا
 بالمرّة اسماء كثير من الشعوب السامية في لبنان خصوصاً ووضعوا
 مكانها اسماء جديدة مجهولة بالتام عند سكان البلاد الذين اخذوها عن
 اليونان لما كان لهم من السطوة الشديدة وبقي اكثرها محفوظاً الى
 الآن وتلبس الناس هذه الاسماء الكاذبة الاجنبية معتقديها انها
 اسماؤهم الحقيقية الوطنية . ودونك الان اثبات ما قدّمنا بما يلي من
 اسمي سورية وفينيقية

ان اول من بدّل تسمية الاراميين بالسوريين هم اليونان وبسبب
 انتشار لغتهم صار هذا الاسم معروفاً ومقبولاً في العالم كله . اما
 ادخاله بينهم فلم يكن من زمن قديم جداً لانه كان مجهولاً من هوميرو
 وهسيود كما كان مجهولاً من الاراميين (١) . وهيرودوت هو اول من
 اتى على ذكره (٢) ومع انه كان شائعاً اذ ذاك بين اليونان لم يكن
 للاراميين والساميين معرفة به على الاطلاق لانه لم يوقف له على اثر
 بين الشعوب الاسيوية في ذلك العهد . الا انه بعد افتتاح الاسكندر
 تغلب اسم السوري ودفن اسم الارامي شيئاً فشيئاً حتى لم يقوَ على
 الظهور مطلقاً نظير كثير غيره من الاسماء بعد الفتح العربي او العثماني

ما هو السبب الذي حمل اليونان على ان يسموا الاراميين بهذا الاسم الجديد ؟ ذلك امر مُشكل . قال هيرودوت وكثير غيره من الاقدمين (١) ان السوري اختصار الاشوري (او الاسوري بالسين المهملة كما يلفظ اليونان) وهذا الرأي مبني على ان الاشوريين لما افتحوا بلاد ارام وكنعان امتدَّ اسمهم الى آخر حدود ساطنتهم قلما يكون في لغة اليونان . ولما ارادوا بعد ذلك التفريق بين بلاد اشور (اسورية) الحقيقية وجهات اسية المتقدمة اصطلاحوا على حذف المقطع الاول من اسورية لیسَمُوا هذه البلاد الاخيرة سورية . غير ان هذا التفسير اذا صح عند اليونان لا يبقى له وجه من الصحة اذا فُحص على مصباح اللغات السامية . وذلك لان القول بان الاشوريين اخذوا جزءا من اسمهم لیسَمُوا به قسماً من فتوحاتهم امر يُضحك منه بالحقيقة لان اسم اشور (٢) ليس مما يمكن تقسيمه الى اجزاء عند الساميين . وينتج من ذلك ان عيب هذا التغير لا تجب نسبته الى الاراميين والكنعانيين او الاشوريين (٣) لانك لا تقف على هذا الاسم في الكتاب

(1) Herod. VII, 63;—Scylax, Peripl. 104; Dionys. Périeg. 970, 975 ; et Eustath. comment. ad loc. h.

(٢) التكوين ١٠ : ٢٢

(٣) معنى اشور خطوة ومشية . وهو اسم ثلاثي لا يمكن ان يحذف

المقدس قبل الافتتاح المقدوني بل انما اللوم كله موجه الى اليونان بمفردهم . ومما يدلنا على هذا مزيد دلالة هو ان الكتبة اليونان حتى في القرون المسيحية ايضا لا يراعون فرقا ثابتا بين هذين الاسمين وكثيرا ما يسمون سورية بآشورية (١)

ومن العلماء من ذهب الى غير ذلك . فانهم لما تأملوا اتصالات اليونان مع الشعوب القديمة في اسية البجريّة ورأوا ان اهل صور على ساحل لبنان كانوا شعبا معروفا احسن المعرفة عند الامة الاغريقية في عهد ظهور الاسم المشار اليه حكموا بان هؤلاء هم الذين بعثوا اليونان على تسمية هذه الجهة بسورية (٢) . ودونك تفصيل ذلك : ان اسم صور هو بالفينيقية صر او صور ولما كان هذا اللفظ معروفا عند اليونان والرومان اشتقوا منه اسم سورية (٣) ولم يعنوا به المملكة فقط الصغيرة

شيء من اصوله من دون اختلال في معناه وازد (والاثّر في العربية لها بعض هذا المعنى)

(1) Herod. 1,72 ; III 90,91 ; — Strab. II, 1,31 ; XVI, 1,2 ; Nonnos, Dionys. IV, 80,296, V, 30, XVIII, 325,328, etc. Lucian. Dea Syr. 1, Tat. Achill. Clitoph.

(٢) ولم يقولوا « سورية » لانه لا صاد عندهم

(٣) صر بالفينيقية بمعنى الصخر . ويرى هذا الاسم الى الان

التي كانت هذه المدينة عاصمة لها بل اطلقوه ايضاً على جميع الجهة الجنوبية من آسية البحرية حيث بلغت مدينة صور من العز والسناء مبلغاً لا يضاهي ومدت شيئاً من اشعة سطوتها ومجدها على عامة جهات هذه الناحية بكاملها وهذا الامر نبّه لصوص البحر من اليونان الى ان يلقبوا كل هذه البلاد الفسيحة باسم سورية ولما اتسع لهم العلم بلبنان قسموه الى اقليمي سورية وفينيقية

وهذا القول وان يكن التويه يُدنيه الى الصحة من بعض الوجوه فهو مردود لان اليونان قد افردوا دائماً فينيقية عن سائر آسية المتقدمة كما اقره عامة اهل التاريخ . ألا وانهم وافقوا الكتاب المقدس في جعل قاعدتها مدينة صيدا (صيدون) او ليس هوميرو شاعرهم (١) سمى فينيقية بالصيدونية (Sidonia) ذلك فضلاً عن ان بحر سورية يلقب عندهم بالبحر الصيدوني . وعليه فان القول باشتقاق اسم سورية من مدينة صور باطل لا ثبت له

محفوراً على مسكوكات هذه المدينة التي لا تزال تُسمى عند الساميين صور كما كانت ألا ان اليونان والرومان دعوها تورس وتيرس (Tyros) ومعناه باليونانية الجبن . وسموها ايضاً قديماً وحديثاً باسم سارا (Sara) (Virg. Georg. II, 50 ;—Plaut. Truc. II, 658)
(1) Homer. Od. XIII, 285

وقال آخرون من علماء الآثار المصرية (١) ان اصل اسم سورية مشتق من « خار » (Khar) التي صادفها طحوطيس الاول عند خروجه من مصر والحال ان هذا الاسم الذي يحتمل ان يقرأ ايضاً خال (Khal) لم يكن للاسيويين اقل معرفة به في جميع الازمنة وابدال الحاء بالسين والالف بالواو مما يجعل هذا الاصل غير مقبول ولهذا فالقول باشتقاق اسم سورية منه باطل

ويتحصل من كل ما تقدم ان الصحيح هو ان اليونان من المغرب او آسية الصغرى اتخذوا اسم سورية (Syria) من اشور (Assyria) فحذفوا اول هذا الاسم بعد افتتاحات الاشوريين واطلقوه بهذه الصورة على الجهة التي على مسيرة الفرات ثم دخلت هذه التسمية في جميع اللغات بسبب نفوذهم وسطوتهم

فينتج من ذلك ان الاسم المشار اليه الذي يتناول اليوم جميع آسية المتقدمة من مصر الى آسية الصغرى هو اسم اجنبي غير وطني

٦

في اسم فينيقية

اشتهر هذا الاسم في القديم اكثر من سائر الاسماء . وهو مما

(1) Maspero, Hist. anc. ch. 5.; — Chabas, Études sur l'anc. hist. p. 123.

استنبطه اليونان ايضاً او حرفوه قبل استنباطهم بكثير لاسم سورية الذي تقدم الكلام عليه . وكانوا يطلقونه على عامة ساحل لبنان اي على الساحل الذي تذكر حدوده الحضرية عادة في الجغرافيات المقبولة في المدارس بين نهر النعمان والنهر الكبير او بين عكاء وارواد . ولكن بعض المؤلفين وسعوا هذه الحدود الى اكثر من ذلك حتى اوصلوها الى ما بين مصر وكورة انطاكية

وقد جد العلماء والمؤرخون في التقصي عن حقيقة هذا الاسم وامكان اشتقاقه من اصل سامي فما اتصلوا الى نتيجة مرضية . ووطن العالم بوشار انه حل هذا المشكل بادعائه انه مشتق من لفظة « بنو عناق » (١) ولكن لما كان قوله عرياً عن الحجّة ولا سيما لان بين الاصل المذكور واللفظ الذي نحن بصددِه بوناً عظيماً اُطرح العموم مذهبه ولم يعولوا عليه

وقال قوم من المحدثين انه مشتق من لفظة « فنك » التي تأويلها

بنو عناق هم قوم من (1)Bochart, Chanaan. Lib. I, c. 1. الجبارة الكنعانيين وجدهم الاسرائيليون ممتلكين ارض حبرون (سفر

العدد ١٣ : ٢٣ : ٢٩ ويشوع ١ : ٢١)

عاش عيشاً ناعماً (١) او من « فنينيم » يعني الحجارة الكريمة والمرجان
ثم استعملت بالاتساع بمعنى الاحمر (٢) ولكن هذين الرأيين كذلك
هما غير مقبولين عند جمهور العلماء لانهما تخمين لا سند له ولا صحة
فضلاً عن ان الفينيقيين كانوا كبقية القبائل السامية في الشرق اما ان
يسموا نفوسهم كنعانيين باسم وطنهم العام او يتخذوا اسما مخصوصية
منسوبة الى قبائلهم او مدنهم لا غير وهذا كافٍ لنقض كل قول يراد

(١) هذا هو رأي بعض علماء الالمان غير ان لفظ فنك مع ما فيه
من معنى نعومة العيش ورخاوته لا يمكن ان ينطبق على تصور اليونان
الاقدمين في الفينيقيين الذين كانوا اصحاب نشاط وجدٍ. وان قيل
انهم عنوا بذلك رخاوة عباداتهم فذلك غلط تاريخي صريح لان
العبادات القديمة كانت شديدة قاسية. وليس يمكن ان يكون الفينيقيون
قد سموا نفوسهم باسم مثل هذا

(2) Gésénus. Thes. et monum. Phœnic.; — Arias Montanus.

لم يجد جسين لاسم (فنينيم) معنى أكيداً فلذا كان تفسيره
بالمرجان الاحمر مجرد تخمين واما تفسيره بالاحمر فقط فما من شيء
يدل عليه فضلاً عن ان استخراج المرجان كان قليلاً في ذلك العهد
القديم

به اشتقاق هذا اللفظ من اصل سامي. ومن ثم وجب ان نبحث عن اصل اشتقاقه في كلام اليونان الا ان فحصنا هذا يزيدنا ارتباكاً لان لهم في شأنه آراء كثيرة. وكثرتها دليل على ان ليس فيها شيء مرضٍ ان هذا الاسم هو قديم العهد في المغرب وربما انه كان متقدماً عندهم على بقية اسماء آسية باسرها. اذ ان اليونان واللاتين عرفوا من اقدم الزمان اهل لبنان البحري وسموهم فينيقيين. وقد ورد هذا الاسم في كلام هوميرو (١) وهيرودوت (٢) ولكنهم جرياً على عادة تلك العصور المتقدمة ما كانوا يفسرونه الا بخرافة فقالوا ان هذا الاسم مشتق من فينقس (Φοίνιξ) الي الفينيقيين (٣)

ولكنه لما ظهر فيهم الفلاسفة والحكماء فسروا ذلك بتفسير أخرى فزعم ارسطو ان الكنعانيين سموا بهذه التسمية لسبب قساسة التجار الاولين منهم وهذا نص كلامه قال: «ان الفينيقيين اتخذوا هذا الاسم من اليونان مثل مرادف للقتلة. لان تجارهم الاولين ما كانوا يحتلون في الشطوط الا لاجل القتل والذبح. (٤) غير اننا لم نقف في التاريخ على

(1) Homer. Odyss. IV, 83. (2) Herod. I, 1; III, 5, etc.

(3) Steph. Byz. v. φοίνιξ; — Schol. ad Eurip. Phoeniss. v, 6; Sil. Ital. I, 89.

(4) Arist. de mirabil. c. 144. Etymol. M. v. φοίνιξ

اقل شيء يُصوّر لنا التجار الكنعانيين في الصورة التي توهمها ارسطو من
 كونهم مولعين بالقتل وسفك الدماء . وانما يصدق ذلك في اليونان الذين
 اشتهروا بلصوصيتهم البحرية اكثر من جميع الشعوب القديمة والحديثة
 وذهب آخرون الى ان اسم الفينيقيين مشتق من فينقس اي
 النخل باليونانية وهو اقرب احتمالاً لان فينيقية كانت مشهورة في القديم
 بالنخل لان هذا الشجر الجليل يجد الارض الصالحة لتنبت في سواحل
 لبنان واول ما ينبت في جهات طرابلس ويقوى في بيروت وصور
 ويستوفي تمام الحصب في سهل عكا . ولعل هذا الامر هو الذي اُثّر
 في خواطر اليونان فأعجبوا بجمال النخل حتى دعاهم ذلك ان يُسموا
 باسم واحد ملك الاشجار والارض التي ينبت فيها . وزد على هذا ان
 المسكوكات تدلنا على ان النخل كان رمزاً الى فينيقية اقله في العصور
 المتأخرة بعض التأخر (١) ومن المؤلفين سواء كانوا من اليونان او
 الرومان كثيرون ممن يذكرون النخل من مميزات هذه الجهة ومفرداتها
 عمّاً سواها . (٢) ومما يزيد الادلة المتقدمة اثباتاً هو ان اخص
 المستعمرات الفينيقية نظير قرت حدست (قرطجنة) وعتيقة (اوتيكة)

(1) Eckhel, doct. num. Vet. T. III; — Mionnet, Description des médailles antiques T. V.

(2) Meleagr. Epitap. Anth. gr. VII, 428, 13; — S. Aug. in Exod. L. II. Quest. 63; — Achill. Tatius II, 4; Sidon. Apollin. Carm. V, 42; Plin. XIII, 9 etc.

وقادش وغيرها كانوا يصورون أيضاً النخل على مسكوكاتهم (١) .
 وجميع ما تقدم من البراهين يدل على سبب ترجيح هذا الرأي عند
 أكثر العلماء الاقدمين والمحدثين الذين ظهر لهم ان اليونان كانوا يعتبرون
 هذه البلاد بلاد النخل فسموها بلغتهم فينيقية (٢)

غير انه يوجد أيضاً اسباب صوابية ترفع كل صحة عن البراهين
 المتقدمة اذ ليس من الاكيد ان الكنعانيين اتخذوا النخل رمزاً في الوقت
 الذي شرع فيه اليونان يطلقون عليهم اسم الفينيقيين . ولا نعلم هل كان
 استعمال النخل عند الفينيقيين مجرد سمة وطنية او نظير علامة دينية
 ويمكن الترجيح بان النخل لم يعط اسمه لفينيقية بل انه بعكس ذلك
 اتخذ اسمه عند اليونان من فينيقية التي وجدوه فيها لأول مرة والذي
 يؤيد هذا الرأي شهادة ارسطو فانه اثبت ان اسم النخل اليوناني انما
 هو مشتق من لفظ فينيقية (٣)

(1) Florez, Medallas de las colonias de Espana; Gesen. Monum. Phœnic. ; — Reland, Palest. I, 9.

(2) Movers. Die Phonizier, Buch. I. c. 1.

(3) Arist. de mirab. l. c. 1.

ولا تثبت بتاكيد نسبة هذا الكتاب الى ارسطو . وقالوا ان اسم النخل
 باليونانية (φοίνικς) يعني الاحمر لانه يأتي بثمر احمر والصحيح ان الثمر قبل
 نضجه بعضه اصفر وبعضه احمر وبعضه اسود وغيره اخضر واللون الاحمر لا
 يدوم الا شهراً ونصف شهر . اما شجرته فليس فيها شيء من الاحمرار وزهرها
 ايض والثمر متى كان ناضجاً كان لونه اسمر ويقال له في اليونانية ذكتولس
 لا فينقس

وهل يكثر النخل ويجود في سفوح لبنان أكثر مما في سواها من الجهات حتى يمكن ان تدعى فينيقية بلاد النخل كما دعت بذلك كورة تدمر (Palmyre) ان العيان يكذب هذا القول. وكذلك الاقدمون من اليونان لم يكونوا ليتوهموا في فينيقية انها متميزة على غيرها بكثرة النخل ودلائل ذلك انهم كانوا يرمزون بالرمز المقدم الذكر الى مسا جاورها من الجهات التي هي اوفر منها نخلاً نظير اليهودية وارض ادوم وجزيرة العرب من غير ان يسموها بلاد النخل. فينبغي الاستنتاج اذاً من سياق الحوادث التاريخية ان اليونان لم يكونوا قد اتوا الشرق مطلقاً في الزمن الذي لقبوا به تجار القبائل الكنعانية باسم الفينيقيين والحاصل ان معاناة النخل لم تكن داعياً الى التسمية المشار اليها بل الامر بعكس ذلك اي ان تسمية الفينيقيين هي التي دعت الى تسمية النخل لان اليونان ما عرفوه أولاً الا منهم او انهم ما رأوه أولاً الا في بلادهم

ويوجد ايضاً في اليونانية لاسم الفينيقي معنى آخر اصلي واكيد ينفصل عن المعاني السابقة ولا يحسن بنا تركه في هذه المسئلة فكلمة فينقس قد يراد بها ايضاً الاحمر او القرمزي او الارجوان (١) والحال

(١) وفَسَّرَ هسيك (Hesychius) هذه الكلمة باللون الناري

ان في التاريخ جملة حوادث يحتمل ان تكون داعياً طبيعياً حمل
اليونان على تسمية الفينيقيين باسم هذا اللون. غير ان المؤلفين اختلفوا
في وجه هذه التسمية. فزعم بعضهم انهم سُموا حمراً لسبب احمرار
وجوههم الناصع كما سمي الزنوج والمغاربة الافريقيون سوداناً وربما
كان ذلك مقابلةً للذين سَمَّاهم استرابون السوريون البيض (١) ولكن
كيف يمكن التحقق على كون الفينيقيين قد أُتيح لهم من الطبيعة صورة
وردية ثابتة حتى يستحقوا ان يسموا بهذا الاسم. فان الوجوه التي نراها
اليوم في هذه الجهة نفسها ولاسيا وجوه الملاحين هي ابعد من ان
تكون مكسوة بتلك الحمرة القائمة لاجل تصحيح هذا الحدس وذلك
لان الالوان القائمة هي اكثر شيوعاً فيهم من الالوان الوردية
ويحتمل ان تكون صنعة الارجوان التي انفرد بها الفينيقيون في

او المحمر. وكذلك اللاتين يستعملون كلمة پونيقيس بمعنى الاحمر
والارجواني والوردي ويسمي الرومان سكان قرت حدست (قرطجنة)
الپونيين (Poeni) وهو مأخوذ من لفظ الفينيقيين

(1) Strab. XVI, 1, 2, غير ان استرابون جعل مساكن
هؤلاء على شواطئ البحر الاسود وربما كان ذلك مقابلةً للسوريين
السود او السير

العالم القديم سبباً اوجه لهذه التسمية اذ ليس يبعد ان يكون منظر
الطيالس القرمزية التي كان يلبسها هؤلاء التجار مع النسائج الارجوانية
التي كانوا يحملونها الى مدُن الغرب للتجارة بها قد شدّه عقول اليونان
والرومان على قلة تفقّهم في ذلك العهد فلقبوهم بنفس اسم اللون
الذي كانوا ينظرون اليه متعجبين . وعليه فيكون معنى فينيقيين ارجوانيين
او صباغي الارجوان او تجاره . غير ان هذا القول على ما فيه من
التقوية لم يكن مبناه في الحقيقة امرأ شاملاً ولا مهماً ولا اكيداً
حتى يصح التسليم به نظير اصل محتمل للتسمية المذكورة . فهل
كانت صنعة الارجوان حينئذ عريقة في القدماء او كثيرة الانتشار
خارجاً عن مدينة صور التي كانت غير معروفة عند اليونان في زمان
شاعرهم هوميرو حتى يُقبل القول بكونها سببت وجود هذه التسمية في
جميع الجهات وجعلتها مقبولة عند الفينيقيين انفسهم . ولو سلمنا بذلك
كانت تسميتهم نفس تسمية الارجوان . والحال ان الفينيقيين على ما
يمكن استنتاجه من الحكايات الدينية كان اسمهم موجوداً عند اليونان
من قبل ان يحماوا بضائعهم ويعرضوها للبيع في اسواقهم وفي الحق
ان تسمية شعب باسم لون البضائع التي يتجر بها امر مستغرب يُضحك
منه . وعليه فينبغي ان نستقصي البحث ايضاً عن هذا الاسم لاجل
الوقوف على حقيقة شأنه

كان اليونان يعدُّون المشرق منبع النور والنار (١) وقد كانوا يلقبونه ببلاد الفجر (٢) . والحال ان هوميرو وهسيود وغيرهما من مؤلفي اليونان واللاتين يصفون تولد النور باوصاف من معنى الاحمر الذي هو معنى اسم الفينيقيين . فقد وصفوا الفجر بذي الاصابع الوردية والعجلات الارجوانية والالوان المحمرة (٣) . واخبر اغاثرسيد ان اليونان كانوا يعتقدون ان الشمس عند شروقها تبعث في هذه الجهات اشعة شبيهة بالدم (٤) ولمثل هذا الاعتقاد سموا احد البحار بالاحمر (Erythrée) وقد كانوا يطلقونه على ما قال هيرودوت (٥) وغيره من

(١) معنى *Πυρρός* باليونانية لون النار والاحمر او الضارب اليه

وهي مرادفة لكلمة فينيقي

(٢) ان هيرودت يعبر عن الشرق بالفجر وكذلك اكسينفون .

واليونان يسمون الفجر بلغتهم إيؤس (*ἥως*) وفي لغة أوُس (*αῶς*) ولعل هذا الاسم هو اصل كلمة آسيّة

(3) Arist. Rhet. III, 2, 4; —Homer. Iliad. et Odyss ; —Hesiod. Theog ; — Virg. Œn. XII, 77 :

(4) Agath. de mar. Erythr. 3; Joseph. Ant. 1, 2 ; —Tit. Liv. XLV, 9

(5) Herod. 1, 180, 202; II, 8, 158, 159; Polyb. V,

الاقدمين على عموم الاوقيانوس الهندي . وكانوا يظنون ان اشعة الشمس عند ما تقع على مياه البحر تلونها بلون احمر وقد نقل اسطفان البيزنطي هذا الاعتقاد الذي كان متصكناً من اليونان في ازمئتهم القديمة بقوله « عند ما تبعث الشمس اشعتها على هذا البحر تنشر عليه ظلاً احمر سُمي البحر باسمه » (١) . ومن حيث ان هذا الاعتقاد ذكره عدة من المؤلفين الاقدمين وجب ان يكون كثير الانتشار والشيوع في المغرب كله (٢) وبسبب هذه التصورات امكن

ان اسم البحر الاحمر لم يكن معروفاً — 54, 12, IX, 43, 2. — عند الشرقيين فالعبرانيون يسمونه (يم سوف) اي بحر البردي وتوهم قوم في ايامنا ان البحر الاحمر نسبة الى الحميريين سكان سواحل البحر الاحمر قديماً وان اسم حمير مشتق من حمر اي سلخ وحاق واحمر وان معنى الحميريين اذا الحمر او البرابرة او الحمير . لكن هذا الاسم لا يعرف له معنى اكيد عند العرب وكان مجهولاً عند اليونان . ولا ترى مؤلفاً شرقياً يدعو ذاك البحر بحر الحميريين

(1) Stephan. Byz. v. 'Ερυθρα

(2) Strab. XVI, 4, 20 ; — Tibull. (II, El. 2). Propert. (III El. 2.)

اثبتت المراقبات في البحر الاحمر ان وجه المياه قد يظهر عليه

بسهولة للارض التي جعلوها قريباً من هذا البحر الاحمر ان تتخذ في
مخيلتهم ذلك اللون الذي ينسبونه الى البحر الاكبر في الشرق. ومن
ذلك الحين اعطوا القوم الاولين الذين وصلوا اليهم من هذه الجهة
الملقبة عندهم بجهة الصبح والشمس والنار والبحر الاحمر اسماً يتفق مع
مجموع هذه التصورات المأخوذة من الاحمرار اعني نفس اسم الفينيقيين
اي المحمرّين او الحمر (١)

فلا يبعد ان يكون اعطاء اليونان هذا الاسم للفينيقيين في بعض

مسحة حمراء مسببة من نباتات مجهرية اي لا ترى الا بالنظارة المعظمة.
ويمكن ان يكون تسميته بالاحمر ناشئة عن ذلك. غير ان هذا الحادث
نادر الوقوع ولم يذكره اليونان ولم ينتبه اليه الشرقيون فضلاً عن ان
اليونان ما ركبوا هذا البحر الا متأخرًا اي بعد جريان هذه التسمية
عليه من قبلهم فلم يسموه بالاحمر اذاً لسبب مشاهدتهم فيه هذا
الحادث. وكان اليونان يطلقون الاحمر حتى على ظل الشمس كما ذكرنا

(١) ان پندار استعمل فينقس باليونانية بمعنى الاحمر

(Isth. IV, 31.) ووصف به الورد. واستعمله ايضاً بهذا المعنى بقية

المؤلفين الذين من بعده فهو على هذا مرادف في كتب اللغة لباقي

الالفاظ الدالة عندهم على الاحمرار

الازمنة مبنيا على ما ذكرنا ويؤيد ذلك انهم بمقتضى عقولهم ومهارتهم في استنباط الحكايات بياناً لمعاني الالفاظ صنعوا في العصور التي ظهرت فيها ابطالهم خبراً عن اصل الفينيقيين مبنياً كُلُّهُ على نسبة الفينيقيين الى البحر الاحمر. اما هذه الحكاية التي توهمها بعض المؤلفين حقيقة ثابتة فتجعل الفينيقيين من سكان سواحل البحر الاحمر ثم تذكر انهم ركبوا البحر في تلك الجهة محترقين جبال الامواج حتى وصلوا الى سواحل الفينيقيّة واقاموا في سفوح لبنان مسمّين باسم البحر الذي غادروه (١)

فاشترك هذه التصورات التي مرّ الكلام فيها يوضح جلياً سبب هذه الحكاية القديمة. والظاهر ان اليونان والرومان في ما تأخر من الزمان حتى في القرون النصرانية اثبتوا ايضاً هذا الاصل للاسم

(1) Herod. I, 1; VII, 8, 9; — Strab. I, 2, 55; — Eustath. in Dionys. Perieg. V, 900 — 912 — Festus; — Priscianus.

لما كان اليونان حينئذٍ جهة متوحشين لم يكونوا يذكرون إلا الخرافات والحكايات غير ان الفينيقيين الذي كان يجب على اليونان ان يتخذوا الساريخ عنهم فيما يخصهم لم يكن لهم معرفة بما عزا اليونان اليهم مما ذكر

الفينيقي وخالطوا الفينيقيين في اكثر الاوقات مع سكان سواحل البحر الاحمر. فان بعضاً من مستعمراتهم التي تأسست في الزمن الاقدم كان فيها شيء من آثار هذا الاسم الاخير على قول الغربيين . قال بلين « قادش سُميت أولاً اريثية لان الصوريين مؤسسي هذه المدينة جاؤوا اليها من سواحل البحر الاحمر (١) وقال سولين بمثل ذلك تبعاً لهيرودوت (٢) . واذا صدّقنا قول سيل ايتاليك يكون الفينيقيون قد اطلقوا في مدة من الزمان اسم البحر الاحمر على جميع بحار اسبانيا وانك لتجد أيضاً في المستعمرات الفينيقية في بيوتية (Béotie) مدينة كانت تسمى اريثية (الحمراء) منذ ايام هوميرو (٣)

وهل الفجر في المشرق اوفر احمراراً مما هو في المغرب او هل ضياء الشمس هو اشدّ تورّداً في آسيّة منه في اوربا او هل الاوقيانوس المحيط ابهى حمرة من البحر المتوسط . كل هذه خرافة بثها اليونان في البلاد لقلة اتساع معارفهم الجغرافية وليست مبنية على حادث طبيعي بل على تخيلة شعرائهم . ولما كان اسم الفينيقيين والاريتريين بمعنى واحد اي الحمر جعلهم اليونان شعباً واحداً . وان قلت اي الاسمين هو اصل الاخر قلت

(١) بلين ٤ : ٣٦ (٢) سولين ٢٣ وهيرودوت ٤ : ٨

(٣) Homer. Il. II. 499; Herod. IX. 15, 25. — Strab. IX, 2, 12.

الفينيقي هو الاصل لان الشعب الاريتري لم يكن له مكان في ساحة الوجود على الاطلاق . وانما وُجد في مخيلة اليونان ولغتهم ليس الا . وكان اليونان يعرفون الفينيقيين قبل معرفة البحر الاريتري فان هوميرو شاعرهم مع كونه ليس له علم صادق بالبحر المشار اليه كان يعرف الفينيقيين احسن معرفة فينتج مما تقدم ان الاريتريين لم يتسم الفينيقيون باسمهم اي الحمر بل بعكس ذلك تسموا هم باسم الفينيقيين كما سبق لنا أنفاً عن النخل انه اتخذ اسمه منهم في لغة اليونان

واراد قوم من العلماء ان يرتقوا الى اصل ارفع لاجل ان يبينوا بوجه اجلى معنى هذا الاسم الذي اطلقت اليونان على الكنعانيين . قدروا ان في الاسماء التي تطلق على شعوب الشرق مهد البشرية وعلى اماكنه اشارة بعيدة الى الاصل الاول والاب الاول . فقالوا ان من معاني لفظة آدم ايضاً الاحمر والدم (١) فتكون دمشق على ما قال كثير من علماء العبرانية مشتقة من هذه المادة . وعلى ذلك يكون الدمشقيون

(١) آدم في العبرانية مشتق من (آدم) اي احمر ومن هذه

المادة (دم) في اللغات السامية قال الكتاب المقدس الحياة في الدم (احبار ١٧ : ١١) فبناء عليه يكون آدم قد سمي باسم حياته كما سميت بذلك حواء ايضاً لان معنى حواء الحياة ولكن اي عاقل يتصور

في الجبل الشرقي والفينيقيون في الجبل الغربي بمعنى واحد اي الآدميين
او الأحمر. غير ان معنى هذا الزعم المبني كله على تفسير كلمات يونانية
وسامية وان كان مما يندع ظاهره ليس من الحقيقة في شيء عند
اهل العلم

وزعم بعض من المشتغلين بالاثار المصرية ان اسم الفينيقيين
مشتق من كلمة يون او بنت التي هي تسمية البلاد العربية في الخط
المهروغلياني . وليس ذلك صحيحاً اذا تأملت ان الفينيقيين فُرق دائماً
بينهم وبين العرب فضلاً عن ان المصريين والساميين لم يسموا الفينيقيين
اصلاً باسم نظير هذا . وانما الاسم المعطى للفينيقيين عند اهل مصر
هو (kephth) منقولاً بالخط المهروغلياني عن لفظ كنعان

والحاصل ان جميع ما مر من الشروح والتفسير على اسم الفينيقيين
الذي اطلقه اليونان على الكنعانيين بلبنان ليس فيها ما ينفع صدى الغلة
الى تعرف الحقيقة . اذ كيف يُفترض ان اليونان عند ما وصل اليهم
هؤلاء التجّار الغرباء اخترعوا لهم في الحال اسماً من عندهم من غير ان
يستفهموهم عن الاسم الذي يلقبون به نفوسهم او يتسمون به في

ان اليونان على همجيتهم وجهلهم في تلك الاعصار المتقدمة قصدوا
هذه الدلالة عند اطلاقهم اسم الفينيقيين على اللبانيين

اوطانهم . مع انا نراهم قد لقبوهم ايضاً صيدونيين وصوريين واروايين وجبيليين نسبة الى المدائن التي كانوا يقدمون منها . نعم انهم قد احدثوا في هذه الاسماء شيئاً من التصحيف والتحريف غير انها في الحقيقة هي نفس الاسماء التي كان يتسمى بها هؤلاء الشعوب ويفتخرون بها

ومن ثم نرى ان لفظ فينيقي هو ايضاً كلمة محرفة ولو كان ظاهر هذا الرأي غريباً ولم يذهب اليه احد . نعم ان الفرق بين لفظة كنعان وفينيكس او فينقس يبدو في اول الامر عظيماً . ولكن ما ثبت من تغيير جبيل بلباوس يجعل تغيير لفظ الكنعاني بلفظ الفينيقي شديد الاحتمال ولا سيما مع معرفتنا انهم كانوا يردون ما لا تألفه آذانهم من الكلام الاجنبية الى حالة التزييق (١) او يبدلونها بلفظ يوناني صرف وقد اثبت سنسكن يتن الكنعاني ان كنعان ($\chi\nu\alpha$) هو اول من سماه اليونان فينقس (٢) من غير ان يُظهر انها اسمان مفترقان . وزد على هذا ان اسم الفينيقيين كان يطلق على جميع القبائل الكنعانية كما ان فينيقية كانت تتناول كامل ارض الكنعانيين من البحر الاحمر

(١) شاتوبريان في مقدمة الدروس التاريخية

(2) Sanchon. Frag. II, 27.

الى النهر الكبير . وما كان عند اليونان في اللغة القديمة اسم آخر للدلالة على الكنعانيين ولا صيغة اخرى مأخوذة عن هذا الاسم السامي . اما الكنعانيون فلم يعدوا هذا الاسم مهيناً ولا خطر لهم انه خطأ وغلط ومن ثم آل بهم الامر الى ان استعمالوه كأنه اسمهم الحقيقي ولو كان قد شوّه التصحيف والتحريف . أفلا ينتج مما تقدم ان اسم الفينيقيين لم يكن في الاصل إلا مجرد تحريف لاسم الكنعانيين السامي ؟ والذي سهّل لليونان استعماله هو صيرورته بواسطة تصحيفه كلمة معروفة ومبتذلة في لغتهم معناها الاحمر كما هو الامر في تير وببلس (Tyr et Byblos) اي صور وجبيل

هذا هو الاصل الذي يبدو لنا انه اقرب احتمالاً للاسم المذكور الذي اقتصر اليونان على تحريفه من غير ان يستنبطوه (١)

(١ حاشية للمترجم) اذا وقعت الفاظ لغة على لسان قوم اجنبيين عنها فربما ابقوها على ما هي وهذا نادر لا يقع إلا في اللغات التي من طائفة واحدة ولكن الاكثر ان يصيبها التصحيف والتشويه وذلك يكون بحذف بعض الحروف الاصلية او بابدال حرف لا وجود له عند الاجانب بما يقاربه . واما ان يكون ذلك ايضاً بابدال بعض الحروف وقلب ترتيب بعضها كقول عامتنا جننار في تعريب جنرال . ونفس هذا الامر امكن

نقتصر الان على هذا القدر من البحث وننهي الكلام عن اسماء شعوب لبنان واما كنه العمومية باسم فينيقية المشار اليه (١) ولذلك ندع التنقيب هنا عن اسماء المدن والقبائل الخصوصية لاننا سنتكلم

ان يجري على رأي المؤلف في كلمة كنعان او كنع فقالوا فنكس بالقلب والابدال والحذف وزيادة السين علامة للرفع عندهم . ولا ينبغي ان نستغرب ذلك لعلمنا ان العامة لا تتبع قياساً معلوماً بل تجري على ما يوافق هواها اما لسهولة اللفظ او لان الصيغة التي يدلون بها الكلمة الاجنبية تكون ذات معنى في لغتهم او لئكة اخرى يجملها العلماء

(١) ان اسطفان البيزنطي زاد في معرض كلامه عن كلمة (فينيقي) ان فينيقية كانت تدعى ايضاً ربوتين وكليتيس . غير ان كلا الاسمين هما في الحقيقة اسم واحد معناه الخلجان والجون كما قاله بوشار (في معرض ذكره للفظ كنعان ك ٢ ف ١٢) والاول منهما فينيقي والثاني يوناني . اما المؤلف المذكور فانه يطلقهما على فينيقية الشرقية خالطاً لها مع فينيقية الليبية اي مع المستعمرات الفينيقية في شمالي افريقية وفي تلك الاماكن خلجان عظيمة سببت اطلاق الاسمين المشار اليهما اكثر من سواحل سورية التي لا تصادف فيها الا جونا صغاراً . غير ان كلمة ربوتين كما قاله بوشار لا تدل على الخلجان الا

عليها بامكانها في عرض التاريخ . ألا ان الاسماء التي ذكرناها في خلال هذا الفصل قد بطل استعمالها تماماً ولم يقوَ منها على تقلبات الدهور إلا اسم سورية والشام ولبنان

واما بقية الاسماء فما هي إلا ذكرى تاريخية للازمان السالفة . ولكن هذه الازمان السالفة انما هي التي ينبغي للمؤرخ ان ينقر عنها ويدون حوادثها

ان اسم لبنان هو الاسم الاوحد بين سائر اسماء هذه البلاد الذي يمتاز عنها بكونه اسماً سامياً صرفاً معروفاً في كل زمن عند عامة الشعوب غير متغير مع توالي الايام . كيف لا وقد نُطق به لدى مهد الامم الاولى التي استوطنت هذه الديار البهية وقد اعتورته تقلبات الدهور واتت عليه تدميرات الفاتحين فخرج من بينها سالماً غير مشوب بنقص او تحريف . كيف لا وقد دخل في جميع اللغات التي تكلم بها من اهلوا سفوحه وعمرها اسافله وتزل عند كل أمة منزلته اللائقة من الاعتبار والاکرام . فلهذا ما برح الى الان قائماً على رسوم كثير من الاخربة والقبور كأنه اثر ظفر مكللاً بمجده السالف جبين الشعوب الحديثة التي

دلالة بعيدة لان اصل معناها (المدن العواصم) ومن ذلك يتحصل ان الاسمين المذكورين لا يمكن حسابانها في عداد اعلام فينيقية

لجأت الى ظلِّه المعظم . ولما كان قد استمر هذا الاسم متمكناً على ممرّ
الازمان تمكّن ما فيه من الصخور كان لنا بمثابة رابطة يربط بوحدة مكانه
سلسلة الاجيال المختلفة ومجموع الشعوب التي سكنته وتسكنه . او بمنزلة
منارة مضيئة تهدي بصائرنا وتثبت اقدامنا في ظلمات التاريخ . ولهذه
الاسباب الخطيرة سمينا هاته الاخبار التي شرعنا فيها « تاريخ لبنان »

الفصل الثاني

في التقاليد اللبنانية

واخبار العهد القديم الاولى

ربما انك لا تجد في الارض جهة يمكنها ان تباهي لبنان وتفاخره
بالتقليدات المكانية التي ترتقي الى العصور الاولى من البشرية . فان
مهد البشر ومنبتهم على مقتضى هذه الروايات ينبغي ان يكون في لبنان
وعليه فان الحوادث الاولى المعروفة التي تقدّمت الطوفان او وليته انما
تم وقوعها حول رُبي هذا الجبل . ولذلك فان اماكنه تعبق من هذه
الاخبار السالقة بأرج قدامة تخال انه سار اليك من الفردوس الارضي
بعينه

هل ينبغي ردّ جميع من يُروى عن الازمان السالقة ؟ وهل يمكن

ان لا يلتفت الى شيء مما يُحفظ عن العصور الماضية ؟ . نعم ان ذلك ليس مستوفياً لجميع الشرائط المطلوبة للتأكيد التاريخي المطلق ولكنه امر نفيس لتكرره على السنة كثير من الاجيال التي تقدمتنا . ولربما انه لسذاجة حال العقول في لبنان المستمرة الى ايامنا حافظ على شيء مما يناسب الحقيقة الاولى . وعلى ذلك فليس يسع المؤرخ اليوم مهما بالغ في التعنيف والتحري ان يطرح كل نور ولو ضعيفاً ينعكس عن هذه التقليدات اللبنانية فيقع على اصول البشر التي لم تزل الى الان في غموض وخفاء . واذا كانت هذه العصور مغشاة بظلمات كثيفة فليس ذلك مما يسوغ اطراح كل ما من شأنه ان يوضحها ولو ايضاحاً خفيفاً

هذا واننا من غير ان ننسب لهذه التقليدات من الاهمية والتأكيد فوق ما نستحقه اذا عرضت على النقد الصحيح نطن ان الوقوف عليها يسرّ جمهوراً من المطالعين خصوصاً لشدة تعلقها باخبار العهد القديم لانها تبين لهم في الاقل كيفية فهم اهل الشرق سالفاً للحوادث الاولى المخبر عنها في الكتاب المقدس . ولما كان بعضها قد حفظ دهرًا طويلاً بامانة وصدق عند اهل الشرق الموصوف بالثبات وقلة التقلب امكن ان يأتي على بيان الطباع والوقائع التي جرت في القرون الاولى وذلك لانه يوقفك على احوال جديدة وتقريبات منيرة وتحمينات سديدة يمكن ان تتخذ في التاريخ محلاً معتبراً

ولما كنا في افتقارٍ كليٍّ الى دلائل وبيانات لاجل الاطلاع على حقيقة الاصول البشرية عوّلتنا ان لانهمل شيئاً من هذه المصادر ولا اقل شيء من الاشعة التي تفضي الى زيادة معارفنا في هذه المسألة المهمة

ولا شيء احلى واعذب على قلب الرجل المتحلي بالآداب من ان يعرف وطنه الاول . بل ان كل دليل يمكن ان يطلع منه على موقعه ولو بوجه الريب والاحتمال يكون لديه نفيساً عزيزاً . قال منتلمبر : « ان درس التاريخ خصوصاً في المسائل الغامضة التي تتعلق بمسقط الانسان يفتن كل لب لطيف فتنة باطنة مملوءة من الحلاوة . فانه يجذبه وينيره ويوقظه كما يفعل فيه صدى اغاني شيبته » (١) ولاننكر ان لكل من الاختراع والتخيل والجهل نصيباً وافراً في التقاليد التي سنبجث عنها ولكن مع هذا قد تجد بين الاخبار المشوّهة بمرور الايام حوادث حقيقية واصداء امينة ترجع اصوات الاعصار القديمة نقف منها على احوال البشر ونجد حللاً لأكبر المصاعب التاريخية . وبما اننا نكتب هذا التاريخ في الشرق الذي هو مصدر التقاليد لا يمكننا ان نعرض عن ذكرها حياء او ازدراء ولاسيا مع ما نرى اليوم من الاجتهاد في معرفة

(1) De Montalembert, les moines d'Occident. Introd. ch. IX.

الامور القديمة . لان اهل التاريخ العالمي في ايامنا يسعون بهمة لا تكلّ في ان يجمعوا اقل الادلة والمعلومات التي يقفون منها على احوال الامم البائدة والحوادث التي لا طائل لها عندنا وعلى العبادات الوثنية وما يتعلق بها من الخرافات الباطلة . وهم يفتخرون بهذه الاعمال اياها افتخار وعليه فما نظن ان احداً يلومنا على ما نجمع من هذه التذكارات المقدسة ونتحرى من تحقيق اقل الاثار وننصت الى الاصدااء القديمة بل الى اخف الحركات التي تذيع اعمال الله في لبنان او تنجر بكيفية انتشار البشر في ارضه . وبناء عليه فان هذا الفصل قد افردناه لجمع التقاليد القديمة الساذجة المحفوظة في لبنان

واعلم ان المراد بالتقليدات المشار اليها مجموع حوادث خصوصاً دينية يفوتها التأكيد التاريخي التام ولا يمكن ان تكسب صحة كاملة بل تحوم فوق صدقها ظلال الابهام وسحاب الريب . وبسبب تعلّقها بحوادث العهد القديم تتحلّى بسجيّة دينية وتستند الى اساس لا يترزع وترتقي الى اصول العالم قلما يكون فيما يلاحظ مبنى الخبر ولحمته . غير انها مع مراعاتها الدائمة لحقيقة الكتاب المقدس تضيف اليه عادة بعض ظروف لواحق وتعين امكنة وبعض آراء بين قليلة الصدق وكثيرته ولكنها مهما قوي استنادها الى اجلة العلماء وكبارهم لا يمكن ان تكون شهادتهم في حقها غير مردودة او تحوز صحة تقاليد ثابت لا يستطيع

دفعه . ثم ان هذه الاخبار التي عولنا على ايرادها هنا جمعناها في
الاجلب بنفسنا من افواه اللبنانيين لانها لا تزال الى الان حية في
صـدورهم . ولو اردنا ان نذكرهم باسمائهم لفعلنا ولكننا آثرنا ان نورد هذه
التقاليد منقولة عن تقدمنا من المؤلفين ليكون كلامهم حجة لها

١

في الفردوس الارضي

ان هذه التقاليدات ترتقي بنا حتى الى الفردوس الارضي وتسوقنا
الى داخل هذا المقام السعيد . فانها تنادي ان فردوس النعيم انما غرس
في لبنان وان يد الرب غرست فيه ايضاً الارز المخبر عنه في الكتاب
المقدس (١) وفيه خلق الانسان الاول والمرأة الاولى في عدن الاصلي
ولنسمع هنا ما يرويهِ الطيّب الذكر العلامة البطريرك اسطفان الدويهي
اعلم مؤرخي الطائفة المارونية قال (٢) : يُظن ان الله غرس الفردوس
او جنة عدن الاصلية في وادي إهدن لان حزقيال يقول « ان ارز
لبنان كان في جنة الله » (٣)

(١) مز ١٠٣ : ١٦ تروي اشجار الرب ارز لبنان التي غرسها

(٢) تاريخ الموارنة للبطريرك اسطفان الدويهي . كتب هذا

المؤلف تاريخه في اواخر القرن السابع عشر وتوفي سنة ١٧٠٤

(٣) وهذا نص كلام النبي حزقيال : فتعزى جميع اشجار عدن

ثم ان الاب فيليب الثالثي من رهبانية الكرمل الحفاة الذي زار الارز قبل ذلك الزمن بيضع سنين اعني سنة ١٦٤٠ اورد نفس التقليد المشار اليه قال « ان الارز ينبت تقريباً على قمة هذا الجبل في سهل كثير الاتساع مسدود من جهة الشمال بحرف الجبل ومعرض لجهة الجنوب وفيه عشرون ارزة من اكبر واقدم ما يكون . وكان فيه واحدة قد سقطت قبل وصولي بقايل ونصفها كانه محترق . اما الارز الصغار ففيه منها عدد وافر قد نبت حديثاً في هذا السهل اما السكان فيظنون ان الارز الكبار خلقها الله في بداية العالم وانها استمرت الى ذلك الزمن بعناية مخصوصة ويثبتون ذلك بشهادة الكتاب المقدس الذي يقول « ارز لبنان الذي غرسه الرب » ويقول في موضع اخر « ارز الله » حيث ينسب الكتاب الى الله على وجه الخصوص خلق الارز . وما كان ليقول هذا القول لو لم يكن قد خلقها مباشرة . اما انا فلست انكر ما يقولون ولا اسلم به كل التسليم ولكن الذي اراه بكمال التحقيق ان الارز المذكور قديم جداً » (١) اما الكتبة الموارنة كمرهج بن نيرون

نخبة لبنان ف ١٦٤٣١ وقال في العدد ٩ من الفصل المذكور : غارت منها جميع اشجار عدن التي في جنة الله

(1) Voyages d'Orient du R. P. Philippe de la Très-Sainte Trinité, Carme déchaussé. Livre III ch. 2.

(١) فقد اجمعوا على اثبات هذا الرأي وجملة مؤلفين من غير الموارنة دافعوا عنه ببعض الحمية (٢)

اما التقليد المذكور فهو باقٍ الى ايامنا وـكثيراً ما سمعناه وقد ذكره المسيو رنان احد المؤلفين المحدثين واثبت وجوده وعارضه اشدّ المعارضة بعد ان قدّم كلامه بالتنديد والتهكم قال « ان ارتياح الموارنة الى جعل عدن في واديهـم المقدس (وادي قديشا) يصدر طبيعياً عن تعلقهم الساذج بوطنهم ومحبتهم للوادي المذكور الذي جرت لهم فيه عدة مواقع تشهد لهم بالبسالة والشجاعة والحق يقال ان هذا الوادي من اثره اما كن الدنيا واوفرها نعيماً . ولاجل تصحيح مدّعاهم اختاروا كتابة

(1) F. Nairon Evoplia, 84, 88, 89.

(٢) جسين (Gésénus) في قاموسه العبراني في شرح كلمة عدن . وريتـر (Ritter) ١٧ صفحة ٦٥٠ وما يليها . وقد افترض المؤلفون الذين استشهد هذان بهـم ان اهدن هي نفس بيت عدن المذكور في سفر عاموس (١ : ٥) وجنة عدن المحكي عنها في سفر اشعيا (٥١ : ٣) وپراديس الذي تكلم عنه الجغرافيون الاقدمون ولكنه ليس بثابت ان هؤلاء المؤلفين قد ارادوا بالالفاظ المتقدمة الدلالة على اهدن

عدن (حج) بالعين المهمة وهي الكتابة المستعملة عند اهل الكهنوت والتي اثبت اعلم الناس عندهم انها هي الكتابة الاصلية (١)

(١) جميع المخطوطات السريانية كُتبت فيها هذه الكلمة بالعين (حج) وكذلك جميع الكتب المطبوعة . اما كلمة اهدن فما جرى استعمالها عند العامة الا من بعد تركهم الحديث للغة السريانية التي كانوا يتكلمون بها قبلاً . فكيف يستطيع المؤلف المشار اليه ان ينكر كتابة هذا الاسم بحسب ما توجد في مخطوطات العهد الذي كانت فيه السريانية لغة العامة . ولكنه قد زعم في بعض حواشيه ان مثل هذا التغير لا يقع في الانتقال من لغة سامية الى لغة أخرى غير ان هذا الزعم ليس مبنياً على برهان وهو مردود بما نراقبه من ان التغير الذي يقوم باستبدال احد الحروف الحلقية بأخر شائع بين العرب خصوصاً الآميين منهم الا ترى ان بعضهم يقول اصبح في اصبع وشحوه وخسل بدلاً من اقشعه وغسل وما اشبه . وهذا امر وضعي قد أكدته بلمور وعزق عنه كل ريب حتى في لغة البدو مع ان اهلها اشد تمسكاً بالاصطلاحات وخصوصاً بهيئة النطق (Rev. archeol. Août 1871) وعليه فان الانتقال من لغة سامية الى أخرى لا يجر بمفرده الى وقوع هذا التبديل بل يجره ايضاً عادة العرب واستعمالهم الحالي له . ومع كوننا لا

اما اهدن بحسب قولهم فما هي الا تحريف من العرب (١)
 ومن حيث ان عدن في اللغات السامية يدل على النعيم فبلا ريب
 امكن ان يلقب به كثير من الامكنة من دون اتصالية لازمة مع
 التقليدات عن عدن الاصلي . واننا لنسلم بلا عناء ان حسن موقع
 اهدن مما يمكن ان يكون داعياً لتسميتها بعدن نظراً الى جمال المكان
 المذكور وفرط بهجته في ايام الربيع . ولما ان جرى هذا الاستعمال حصر
 الموارد بسبب « حبهم لوطنهم » في هذا المكان التقليد القائل بان
 الفردوس الارضي هو في المشرق بلبنان او بالقرب منه

ويؤيد ذلك ان اهدن يبعد ان تكون بمفردها الجهة الوحيدة
 من لبنان التي تفتخر بانها كانت محل عدن النعيم . فان وادي الفراديس
 بالقرب من دير القمر حيث تنجس اربعة ينابيع نهر الباروك يذكرنا
 بمثل هذا التقليد عن الفردوس الارضي . والنهر الذي يتكون من ينابيع
 هذا الوادي ينصب اليوم في البحر فوق صيداء باسم نهر الاولى ولكم
 كان يسمى ايضاً عند مصبه في القرن السادس عشر بنهر الفراديس (٢)

نروم الحاماة عن تقليد اهدن الذي يحصر الفردوس بالقرب من الوادي
 المقدس ينبغي التصريح ان براهين الخصم الحدث لا قوة لها ولا سند

(1) Renân. Mission de Phénicie, I, 5.

(٢) البطريك اسطفان الدويهي في تاريخ الموارد

وتوجد ايضاً قرية عظيمة تسمى ايضاً قرية الفراديس في وادي التيم الجميل على مقربة من منبع الاردن الاعلى عند سفح جبل الشيخ . وذكر الجغرافيون الاقدمون وهم استرابون وبلين وبطليم (١) في كورة لاذقية لبنان التي هي اليوم سهل حمص مدينة پراديس اي فردوس وهي التي وُجد مكانها في جسية القديمة (٢) قريباً من منابع العاصي الكبيرة بين الجبل الشرقي والجبل الغربي

ولعل هذه الاسماء وغيرها مما اهلنا اختصاراً ناتجة عن تقليد يضع في لبنان مكان عدن الاصلي . فان لفظ الفردوس لا يفرق في مدلوله عن لفظة عدن لان معناه البستان البهيم المغروس بالاشجار والملازين بالحضرة والمسقي بالمياه . غير انه ليس في التحقيق مأخوذاً عن اصل يوناني فان يول پولوك وسويدا يتكران ذلك ويسمانه بسمه اعجمية (٣)

اما العلماء المحدثون فهم ميالون الى القول بانه من اصل فارسي او سنسكريتي او ارياني . ومع هذا يمكننا ان نثبت بشهادات راهنة

(١) استرابون ١٦ : ٢ : ١٩ بلين ١٩ : ٥ بطليم ١٤ : ٥

(2) Robinson. Later. Bibl. research, Lect. XII.

(3) Jullius Poll. Onom. .X, — Suidas.

ان هذا اللفظ الكثير الدوران في الكتاب المقدس وفي التقليدات النصرانية ليس مستعاراً من لغات الامم وانما اصله من اللغة العبرانية نظير عدن (١) اذ من المحقق اننا نجده في الكتاب المقدس من عهد قديم جداً قبل ان ظهر فصحاء الفرس والهند وتمكن العبرانيون او الفينيقيون من الاخذ عنهم لان سليمان يقول في اناشيده « اغراسك فردوس رمان مع كل ثمر نفيس وفاغية مع ناردین » (٢)

وعلى هذا فان التقليد الناطق يجعل عدن في لبنان لم يعتره تزعم بل باقوى حجة يثبت بلفظ الفردوس لانه لفظ سامي وقديم ايضاً . اما سبب تعدد هذا الاسم واطلاقه على كثير من الاماكن فهو مما يسهل

(١) ان هذا اللفظ السامي يشتق عند بعضهم من كلمة « فره » بالعبرانية ومعناها حمل ولكن معناها في السريانية ايضاً اخصب واثر . و (دسا) اي العشب والحضرة . ولذا استعمله الكتاب المقدس بمعنى الجنة . وقال غيرهم مشتق من « فره » و « هدس » اي الآس فيكون معنى الفردوس المكان الذي ينبت فيه الآس وهو نبات معتبر عند الساميين

(Smith, Dict. of the Bible, v. Paradise. — Ludwig, De Raptu Pauli. — etc.).

بيانه . لان البشر لما تفرقوا على وجه الارض حملوا معهم تذكار اصلهم وسعادة الناس الاصلية . ولما تزلوا في اوطان جديدة سمو بذلك الاسم لكل موطن توهموا انه يرسم باجلى بيان حالة النعيم الاصيل . فان الهنود جعلوا فردوسهم على جانب جبل مهاترو الذي يُعدّ اعلى الهضاب في جبال حملايا وعند سفحه تنبجس من خلال الصخور ينابيع اربعة الانهر التي تسقي الهند (١) .

ولكن هذه التقليدات التي نستفيد منها معلومات نفيسة مع ما دخلها من الخرافات والحكايات لاجل ربط الشعوب المختلفة بمنبت البشرية الاوحد لا يمكن ان تتغلب على مجموع تقليدات السلاسل الاولى في آسية المتقدمة كما ذهب جماعة من محبي الهند عن هوس لا

(1) Aug. Bedin. Tradit. messian. ch. 3,3.

ان العلماء الذين يقولون بان اصل كلمة فردوس من الهند قد ضلوا في تفسير كلمة « برآدسا » في اللغة السنسكريتية . فان جسين في قاموسه وجمهور العقليين كانوا يظنون بان معناها « الجهة المباركة المغروسة » غير ان ذلك وهم لان هذه الكلمة يراد بها في السنسكريتية الفصيحة « الجهة الغريبة » وهذا على ما ترى يهدم قولهم وينقض مدعاهم

كل النقض (Smith, Dict of. the Bible)

عن مراعاة لقوانين العقل والقياس المنطقي . والحاصل ان ذلك لم يكن في الهند وفي غيرها من الجهات ألا عن مجرد حصر التذكارات التي حملها الناس عند رحيلهم الى الشرق الاقصى بالاماكن التي حلّوها وفي معرض كلامنا عن عدن لبنان نرى انه لا بدّ من ذكر قول النبي حزقيال الذي يجعل مقام ملك صور في « عدن جنة الله » لان جماعة من المفسرين عدّوه إشارة الى عدن الاول . وكون موقعه في الاراضي اللبنانية قال : يا ابن البشر اشدّ برثاء على ملك صور وقل له هكذا قال السيد الرب انت خاتم الجبال ممتلئ بحكمة وكامل بهجة . كُنت في عدن جنة الله وكل حجر كريم كان كساء لك . . . انت كروب مُنبسط مظلل . انا اقتمتك وقد كنت في جبل الله المقدس وتمشيت في وسط حجارة النار وخطئت فدّنتك عن جبل الله وابدتك ايها الكروب المظلل » (١)

ان هذه التعابير السريّة في النبوءة المذكورة قد افسحت مجالاً رحباً الى تأويل المفسرين واستنباطاتهم خصوصاً اليهود الربّابين فانهم ينسبونها الى حيرام معاصر داود الملك ولا يخجلون من القول بانه عاش الف سنة في الفردوس الارضي فقد قال احدهم « ان حيرام ملك صور

لكنه ساعد على بناء الهيكل وطلب مرضاة الله استحق أن يدخل في
جنة عدن وعاش الف سنة في الفردوس . ثم تكبر وقال ما أخبر عنه
حزقيال « انا اله » (١)

ومع كون ميل الربانيين الى اختلاق وتصديق الخرافات يكتفي
لتعليق هذا التفسير الغريب قد يحتمل ان يكون له اساس في ادعاء
الصوريين الذين كانوا يتفاخرون بكونهم متسلسلون عن آدم دون سائر
البشر ويذكرون انه اول ما اقام في جزيرة صور التي يجعلون فيها مكان
عدن الاصلي . وتوجد حكاية فينيقية قديمة تخبر ايضا بتأليه حيرام بعد
استمراره نحو الف سنة في الفردوس . فليس بمستبعد اذا ان يكون اصحاب
الترجوم من اليهود (٢) ولاسيا مع ما هو معروف عنهم من اختلاق
مثل هذه الخرافات قد انتحلوا معظم خبرهم من هذه الحكايات
الصورية عن الالهة حيرام وحم بعل او افيون (حية الفردوس) ثم

(1) Ben-Sirah f. 15, 2, sur Ezéchiel. — S. Jérôme (in Ezech. L. IX, c. 28) et Origènes (in Ezech. Hom. XIII).

ان القديس هيرونيم واوريغان ذكرنا ايضا ان هذا الكلام ينسب
اليهود الى حيرام وانهم يقولون بكونه عاش الف سنة حتى لحق عهد
حزقيال بل تحطاه وتجاوزه

(2) Jalkout kardasch f. 69, 2; — Jalkout Schmoni, sur Ezech. f. 72, 4.

ادخاوه مع خد الكتاب المقدس عن الفردوس الارضي (١) . اما
 كلام حزقيال فمن البين انه اشارة الى عدن المخبر عنه في الكتاب
 المقدس غير انه لا يمكن ان يُستنتج منه شيء يدل على موقعه الجغرافي
 ثم ان مدينة دمشق بلبنان تدعي باشد حرارة ان الفردوس الارضي
 كان في اراضيها المعجبة لان السهل الجميل الذي يطيف بها تفوح منه
 كما قال شعراء العرب روائح الجنان . واهلها يعدون غوطتهم البهيمة
 الواقعة في سفح الجبل الشرقي على تحم البادية اول موطن للجنس
 البشري . ونهر بردى المنصب من هذه الجبال العالية في واد ضيق
 والمنشعب عند مدخل السهل المذكور الى اربعة فروع كبيرة اعني بها
 نهر القنوات ونهر يزيد ونهر عقربا ونهر بانياس هو عندهم بمثابة نهر
 الفردوس والاربعة الارؤس المتفرعة منه التي كانت تسقي جميع هذه
 الارض . وعلى ذلك فان آدم يكون قد خُلق هناك في حقل دمشق (٢)
 شرقي ارض الموعد وهناك اغوت الحية حواء فاخذت من الثمرة المحرمة

(1) Movers. Die Phonizier. Buch. I c. 6, 22.

(٢) ان كثيراً من المؤلفين يجعلون حقل دمشق قريباً من
 حبرون . وهذا تقليد قديم نجله غاية الاجلال . ولكن لا يجب ان
 نجعل له من الاهمية فوق ما جعلنا لتقليد دمشق لاجل تعيين المكان
 الذي خُلق فيه الانسان الاول . ومهما يكن من الامر فمن المحقق ان

وأكلت واعطت بعلها فأكل وجلب على ذريته برمتها ما جلب على نفسه من سوء والخسران

قال السيد مسلمين : ان النصارى في الجهة المذكورة يتوهمون ان الله خلق آدم من تربة دمشق الحمراء (١) . وقد اثبت هذا التقليد احد المرسلين الاقدمين وهو الاب يعقوب كوجون الفرنسي بنوع اجلى بياناً قال : بالقرب من برج (Victoria) في قرية الصالحية القريبة من المدينة بميلة الى الشمال يوجد محل يُسمى حقل دمشق وفي وسطه عمود مرفوع في نفس الموضع الذي يُظن ان الله خلق فيه اول جميع البشر (٢) ثم ان سهل دمشق له منظر بهيج جداً بحيث لا يتعجب من مثل هذا التقليد القائل بكون الفردوس الارضي انما كان فيه . قال السيد مسلمين « هنالك ترى الشرق بكامل عزته وعظمته . فان دمشق قائمة في ذلك السهل المتسع مزينة بالماذن الكثيرة والقباب المتلائة ومن حولها

تقليد دمشق هو قديم ايضاً . فان مندرل البروتستاني ذكر ان السكان يجعلون حقل دمشق في المروج المتسعة التي هي امام الباب الغربي من المدينة

(١) مسلمين . الاماكن المقدسة فصل ١٥

(2) P. J. Goujon, Min. Obser. Hist. et voy. de Terre-Sainte.

اكيل من الحضرة متسع كأنه البحر وتلك الحضرة يانعة مونة كأنها
حلي الاعراس يفوح منها عبير الروائح الزكية فوحه من غابة نارنج . ثم
تحترقها الانهر التي تبث الناء والحياة في تلك الجنة الفتانة بل في تلك
المدينة الجديرة بان تسمى ملكة آسية (١) . ولا شك ان ما هنالك
من الجمال الرائع والخصب الوافر والمنظر الحسن كل ذلك قد حمل
الناس على ان يخصصوا بوادي دمشق ما ورد من التقليدات الشرقية
عن جنة عدن

ولما كانت المدينة المذكورة بهذا المكان من النعيم والرونق بعث
ذلك المسلمين ايضاً الى قبول التقليد المشار اليه
قال ابو الفداء : ان غوطة دمشق احدى الجنان الاربع المفضلة على
منتزهات الارض وهي غوطة دمشق وشعب بوآن ونهر الابله وصغد
سمرقند وقد فضلت غوطة دمشق على الثلاث المذكورات (٢)
ولا ريب ان عرب البادية لما وصلوا قبالة دمشق بامرة خالد بن
الوليد تعجبوا من جمال هذا الوادي وانهلوا من خصب دمشق وغناها
حتى سؤل لهم ذلك ان يعتقدوا انها من احدى الجنان (٣)

(١) مسلمين في الموضع المذكور

(٢) ابو الفداء تقويم البلدان في ذكر الشام

(٣) واورد پلغراف (في كتاب اسفاره في العربية الداخلية) عن

وفضلاً عن هذا فقد ذكر الواقدي ان عمرو بن العاص نصب
 خيامه امام الباب المسمى باب الفراديس (١)
 ولما ان تسلط المسلمون على سورية تلقوا بالحرص تقليد الاراميين
 الاقدمين الذي يعين مكان الفردوس الارضي بدمشق . ثم اضافوا اليه
 تحسينات وزيادات وذكر ذلك ابن خلدون في جملة المزاعم التي هي
 اشبه بالخرافات فقال :

كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من
 بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم فسمع وصف
 الجنة فقال لابنائه مثلها فبنى ارم في صحارى عدن في ثلاثمائة سنة
 وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة
 واساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الشجر والانهار المطردة

رجل عجمي من الشيعة هذا الكلام : ان اهل البدو لم تكن لهم
 معرفة الا بجذب الحجاز والبادية . فلما قدموا الى دمشق لأول مرة
 ووجدوا البساتين البهيجة والعيون الجارية توهموا ان هذا المكان هو
 الفردوس الارضي فسموه بذلك . ولو انهم جاؤوا الى بلادنا لكانوا عدلوا
 عن هذا القول

... وبعضهم يقول انها دمشق بناءً على ان قوم عاد مكوها (١)
 وقال الامام المسعودي احد شراح القرآن المشاهير انما عني بهذه المدينة
 مدينة دمشق التي بناها جيرون العادي ثم تزلت فيها قبيلة عاد (٢)
 ووصف ابن بطوطة مدينة دمشق فقال : واما دمشق فهي جنة
 المشرق ومطلع نورها المشرق ... والله صدق القائلين عنها ان كانت
 الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها وان كانت في السماء فهي
 تساميا وتحاذيا (٣)

ولكن في تشبيه جنان الارض بجنة السماء غلوًا غير مقبول لا
 يستحسنه عاقل فشتان بين جنة الارض وجنة السماء
 وهذا لا يصد بعض المسلمين عن ان يضعوا احدى جنانهم الارضية

(١) مقدمة ابن خلدون الصفحة ١٧ و ١٨ من طبعة باريس

و ١٣ من طبعة بيروت

(2) Masoudi. D'herbelot, Bibl. Or, Eden, Scham.

(٣) ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار

في معرض وصف دمشق . نخب الملح القسم الثالث من الجزء الاول

في وادي البقاع القائم بين الجبل الغربي والجبل الشرقي (١) ألا ان
اكثر التقاليدات المقبولة عندهم في هذا الشأن تجعل الفردوس في اجمل
اماكن الجزيرة العربية. ومن حيث انها خارجة عن دائرة تاريخنا فلا
يتعلق بنا ان نتصدى لذكرها

وليس من غرضنا الان ان نبحث عن المكان الحقيقي الذي وُجد
فيه الفردوس وانما جلّ مقصدنا ان نورد في هذه المسألة التي قد
يستحيل حلّها بوجه مرضٍ شهادات التقاليد اللبنانية لا غير. ولئلا
يؤدي الامر الى المبالغة في اهمية التقاليد المذكورة والغلو في اعتبارها
نقول ان القديس يوحنا الدمشقي النافذ القول فيما يتعلق بالتقاليد
السورية قلما يؤيد الاعتقادات المقبولة في وطنه عند النصارى والمسلمين.
اما نصّ كلام هذا المعلم اللبناني فهو : « ان عدنا الالهى وضع أوّلاً
بنوع غير معروف في مكان مرتفع عن الارض باسرها في جهة كثيرة
الاعتدال لا يعترها ادنى تقلّب في الازمنة او الفصول . اما هواؤه

(1) Smith, Dict. of Bible. v. Paradise.

والسيد بلنشه اليسوعي سمع السيد اغناطيوس العجوري مطران زحلة على
الروم الكاثوليك يقول : « ان ابرشية زحلة تسمى بابرشية الفردوس .
لان بعض التقاليدات القديمة تعين الفردوس الارضي في هذه الامكنة »

فصافٍ ولطيفٍ ونوره مُعتدلٌ وروائحُه زكيةٌ وربيعه وخضرته دائمان
وازهاره لا تنقطع . وبالجملة فإنه يفوق بالبهجة والجمال جميع ما يقع
تحت الحسّ أو يختر في الخيلة (١)

وذكر أيضاً مع غيره ان الناس اعتادوا في صلواتهم ان يلتفتوا
الى الشرق اقتداءً بآدم الذي لم يكن ينقطع عن توجيه الحاظه بتأسف
وتنهّد الى هذه الجهة التي طُرد منها بسبب معصيته (٢) . ومما يزيد
كلام هذا القديس قدراً هو انه قد لخصه عن تقليد الالباء السوريين
الذي ذكره سقريان مطران جبلة (٣) والقديس تاوفيل الانطاكي
ايضاً وهو اقدم عهداً بكثير من سقريان المشار اليه (٤)

غير ان هذا الزعم المبهم عن الفردوس الارضي ليس هو اكثر

(P. de Damas, Souvenirs du M. Liban, ch. 2).

(1) S. J. Damasc. de Fide Orth. II, 11.

(٢) القديس يوحنا الدمشقي في الكتاب المذكور ٤ : ١٢

(3) — Severian. Gabal. de Creat. or, V et VI.

واما الاربعة الانهر التي تخرج من عدن فهي عند هذا المؤلف

دجلة والنيل والفرات والطنونة

(4) S. Theoph. Ad Antolyc. II, 19, 24.

ان الالباء الاقدمين في المشرق كانوا يشرحون الفردوس الارضي

بمعنى رمزي . غير ان البدع التي تولدت عن هذا الشرح الرمزي قضت

شيوعاً واتباعاً ولا يتقوى على ان ينقض بالتأم تقاليدات لبنان المكانية حتى ان قوماً من العلماء المحدثين مع كونهم في هذه المسألة لا يعولون إلا على الكتاب المقدس يؤيدون بآرائهم هذه التقاليد اللبنانية ويقوّونها وما خلا الذين يفهمون بعدن مشايعة لفلاف يوسف (١) ما بين النيل الى الفرات او الى الكنج (بالهند) ايضاً مدخلين فيه بالضرورة جبل لبنان بكامله (٢) نورد لك رأي كلير وستروم اللذين يجعلان الفردوس فيما حوالي لبنان الغربي والشرقي خصوصاً في كورة دمشق ثم يدّانه من هنالك الى ما بين النهرين لاجل ان يضمّا اليه دجلة والفرات فيكون نهر فيشون على قولهما هو عين نهر بردى الذي كان يسمى في

بالعود الى التفسير الحرفي منذ ايام القديس تاوفيل ولكن من غير بحث في امر تعيين مكان الفردوس على وجه التدقيق
(Anastase d'Antioche, Hexaem. II, 7.)

(١) فلاف يوسف في العاديات ١ : ١ : هذا فضلاً عن ان كل

تفسير لا يُدخل في الفردوس الارضي دجلة والفرات يجب رفضه

(٢) ان القديس ابيفان الذي كان يعرف جيداً هذه الامكنة

وهذه التقاليد الشرقية نظراً الى كونه فلسطيني المولد قد شايع فلاف يوسف وانكر ان الفردوس كان معلقاً في الجو

(Ancorat. 58 et XII Gemmæ, Smaragd.)

القديم كريسُّ واس (اي جالب الذهب) (١) ويجري حتى الى
الاورقيانوس الهندي ويسقي جميع ارض الحويلة حيث الذهب (٢)
واما جيحون فيكون نفس نهر العاصي الذي كان محيطاً بجميع ارض
الحبشة الاسبة (٣). وما احسن كلام الاب بيتو (Pétau) اذ
قال : ماذا يجدي التنقيب عن هذه الامكنة وتلك الانهر مع ان وجه
هذه الناحية لا بد ان يكون قد اعتراه من ذلك الزمن بل من عهد
موسى (٤) تغيرات وتقلبات كثيرة
وان كان يُستبعد ان الناس لم ينسوا تماماً ذكر المكان الذي كان فيه

(١) ان الاسم الذي يكنى به هذا النهر اليوم يظهر انه نفس الاسم
الآرامي القديم أُعيد بواسطة العرب الى شرفه الاول على حدّ غيره من
الاسماء . لان اسطفان البرنطي في القرن الخامس يسميه (نهر
بردينيس) وعليه فمن البين ان بردي هي نفس تسميته بالسامية .
ويمكن ان يكون في هذا الاسم آثار من التقليد الفردوسي لان بين الفاء
والباء والياء تقارباً ظاهراً في اللغات

(٢) التكوين ٢ : ١١

(3) Le Clerc, Comment. in Genes.—Dissert. de Dom Calmet sur le Paradis terrestre.

(4) P. Petavius, Theolog. Dogm. de opific. sex dier. L. II, c. 5.

عدن النعيم ولا ذكر سعادتهم الاصلية ولا انهم انقطعوا حالاً عن تسليم هذا التقليد بعضهم الى بعض لا يستطيع مع ذلك الاثبات انهم بهذا الذكر ارادوا مدة امدٍ طويل مكاناً معيناً بموقعه وحدوده يسهل الوقوف عليه بدلائل راهنة لا شك فيها . وقد اخفق اهل العلم الى الان في جميع ما عانوا من البحث في موقع الفردوس الارضي . غير ان التقليدات العمومية التي تضع الفردوس في آسية المتقدمة مهما تعمّر الامر في تعيين الامكنة الخصوصية المسماة في التوراة لها من الاهمية والقدر ما يفوق بكثير جميع ما يخالفها من الآراء

الم يكن اذاً من الاوفق لمقاصد الله تعالى ان لا يكون محل البرّ الاصلى بعيداً عن هذه الارض التي كانت مركز البشرية ومهدّها وميراث شعب الله ووطن المسيح (١)

٢

في مقر آدم بعد خروجه من عدن
ثم ان تقليدات اللبانيين عن الانسان الاول ليست مقصورة على وجوده في الفردوس بل تتخطى الى خروجه عند معصيته التي جلبت

(١) ان القديس باسيل عيّن موقع الفردوس في نواحي اليهودية
(السيد مسلمين في كتابه الاراضي المقدسة المجلد ٢ الصفحة ٣٨٢)

اللغة على الارض . وقد اخبر البطريك اسطفان الدويهي عن عقائد بعض سكان الجبال اللبنانية في شأن هذه الحوادث القديمة قال : « من المظنون ان آدم لما اخرجهُ الله من عدن النعيم سكن جبل حرمون (جبل الشيخ) وان ولديه قاين وهايل اقاما طويلاً شرقي الفردوس في سهل البقاع . . ويُستدل على صحة هذا التقليد اليوم من قبور هايل وقاين وشيت الموجودة في جوار المحل المشار اليه » (١)

ومع هذا فان آدم لم يهجر لبنان هجراً كاملاً لان التقليد ينسب اليه عملاً من اعمال الجبارة في سفح صّين باعالي كسروان . اذ ان هنري دي بوثر الذي زار لبنان سنة ١٦٠٢ اورد هذه الرواية الغريبة وهي : « بالقرب من بيروت وبين الجبلين يخرج نهر يصب في البحر وعليه قنطرة عجيبة في ارتفاعها يُقال انها بنيت بيد ابننا الاول آدم (٢) » اما هذه القنطرة العجيبة فهي على نهر اللبن الذي يصب في نهر الكلب طولها ٥٢ متراً وعرضها ٣١ وعلوها ٥٨ وانتظام قبتها يوهم انها من صنع ايدي البشر

وقد نقل زكرياء القزويني تقليداً آخر مما يتعلق باطراف لبنان في سهل عكا وهو غاية في الغرابة قال : « بها عين البقر وهي بقرب عكا

(١) البطريك اسطفان الدويهي في تاريخه لسنة ١٦٢٣

(٢) H. de Beauvau, Relation journalière, III. p. 100

يزورها المسلمون واليهود والنصارى يقولون ان البقر الذي ظهر لآدم
(عم) فخرث عليه أُخرج منها « (١) والظاهر ان هذه العين هي نفس
العين التي سمّاها الفرنسيّس في القرن السابع عشر بعين البكر مريم (٢)
(Fontaine de la Vierge Marie)

٣

في قتل قايّن هايل

ثم ان الشرّ الذي انتشر بعد ذلك في الدنيا انتشار السيل
الخفيف ظهر اثره اولا بقتل قايّن اخاه هايل . والتقليد ايضا يدل
على وقوع هذا الاثم الفاحش في لبنان . وعليه فان اول دم بشريّ
أريق فيه ترك على رُباه عاراً لا يُمحي ونقيصة لا يُعفي ذكرها توالي
الاعصار

ان اسم دمشق (٣) يدل اولا في اللغات السامية على الموضع

(١) زكرياء القزويني في آثار البلاد الصفحة ١٤٩

(٢) مندرل في سفره من حلب الى اورشليم . وفي ظننا ان

كلمتي بقر وبكر اللتين يمكن للاجانب بكل سهولة ان يخلطوا بينهما هما
اللذان سبّتا اطلاق هذا الاسم على السنتهم

(٣) دمشق مشتقة من (دم) بالعبرانية ومن (شقه) اي شرب

الذي يشرب الدم اما هذا الدم فهو دم هايل بمقتضى التقليد . قال القديس هيرونيم : « معنى دمشق شراب الدم . ولا شك في صحة رواية العبرانيين الناطقة بكونها الحل الذي اقترف فيه قاين قتل اخيه هايل (١) . وبسبب هذه الفعلة الشنعاء ، أُطلقت عليها التسمية المشار إليها . وعليه فان بين هذه التسمية المأخوذة عن اول جريمة قتل و (بين) سفر بولس الظمان الى القتل وسفك الدماء ملائمة غريبة ذات تأثير . لانه شخص الى دمشق بعد ان اراق دم اسطفان اول شهيد يسوع المسيح ليقبض على جميع المؤمنين بالمسيح ويسوقهم الى اورشليم (٢) وبناء عليه فانه من ارض دمشق هذه قيل لقائين (٣) » والان فمعاون انت من الارض التي فتحت فاهها لتقبل دماء اخيك من يدك » (٤)

ثم ان جماعة من الابهاء والمؤلفين خلا القديس هيرونيم قد اوردوا التقليد المشار اليه نظير امر مسلم به ولا شبهة في صدقه (٥) . وبما مرّ تعلم

وسق Lexic. Cathol. Drach (١) التكوين ٨:٤

(٢) اعمال الرسل ٩: ١: ٢ (٣) التكوين ٤: ١١

(٤) القديس هيرونيم في تفسير نبوة حزقيال ك ٨ ف ٢٧: ١٨

(٥) قال فكر (Hist. Hieros. III, 51) « فاما معنى

ان النور العزيز الذي تلقى الشهادات المتعددة على هذا التقليد اللبناني
 ينعكس ضرورة على جميع التقاليد المتعلقة بالحوادث الاولى التي
 جرت للبشر فان كان موت هايل قد تم تمثيله في وديان الجبل الشرقي
 لم يبق وجه للريب في ان منبت البشرية والمركز الذي انتشرت منه
 في انحاء الارض ليسا ببعيدين عن الجهة المذكورة فان الظاهر ان
 الابوين الاولين اقاما بعد شقائهما على باب الفردوس . وعلى كل
 الاحوال فان الاحاطة بهذه التقاليد المقبولة عند كثير من علماء
 الكنيسة المشاهير لا يخلو من فائدة عظيمة

واعلم ان هذا التقليد المروي عن دمشق مدعوم ايضاً في الاماكن
 المجاورة لها بسلسلة تقاليد تناسبه وتلائمه . فعلى شمال دمشق في الموضع

دمشق فقبلة الدم اوشار به . وقد قرأنا ان دم هايل قد أريق في
 دمشق . هذا هو التقليد الذي كان منتشرًا أيام الصليبيين »
 وقال يوحنا الورتز برغي احد السياح في القرن الثاني عشر او
 الثالث عشر (Descript. T. S. Cap.v) « بنى دمشق هذه اليعازر
 خادم ابراهيم في نفس الحقل الذي قتل فيه قاين اخاه هايل : وتزل
 عيسو في دمشق . ومن ثم يُسمى سكير وادوم لان سكير معناها الازب
 وادوم معناها الاشقر او الاحمر »

الذي يخرج فيه برّدى من واديه الضيق يرتفع على علو مثتي متر عن مساواة السهل جبل (١) يقال له جبل قاسيون وعند اهل تلك الناحية تقليد مآله ان حادثة قتل هابيل التي كانت سبباً للتسمية دمشق انما حصلت فوق قمة هذا الجبل او فيا جاوره وهذا هو اعتقاد المسلمين ايضاً بحسب ما نص عليه ابو الفداء (٢) قال دي هر بلو: قد رأينا قريباً من دمشق في سفح جبل مشرف على المدينة الحبل الذي (بحسب اعتقاد المسلمين) قتل فيه قايين اخاه هابيل (٣)

قال الامام القزويني « اهل السير يقولون ان آدم (عم) كان ينزل

(١) قاسيون او كسيوس هو اسم لكثير من الجبال في خارج لبنان . وهو مشتق من (قشه) بالعبرانية اي قسا و صلب وتوعر . وهو نفس اسم الجبل الذي اتخذوا منه تسمية الاله السوري الفينيقي قتر . وفي لحف الجبل المذكور قرية الصالحية على مسافة كيلومترين من دمشق

(٢) قال ابو الفداء في تقويم البلدان : وفي شمالها جبل يُعرف بجبل قاسيون يقال ان عنده قتل قابيل اخاه هابيل

والعرب يسمون قايين Cabil Herbelot. Bibl. orient, v: (3)

قابيل رغبة في ايجاد التوافق بين الاسمين . ومع هذا فان قابيل في العربية يدل على معنى القبول الذي يدلّ عليه قايين في العبرانية

في موضع بها يقال له الان بيت الايات وحواء في بيت لها (١)
 وهابيل في مقرى وقاين في قنينة . وكان في الموضع الذي يعرف الان بباب
 الساعات عند الجامع صخرة عظيمة كانت القرابين توضع عليها فمما قبلت
 تزلت نار احرقته وما لم يقبل بقي على حاله . وقتل قابيل هابيل على جبل
 قاسيون وهو جبل على باب دمشق وهناك حجر عليه مثل اثر الدم
 يزعم اهل دمشق انه الحجر الذي رض به قابيل رأس هابيل . وعند
 الحجر مغارة يقال لها مغارة الدم لذلك (٢)

غير ان الروايات ليست متفقة على تعيين هذا المكان من ارض
 دمشق موضعاً لارتكاب الجريمة التي نحن بصددنا وذلك لان التقليد
 ينسب ايضاً الى جملة امكنة من كورتها وقوع هذه الفعلة كأن القصد
 من ذلك مزيد تحقيق في قدامة الامر وعمومه . ان احد السياح
 الفرنسيين الذي طاف هذه الناحية سنة ١٦٦٠ اخبر ان المسلمين
 يبعدون اكثر مما تقدم حادثة قتل هابيل عن دمشق ويضعونها على

(١) ان ابن العساكر الحافظ مؤرخ دمشق ذكر ايضاً تقليد
 المسلمين بكون حواء كانت تنزل مع ادم في قرية بيت لها في سهل
 دمشق (قاله النووي الصفحة ٨٣٦)

(٢) اثار البلاد الصفحة ١٢٦

هضبة من هضاب الجبل الشرقي القاحلة قال « ان الصحراء الموجودة على مسافة نحو من تسعة كياومترات من دمشق بميلة الى بعلبك هي في غاية الجذب . فلا يسقط عليها الندى البتة . والمسلمون يقولون انها هي نفس الحبل الذي قتل فيه قاي ن اخاه هابيل حيث كانا يقدمان لله تقادمهما . اما اليهود فينكرون ذلك او يقولون ان جريمة القتل ارتكبت في ارض بشيمة (او بسيمة) وهي قرية كبيرة اكثراً قرباً من جبل قاسيون (١)

اما المرسلون الاقدمون فقد اشاروا الى موضع آخر كان النصارى يظنون في ذلك الحين استناداً الى روايات قديمة انه محل مقتل هابيل قال احدهم « ان في قمة جبل ايل عمودين لكل منهما قاعدة وتاج . واذا اعتقدنا بصدق التقاليد وجب القول بان قاي ن وهابيل قدما في عين هذا الحبل ذبايحهما لله تعالى . وان الشقي قاي ن حسد اخاه هابيل البار فقتله قريباً من ذلك الموضع . والقديسة هيلانة بنت كنيسة فوق قبره وقد بقي من هذه الكنيسة ثلاثة اعمدة لم تجر صروف الايام على العبث بها » (٢)

(1) D'Arvieux, Mémoires, II Part. ch. 26
(2) Lettres Edifiantes. Mission de Syrie. - Mémoire sur la ville de Damas et ses environs.

واعلم ان رد زيشيل (Radzivil) هو اول من ذكر ان ابيله (Abila)

واثبت آخر من المرسلين نفس هذا التقليد وهذه ترجمة كلامه « ان
الرأي العام في مقتل هابيل هو نفس الرأي المبني على التقليد القديم
الذي يرينا الى اليوم عمودين مرتفعين على منحدر ربوة تبعد عن
دمشق ستة عشر ميلاً وذلك بعد مجاوزتك بقليل مكان اتاكية (؟) .
وعلى هذين العمودين حنية تجعل ما بينهما على هيئة باب . وقريباً
من هناك تجد اخربة كثيرة يُستدل منها على ان القديسة هيلانة قد
بنت في ذاك الموضع كنيسة تذكّاراً لهابيل البار الذي قُتل ودُفن
هناك . اما طول مدفنه فمئة وستون شبراً » (١)

ان كورة آبل (ابيلىنة) القديمة (٢) هي كما كانت في سالف الايام
قائمة في الجبل الشرقي على مسافة أكثر من اثنين وعشرين كيلومتراً
من دمشق . اما عاصمتها آبل فقد تسمت من بعد غارة العرب بسوق

هي الموضع الذي دُفن فيه هابيل وذلك في سنة ١٥٧٤

(1) P. J. Goujon. M. Obser. Hist. et voy. de Terre-Sainte (1668) II, 4

(٢) ان طريقة كتابة هذين الاسمين في العبرانية هبل وأبل لا

تؤيد هذا التقليد في شيء مطلقاً . اما فلاف يوسف (في العاديات

١ : ١ : ٣) فقد خلط بينهما وفسر آبل بالحداد غير ان تفسيره منقوض

بكلام موسى وجميع شعبه الذين يكتبونه بما معناه الباطل والنقطة

وادي بردى . غير ان تغير اسمها لم يمنع المسلمين عن المبادرة الى
تلقى التقليد القديم الذي كان عند النصارى واليهود . فهم الى الان
يكرمون غاية الاحرام فوق الربوة المطلة على القرية مقام النبي هابيل
وذلك في المزار الذي يسمونه قبر هابيل ومن شاء ان يزور هذا المكان
لا بد له ان يسلك طريقاً وعرّاً متلوياً بين المدافن المنحوتة في الصخور
والمقالع المتسعة الكائنة على ضفاف الوهاد ومنها يتسلق المنحدر الشاهق
الفاصل ما بين قرية السوق وضريح هابيل . وهو بناية عظيمة لا يقل
طولها عن عشرة امتار . لان بعض الامم الشرقية تعتبر ان الاباء
الاقدمين كانوا من الجبابرة الاقوياء . وعلى بعض خطى من هنالك
نحو الجنوب ترى اخربة الكنيسة التي تقدم الكلام فيها آنفاً غير انه لم
يبق منها الا بعض جدران متهدمة في معظمها

اما العمدة التي كانت واقفة منذ قرنين فقد تدحرجت الى اسفل
الجبل ومع كل هذا لم يُحجَّ الى اليوم رسم البناء والرواق وتخطيط
العمارة . وما عدا كورة ابيلىنة توجد اماكن كثيرة على جنوبها تسمى
باسم هابيل نظير آبل معكة (١) وآبل مائيم (٢) وآبل (٣) وآبل القمح

(١) الملوك الثالث ٢٠: ١٥ الملوك ٤: ١٥ و ٢٩

(٢) اخبار الايام الثاني ١٦: ٤ (٣) الملوك الثاني ٢٠: ١٤ و ١٥ و ١٨

وآبل السقي وغيرها مما يدل على كثرة شيوع هذا الاسم في الجبل الشرقي

والظاهر ان التقليد طلباً لمزيد الاثبات يدخل هذا الجبل بعمومه تحت لعنة الله التي رشق بها قاين لآبل رشق بها الارض التي شربت دم هابيل . فان جبل حرمون الذي يتناول عند العبرانيين جميع الجبل الشرقي معناه الحرمان او اللعنة بحسب شهادة القديس هيرونيم (١) وعامة اللغويين . واسم النهر الليطاني الجاري بجانب قاعدته الغربية معناه ايضاً في الارامية اللعنة او الحرمان او الموت (٢) فكل هذا مجموع حوادث واسماء متفقة على تعيين الجبل الشرقي موضعاً وقعت فيه اول قتلة فحلت عليه اول لعنة

(١) (حرم) بالعبرانية معناه حرم واهلك بالموت . والقديس هيرونيم (Loc. Hebr.) فسّر حرمون بجرم الحداد اي الحداد على هابيل

(٢) قد تقدم القول ان ليطا لفظة سريانية معناها اللعنة والحرم والنزاع والموت والنفي ويحتمل ان يكون اليونان قد اتخذوا من هنا اسم ليطي احد انهار الجحيم عندهم

في بناء قايين المدينة الاولى

ان قايين بعد اقترافه ذلك الاثم الشنيع اتزل الله عليه حكم اللعنة بقوله : تائباً شاردًا تكون في الارض (١) . اما هذا الرجل الاثم فلما قُضي عليه بهذا الحكم انحاز على مقتضى التقليد الشرقي الى ارض بعلبك

ذكر البطريق اسطفان الدويهي في تاريخ الازمنة ما نصه : قال اصحاب الرواية ان قلعة بعلبك هذه في جبل لبنان هي اقدم من جميع ما بناه البشر في العالم باسره اعني ان قايين بن ادم عند ما اعتراه الارتعاش امر ببنائها في السنة ١٣٣ من كون العالم ولقبها باسم ابنه اخنوخ واسكن فيها الجبابرة والمهترجة (كذا) وكثرة فواحشهم ارسل الله طوفان الماء «

وقد قرأت في كتاب خطّ عربي قديم في مدينة بعلبك نفس هذا الخبر مزيداً فيه بعد اسم اخنوخ « هنالك اخترعت الصنائع » ونقل ايضاً احد المرسلين المتقدمين تقليداً اخر في شأن الملائكة الاشرار قال « ان قسماً من المؤلفين كما اثبت الامير رديشيل وكذلك

جمهور اهل البلاد يعتقدون ان الشيطان اشودي كان مؤسساً لبلبك ومهندساً لها وذلك انهم لم يصدقوا مطلقاً ان البشر بلغوا من الصناعة ما يتمكنون به من تشييد مثل هذه البناية الجميلة او ان اهل الخبرة والتجربة منهم اتصلوا ببراعتهم ومهارتهم الى حد ان يستخرجوا من المقالع تلك الحجارة العجيبة في كبرها» (١)

غير ان ما يقوي على الخصوص في لبنان اعتقاد الناس بكون بلبك مدينة قديمة من بناء قاين هو انها كانت كمدينة اخنوخ «شرقي عدن» او اهدن (٢) واحد السياح الانكليز من اهل العصر الحاضر يؤيد كون بلبك بُنيت قبل الطوفان ولكن بحجة واهية واهنة اذ قال ان المستودنت (وهي حيوانات لبونة كبيرة الجسم انقرضت من بعد الطوفان) التي كانت في ايام قاين انما هي التي نقلت تلك المواد الكبيرة المستعملة في بناية هذه المدينة (٣)

(1) P. J. Goujon, M. obs. Hist. II, 4

(٢) التكوين ١٧: ٤ - ان عدن عندهم هي نفس اهدن ولا

نتصدي هنا لبيان معنى نود التي فرّ اليها قاين بموجب قول السبعينية وفلاّث يوسف . وذلك لان القديس هيرونيم (Quest. in Gen.)

قد بين ان هذه الكلمة معناها التائه والشارد ولم يعين مكاناً خاصاً

(3) Dav. Urquhart, The Lebanon, Diary

الآ ان سكان اهدن في اعالي لبنان لا يسلمون بكون بعلبك حازت بمفردها على شرف كونها اول مدينة قامت في الدنيا ولهذا يظنون ان المدينة الاولى كانت في ارضهم ولم تزل اخرتها مائة شرقي اهدن . وقد اورد لاروك هذا التقليد الباقي الى الان قال : « في هذه الناحية (اي ناحية جبة بشري) قرية بان وكانت تسمى قديماً بالعربية مدينة الرأس وهي مبنية على ما قيل فوق اخربة اول مدينة في الدنيا » (١) وما يشاهده السكان الى اليوم من الاسوار العظيمة والمعاصر والمغاور والردم المركوم حول هذا المكان يدل على كونه عريقاً في القدم وذلك الخراب هو في اعينهم من بقايا المدينة الاولى التي شادها قايين

(١) دي لاروك اسفاره في سورية وجبل لبنان - الجزء الثاني

في وصف النواحي

ومن الاوربيين ادريكوم (Théat.T.S. Part. iv) وجنيبرد (Chron. I Ad an. 235) وماجي وغيرهم يميلون الى هذا الرأي ويظنون على الاقل ان اول مدينة في الدنيا لم يكن ممكناً قيامها الا في لبنان . غير ان تسمية مدينة الرأس بالعربية اولى ان تدل على مدينة مركزة على قمة او قائمة على رأس من ان يراد بها انها اول مدن العالم

في بني شيت

ان الله جلّ وعزّ بعد موت هابيل البار وبقاء قاتله الاثيم لم يدع الشريسود على الارض . فولد من ثم شيت وقام مقام هابيل في مقدمة الاخيار والصالحين وأُنيطت به الآمال في انه يكون حافظاً للخير وللتسليمات المقدسة ومن حيث ان الايمان كان قد انطفأ نوره من اكثر القلوب سُمي نسله المبارك « ابناء الله » تمييزاً له من نسل الخطاة الاشرار الذين سُموا « ابناء الناس » (١)

والحال ان التسليمات الشرقية تُفيد ان هذه العائلة المباركة « ابناء الله » اقامت في وادي جبل حرمون . قال القديس هيلار الذي نُني الى الشرق وقضى فيه زمناً طويلاً : حرمون هو جبل في فينيقية معناه الحرمان ويُخبّر وفي ذلك كتاب لا اعلم اي هو (٢)

(١) التكوين ٤: ٢٥ و ٦: ٢

(٢) ان هذا الكتاب ينسب بغير صحة الى اخنوخ وهو الذي

ذكر منه جرج سنكل (Georges-le-Syncelle) هذه الفقرة (الصفحة

١٢) . وقد اورد هذا التقليد كثيرون من الاباء متابعة لقول المؤرخ

فلاق يوسف (العاديات ١: ٤) اما اورييجان (في شرح الزمور

ان الملائكة لما عشقوا بنات الناس تزلوا من السماء على هذا الجبل
العالي وكانوا يترددون الى هنالك كثيراً (١)

وهذا الرأي الناتج عن سوء الترجمة لنص التكوين كان سائراً
من القديم عند اليهود الذين ذكروه في السفر المنسوب زوراً الى اخنوخ
وقد تلقاه كثير من اباء الكنيسة بالتصديق . وكذلك ترتليان المشهور
بجفافه وصرامته قد سلم به ليثبت ان الملائكة المتمردين انما اخترعوا
جميع الصنائع المؤدية الى الاسراف في التفخيل والتبرُّج (٢) ثم انتبه

(٢ : ١٣٢) فيظن ان الملائكة المارقين انما اتفقوا على جبل حرمون
على ان يعصوا الله ويتمردوا عليه

(١) القديس هيلار في شرح المزمور (١٣٢ : ٦) . اما آباء
الكنيسة الذين كانوا يستعملون الترجمة السبعينية فقد قرؤوا فيها
« ملائكة الله » مكان « ابناء الله » (القديس اوغسطين في كتابه
مدينة الله ٢٠ : ٢٣) ولذلك ظنوا وفقاً لهذا النص ان الكلام في
شأن الملائكة الذين افتنوا بنات الناس . وقد كان هذا الرأي عند
الذين تتلمذوا لافلاطون من النصارى غير بعيد عن القبول لان
افلاطون كان يرثي ان الجن اخياراً كانوا او اشراراً هم ذرو اجسام
لطيفة

بعدئذٍ الشرقيون الى كلمة السيد المسيح « الملائكة لا يتزوجون »
 وأطرحوا هذا التفسير الذي كان مقبولا عندهم في الاعصار الاولى
 للكنيسة . ولكن ان كانوا عدلوا عن الاعتقاد بكون ابناء الله يراد بهم
 الملائكة فانهم ثبتوا على القول بكون محل اقامتهم كان جبل حرمون .
 واحد المؤلفين الحبيرين بآراء الشرق الحديث لخص اقوالهم الجديدة
 بهذه الكلمات : « ان اعتقادات نصارى الشرق فيما يخص اصل
 الجبارة المتكلم عنهم في الفصول الاولى من سفر التكوين هو ان آدم
 لما اعلم ابناء شيت بالنعيم الذي كان يتمتع به في الفردوس الارضي
 اولد في قلوب بعضهم شوقا الى دخوله . وعلى ذلك انحازوا عن جماعة
 الآخرين واختاروا جبل حرمون بفلسطين مقرا لهم وعاشوا هنالك
 بالهفة وخشية الله . ولما تحيز هؤلاء عن شركة الناس دعوا ابناء الله
 واعطوا بمثالهم الحسن غوذا للعيشة الرهبانية المنفردة التي اقبل الناس
 عليها من بعد ذلك في الشرق اقبالا كثيرا . غير ان هؤلاء المتوحدين
 لما ان يؤسوا من العودة الى الفردوس الارضي الذي كانوا يعدونه
 ميراثا لآدم قدموا لزيارة القاينيين ذوي قرابتهم . واذ كانوا قد سئموا
 من طول العزوبة تزوجوا بناتهم وولدوا الجبارة » (١)

(1) Herbelot. Bibl.orient.v. Seth ;

ابن العبري في تاريخه السرياني ص ٤ . وفي تاريخ الدول العربية

واضاف جرج قدرا ن الى ما تقدم : ان اولاد شيت عند ما كانوا على جبل حرمون اقساموا تحت طائفة اللعنة ان يتخذوا نساءهم من ذرية قاي ن . وهذه اللعنة على ما يقال كانت سبباً لتسمية الجبل المذكور بحرمون (١)

٦

في قبر آدم وبنيه

واثباتاً لجميع هذه الاخبار المتقدمة يجعل التقليد في الجبل الشرقي كما اشرنا الى ذلك آنفاً قبور الالباء الاولين . قال احد المحدثين : « ان الزبداني المرتفعة عن مساواة البحر ١٠٦٧ متراً تحتوي على نحو ثلاثة الاف ساكن نصفهم نصارى والنصف الاخر مسلمون . ولديهم تقليد يجعل قبر آدم في هذا المكان » (٢)
وكتاب الرسالات التقوية اثبت تقليداً شبيهاً بهذا في شأن قاي ن وهو : « ان قبر قاي ن هو على مسافة اكثر من ثلاثة عشر كيلومتراً

ص ٥ . وذكر تقليداً ينسب الى شيت اختراع الكتابة ص ٣

(1) G. Cedren. Hist. comp. p. 19

وقال اعتماداً على كتاب اخنوخ انهم كانوا مشتين وذكر من

رؤسائهم عشرين

(2) Isambert. Itinéraire de l'orient. Syrie-Route 113

من دمشق على طريق صيدا» (١)

اما جرج دي سلفرت الذي زار سورية من بضع سنين فقد زاد هذه التفصيلات بخصوص التقليد المشار اليه قال : « قد مررنا في قطنة قريباً من دمشق بقبر عظيم كـ القبور التي تُصادف بكثرة في آسية الصغرى او كالتى شاهدها الدرويد (Druides) في اسـكنديناوية (Scandinavie) . وبعض العرب المتورعين يسمونه قبر قاين . ويزعمون ان قاين هذا بكر آدم بعد ان قضى سنين طوالاً ثائهاً شاردًا في الارض ملعوناً من الله والناس موسوماً في جبهته بسمة لا تحى تحرم على الناس قتله شاء ان يرى مكان قتل هابيل وينوح على اثمه . ولكنه لما احس بقرب وفاته لم يجسر ان يرقد بالقرب من اخيه فترك ايلينة وتزل الى لحف هذه الجبال ينتظر آخرته المبتغاة (٢)

واذا صعدت في الوديان الجديدة المنفتحة فوق بعلبك رأيت على مسافة نحو من تسعة كيلومترات من المدينة على اكمة جميلة في الجبل الشرقي قرية تسمى قرية النبي شيت . لان التقليد يصرح بكونه قبر هنالك قال احد الجوالاة الاميركان : « ان قبر شيت الذي في هذه القرية عرضه عشرة اقدام وطوله مئة قدم . اما بناؤه فمقبب ومن فوقه بساط

(1) Lettres Édif. Syrie. Mem. sur les environs de Damas

(2) G. de Salverte, la Syrie avant 1860. xv

اخضر ممدود على طوله . وهو في مقابلة قبر نوح الموجود في الوادي الغربي من البقاع بالكرك « (١) . واذا نظرت الى اتساع هذه القبور رأيت منها ما يثير الضحك والعجب لان الذين بنوها بعد الافتتاح العربي كبروا مساحتها الى حد يبعد عن التصديق وذلك لتوهمهم ان الجبابة كانت لهم اجسام متجاوزة كل حد مألوف في الكبر والطول وقد اخبر بنيامين التودلي الموسوي بمحادث في القرن الثاني عشر يصور لنا احسن تصوير الاعتقاد الشائع في ذلك الزمان عن الجبابة الوارد ذكرهم في التوراة عند اليهود والعرب في دمشق قال « رأيت في بلاط عُلِقَ على جداره ضلع جبَّار من بني عناق طولها تسعة اشبار اسبانية (اي متران) وعرضها شبران (نصف متر) . ويقال ان هذا الجبار كان من سلالة بني عناق ويُسمى بحرمز » (٢) ولا ينبغي ان تعجب من كون بنيامين المذكور سلَّم بهذه الحكاية على علاقتها بدون ادنى صعوبة لان هربلو ذكر (٣) ان الربيين بانفسهم يدعون بكون

(1) Thomson. The Land and The book, xvi

(٢) بنيامين التودلي في كتاب سفره الصفحة ٥٢ : وعليه فان جبَّاراً عرض صدره اربعة امتار في طول خمسة يلزم ان يكون طول جسمه على الاقل خمسة وعشرين متراً

(3) Biblioth. Orient. v. Joschova.

انبيائهم كانوا اصحاب قدود طوال واجسام خطيرة كاجسام الجبابرة .
وعلى ذلك فان القائلين بقولهم انما تلقوا من اليهود اول خاطر عن هذه
القبور الكثيرة الاتساع

٧

في الطوفان

ولما ان كثر الفساد بين الناس وتعاضم شرُّهم ارسل الله طوفان
الماء فمحا جنس البشر عن وجه الارض ما خلا نوحاً والبار واهل بيته .
ولكن اين صنعت سفينة نوح واين استقرت بعد خراب العالم القديم لما
انخفضت مياه الطوفان . واين كان مركز البشر الثاني الذي انتشر منه
الناس فتفرقوا في سائر الكرة . ان التقليدات اللبنانية تحييك عن كل
هذه المسائل جواباً حاضراً :

ان السائح مريسون (١) الذي زار المشرق في القرن السابع عشر
نقل الينا تقليداً وطنياً منطوقه ان الجبل الشرقي هو المكان الذي صنع
فيه نوح سفينته (٢) التي نجا بها مع عائلته من مياه الطوفان والمشتغلون

(1) A. Morison, Relation histor. Liv. III. ch. 1.

(٢) وقال البعض انه صنعها في الكوفة من العراق وذلك قول

بعلم اللغات المولعون في ايامنا بالبحث عن كل مسألة متوعرة المسلك طمعاً في اكتشاف شيء جديد يزيد الحقيقة قوة ونوراً سارعوا الى البحث عما اذا كانت الدروس اللغوية مؤيدة في شيء للتقليد اللبناني في الطوفان

ان الخشب الذي بُني منه فلك نوح ولو انه غير معروف الا قليلاً يُقدّم لاهل العلم بمجرد تسميته «جُفر» (١) دليلاً نفيساً يستعينون به على تعيين المكان الذي صُنع فيه الفلك

قال لاجار «ان اهل الحذق من المشتغلين بعلم اللغات في عصرنا او في العصر المتقدم يقبّاون تفسير هذا الاسم بالسرو (Cypres) ويرفضون ما ذكره ككتبة اليونان عن اصل اشتقاقه ويسلمون ان التهجئتين الاولين (κνπάρ) من اللفظة اليونانية كُپرَسَس κνπάρισσος او كُپرَتس (κνπάριππος) هما بمنزلة الكلمة العبرانية جفر (او كفر او كپر) اما اللاتين فكتبوا هذه الكلمة اولاً (Cyparissus) ثم حذفوا او دغموا وقالوا (Cypressus) ثم كتبوا في آخر الامر (Cupressus)» (٢) غير ان السرو كان يُحسب في كل وقت مجداً للبنان (٣) وكانت

(١) التكوين ٦ : ١٤

(2) Lajard, Recherches sur le culte du cyprès

(٣) اشعيا ١٤ : ٨ و ٣٦ : ٢٤ و ٦٠ : ١٣ . زكرياء ١١ : ٢

اخشابه في جميع المشرق من اصلح ما يكون لبناية فلك نوح

ألا ان الربيين الذين هم شهود على التقاليد القديم ولو انهم ممن لا يوثق باقوالهم في الكثير يذكرون امراً اقل ابهاماً مما سبق . فان ابن عزرا وأنكل ويوناتان وكحني والربيين بوجه الاجمال اثبتوا ان الحشب الذي استعمل لصنع الفلك هو الارز لانه كثير الموافقة لهذا الامر وشديد الصلابة وغير قابل للتعفن بالماء . وبكسترف وترميل وغيرهما على هذا الرأي ايضاً . والحال انه ما من احد يجهل شدة العلاقة الموجودة خصوصاً في قديم الزمان بين الارز ولبنان . فيظهر من ثم ان لبنان جهاز الارز للفلك الذي نجى الجنس البشري كما جهزه بعد ذلك لهيكل الله بل لصليب مخلص العالم في قول

ان خوري طائفة الروم المتحدين في صيدنايا من الجبل الشرقي كان يحدثني يوماً عن مفاخر وطنه وما فاز به من المجد في القرون السالفة فرفع يده وقال « انظر يا ابانا الى مجموع هذه الجبال المرتفعة امامنا كانها ستار عظيم ملقى على المغرب . فهي تسمى جبل قلمون . اعلم ان فلك اينا نوح استقر عليها بعد نهاية الطوفان » . فحدثني كلامه دهشة ممزوجة بالشفقة على حبه الساذج لوطنه وظهر لي خبره مخالفاً على وجه مستقيم لنص الكتاب المقدس القائل « واستقر تابوت ... على

جبال اراراط « (١) والمعروف ان اراراط بارمنية . ومع ذلك احشمت نفسي عن مناقضته لعلمي ان الدخول في ذلك مما لا طائل تحته . ولكنني لم اكن لاعلم في ذلك الحين ان لهذا التقليد مدافعين آخرين وانه اتى على ذكره ايضاً جملة من اصحاب الرحل . قال ايزمير « ان تقليدًا وطنياً يجعل على الجبال القريبة من الزبداني المركز الذي وقفت عليه سفينة نوح » (٢)

ولكن هل يمكن ان يكون في هذا التقليد ما يجعله من الامور المحتمل قبولها مع شيوع الرأي المخالف له . هذا مع قطع النظر عما قالوه من وجود الواح السفينة ومساميرها على جبال ارمنية . فيظهر لنا انه يمكن الجواب على ذلك بالاجاب دون ان تهتك حرمة الصواب . فقد اتفق اللاب بيرييه اليسوعي قبل ان يعلم بوجود هذا التقليد اللبناني انه اتصل بمجرد افادات نص الكتاب المقدس الى اثبات كون السفينة الطوفانية وقفت على قمة لبنان الشرقي قال « ان هذه الجبال كانت بين شمال وشرق فلسطين صوب نبع الاردن . وقد سموها مدة طويلة بجبال ارمنية نسبة الى ارام بن سام (٣) . وهنا مسألة هل يقوى

(١) التكوين ٨ : ٤

(2) Itinéraire de l'Orient. Syrie. Route 113.

(3) Père Berruyer, Hist. du peuple de Dieu. Liv. L. p. 69.

هذا الرأي على إيجاد سند له من نصوص التوراة ؟ فنقول : انك لا تجد في كلام الكتاب اسم ارمنية بل تجد « اراراط » (١) . والحال ان تسمية احد جبال ارمنية بأراراط هي تسمية جديدة . فان المؤرخ فلاق يوسف (٢) يقول ان الجبل المعين في التقليد اليهودي كان يُسمى ايوباتريون (اي الخروج) وكان الجغرافيون المقبولون في المدارس (٣) يسمون اعلى سلسلة في ارمنية المدعوة الآن « اراراط » « نفاتس » او « ماسيوس » كما سماها اهل البلاد الاقدمون . ومع هذا فان اسم جبل اراراط ولو كان قد اطلق على هذه

(١) التكوين ٨ : ٤

(٢) فلاق يوسف في العاديات ١ : ٣ وه . وعن هذا المؤرخ خذ الناس حكاية وجود الواح ومسامير السفينة على قمة الجبل المذكور والقديس تاوفيل الانطاكي (Ad Antolyc. III, 19) اتى على بر فلاق يوسف . وكلمة قال ان بقية الفلك موجودة على احد جبال عربية والقديس ابيفان (في البدع ١٨ : ٢) جعل بقية الفلك على جبل لاكراد في حدود ارمنية وقال انه استوى على قمة لوبار (في البدع ١ : ٤)

(٣) استرايون ١١ : ١٢ : ٤

الناحية من عهد قريب نظير اسم ارمنية (١) ينبغي ان تعرف ان اطلاقه عليها مبني على اساس مكين . لاننا نعلم من الكتابات المسارية ان غارة الارمن على البلاد التي تسمت باسمهم انما كانت في القرن السادس قبل يسوع المسيح (٢) . وهذا امر لا بدّ ينقض تمام النقض جميع ما كُتب في شأن الجبال التي استوى عليها فلك نوح بالاستناد الى لغة الارمن وتسلّياتهم . غير ان الشعب الذي كان اتخذ سكناه اولاً في هذه البلاد ونقش الكتابات الدالة على آثاره في مدينة وان ثم اصابه الفناء او دلى مدحوراً الى جبال القوقاس من سطوة هوّلاء الغزاة الذين غلبوه على بلاده كان يُسمى بالاسم الذي يقرأ « اورردي او اوررتي » في الكتابات الاشورية (٣) والذي يُفطن به هيرودوت (٤) عند اتيانه على ذكر شعب « الالاروديين » في ارمنية . ولا غرو ان جميع هذه الاسماء هي قريبة من اسم اراراط (٥) بحيث يصح

(١) ان الارمن يسمون بلادهم هيسدان ولا يسميها بارمنية الاّ

الاغراب عنهم والارمن لا يدعون انفسهم بهذا الاسم

(٢) F. Lenormant. Man. d'Hist. anc. d'Orient. Liv. I. ch. 25. 3.

(٣) F. Lenormant. Lettr. assyr. II, p. 132 etc.

(٤) Herod. III, 94; VII, 79.

(٥) التكوين ٨ : ٤ . الملوك الرابع ١١ : ٣٤ . ارميا ٥١ : ٢٧

التوفيق بينه وبين هذه القبيلة التي تزلت في ارمينية الاصلية
 ومع وجود هذه الافادة التاريخية والجغرافية نظن انه لا يبعد
 عن الاحتمال ان سفر التكوين عنى باراراط جبال حرمون لا جبال ارمينية
 فان ارتفاع سطوح اراراط وجبال ارمينية بالاجمال لا يساعد شجر
 الزيتون على النمو بسبب البرد الشديد الذي يدوم جميع السنة . ولكنه
 ما من احد يرتاب في كون الفلك استقر في اماكن الزيتون وبالتالي
 بعيداً عن ارمينية وجبالها التي لا يكاد ينبت فيها العشب الا اشهرًا
 قليلاً . قال احد السياح المحدثين « من الامور الغريبة التي ينبغي
 العلم بها هو ان اخبار فلك نوح هي مجهولة بالتام عند النصاري
 المتوطنين في جميع الكورة المحيطة بجبل اراراط . واما الاتراك فمن
 المعلوم انهم يعزون هذا التقليد الى جبل قريب من امامسية (في بر
 الاناضول) ولكن اهم هذا التقليد اي ذكر الحمامة وغصن الزيتون
 امر لم يمكن ان يتم في هذه الجهة بما ان الحالة الجوية هناك لا توافق
 الزيتون مطلقاً على النشوء » (١)

فان كان يجب اطراح التقليد الذي يلاحظ بلاد ارمينية بسبب
 هذه الافادة الاكيدة الثابتة من نص الكتاب المقدس لزمنا ضرورة ان

(1) Joanne, Itinér. de l'Orient. p. 525.

نرجع الى التقليد الملاحظ حرمون فانه منازع للتقليد الارمني قوة وشهرة
 اما اكبر صعوبة تعترض التقليد الاخير فانما هي كلمة « اراراط » . غير
 ان الاسم الواحد لاسيا اذا اعتراه التغيير كهذا عند نقله الى لغة اجنبية
 ألا يمكن ان يصدق على ناحيتين مختلفتين ؟ ولو سألنا ان ارمنية كانت
 تُعرف قديماً باسم اراراط افلا يمكن التخمين مع هذا اتباعاً للتقليد
 اللبناني ان هذا الاسم كان يراد به ايضاً سلسلة جبل حرمون ؟ ولنا في
 الاسم نفسه ايضاً دليل ذو اهمية يبين ان للتقليد الاخير وجهاً من
 الصحة

اعلم ان اسم اراراط اذا غيرت حرفه الاخير في العبرانية تغييراً
 خفيفاً دلّ على نفس ما يدل عليه اسم حرمون اعني اللعنة والحرمان
 والكراهة وعليه فهو عين اللفظ الذي استخدمه الله تعالى للعبة الارض
 التي فرض على آدم ان يشتغلها ويحرثها وللعنة الارض التي شربت دم
 هابيل (١)

(١) اما اراراط فمشتق من (ارار) ومعناه كره واعد . ومنه
 اراراط المسبوقة في الكتاب المقدس بلفظة هري اي جبال او سلسلة
 جبال (Lexic. cahtolic.) (التكوين ٨ : ٤) . اما حرمون فقد تقدم
 الذكر ان معناه اللعنة والحرمان فهو على ذلك بمعنى اروره اي الملعونة

وهذا الاسم كان حتى في أيام موسى يلتحم في اذهان العبرانيين بالتقليدات المكائنية التي مرَّ ذكرها في شأن طرد الابوين من الفردوس الارضي ومقتل هابيل وفساد ذرية شيت . وعليه فانما كانوا يعنون به جبل حرمون او سلسلة الجبل الشرقي حيث استقرَّ مهد البشرية المتجددة بعد الطوفان

وهكذا ايضاً وفقاً لهذه الافادات وتبعاً لاحسن الآراء يجب تفسير آية التكوين المخبرة عن ان ذرية نوح من بعد الطوفان « رحلوا من المشرق فوجدوا بقعة في ارض شنعار فاقاموا هناك » (١) اما مشرق ارض شنعار الذي أوله بعض المشتغلين بعلم الهند بالشرق المطلق فجعل مستقر البشر لثاني مرة في جبال حملايا كما جعل هنالك اول مستقر لهم ايضاً فلا ينبغي ان يفهم به الاشرقي الارض المقدسة . وذلك ان للعبرانيين عادة قديمة ان يسيروا باسم الشرق الى لبنان الشرقي وجميع الجهة الممتدة من الاردن الى الفرات والى بابل (٢)

(١) التكوين ١١: ٢٠ . اما ترجموم أنسكل فقد ترجم « في البدء »

مكان « من المشرق »

(٢) ان الاشارة الى لبنان وبلاد الشام والعربية الى الفرات بل

ايضاً الى ما بين النهرين مجرد لفظة المشرق (التي هي بالعبرانية قدم)

هذا فضلاً عن ان عبارة النص الاصيل تدل على الرحيل نحو الشرق (١) وتلك دلالة تؤيد تمام التأييد التقليد الذي يجعل مهد البشر لثاني مرة في لبنان الشرقي

ان اسماء الاولين من ذرية نوح التي أطلقت على الجهات المجاورة تزيد هذه التقاليدات شهادة ذات تأثير يظهر من اتفاقها قلماً يكون ان مكان تولد الفلك لم يكن بعيداً من لبنان . فان بلام الشام المسماة باسم سام بن نوح قد سُميت ايضاً باسم ابنه ارام (٢) . اما اولاد سام « فكان مسكنهم من ميسا وابت آت نحو سفار جبل المشرق »

مستفيضة في الكتاب المقدس في مواضع كثيرة : التكوين ١٠ : ٣٠ و ٢٥ : ٦ و ٢٩ : ١ . سفر العدد ٢٣ : ٧ ايوب ١ : ٣ اشعيا ١١ : ١١ ارميا ٢٨ : ٦٩ الخ

(١) (مقدم) بالعبرانية يمكن ان تُفسر بقولك « من المشرق » او « نحو المشرق » . اما هنا فيجب شرحها بالمعنى الذي يُراد بها في التكوين ١١ : ١٣ لان معناها هنالك بلا ريب « نحو المشرق » وقد ترجم القديس هيرونيم بهذا المعنى ايضاً آية أخرى من سفر الملوك الاول

١٤ : ٥

(٢) انظر الكتاب الاول والفصل الاول من تأليفنا هذا

(١) والحال ان ميثا هذه يحتمل ان تكون نفس الجبال التي تسمى اليوم قريباً من نبع الاردن باسم ميس . وكذلك جبل المشرق كما ذكرنا آنفاً ينبغي ان يدل في لغة العبرانيين على جبل حرمون او لبنان الشرقي (٢) . اما الشام ولوانها كانت على الشمال الشرقي من فلسطين فما كانوا يعدونها إلا جهة شرقية فقط كما يعلمنا بذلك النبي اشعيا (٣)

٦

في مقر نوح بعد الطوفان

ان اهل سورية المجوقة ولبنان الشرقي حافظوا ايضاً اكثر من جميع من سواهم على تقليد اسم نوح وذكره ولا يزال هذا التقليد حياً مستمراً الى الآن عندهم . ذكر لودلف السوخي الذي جال هذه البلاد في القرن الرابع عشر ان وادي سورية المجوقة كان يسمى في ايام مروره بتلك الارض باسم نوح واليك تعريب كلامه : « فلما كنت آتياً من لبنان الشرقي ماراً في جهات الزبداني انتهيت الى وادي

(١) التكوين ١٠: ٣٠

(٢) راجع يشوع ١٣: ٥

(٣) اشعيا ١٢: ٩ قال : ارام من جهة الشرق

البقاع الذي يُسمى اليوم سهل نوح» (١) . اما هذا السهل فلم يزل الى ايامنا هذه مشهوراً بقبر نوح ومركزه فيه قريباً من زحلة فوق رسوم حصن الكرك القديم . ولما ان خرج تمرلنك من دمشق عرج عليه في طريقه قصد الزيارة

وقد تشرف هذا القبر ايضاً بزيارة كثير من عظماء الارض . اما بنيته على ما هو عليه في هذا الزمان فهي من اثار بيبرس البندقداري الذي رقي عرش الملك سنة ١٢٥٨ ملقباً بالملك الظاهر . فهذا جعل طول الضريح وفقاً لاعتقادهم في عصره واحداً وثلاثين متراً . ولكن هذا المقدار ليس بمواجه لاعتقاد البعض فهم يزعمون ان ليس في القبر غير ساقى نوح لانهم يقولون انه كان عظيم الجسم جداً بحيث اذا مشى وضع احدى رجليه على لبنان الغربي والثانية على الشرقي . ومن الراجح ان القبر قبل ان رُممه بيبرس الملك كان اشدّ قرباً من الجبل كما تشير الى ذلك خرابات الحصن . غير ان الملك المذكور استخدم اذ ذاك قناة العين العامة فبنى عليها هذا القبر الطويل . واما الان فقد انقطع الماء عن القناة ولا تزال من فوقها البسط العتيقة المفروشة بامر السلاطين اكراماً للنبي نوح

(1) Ludolphe de Suchen, Reussbuch dess heyligen Lands (Collection des anciens pèlerins allemands.

اما قبر سام بن نوح ابي جميع الساميين فلا يمكن ان يكون بعيداً عن قبر ابيه وقبور اولاده . ذكر الرّبي بيتاشيا انه موجود فيا حوالي دمشق . وزاد سائر الرّبيين ان ساماً كان مدرساً للدين في جبل طابور او حرمون (١)

ثم ان التقاليد اللبانية فيما يتعلق بنوح واولاده قد المت ايضاً بالكرم الذي غرسه هذا البار . وقد قام احد سياح القرن السابع عشر (١٦٦٠) وبين ذلك مفصلاً بالنوع الآتي قال : « بعد ان خرجنا من سهل طرابلس دخلنا وادياً في سفح اوائل رُبي لبنان . وكان برفقتنا كاهن ماروني اسمه يوسف فأرانا قرية (٢) مبنية في وسط الكروم فيها شرع نوح وفقاً لتسليمات اهل البلاد في غرس الكرم . وبسبب جودة خمرها وكونها نافعة مفيدة هام بها بعض ممن حُرّم عليهم شربها فقام من ثم احد علمائهم واصدر حكماً اوضح فيه ان الشرع مع كونه قد حُرّم

(1) Carmoly, Itinéraire de Terre-Sainte p. 165.

(٢) هي قرية سبعل على مقربة من اهدن . وقد وجدنا نفس هذا التقليد المذكوراً في ما كتب السيد مسلمين عن الاراضي المقدسة (فصل ١١) . اما القديس ايفان (في البدع ١ : ٤) فقد جعل هذه الكرمة على قمة لوبار في بلاد كردستان

شرب الخمر بسبب ما يتاوها من العواقب الوخيمة ألا ان معرفته بحسن منافع خمر القرية المذكورة حملته على التصريح بان واضع الشريعة لم يكن في نيته مطلقاً ان يحرم هذه الخمر ليس فقط بسبب عظيم احترامه لأكروم التخلّفة عما غرسه ذلك البار الذي ترتب على وجوده تجديد الجنس البشري بل ايضاً لما فيها من المزايا التي تجعلها من اجود خمور العالم ولاسيما لانها لا تسبب سكرًا يضرّ بالعقل او بالصحة . ثم لخص من ذلك ان كل واحد من اهل امته له ان يشرب منها ما شاء من غير ان يتعدى حدود الله ومراسيم دينه . فتلقى حكمه هذا بالقبول جميع اهل العلم وغيرهم من متفقي الملة واخذوا يشربونها بكثرة اول الجميع ولم يبق عليهم ألا ان يتحققوا في كونها من عصير الكرمة التي غرسها نوح « (١)

غير ان يوحنا كوتوفيك احد سياح مدينة أترك الذي زار دمشق سنة ١٥٩٨ اورد تقليداً آخر يجعل كرمة نوح في الجبل الشرقي من لبنان كما تقتضي ذلك ايضاً سائر التقاليدات الواردة عن فلك هذا البار وعن قبره . هذا ما لم يُقل ان نوحاً غرس كرمة في كل من الجبلين وهو امر في الحقيقة ليس بمستحيل . قال كوتوفيك المذكور : ان هذا الجبل يأتي بنحور جيدة بيضاء وحمراء مشهورة ولها رائحة طيبة وطعم لذيذ

فاخر . وحالما تؤخذ منها جرعة تعمل في المعدة وتلج اليها رويداً وتشدد
قوى الطبيعة واشهر خمره الخمر التي تستجلب من صيدنايا حيث غرس
نوح على ما ذكر الساف اول كومة فشرب من عصيرها وسخر منه ابنه
حام لما سكر وقد ذقت هذه الخمر اكثر من مرة في دمشق واحكم
بانها اجود بكثير من خمر اكرت وقبرس . وقد هتف النبي هوشع فقال
« يكون ذكر اسرائيل كخمر لبنان » (١) . اما انا فاستطيع ان اهتف
حقيقة بما قاله بويت « يا لها من خمرة ان جرعة منها تقيّل النفس التي
وقرها الحزن والقلب الذي ناء تحت المصيبة وانها لتشدّها اذا ما
تأملت وخارت (٢)

وهذه التقاليدات العديدة تبين لك شدة اعتقاد النصارى والمسلمين
في ان لبنان وطنهم هو مركز البشر قبل الطوفان ومن بعده . فهم يظنون
انهم السكان الاضايون في تلك الجهات لم يرحلوا اليها من بلد آخر
وانهم مقيمون في نفس الاماكن التي حلت عليها اولاً بركات الرب
ولعناته . وهنالک نشأ تحت حماية الله اولاد نوح . ومن هنالك رحلوا

(١) هوشع ١٤ : ٨

(2) Joan. Cotovicus. Itiner. Hieros. et Syr. Lib. III,
(c. 2).

نحو المشرق وسكنوا ارض شنعار او بابل (١) حيث تم اخيراً تفرُّق
العشائر الاولى بواسطة تبليل اللغات

ثم ان الاسماك الحفرية التي راقبوها قديماً في جملة اماكن من
لبنان منذ اوائل التاريخ المسيحي قد اضافت الى جميع هذه التقاليد
قوة جديدة فوق قوتها . واتخذ الكل منها برهاناً بيّناً على الطوفان
اوضح اثرًا في لبنان منه في غير الجهات (٢)

٧

في بني نوح

وفي معرض كلامنا عن تفرق الشعوب نرى من اللازم ان نأتى
على ذكر تقليد ذي اهمية بالاضافة الى سياق التاريخ وقسمة الجهات
التي استوطنتها امم البشر المختلفة من بعد الطوفان ولاسيما الامة
الكنعانية . فان كثيراً من الاباء القديسين (٣) وخصوصاً المؤرخين

(١) ترجم السبعون شنعار بكلمة بابل ولكن لم نر كتابة او دليلاً
جغرافياً يؤيد كون اسم شنعار أعطي لبلاد الكلدان . ولعله كان اسماً
مخصوصاً بها عند العبرانيين

(2) Cedren. Hist. comp.; Mich. Glycas Chron. P. II.
p. 114; Joseph etc.

(٣) ان اخص الاباء الذين يثبتون ان نوحاً قسم الارض بين

السوريين الذين يشهدون على تقاليدات وطنهم ذكروا ان نوحاً قبل وفاته امر اولاده ان يفرقوا وقسم الارض بينهم . فاصاب ساماً وذريته قارة آسية وعلى الخصوص بلاد ارام او سورية . ولخص ابن العبري اقوال الاقدمين فقال : « ان نوحاً اعطى افريقية حاماً . . اما كنعان ابنه الذي وجب ان يلحق به الى هنالك فلما افتتن بجمال الجهة التي تمت فيها بعد باسمه توطن فيها وتقدم اولاده حتى الى سفح لبنان واقاموا بفينيقية » (١) . وبموجب هذا التقليد الشائع في المشرق ورث سام بما له من الحقوق جميع الاراضي التي كان نوح قد اقام بها مع جميع الحقوق الملكية التي كان قد ورثها نوح المشار اليه عن ادم فيما يخص جهات لبنان . ولقد رأيت مما مر ان التقليد ينسب فلاحه هذه الارض

ابنائه الثلاثة هم : اوساب (Chron.) والقديس ايفان (Hœr. 66 : 82 et 83. et Anchor 114.) والقديس اوغسطين (Serm. de temp. 34, 105.) وفيلستر (Hœr 7.) وكدران (Hist. comp. p. 21) ولاون النحوي (Ann. 117) وجرج سنكل (Chronog. p. 83) وميخائيل كليكا (Ann. p. 124) الخ

(١) ابن العبري في تاريخه السرياني

للإنسان الأول ومن بعده لثيت وذريته معتبراً إياها ملكاً خاصاً يتوارثه الأبنكار عن والدهم. وكان موسى قد أشار بعض الإشارة إلى تعدي الكنعانيين على الساميين عند ما أخبر بالتفصيل عن اللغات التي صَبَّها نوح على ابنه كنعان وعن الأثم الفاضح الذي جلبه على ذريته المكروهة التي حرمت الميراث من يومئذٍ

أما أرام آخر أولاد سام فكانت قسمته آسية المتقدمة فسمّاها باسمه من حدّ البحر الكبير إلى ما بين النهرين (١) ولكن جهات لبنان على الخصوص فقد تسمت مدة عصور طوال باسم أرام إلى أن جاء اسم سورية وتغلب عليه

أما ميثا بن أرام فيحتمل أنه يكون قد سمي باسمه بعد ذلك مدينة ميثا (٢) وهذا الاسم على ما يظهر هو نفس الاسم الملقبة به قرية ميس الكبيرة مع سلسلة الجبال القائمة فيها القرية المذكورة غربي بحيرة ميروم (الحولة) ومن المحتمل أيضاً أن الكتاب المقدس عين من هذا الحل تخوم الجهات التي سكنتها ذرية حام في الجبل الشرقي إلى حد سفار (٣). وأعلم أن كثيراً من المفسرين قالوا بكون سفار هذه

(١) التكوين ١٠: ٣٠ (٢) التكوين ١٠: ٢٣

(٣) ذكرت سفورا في سفر حنون البحري (Périple d'Hannon).

من بلاد العربية . ولكن الأرجح انها مدينة سفر على الفرات التي اتى منها بعد ذلك السفروائيميون الذين سكنوا في السامرة مع الكوتيين (١) هذا وانك ترى ايضاً في هذه الجهات القريبة من منابع الاردن بعض اثار من اخوة ميشا (٢) لان عوصاً بـ كـ ر ارام بحسب رأي القديس هيرونيم بنى دمشق وسكن بلاد تراكونيت (الجولان) وترأس على كامل الجهة التي بين فلسطين وسورية الجوفّة . اما كورة عوص المستبهم موقعها فهي على شرقي ارض الموعد واهل الشرق يفهمون بها نفس بلاد حوران وهي بلاد واسعة ممتدة على جنوبي دمشق حتى الى بلاد العربية . وفيها يجعل التقليد ارض عوص المشهورة التي كانت موطناً لايوب وفيها ايضاً الى يومنا قرى تسمى بنفس الاسماء التي ذكر

من عواصم بلاد العربية (الصفحة ٤٧٤) . وذكرها بطليم مثل عاصمة للسفاريين قريباً من الحميريين (بطليم ٦ : ٦ و ٢٥) . اما فيلسترج فعند طفار من احدى الكنائس الثلاث التي بناها العرب ولعلها ظفار من بلاد الين

(١) الملوك الرابع ١٧ : ٢٤

(٢) ان القديس هيرونيم جعل ميشا اباً المميانيين غير ان هذا الشعب هو نفس شعب اللوذين الذين جعل القديس عينه اباهم لوداً

الكتاب المقدس انها كانت وطناً لاصدقاء ايوب البار . وقد كان هذا التقليد عموماً اقله في القرن الاول للكنيسة . وقد شهد القديس يوحنا في الذهب ان شعوباً برمتها كانوا يرحلون في ايامه الى تلك الجهة اكراماً لتذكّار ذلك الصديق الصابر امير البلاد الحورانية (١)

واعلم ان هذا التقليد هو مقبول عند اليهود والمسلمين ايضاً فقد ذكر ابو الفداء انه ايوب كان صاحب اموال غزيرة وان البشنة بكاملها وهي اقليم من اقاليم دمشق كانت من املاكه (٢) . هذا وان احد السياح المحدثين قد زاد هذا الاعتقاد تثبيتاً قال : عثرت على تقليد قديم يجعل مقام ايوب فيما حوالي بصرى ويوجب اشتقاق اسم هذه المدينة من اسم ام ايوب التي كانت تدعى بهذا الاسم كما يقرأ

(١) ان طمس (The Land and The Book ch. 1h)

سلم مع كونه بروتستانياً ان ذلك امر اعتقده عامة الاقدمين . واتخذ القديس يوحنا في الذهب شاهداً على هذا التقليد الكائن في العصور الاولى المسيحية

(٢) ذكر ذلك ابو الفداء في الكتاب الاول من تاريخه قبل الاسلام عند كلامه عن ايوب . وذكر القزويني ايضاً في كتابه اثار البلاد الصفحة ١٣١ ان مقام ايوب كان قريباً من دمشق

ذلك في مجمع بصرى (١) . ان اليفاز التياني (٢) واليهو البوزي (٣) وهما رجلان لهما ذكر كثير في سفر ايوب يحتمل ان يكون منشأهما من كورة البثنية . ويوجد الى الان قريباً من ناوة في حوران دير من القرن السادس يسمى دير ايوب ومركزه بين ناوة والمزيريب . فعلى ذلك يكون تذكار ايوب محفوظاً في التقليد العمومي الى ايامنا هذه (٤) .

ثم ان المدقق بروكرد جعل سنة ١٢٣٢ وطن بلدد الشوحي في مدينة قائمة على مسافة نحو ١٨ كيلومتراً من مصب الاردن في بحيرة طبرية . قال أرونا هنالك قبر ايوب اما بلاد الجولان (تراكونيتس) فهي ارض عوص التي كانت امانة البار ايوب (٥) .

ثم ان اسم حول ثاني اولاد ارام لم يزل اثره باقياً بسفح جبل الشيخ في القرية التي تسمى الحولة

(1) Synond. Bostr. III Saec. Mansi I, p. 787.

(٢) ايوب ١١: ٢ و ١٩: ٤ Waddington. Inscr. Syr. N° 2202)

(٣) ايوب ٣٢: ٢ : ارميا ١٥: ٢٣

Euseb. Onom. Waddington, Inscr. Syr. N 2242, 2251

وهذا المكان هو في اطراف بادية حوران

(4) Waddington l. c. N° 2412.

(٥) بروكرد في وصف الاراضي المقدسة

ويوسف المؤرخ قد ذكرها في تعداد البلدان التي ملك أوغسط عليها الملك هيرود (١)
 ولفظة حول تشترك أيضاً في العربية والعبرانية (٢) بمعنى الانحطاط
 والانخفاض الذي يمكن أن يعدّ أصلاً لاسم كيليسورية (سورية المجوفة)
 وهو اسم أطلق على هذه الناحية من عهد اليونان وذلك من حدّ عدوتي
 البحر المائت إلى تخوم انطاكية . وما ذلك إلا ترجمة لفظة الحول
 بحرفيتها (٣)

أما جاثر ثالث أولاد أرام فقد سبكن بمقتضى التقليد ناحية

(١) يوسف في العاديات ١٥ : ١٠ : ٣ والحرب اليهودية ١ : ٢٠ : ٤
 (2) Michaelis, supplem. 687, 720.

ومع ذلك فالظاهر أن هذا الاسم قد ترجم إلى الآرامية قبل
 أن يصير إلى اليونانية وذلك لأن پوليب سمي كيليسورية (اميكة) أي
 عميقة وما هي إلا لفظة منقولة عن العبرانية ومعناها مثل كيلوسورية
 (٣) قال المؤرخ يوسف (العاديات ١) أن حولاً استوطن
 أوطرس في أرمينية . غير أن هذا المكان لا وجود له فيها . ثم اصحوا
 ذلك بقولهم أولوس ولا وجود لهذا أيضاً هنالك . أما الوادي الذي
 أشرنا إليه فهو أكثر قبولاً ما لم يُقل بأن مستعمرة من الحوليين رحلوا
 إلى أرمينية

جشور (١) التي هي مملكة ارام موقعها بالقرب من شط الاردن الشرقي على جنوب جبل الشيخ. وقال جماعة من المؤلفين ان اسم هذا الموضع مشتق من «الجسر» الذي بُني على الاردن من قديم الزمان (٢) ألا ان زعمهم بكون هذا الجسر قديماً جداً هو مجرد تخمين من غير استناد الى دليل قديم وعليه فلا يُصلح ان يُبنى عليه حكم او يستخرج منه نتيجة . بل الاوفق ان يُقال ان جاثر بن ارام سمي هذه الناحية الارامية باسمه كما فعل اخوته . فمملكة جشور الصغيرة بقيت محافظة مدة دهر طويل على اسم جاثر . وقد كانت ذات اهمية في ايام الملك داود وقد لجأ اليها ابشالوم بعد ان قتل اخاه كما يلجأ الصبي الى موطن امه (٣)

-
- (١) ان كثرة ابدال الثاء العبرانية بالشين في الارامية يُدني من الصحة هذا الرأي الذي قال به كلمه وطمسون وكاليش وغيرهم
- (٢) لما كان هذا الجسر يسمى الى الان جسر بنات يعقوب توهم البعض انه قديم او ان يعقوب عبر الاردن من فوقه . ألا ان بناءه على ما هو عليه اليوم هو بناء عربي من عهد الملك صلاح الدين الايوبي . اما يعقوب فانما عبر الاردن من تحت بحيرة طبرية
- (٣) الملوك الثاني ٣ : ٣ و ١٣ : ٣٧

وتوجد أيضاً تقاليد أخرى مكانية تدل على أن في فينيقية آثاراً
لبني كنعان. فان بروكرد في القرن الثامن عشر توهم أنه رأى قريباً
من ارواد قبور أربعة من أبناء كنعان. ولكن ما رآه أن هو إلا من
آثار حرات (امريت) المعروفة اليوم تمام المعركة (١)

وكذلك فان اليهود والعرب بسبب غلط نظير هذا قد جعلوا قبر
يشوع في مغاور وراء طرابلس والصليبيون وجملة من مفسري الكتاب
قد نسبوا أيضاً بناء صور الى تيراس (٢) بن ياقث (٣) ولكن ذلك
عارٍ عن كل صحة

ولاون النحوي (٤) مشايعة لبعض المؤلفين جعل ملكيصادق ابناً
للملك صيدون بن قبط الذي بنى مدينة صيدون إلا أنه قد خالف
بذلك نص الكتاب المقدس حيث اثبت بولس الرسول (٥) أن
نسبة ملكيصادق المذكور غير معروفة

(1) Brocard. Rudim. novit. fol. 168.

(٢) التكوين ١٠ : ٢

(٣) بروكرد في وصف الارض المقدسة

(٤) في الصفحة ١٧ من تاريخه (٥) عبرانيين ٣ : ٧

في ابراهيم وغرود

اما ابراهيم ابو المؤمنين و خليل الله فقد خلف ذكراً عظيماً في جميع الشرق وعلى الخصوص في لبنان . والعرب متابعة لاصحاب الترجوم من اليهود خلطوا سيرة ابراهيم مع سيرة غرود الذي لا يخلو لبنان من تقاليد كثيرة في شأنه للسبب المتقدم ذكره اما التقليد الحالي فيثبت وجود قبر غرود في جبل لبنان

وهذا التقليد هو محفوظ على الخصوص في المنحدر الشرقي من جبل حرمون وذلك في قرية كفرحوار التي هي على مسافة نحو من سبعة وعشرين كيلومتراً جنوبي دمشق قريباً من بيتون . قال احد السياح المعروفين : « ثم سرنا نحو كفرحوار وهي قرية كان بي شوق كثير الى الوصول اليها لان الخريطة التي هي من رسم زمّمان تشير الى محل بجانب القرية يدعى قبر غرود . فرجوت من ثم بعض الرجاء اني اجد اثراً من الآثار الاشورية او لقطّة نفيسة وفرحت بذلك سلفاً . . . واذا بالادلاء دنوا من بعض سكان القرية الذين كانوا يشتغلون بالفلاحة وواقفوني عند صخرين عظيمين مربعين قد اقتلعا من بنساية قديمة وطرحا اتفاقاً في وسط الحقل على مسافة ثلاثمائة متر او اربعمائة متر من القرية وقالوا لي « هذا قبر غرود » فلم اشأ ان اصدقهم حتى سألت

الفلاحين بنفسي فاجابوا **كلهم** باتفاق الكلمة ان ذلك « هو قبر
نمرود » (١)

وقد اضاف بعض المؤلفين تفاصيل أخرى مفيدة فيما يتعلق بهذا
التقليد قال : : ان العرب قد ارونا بافتخار قبر نمرود على مقربة من
بيتون وكفر حوار وذلك القبر يُشبه كثيراً قبر جبّار بازاء بيوك دره على
اليسفور . وقد زادوا على هذا ان ندى الليل لم يسقط مطلقاً على
هذا المكان المكرّم وان بنات آوى والضباع ونمار الجبل تهرب مجاورة
« جبّار الصيد امام الرب » (٢)

اما كتبة العرب فقد وصفوا نمرود بانه رجلاً كافراً وانه كان
زعيم عبدة الاصنام ويشتقون اسمه من « المارد » (٣) ويقولون ان
ابراهيم ابا المؤمنين انما اقرّ جهراً بتوحيد الله في بلاط نمرود ملك بلاد
الكلدان . الا ان الملك المتكبر غضب منه فامر بطرحه في اتون
متوقداً (٤) لانه ابي ان يعترف بكونه ملك الارض وربها المطلق .

(١) دي سوسي : سفر حول البحر المائت المجلد ٢ الص ٥٦٧

(٢) جرج دي سلثرت سورية قبل ١٨٦٠ : ١٥ : تكوين ١٠ : ٩

(٣) تاريخ منتخب وغيره

(٤) Moallem cite par Herbelot (Bibl. orient. V. Nemrod)

ولما ان رآه خرج من النار سالماً من لهيبها قال لاهل بطانته « اريد ان اذهب الى السماء لارى هذا الاله القوي الذي يذرننا به ابراهيم ومن ثم امر ببناء برج بابل . وبعد ثلاث سنين قام بالاشغال المتواصلة في ذلك البرج صعد الى قمته ولكنه تعجب كثيراً لما نظر الى السماء ورأى انها لم تزل بعيدة عنه كما لو كان باقياً على سطح الارض (١) ولما ان تهدم البرج في اللية التابعة وعقبه خراب بناية اخرى اعلى منه ايضاً عزم لحماقته على ان يصعد الى السماء في عجلة يجرها اربعة من الطيور غير ان عجلة غرود بعد ان تاهت في الفضاء مدة ما سقطت على جبل بعنف فزعزعته وبما ان الجبل الذي تدهور عليه كان حرمون فقبر هناك اما النصارى فليس عندهم جميع هذه الاخبار ولكنهم مقتنعون بكون غرود ملك في لبنان قالوا : « ان غرود من بعد الطوفان ارسل

الآن هذا التقليد مأخوذ عن اليهود ويُقرأ في كتاب موسى هدرحان, Pugio fidei Raym. Martini. III. part c. c. 7 وقد

ذكره القديس هيرونيم ايضاً كحكاية لا اصل لها

(Lib. Quæst. Hebr. in Gen.)

وما مصدر هذا التأويل فانما هو اور موطن ابراهيم لان معناه النار (١) هربلو في الموضع المرقوم . وارتأى يوسف والقديس اوغسطين

وغيرهما ان غرود هو الذي تولى بناء برج بابل

ايضاً جبابرة جدّوا بناء قلعة بعلبك . وسموها بالاسم الذي تُسمى به
 اكراماً لبعل اله الموابين وعبدة الشمس » (١) . واخبر ايضاً احد
 السياح ان اليهود كانوا يعتقدون نفس هذا الاعتقاد سنة ١٦٦٠ . قال
 « ان اليهود يؤكّدون بان قحولة لبنان الشرقي هي نتيجة اللعنة التي جلبها
 غرود على نفسه لما شرع في بناء برج بابل (بعلبك) (٢)
 وفي لبنان ايضاً تقاليد أخرى تتعلّق بغرود . فان في ارض جبيل
 قريباً من المشنقة بناية تسمى قلعة غرود واخرى قرن غرود . وبوشار (٣)
 ينسب الى غرود جميع ما يُخبر به التقليد العامي عن ملك لبناني يدعى
 برجيس قد ملأ الجبال حتى الى يومنا بشهرة مآثره . فان هذا البطل
 الباسل المحكي عنه في هذه الاخبار ليس الا غرود بن كوش (بركوش)
 فانتقل اسمه بالتدريج الى بركيش ثم الى برئيس ثم الى برجيس
 اما اليوم فالعرب يعنون ببرجيس نجم المشتري وكان اسمه عند
 القدماء بعلّا او ادوني (٤)

ولنرجع الى تقاليد ابراهيم الخليل التي مزجها سوء الاتفاق بتقاليد

(١) كتاب خط عربي من بعلبك

(2) D'Arvieux, mémoires, II part.ch. 26.

(3) Bochart, Phaleg. 1. 2.

(٤) - ان كلمة برجيس يمكن ان تكون مشتقة من لفظة برج

غرود فنقول لما فشت الوثنية بين البشر اراد الله سبحانه ان ينقذ من ظلمتها ويخلص من لجتها عترة بارة لينجي بها البشر الذين فسدوا فنادى ابرهيم واخرجه من ارض الكلدانيين الى ارض كنعان ووعد ان يملكها ذريته (١) ولم يزل على ألسنة الناس لعهدنا في دمشق وسائر سورية اخبار مروره بها فانه نصب خيامه في سهول دمشق وذلك عند قدومه من بلاده وعند انتصاره على الملوك الشرقيين والتقليد يجعله ملك هذه المدينة وينعته بالعلم وبسطة القدرة وفي هذا التقليد مغالاة واول من دونه المؤرخون الوثنيون وقد كتب نقولا الدمشقي المؤرخ صفي اوغسط في الفصل الرابع من تاريخه ما ترجمته : « كان ابرهيم ملك دمشق وهو غريب ورد عليها بجيش من ارض وراء بابل ولم ير عليه الا قليل زمن حتى ترك دمشق ورحل بجميع ذويه واتباعه الى

واذا عرفت ان العرب بل جميع المتكلمين باللغات السامية يسمون منازل الفلك باسم الابراج سهل عليك ان تعلم سبب اطلاق هذا الاسم على هذا النجم . وكان قرون او الوقت او البعل او ادوني مشتهراً ببرج جيل فيحتمل ان يكون ذلك اصل اسم برجيس الشائع في لبنان

ارض كنعان المعروفة اليوم باليهودية . وزاد فلاث يوسف على قوله :
 « ان اسم ابراهيم لم يبرح ليومنا مشهوراً ومكرماً في كورة دمشق
 وهناك قرية تدعى مقام ابراهيم » (١)

واوبليم صور لنا ابا الالباء المشار اليه بصورة موجد للعلم بين
 الفينيقيين والكلدانيين قال : « ان ابراهيم فاق جميع معاصريه نبلاً
 وعلماً وهو مخترع علم الهيئة (علم النجوم) وسائر العلوم الكلدانية وقد
 كان هذا العالم من اهل الصلاح والعبادة ورزق حظوة عند الله الذي
 امره ان يهاجر الى فينيقية واصاب مكانة عالية عند ملك تلك الارض
 بتعليمه قواعد دوران الشمس وتشكلات القمر الى كثير من امثال هذه
 الفوائد ثم ان الارمن (الاراميين) غزوا الفينيقيين وظفروا بهم واسروا
 ابن اخي ابراهيم فذهب بعبده نيجد المغلوبين فانتصر على العدو
 واستأسر نساءهم وصغارهم فاوقد اليه العدو في اطلاق سبيل
 الاسرى على مال يذلونه له فحلى سبيل اسراهم وادركته الرأفة بهم
 فلم يقبل منهم مالا واكتفى منهم ان يقدموا لعسكره ذخيرة » (٢)
 وارتبان كتب ما يقرب من هذا قال : « ان ابراهيم كان في علم

(1) [Nicol. Damasc. ap. Fl. Joseph (Antiq. I, 7)
 et Euseb. (Præpar. Evang. IX, 16).

(2) Eupolem. ap. Euseb. Prep. ev. IX, 16.

الهيئة جدّ عالمٍ وعنه اخذ الفينيقيون هذا العلم عند وروده على فينيقية .
وقد رحل عنها الى مصر» (١) وفي التقليد زيادة على ما نقلناه . قال
هربلو : « ان الرأي الاصح عند الشرقيين من مسيحيين ومسلمين ان
ابراهيم هو باني مدينة دمشق وسماها (دمشق اليعازر) عبده وامين
بيته وسفر التكوين يذكر دمشق مضافة الى اليعازر » (٢)

لا جرم ان دمشق كانت مبنية عند ما جاء ابراهيم ارض كنعان
لكن الدماشقة حسبوا النجاح الذي نالته مدينتهم اثر غلبة ابراهيم على
المملوك الشرقيين الذين تأثروا الى ما وراء دمشق حسبوا ذلك بمنزلة
بناء المدينة ومن المحتمل ان غلبة ابراهيم كانت السبب في تأسيس
مملكة مستقلة في دمشق او اعادتها مستقلة

فلا غرو ان حفظ الدماشقة ذكراً جميلاً لابراهيم بعد ما اصابهم
من احسان ذلك الانتصار ما اصابهم وحماتهم هذا الذكر بعد
القرون المتطاولة ان يجعلوه مؤسس مدينتهم ومملكتهم ومهما يكن ذلك
فان التقليد حافظ حتى الساعة ذكر المكان الذي وقف فيه ابراهيم بعد

(1) Artapan. ap. Poly. hist. Frag. 4.

(2) Herbelot. Bibl.or. v. Abraham. Damas.

نقلًا عن السيوطي وغيره اما الكتاب فيقول : اليعازر الدمشقي

ان تأثر الاعداء قال احد المرسلين الاقدمين : « ان ابراهيم اذ تأثر
الملوك الاربعة وصل الى برزة وهي قرية في اول السهل المتصل بباب
دمشق وكانت تدعى قديماً حوبة . وعلى مقربة من برزة توجد مغارة
يظن التقليد ان ابراهيم البار قدّم فيها لله قرباناً شكرياً على ما اياه من
النصر (١)

ونقولاً الدمشقي (٢) يدعو هذه القرية مقام ابراهيم وللمسلمين
هناك مسجد يدعى مسجد ابراهيم وهم يكرّمونه جداً ويحبون اليه كل
سنة عدداً غفيراً وقد شرح ابن عساكر احد كتّبة القرن الحادي عشر
شرحاً مطولاً عن هذا المسجد (٣) واما غيره من اصحاب السير في
الاسلام فقد ارتأوا ان مقام ابراهيم وسائر الانبياء كان في بعلبك .
قال زكرياء القزويني ما نصّه : بها (بعلبك) قصر سليمان عم وقلعتها

(1) Lettr. edif. — Syrie — Mémoire sur les envi-
rons de Damas.

وقد ورد ذكر قرية برزة في الفصل الرابع عشر من التكوين في
العدد ١٥ واما مركزها ففي مدخل وادي هلبون على مسافة تسعة
كيلومترات عن يسار دمشق

(2) Nicol. Dam. ap. Joseph. cont. ap. I, 7.

(٣) ابن عساكر في تاريخه المخطوط المجلد ١

ومقام الخليل عم وبها دير الياس النبي . وهناك اخزي ذاك النبي كهنة
الاصنام ورأى غمامة صغيرة شبه ترس وصعد على فرس من نار ولم
تُعرف بعد ذلك اخباره (١)

ان احد السياح من وستفالية الذي زار لبنان سنة ١٣٣٦ اورد
عن مكان هذه الجبال تقليداً اشدّ غرابةً من التقليد المتقدم . وذلك
السائح هو رودلف كاهن سوخن فانه سار في المضائق التي على شمالي
دمشق حتى وصل الى صيدنايا ليزور هنالك معبد السيدة واخبر ان
الجبل المرتكز عليه ذلك المعبد هو نفس الجبل الذي اراه الله ابراهيم
ليذبح عليه ابنه اسحق ومن على قمته ناداه الملاك ان ارفع يدك عن
الغلام (٢) وقد سمي الجبل المشار اليه باسم سعيير . ولا ينبغي ان تستغرب
هذه التسمية لان يشوع يشير اشارة صريحة بان سعيير هو اسم لبقعة من
لبنان الشرقي (٣) غير اننا لا نريد ان نثبت مما تقدم سهولة توفيق مثل
هذا التقليد مع نص الكتاب المقدس وما اوردناه في ختام التقليدات
الآيائاً لكون لبنان كان في كل زمان فائماً بذكر الآباء الابرار

(١) اثار البلاد الصفحة ١٠٤

(2) Rudolphe de Suchen Reyssbuch dessheyligen
Lands.

(٣) يشوع ١١: ١٧

نفوس

الجزء الاول

مقدمة

٥٣	في ان لبنان قسم من ارض الميعاد	٠١
٥٩	في الداعي الى كتابة هذا التاريخ	٠٢
١١	في حدود لبنان	٠٣
١٢	في سلسلته	٠٤
١٤	في خطوطه	٠٥
١٦	في مشهده	٠٦
١٨	في تباين السلسلتين	٠٧
٢٠	في المنطقة البركانية	٠٨
٢١	في صخور لبنان	٠٩
٢٣	في خصب تربته	١٠
٢٤	في السهول المحيطة به	١١
٢٩	في هوائه	١٢
٣١	في نباته	١٣
٣٦	في معادنه	١٤
٣٨	في حيواناته	١٥
٤٠	في انهاره	١٦
٦٢	في اقسامه	١٧
٦٩	في سكانه	١٨
٧٠	تقسيم المواد	

الكتاب الاول

صفحة

٧٢

المدة الاولى

الفصل الاول

٧٢

في اسماء لبنان

٧٥

١ في اسم لبنان

٧٩

٢ في اسم الشام

٨١

٣ في اسم ازام

٨٤

٤ في اسم كنعان

٩١

٥ في اسم سورية

٩٦

٦ في اسم فينيقية

الفصل الثاني

١١٦

في التقاليد اللبنانية

١٢٠

١ في الفردوس الارضي

١٣٩

٢ في مقر ادم بعد الفردوس

١٤١

٣ في قتل قاين هابيل

١٥٠

٤ في المدينة الاولى

١٥٣

٥ في بني شيت

١٥٦

٦ في قبر ادم وبنيه

١٥٩

٧ في الطوفان

١٦٩

٨ في مقر نوح بعد الطوفان

١٧٤

٩ في بني نوح

١٨٣

١٠ في ابراهيم وغرود

ويليه الجزء الثاني

لم يبقَ من بعد عهد ابراهيم مجال لذكر التقاليد التي هي في
 اكثر الاحيان مخالفة للكتاب المقدس او للتاريخ اذ لا يترتب على ايرادها
 وان قرب بعضها من الصحة ألا فائدة قليلة جداً . ولهذا فاننا نعدل
 الان عن سرد ما بقي من التساليات المكانية على حدة . لانها اذا كانت
 الى هذا الحين بسبب قصور الافادات التاريخية تُعتبر نظير فضلات
 نفيسة ناجية من الفرق التاريخية واممكن ان تكون بقاياها المبتورة
 رسوماً دالة على شيء عن الحقيقة الاولى فاعلم انها تنحط عن منزلتها
 انحطاطاً اذا ما تجلى التاريخ بصبغه ولاح بنوره مبيناً لك الحوادث
 اللبنانية بوجه اكيد

وبعد ان ذكرنا التقاليد الدينية المقدسة سنذكر في الفصل الثاني
 نوعاً آخر من التقاليد القديمة الوثنية مختلفة عما ذكرنا اختلافاً كبيراً
 وهي مأخوذة عن ينابيع اقل صفاء وعن حجج اقل ثباتاً وتأكيدها .
 ولكنها لم تكن دون الاولى تأثيراً في الشعوب اللبنانية والحوادث التي
 جرت فيه مدة قرون عديدة



الفصل الثالث في

الخرافات الوثنية بلبنان

ان الاعصار الخالية التي مرّت على لبنان تركت لنا ما خلا
التقليدات المتعلقة بما جاء في الكتاب المقدس عن الالاء الاواين صنفاً
اخر من التقليدات لا يستند الى اصل راهن وانما هو خرافة ومجرّد
اوهام وهذا الضرب من التقليد مشحون بذكر حوادث عجيبة لا صحة
لها واختلاقات وهمية ومزاعم باطلة وتلفيقات لم يسمع بمثلها قد كانت
مع كل هذا مقبولة عند الفينيقيين والاراميين وغيرهم من الشعوب
ومعدودة نظير تاريخ حقيقي لتلك الازمنة المتقادمة . وجملة القول ان
عالم الخرافة بدأ في لبنان وسورية ألا ترى انهم يبنّوا اصل تصكّون
الدنيا على وجه باطل ومستحيل وشرحوا ظهور الانسان على الارض
شرحاً مستعجماً وممزوجاً بالترّهات والاغاليط فزعموا انه ولد من الابطال
(نصف الالهة) وان الابطال ولدوا من الالهة

كان الفينيقيون في اول امرهم اشحاء في وضع الخرافات والحكايات
الهيبة كانت او بشرية ولكنهم ما لبثوا كثير زمن حتى انطلقت لها
ايدي سخائهم وكرمهم فاختلقوا شيئاً كثيراً من التلفيقات وبثوها في

الامّاكن السحيقة خصوصاً بين اليونان غير ان هؤلاء ما عتوا ان
 فاقوهم في الاختراع فادخلوا عندهم من ذلك ما لا يقع تحت قياس .
 اما الحكايات التي مصدرها لبنان حقيقة فهي بلا شك متقدمة على
 تلك حيرام واستيلاء العبرانيين على فلسطين . والظاهر ان الكتابة التي
 استنبطت قديماً في فينيقية اوقفت وضع الحكايات الوطنية او ثبّطت
 قلماً يكون تلفيق معظمها لانها فتحت الباب للاستدلالات التاريخية
 والانتقاد الصحيح . غير ان اختراع الحكايات المتعلقة بفينيقية خصوصاً
 لم ينقطع ولم يضعف امره في بلاد اليونان والمستعمرات . ولما كانت
 هذه الاخبار تأتتهم من خارج بلادهم اخذ الفينيقيون يتلقونها بهوس
 وطني سؤل لهم ان يعتقدوا بصحتها اعتقاداً كاملاً . وعليه فان ما
 كان يعدّه اللبنانيون في بدء النصرانية تاريخاً لهم ما هو الا مجموع
 خرافات بعضها استنبط في بلادهم وبعضها استنبط في بلاد اجنبية
 اما هذه الخرافات فليست كلها تخيلات صرفة بل قد يمكن ان
 تكون رموزاً تنطوي على شيء من المعتقدات او تلفيقات تتضمن
 بعض حوادث تاريخية مستترة تحت برقع الابهام . وان قلت هل يتأتى
 للمؤرخ ان يخلص الحوادث التاريخية من هذه الامور الخيمة عليها
 سحب الظلمة والحقاء اجبتك ان الدخول في ذلك لكما تسري في ليل
 مداهم لا تنظر فيه الا اشباحاً وخيالات . فالحاصل ان ادخال هذه

الاحاديث في ضمن التاريخ امر لا يهجم عليه ألا من كان يتزل الوهم الخالص منزلة الحقيقة الصرفة . وبناءً على ما تقدم لا يصح ان تجعل مثل هذه الحكايات اساساً للاخبار التاريخية مطلقاً . لان ما كان غير مدعوم بحقيقة وضعية واقعية لا يُعدّ إلا افتراضاً محضاً وحديثاً اتفاقياً

لكن المؤرخ لا يجدر به ان يصمت عن تلك الازمنة المجهولة صمتاً تاماً . ولا سيما ان هذه الحكايات هي الممثل الوحيد (المتصل اليها رأساً) لحالة العصور الاولى التي عقت نسيان التقليدات الحقيقية . هذا فضلاً عن انها كانت مقبولة في القديم ومعتبرة في كل مكان نظير تاريخ غير مشكوك في صحته بل انها كانت التاريخ الوحيد الذي كان يعتقد الفينيقيون والاراميون . ومن هذا الوجه تكون الحكايات صورة مشخصة بكل امانة لحالة العقول في لبنان في تلك المدد المتطاولة . ولهذا وجب ان يفسح لها محل متسع في هذا التاريخ . الا ان ذلك المحل يجب ان يكون منفرداً لان لوقيان يقول : من العيب العظيم في التاريخ ان لا تفرق بين ما هو اكيد ثابت وما هو مجرد تخيل (١) اما سننكُن يثُن المشهور فيكون دليلنا الاكبر لمعرفة الخرافات اللبنانية . هذا الرجل وُلد في بيروت على الرأي الاكثر احتمالاً ولو زعم

(1) Lucian. Quomodo hist. conser. 8.

جماعة انه وُلد في صور وآخرون في صيدا، وكان كاهناً في وطنه وقد بذل الجهد كما اخبر عن نفسه في جمع التقليدات الخالصة وادعها في تاريخ فينيقية وبقية مؤلفاته. ولسوء الحظ قد فقد جميع ما كتبه إلا بعض مقاطع من تاريخ فينيقية نقلها عنه العلامة اوساب (١) . غير ان بعض اهل النقد من المحدثين لا يعتقدون بصحة نسبة هذه المقاطع اليه مع انها قد اتصلت الينا من قوم مختلفين اعني بهم فيلون الجبيلي واوساب وبرفير والدمشقي (٢) . لابل شكوا ايضاً في وجود المؤلف وهذه الفقر التي ترجمها فيلون الجبيلي قد فازت عند اهل العلم باعتبار عظيم لانهم يعدونها عموماً من جملة الآثار الفينيقية الناطقة باحوال الازمنة الغابرة والمعرية عما حدث بلبنان في ما تقدم من العصور (٣) غير اننا قبل ايرادها نوضح لك الاسباب التي حملت علماء التاريخ والآثار القديمة على تصحيح نسبتها الى مؤلفها وهذه مسألة ذات اهمية كبيرة بالنظر الى تاريخ حالة الاعتقادات القديمة في لبنان . ما من

(1) Euseb. Præp. Evang. 1, 9, 10.

(٢) لوبق واغلاوف وغيرهما من علماء الالمان

(3) Mavers. Encyclop. d'Erochzet Gruber; Gesenius, monum, Phœnic; — Renan, Mémoire sur Sanchoniathon, Acad. des Inscript. an. 1858; — F. Lenorman, Manuel d'hist. or; lettr. assyr.

ريب ان فينيقية القديمة وما جاورها من النواحي دُونَ لها تاريخ وطني من زمن عريق في القدماء. وان جملة من المؤرخين قد صرفوا عنايتهم الى تقييد الحوادث الدينية والسياسية التي تتعلق بشعوب لبنان فكتبوها في الارامية والفينيقية واليونانية . ولكن جميع هذه التأليف التي تبين معتقداتهم وتقلبات الايام عليهم قد فُقدت برمتها ولم يبقَ منها الا بعض قطع ذكرها فلاق يوسف واوساب المؤرخ في محاماتها عن الدين الحقيقي (١) وعنهما وصلت اليها الفقر المذكورة من تاريخ سنن يث سالة من الضياع . ومن حيث ان عدة من المؤلفين المدققين قد استشهدوا بها واثقين بكمال صحتها فهي لاشك صحيحة النسبة اليه هذا فضلاً عن انها موسومة بسمات واضحة تدل على انها قديمة التأليف فينيقية الاصل سواء كان ذلك في مجموع ما فيها من الافكار والتصورات او في ما هي مكتسبة به من الهيئة السامية . وهي تطابق مطابقة تامة لقصة تكون الدنيا بحسب اعتقاد الفينيقيين كما ذكرها موخ واودام تلميذ ارسطو وهذه القصة منقولة في تأليف الدمشقي (٢) ولا شك ان تواطؤ المؤرخين الاقدمين الذين لم ينقل احدهم

(1) Joseph, Ant; Contr. Apion; — Euseb. Præp. Evang.

(2) Damascius, De prim. princip. p. 385.

شيئاً عن الآخر فيما كتب هو دليل أكيد على أنهم بنوا تصنيفاتهم على تقاليد وكتابات قديمة . هذا وإن تاريخ سنكن يتن قد انتشر انتشاراً كثيراً حتى تداولته أيدي الكتبة المتخالفين في الرأي والمذهب نظير اوساب وبرفير الذين استشهدا ببعض كلامه . ويمكن القول ان اوريجان واقليم الاسكندري واسطفان البزنطي ويوحنا الليدي وكثيراً غيرهم قد اطلعوا بلا مرأى على هذا الكتاب . وعليه فما كان يمكن في ذلك الوقت ان يُلقَق تأليف ويُنسب الى سنكن يتن

هلمَّ الآن ننظر فيما اذا كان هذا الكتاب يصح ان يُنسب الى من يريدون نسبته اليه . قال النقدة الذين ينكرون كونه لسنكن يتن ان مؤلفه بتمامه هو هيران فيلون الجبيلي . ولكن ذلك زعم مردود لا يؤيده شيء لان فيلون وإن كان كاتباً متوسط الدرجة الا انه درب بالاساليب مع غزارة المادة والظاهر من كل تصانيفه انه كلف بالمعارف محب للتدقيق فعبر عن وجدانياته وتعاليمه ومكتشفاته بنمط بسيط صادق يروق مطالعه . وعليه فلا يصح ان يُظلم هذا الرجل حقّه ويتَّهم بكونه مزوراً

ثم ان كثيراً من المؤلفين الاقدمين ما عدا فيلون الجبيلي كانت لهم معرفة تامة بوجود سنكن يتن وتأليفه . ولذلك عزوا اليه مقالات كثيرة لم يأت فيلون على ذكرها واوردوا في ترجمة حياته عدة اخبار

تختلف كل الاختلاف عما قاله فيلون . فان فيلون وبرفير اثبتا انه
وُلد في بيروت (١) واما سويدا (٢) وايتنا (٣) فزعموا انه ولد في
صور او صيدا

هذا فضلاً عن ان ايتنا المذكور كتب اسمه بنوع مختلف عما كتبه
الآخرون اي سن يتن وقد عدّه مع موخ اشهر مؤرخين كتباً عن فينيقية
وذلك في زمن قريب جداً من زمن فيلون بحيث لو صح تزوير هذا
اوانثذ لم يكن بعد قد تمكن من الانتشار (٤) اما نص تلك
المقاطع فيشعر انها مترجمة عن اصل فينيقي بنوع انه لا يتأتى فهم كثير

(1) Philo. Bybl. Fragm. Proœm.

(2) Suidas, v. παλαιφάτος

(3) Athen. Δειπνος, III. 37.

ان هذين الرأيين ليسا بمتضادين على ما يظهر لك منهما اول
وهلة . لان فيلون وبرفير من حيث انهما فينيقيان اصلاً وعارفان
بوطنهما سميا المدينة التي وُلد فيها سكن يتن باسمها الخاص (بيروت)
اما مؤلفو اليونان فقد اقتصروا على تسميته باسم عام اي الصوري او
الصيدوني وكانوا يشيرون بكلمتا التسميتين الى الفينيقيين عموماً
(٤) ايتنا في الحل المتقدم . عاش ايتنا من بعد فيلون اقل من

من عباراته حسناً إلا لمن كان عارفاً بأساليب اللغة الفينيقية والهيروغليفية .
وانك لتجد فيها أيضاً اشارات جمة الى الفاظ وحوادث فينيقية وكثيراً
من الاساليب البينة بكونها سامية محضة وعدة معاني تلقاها في كل
سطر من سطره لا بدّ في الرجوع عند تفسيرها الى اصل فينيقي وعليه
فان كل هذه الامور لا تسوغ ان ينسب هذا التأليف لفيلون الذي
كان كلفاً بالفصاحة اليونانية

اذا يجب ان يعتبر سنكن يّتن مؤلفاً حقيقياً وان تعدّ الفقر الباقية
منه صحيحة النسبة اليه . وما من احد يستطيع ان ينكر بوجه الحق انه
لم يكن موجوداً او انه ليس هو مصنف التأليف التي تعزى اليه . لان
اسمه والحالة هذه اذا لم يكن يدل على شخص حقيقي ينبغي ان يكون
فيه مزية الهية او بشرية تحمل صاحب التصنيف على اختياره اسماً
لتصنيفه او ان يكون اسماً سرّياً يصلح ان يكون عنواناً لكتاب . وليس
في الحقيقة شيء ثابت من هذه الاشياء يبيّن وجه استعارة الاسم
المذكور . فينتج من ذلك اذا ان سنكن يّتن هو اسم حقيقي للمؤلف
وان المؤلف شخص ثبت التاريخ وجوده بلا شبهة (١)

(١) ان العلماء ذكروا عدة وجوه بياناً لاصل اشتقاق هذا الاسم
الفينيقي ولكنهم لم يأتوا بوجه مرضٍ للعقل . اما نحن ففي رأينا الضعيف

اما مسألة تعيين الزمن الذي كتب فيه سنكن يتن تاريخ فينيقية
 وجمع فيه ما جمع من حكايات الهياكل والآلهة فهي مسألة أكثر
 إشكالا . زعم بعض المؤلفين انه كان في عصر قديم جداً في القرن
 العشرين قبل المسيح واقتصر اخرون وهم اوفر عدداً على جملة معاصراً
 لموسى وجدعون وسميرام وحيرام . ووهمت طائفة انه عاش في اواخر مدة
 عبادة الاوثان عند تداعيا للسقوط وميلانها الى الاضمحلال

اما نحن فلاجل ان نعرف في اي زمن عاش سنكن يتن وانشأ
 تأليفه هذا نكتفي بالنظر الى التأليف نفسه واستقصاء ما فيه
 انك اذا بحثت متأنياً في هذا الاثر العلمي اذاك البحث الى
 الاقتناع بكون المؤلف جمع الكتابات المنقوشة على الاساطين او
 التقييدات المحفوظة في الهياكل او السجلات القديمة المتضمنة للتقليدات

انه مشتق من « سنكن » بالفيينية ومعناها المسكن او المسجد او الهيكل
 (كما في سفر الخروج ٢٦: ٦ و٧ الخ) ومن « يتن » اي يعطي فيكون
 معنى الكلمة على ذلك « الهيكل يعطيه » او « عطية الهيكل »
 او هو مشتق من يتن « يعطي » وسكن وهو اله الصداقة والاعانة
 عند الفينيقين مثل هرمس عند اليونان ويدعو هومير (Il. II. 72)
 هرمس سوكس او سوخس وسويدا يلقبه بسوكوس او سوكون

الوثنية في اقدم مدن فينيقية (١) غير ان هذه التقاليد القديمة الوطنية قد دخلها مسحة يونانية تجعل القصص الوثنية اليونانية والفينيقية متقاربتين وليس من المحتمل ان يُنسب كل هذا الى المترجم . اما اذا عزوانه الى سنكن يتن المؤلف فيكون ذلك وسيلة لتعيين العهد الذي صُنِف فيه الكتاب اي عند ما بدأت الحكايات الوثنية اليونانية تختلط بتقاليد فينيقية فتغير هيئة بعضها وتختلف البعض الاخر . وهذا العهد كان بالطبع قريباً من الازمنة الاولى التي وليت فتح الاسكندر ولا شك ان دخول العبادة الغريبة في فينيقية وتجبر اليونان وسقوط الطقوس القديمة الوطنية كل ذلك قد حرك غيرة هذا الكاهن البيروتي واثار فيه النخوة الوطنية ليدافع عن حقوق الهته وتصدّر وطنه في امور الدين . ونفس هذا الامر قد سبّب تأليف مُصنّفين آخرين في هذا الشأن . لان ييروس الاشوري ومانتون المصري جمعا في ذلك

(١) يوجد آراء سامية قديمة في اصل الآلهة والبشر اثنان هما بابليان ذكر احدهما ييروس والاخر اودام ونقله الدمشقي . وثلاثة فينيقية نقل الاول اودام والثاني موخ وحفظهما الدمشقي ونقل الثالث سنكن يتن . وكل هذه الآراء تتضمن مواقف غريبة لا تدع ريباً بانها كلها سامية وقديمة

العصر تقليدات اوطانها الخرافية

فهذا هو اذا العهد الذي يمكن تعيينه بالصواب لتأليف سنكن يتن
لانه يوفق شهادات الاولين العمومية عن قدامة هذا المؤلف مع سمات
تأليفه وانشائه . والظاهر ان علماء عصرنا قد اجمعوا كلهم على هذا
الرأي (١) . نعم ان كاهن البعل هذا يفقد شيئاً من سمعة تلك
القدامة العريقة ولكنه يستطيع في نفس هذا العهد الحدث بالنسبة الى
ما كان يُحكى عنه ان يأتينا أكثر من جميع المؤلفين الوثنيين غيره
بمعارف اكيدة عن التقليدات القديمة والاعتقادات الدينية والقوانين
الطقسية والحكايات العامة ونفوذ وطنه السياسي الذي كان باقياً له
وقتئذ ذكر عظيم عندهم . وعليه فان سنكن يتن هذا الذي مرّ عليك
وصفه سنأخذ الدليل المتبع ليقودنا في ظلمة الحكايات الفينيقية آمنين
من العثار . ومما يحق لنا ان نأسف عليه هو ان الجزء الذي بلغ الينا
من هذا التأليف لا يتضمن غير الحكايات الوثنية اذ من المحتمل ان
يكون مقدمة لتاريخ الفينيقيين الحقيقي

غير انه هو الغرض الذي نقصده الان في هذا الفصل فضلاً عن
ان الناس في تلك الازمنة المتقدمة كانوا يعتبرون القصص الدينية اهمّ

(1) Movers, Die Phonizer, Buch. I; — Mém. sur Sanchoniathon. Acad. des Inscr. 1858.

اجزاء التاريخ واكثرها فائدة . فانهم كانوا قد الفوا عادة سيئة وهي ان يذكروا الحوادث التاريخية بل التعاليم الدينية مبرقةً بالاختلاقات والرموز ويتركونها على هذه الصورة لابنائهم . ومن ثم صارت التقاليدات الوثنية الباطلة نظير قصة عجيبة تزداد خرافة مع تعاقب الناس والشعراء ولكنها كانت تفتن الشعب وتأخذ بمجامع القلوب حتى كانوا يعتقدونها بمنزلة التاريخ الصادق

بعد ان قررنا ثبوت وجود المؤلف وكونه مصنف هذا التأليف ينبغي ان ننتقل الى مسألة اخرى وهي هل يصح لنا كبعض من تقدم من الكتبة ان نعتبر جميع هذه الحكايات الخرافية الوثنية نظير رموز الى حوادث تاريخية مؤكدة فالجواب على ذلك ان الذهاب الى كون هذه الحكايات هي مجموع رموز الى تعاليم فلكية وطبيعية او تاريخية هو مخالف لكل تخمين صوابي تدل عليه حالة الالفه الوثنية القديمة . وما تحمل المتأخرون من فلاسفة الوثنيين هذا التحمل الآمحاماة عن ديانتهم التي تداعت للسقوط عند ظهور الحقيقة النصرانية التي كانت آخذة في الازدياد وعليه فان هذه الحكايات لا تأتي باسلوب متتابع منظم عن حقيقة تاريخية ولا دينية . وكذلك ما فيها من الاقوال الطبيعية والفلكية التي سيرد ذكرها فيما بعد لا يتكون عنها مجموع علمي لان هذه الاخيرة ليست الا حوادث او حقائق متشتتة ينبغي تحييصها من بين الحكايات

والخرافات هذا هو الحق اذًا وكيف يكون الامر على خلاف ذلك مع ان الوثنية لم تنشأ كالنصرانية بيد الهية في وقت تاريخي فما انشأها الا الاهواء العمياء والاعمال الرديئة والوساوس الشيطانية والطبائع الفاسدة المعدومة من كل تاريخ مضبوط وفلسفة حقيقية ونقد بين . فتحصل عن ذلك بلا مراء اختباط غريب من اخبار غير صحيحة بل ممتنعة التصديق

وقد تزلت هذه القصص عن الالهة والابطال بمنزلة تعاليم دينية وصيغت منها بعد ذلك مادة التاريخ القديم . غير ان هذه القصص العارية عن الصدق جل ما فيها ان تدهش القوة الخيالية وتروي الميل الطبيعي للوقوف على الحكايات الغريبة وتوئله الاميال الفاسدة مع ان الغرض من التقاليد النصرانية انما هو تعجيد قدرة الله وقديسيه وتشنيع الرذيلة في العيون وتحسين حال الانسان

وفي الحقيقة ان الدين الوثني يستطيع ان يفخر بكونه قام فيه ولاسيما في اوائله واواخره رجال فهماء واصحاب علم فاثبتوا ان القصص المذكورة هي اشارات الى حقائق عقلية او تاريخية . ولكن لا نكسر بان اولئك الاذكىاء كانوا قومًا نادري الوجود جدًا . لان الشعب بعمومه كان يعتقد اعتقادًا اعمى بصحة الحكايات والقصص مهما تعاظم بطلانها ويوقن بانها حوادث واقعية مسلمة ولولا ذلك لم يكن يذرف الدموع

السخينة على موت الهـ ادوني وينذر كل من انكرها بضرب الرقبة .
 ناهيك عن ان افلاطون الحكيم بنفسه قد انكر على لسان سقراط كل
 تأويل ديني تحله هؤلاء الناس بقوله : ان امثال هذه التخمينات لا
 محالة بكونها مبهجة سارة ولكنها لا توافق الا اهل التفنن والحركة ممن
 لا ينبغي ان يُجسّدوا على ذلك . وما اتى هؤلاء بما اتوه الا لانهم بعد
 ان قوّموا اول قصة بحسب ما عنّ لهم اضطروا ان يجرّوا على هذه
 في كثير غيرها من الحكايات . . . ولهذا فاني اترك جانباً مثل هذه
 الابحاث واؤمّن بالتفسير المقبول عموماً لجميع هذه الاخبار (١) . وفي
 القرن الرابع قبل المسيح قرّر وهمر وجوب التسليم بصدق الحكايات
 الوثنية وانكر كونها رمزاً واشارة . ومن الواضح ان سنكن يتن وفيلون
 الجبيلي هما على هذا المذهب لانها كانا مع عامّة العالم الوثني لا
 يشكّان في صدق هذه الاخبار الخرافية

وقد كانت هذه المقدمة لازمة قبل ان ندخل في غابات الحكايات
 الوثنية اللبانية لانها تسعفنا على ان نفهم باحسن طريقة ما كان يعتقد
 الفينيقيون واهل سورية القديمة بجرافاتهم الوثنية وفي اي منزلة من
 الاعتبار كانوا يزلونها . وقياماً بحق الترتيب في هذه الاخبار عزمنا ان
 ندوّن حكايات كل من المدن المشهورة على حدة

(1) Phœdr. VII.

جبل او جُبيل

ان اول مقام في الخرافات الوثنية القديمة بلبنان هو بلا شك
لمدينة جبل ولجبلين سكانها (٢) . وقد نقل اليونان اسمها الفينيقي
الى اسم ببل . غير ان اهل البلاد لم يزالوا محافظين على التسمية الاصلية
ولكن بصيغة التصغير (جبيل)

بدأ سنكن يتن في اخباره بقصة عن تكون الدنيا سيأتي ذكرها
عند الكلام في الاديان وبعد ان اخبر بكون الفضاء لما القحته الريح
بهوبها اخرج ذرية كنعان في فينيقية (٣) انتقل حالا الى ذكر
الانساب الالهية وايراد الحكايات العامة التي هي مادة تاريخه عن

(١) قد ورد ذكر الجبلين في الفصل الخامس من سفر الملوك
الثالث ومعنى جبل في الفينيقية كمعناه في العربية . وذكر استرابون
(١٧ : ٢ و ١٨) ان هذه المدينة مبنية على ربوة صغيرة قريبة من
شاطئ البحر . غير ان هذه الراية صغيرة جداً لا توافقها الا التسمية
الحديثة اي جبيل ولكن قد يحتمل ان تكون التسمية الاصلية لمدينة
جبل القديمة التي كانت اقرب من الجبل

(٣) سنكن يتن الفقرة ٢ : ١٢ و ٢ و ٣ و ٥ و ٢٧

الابطال المتألهين . اما فيلون الجبيلي فقد قدّم كلامه عند نقله هذا الخبر بقوله انه مجرد عن كل خرافة قال : « ان سنكن يتن قد وُفق الى وجود الكتابات السرية المنقوشة على الاساطين وحجارة الرقي التي تحفظ في اخني الاماكن بالهياكل . وبواسطة جدّه الكثير وتعمقه في البحث غلب رأيه على آراء الآخرين واوصل عمله الى منتهى درجة من الاتقان لانه جرد الحوادث من الخرافات والرموز التي تسد مدخل التاريخ »

وكلامه هذا يدلنا على انه وسنكن يتن نقلا اليها تقاليدات وطنهما عن العصر الاولى مثلما تسلموها من قديم الزمان عن كهنة فينيقية . فوجب من ثم ان نطالعها مطالعة التأليف الصادقة وننظر اليها نظرا في الآثار القديمة ولو كانت ذات عيب ونقص . ولذلك اخترنا ان نردها لك كما هي من غير تصرف يذكر خشية من ان تفقد شيئا من بساطتها واصلتها

قال سنكن يتن « وُلد من ذرية الانسانيين الاولين وهما آيون (اي الخلد والعالم والدهر والزمن) وبروتوغون (البكر واول مولود) في فينيقية (١) اولاد مائتون مثلهما فسموهم النور والنار واللهيب قيل لانهم

(١) آيون يوافق عولم العبرانية وقد نُقل من مدلوله الاول على

اكتشفوا النار بحكّ الاعواد وعلموا استخراجها سائر البشر (١) وولد هؤلاء اولاداً ضخام الاجسام طوال القامات وسميت الجبال التي مـلكوها

الابدية الى الدلالة على العالم ومنها الى الدلالة على الخلق ثم على النظام وترتيب الخلق . ومن المحتمل ان يكون المراد بآيون هنا المرأة الاولى فيـكون منقولاً عن لفظة حواء ويكون بروثوغون اسم الرجل الاول اي آدم

(١) ان هذه الاسماء الثلاثة اي النار والنور واللهيب انما اصلها ايجاد النار على ما عرفت من المتن . وهي في الحقيقة توافق الثلاثة الاجزاء التي يميزها اليهود في اللهيب كما ذكر فيلون (في كلامه عن العالم الجزء ٢ الصفحة ٥٠٤ و ٦١٦)

اما تسمية المخترعين وباني المدن باسم اختراعاتهم وبنائاتهم فهي عادة شائعة لهم في الحكايات الوثنية القديمة سواء كان الشخص وهماً تماماً او بُدّل اسمه في وقت اختراعه . وهذه الثلاثة الاسماء للنار التي كانت عبادتها ممزوجة بعبادة الشمس يحتمل ان تكون مشتقة في الفينيقية من اصل واحد مثل نور و نارونير . وقد كانت عبادة النار شائعة جداً في الديار المشرقية وكانت نار الحطب والمواقد عند عبدة الشمس صورة ومشاركة هذا الاله الحال على الارض

باسمائهم وهي قاسيون (١) ولبنان وانتيلبنان (٢) وبراتي (٣) .

(١) قاسيون مشتق من قصه بالعبرانية اي الطرف والحرف والخروط ومنه اشتق معنى الجبل الذي كان مؤلهاً عند الفينيقيين . وقد كان هذا الجبل المؤله او بيت ايل او اله جبل معروفاً في القديم . لاسيا وان الكتابات المكتشفة حديثاً تدل على وجود الاله قسيون او قاسيون (Vogüé. Inscr. sem. III, 4 etc.) وكان جبلاً معبوداً كلبنان وحرمون . وقد كان في القديم جبلان بهذا الاسم مشهوران احدهما في شمالي مصر والثاني في شمالي سورية . ولكن من الراجح ان مؤرخنا لا يتكلم عن هذين الجبلين البعيدين عن مشهد الحكايات الاولى وانما يريد الجبل القائم في لبنان الشرقي فوق دمشق . ومن الراجح ايضاً ان احدى قمم لبنان العالية كانت تسمى باسم قسيون لان ديونيس الجؤالة (Orb. descr. v. 901) يسمي لبنان ايضاً باسم قاسيوس تبعاً للتقليدات . والجبل الذي كان فيه هيكل بعل مرقد فوق بيروت كان يسمى كذلك قاويسيون كما يتضح من الكتابات والظاهر انه تحريف لفظه قاصيون

(٢) انتيلبنان هو جبل حرمون او لبنان الشرقي

(٣) براتي جبل لم يذكره احد من الجغرافيين وليس له اثر في

وهؤلاء الابطال ولدوا شميم روم (١) وهبسوران اي عليين (٢) من نساء عاهرات (٣)

ثم ان الحكايات تثبت ان مدينة جبل كانت في تلك الآونة اول مدينة حصينة وعاصمة لمملكة كبيرة منظمة . وتذكر ان الخلد او لزمان بناها واستولى عليها وصورتها لنا بصورة اعظم ملك على الارض

لبنان . ولكنه لا يمكن الارتياح في موقعه مطلقاً لان بلين (١٢ : ٣٩) يزعم ان براتي هذا هو اسم عند الشرقيين للسرو المكرس لعشتارت الالهة محامية بيروت وجبل . وعليه فيكون المراد بهذا الاسم قمة من القمم التي فوق احدى المدينتين المذكورتين . واستعمل الترجوم كلمة برتين وبراتي للدلالة على شجر السرو

(١) شميم روم مركبة من روم اي العالي ومن شميم اي السماوات فمعناها المرتفع في السماوات او الاعلى

(٢) هبسوران (اي ارتفاع السماوات) هي ترجمة شميم روم وكان ينبغي ان لا يُفرَّق هذان الاسمان عن بعل شميم (رب السماوات) او عن بعل فقط الذي كان الهاً على جميع سورية ولكن لما كان القصد جعل سلسلة نسبية وايراد الحكايات متفرقة على كثير من الاجيال اقتضى ذلك تكثير اسماء الالهة (٣) سنكن يتن الفقرة ٧:٢

ومن المؤكد ان كل قبيلة ومدينة بלבنان القديم كانت تزعم بان اصلها يرتقي الى واحد من الالباء الاولين يربط اعضاءها برباط القرابة والاخاء ويجعلها عائلة مستقلة . ولكنهم كانوا لا يفرقون بين اجدادهم الاولين وآلهم فينسبون اليهم وضع السنن الدينية والمدنية من بادئ الزمان ومن حيث ان سكن يتن كان من بيروت احدى مستعمرات جبل وفيلون من مدينة جبل نفسها فلا شك ان محبتها الوطنية دفعتها الى الزعم بكون بلادها اعرق قدماء من كل ما سواها غير ان اله كل امة يهدينا في مقاطيع سنكن يتن الى معرفة الحكايات التي تتعلق بكل من المدن والقبائل الفينيقية . لان هذا المؤلف استخرج اخباره على ما اثبت اوساب وفيلون وبرفير (١) عن الكتابات المنقوشة على اساطين الهياكل فذكرها كما هي من دون تصرف بل اكتفى ان يؤلف بينها تأليفاً قاصراً من غير احكام . وكان في كل كتابة ينقلها يرتقي الى الاله الاعظم الذي هو باعتبار ما جدّ ومحامي القبيلة المنسوبة اليه

ان التقليدات الوثنية المنقوشة في هياكل مدينة جبل تبتدى بذكر ايل او عليون قال سكن يتن « وُلد في عهد الكبيرين عليون (٢)

(١) سكن يتن الفقرة ١: ١ و ٢ و ٤

(٢) عليون اسم سامي ومعناه الاعلى . وهو في الاصل من اسماء

السمي هبست وزوجته المسماة بيروت (١) فاقاما في نواحي مدينة جبل . ولدا ابناً يسمى الارضي او الوطني وسمي بعد ذلك السماء وبسبب جماله البديع سمي الفلك باسمه . وكانت له اخت تسمى الارض قيل انه بسبب حسنها سميت الارض باسمها »

اما ابوهما عليون فهلك في معاركه مع الوحوش الضارية . فألهه ابناؤه وقدموا له الذبائح وسكبوا له سكيهم من الخمر . فلما خلف السماء اباه تزوج باخته الارض فولدت له اربعة اولاد ايل (٢) او كرون (٣)

الاله الحقيقي غير ان الوثنيين في حكايتهم هذه استعمالوه لغير ما هو له (١) بيروت يراد بها الالهة عشترت وسميت بيروت من السرو الذي كان رمزاً عنها والسرو يُقال له في الفينيقية بروش او بروت (نشيد ١ : ١٦)

(٢) معنى ايل الاصلي في اللغات السامية هو القوة والقدرة وهو يذكر في الكتاب المقدس ليدل على الله وربما كان اسم الشمس في اليونانية (ايلوس) مأخوذاً منه

(٣) كرون هو ساترن اليوناني فمعناه الوقت ولعله ترجمة عولم اي

الابدي او قدم اي القديم او خلد اي الخالد

وبيت ايل (١) وداجون (٢) اوسيتون (٣) وعتل (٤)
وتزوّج السماء ايضاً بنساء كثيرات ولد له منهنّ اولاد كثيرون
فغارت منهنّ الارض زوجته وهجرته بعد ان اوسعتهُ شتاً وسباً . اما
السماء فكان بعد هذه الفرقة يزورها بسلاحه متى شاء ثم يتحوّل عنها
ولكن الارض لما رأت انه ساعٍ في قتل اولادها جمعت جنوداً لاسعافها
فردّت كثيراً من هجماته»

(١) اشارة الى الحجارة والاساطين والجبال المعبودة في لبنان
ولاسيا في نواحي بعلبك كآلهة ساقطة من السماء . وكان لبنان يسمى
احياناً بيت ايل بمعنى جبل الله او مسكنه
(٢) داجون معناه سميكة وهذا الاله كان معبوداً من
الفلسطينيين (قضاة ١٦: ٢٣)

(٣) سيتون معناه القمح . وقال سنكن يتن في الفقرة الثانية ان
داجون اخترع استعمال القمح وسكة الفلاحة ومن ثم يكون عند الفينيقيين
اله البحر والزراعة

(٤) معنى عتل في الفينيقية حزين ومضطهد . ونسب اليه اقليم
الاسكندري اختراع الملاحة وفقاً لبعض حكايات قديمة (Sromat.
1, I6)

ولما بلغ ايل مبلغ الرجال استوزر كاتب سرّه الكبير حرمش او
توت (١) واسعر الحرب على ابيه السماء لينتقم منه عما الحق به من
الاهانة بالارض امه

وكان لايلا ابتسان عنت (او بروسرين) وتنتيت (او اتينا)
فماتت اولاهنّ عذراء . اما تنتيت وحرمش فعلمّا ايل طريقة عمل
المناجل والرماح من الحديد وحرمش هذا هو ابن ميصور (٢) وهو
اول من اخترع الكتابة والحروف (٣) وكانت له ايضاً عند الفينيقيين
شهرة عظيمة في معرفة الامور الدينية وكان اول من رتب عبادات
الآلهة التي بلبها بعض الجبهة (٤)

والتي حرمش ايضاً بواسطة سحره في قلب ايل شوقاً شديداً الى
محاربة السماء اكراماً للارض . ولهذا الهب ايل نيران الحرب على السماء
فطرده من مملكته واستولى على سلطنته وفي تلك المعركة وقعت زوجة
السماء في يدي ايل فزوجها الى داجون وكانت اذ ذاك حبلية من

(١) ان توت بالفينيقية معناه كتب وتكلم . وحرمش معناه

المنجل للحصاد

(٢) معنى ميصور السباك

(٣) سنكن يتن الفقرة ٢ : ١١ (٤) سنكن يتن الفقرة ٥

السماء ولدت ولدًا سمته دامور (١)

وبعد هذه النصره بنى ايل اسواراً حول قصره وبنى اول مدينة في فينيقية وهي مدينة جبل . ولما توهم الشر في ابيه دفنه باغراء حرمش في حفرة عميقة وحينئذ سمي اصحاب ايل الوهم (اي آلهة) وكان له ولد يسمى شديدا فتوهم فيه الغدر يوماً فذبحه بيده وبعد يسير ذبح ابنته ايضاً لمثل ذلك السبب وهكذا لطح يديه بدم ولديه ولما سلك هذا المسلك ملأ قلوب سائر الآلهة رعباً «

« غير ان السماء لما سم من منفاه ارسل ابنته العذراء عشتروت (٢) مع شقيقتين أخريين هما رية (او سميرام) وديونة (او بعلي) (٣) لكي يتحيل على ترع الملكة من ايل . غير ان ايل استأهن اليه وتزوج بهن

(١) دامور هو نفس بعل دمر بالفينيقي اي الاله الحامي .

واليونان يقولون تاموراس ويمكن اشتقاقه من بعل ثم اري اله النخل او اله الاثمار

(٢) عشتروت جمع عشتروت ومعناها قطعان الغنم والبقر (تثنية

الاشترع ١٣: ٧ - ٤: ٢٨) ألا ان معنى صيغتها الاصلية بالافراد

(اي عشرة) هو الاله فقط

(٣) معنى بعلي سيدتي

فلما علم بذلك السماء سَيرَ اليه ايضاً القدر والساعة مع غيرهما فلاطفهنَّ
ايل ايضاً فاقمنَّ عنده

وُولد لايِل من عشترت سبع بنات وهنَّ الطيطيات (١) ومن
رية سبعة ذكور كُرس آخِهم للآلهة من طفوليتِه وولد له من ديونة
بنات كثيرات ومن عشترت ايضاً ابنان هما الشوق والعشق . . . وولد
له ايضاً ثلاثة اولاد من رية سمي احدهم بايل كاسم ابيه وسمي الاخران
بعل واپلون (٢) وولد من بعد هؤلاء البحر والزوبعة

ان ايل كان قد صرف في الملك اثنتين وثلاثين سنة عند ما
اتصل الى ايقاع ابيه السماء في الفخاخ التي نصبها له داخل الارض .
وحالما وقع ابوه بين يديه قطع اطرافه فانتشرت روحه حيثئذٍ مع دمه
في الينابيع والانهار المكرسة له والمعروفة الى الان في الجهات المجاورة
ومن بعد ان ذكر سنسكن يتن هذه الانساب انتقل الى ذكر
حكاية تجعل جبل عاصمة ايل وقاعدة لجميع الممالك التي قسمها عند
طوافه في الارض قال « ان ايل ولى على هذه الجهة عشترت

(١) اي الترايبات لان طيط معناه التراب

(٢) اپلون كما قال سلدن في كتابه عن الآلهة السورية (٢ : ١)

هو محرف لفظة بعل عند اليونان

الكبيرة (١) وبعل دامور (٢) وهدد ملك الآلهة (٣)
 ثم ان ايل لما طاف العالم اعطى ابنته تنيت (اتينا) ملك
 اتيكة وهي قسم من بلاد اليونان (٤) ولما ظهر وباء شديد تفشى الى
 مملكته قدم ابنه الوحيد ذبيحة لاييه السماء ثم اختن وامر جميع اصحابه
 ان يختنوا

وذكر سكن يتن (٥) خبر ذبح ايل لابنه في موضع آخر بتفصيل
 اوفى قال : ان ايل الذي يسميه الفينيقيون ايضاً اسراييل وهو الذي
 مات متقمصاً للكوكب زحل ولد له في ايام ملكه من جنية مائة

(١) كانت بيروت عاصمة مملكتها التي كان مقصورة في الاقل
 على بلاد فينيقية ثم وسعتها فيما بعد بما فتحت من الفتوحات البعيدة
 (٢) معنى الدامور بالفينيقي الحامي وكانت مملكة فينيقية والعربية
 وهو ابو ملكرت اله صور ومن حيث ان نهر الدامور يسمى باسمه لذلك
 يعتبر انه كان من مملكته التي كانت قاعدتها مدينة صور او مدينة صيدا
 (٣) هدد هو اله دمشق ومعناه الاحد ومن ثم تكون دمشق
 وسورية مملكة له

(٤) ان اليونان في اتينا وقورنت كانوا يعبدون تنيت باسم اتينا
 او ميثرث ويسمونها ايضاً ايلوتي اي ابنة ايل (٥) فترة ٤ وه

تدعى عين عبريت ولد وحيد فدُعي يُحيد ولذلك لا يزال الفينيقي
يسمي ابنه يُحيد اذا كان وحيداً

الآ انه لما رأى الحرب موشكة ان تداهمه فرغبة في منعها
البس ابنه زينة الملك وذبحه على مذبح عال . وبعد ذلك بقليل قبض
موت الذي وُلد لإيل من رية امرأته

ثم ان ايل وهب مدينة جبل للإلهة بعلي (اي سيدتي) التي
تُسمى ايضاً ديونة وهب مدينة بيروت لبوصيدون وللكبيرين
الحراثين والصيادين الذين دفنوا فيها عظام البحر

وكان الاله توت قبلاً قد صورَّ سماء الآلهة وهيئات ايل وداجون
وغيرهما وصنع رسوم الحروف المقدسة (١) . . . ولما ان طاف ايل
بعد ذلك في النواحي الجنوبية اعطى الاله توت سلطنة مصر جميعها

(١) ان سنكن يتن في الفقرة الخامسة ينسب الى الفينيقيين عموماً

هذا الاختراع ويقول ان توت نبغ بحكمته عند الفينيقيين وكان اول
من وضع نظاماً وعلماً لعبادات العامة . وخلفه في ذلك الاله شريم
بعل وتوره مدة اعصار فشرحا تعليمه المغشى بالرموز والاسرار . ومعنى
شريم بعل نظام وسنن واحتفالات بعل وكذلك توره معناها الشريعة

الدينية

ودونت هذه الحوادث أولاً باسم الآله توت بواسطة سبعة اولاد صديق وهم الكيرون الذين ثامنهم اخوهم اشون اي الثامن (١) . وكان قابون (الفهم والعلم) عند الفينيقيين أول من حسن هذه الاخبار في القرون الاولى بالكنايات وعزجها بالمظاهر الطبيعية والفلكية حتى لا يتصل الى معرفتها الا الكهنة معلّم الاسرار والمتعلمون لهم غير ان هؤلاء الكهنة ادّتهم الجسارة الى ان شخّنها بالاكاذيب وسلّموها بتلك الصورة الى خلفائهم ومشايخهم . وقد اشتهر منهم بذلك أسير (اوسيريس) (٢) مخترع الحروف الثلاثة واخو كنعان الذي هو اول من سمّي فينقس

(١) وهو اسكولاب عند اليونانيين

(٢) كانت مدينة جبل تعيد لاسر المصري كما ان اسكندرية كانت تعيد لادوتي الفينيقي وقد جعلوا كنعان اخاً لاسر دلالة على وحدة نسب الامتين - وفيلون الجبلي (فقرة ٢ : ٢٥) اثبت ان اليونان اخذوا حكاياتهم عن الفينيقيين قال : ان اليونان الذين يفضلون سواهم بالتدثّن والتشوّق انتحلوا أولاً جميع هذه الاخبار ولكنهم رغبة في ان يسروا الاسماع والالباب بمحاسن القصص الخرافية زادوا عليها بكثرة لا كثرة فوقها كل ما امكن اختراعه في مخيلاتهم زينة لها وحلية وكذا

اعلم ان اخبار سنكن يتن لا تشتمل على جميع الحكايات المعروفة
عن جبل وسائر المدن اللبنانية بل توجد مصادر اخرى تكمل هذه
الحكايات وتوردها بالكيفية التي كُتبت بها العامة او الشعراء الذين
نظموها . وها نحن اولاء نأتيك الان بطرف منها

لما قلّت معرفة الساميين للاله الحقيقي اخذت كل قبيلة تعطي
اسم الاله لأول رئيس ساسها ودبر امورها . وانما اولد فيهم هذا الميل
ما يحكى عن مدينة جبل من ان ايل الذي هو اقدم صيغة عند
الساميين لاسم الله المعبود هو مؤسس هذه المملكة ولكن ملكه ليس
له حد معلوم . قال سنكن يتن انه طاف جميع الآفاق ووزع على ذويه
عامة ممالك الارض . ولا جرم ان هذه الحكاية الفينيقية تعود على التاريخ
بفائدة عظيمة اكثر بكثير من فائدة التقليدات عن الحوادث الداخلية .
فالحكاية المذكورة ليست عندهم الا تذكرة لما انشؤوا من المستعمرات
الكبيرة فان الغزوات التي تُنسب الى ايل هي بلا مرء حكاية عن
اتساع نفوذ الفينيقيين في العالم القديم

هسيود والشعراء الجوالون الذين ملأوا العالم بقصصهم اخذوا عن
الفينيقيين علومهم عن الالهة وحروب الجبابرة وغير ذلك . واختلاقاتهم
التي انتشرت في كل صوب عودت الناس الاكاذيب وخنقت الحقيقة

وليس ذلك مجرد دعوى فينيقية فان هذه الحكاية انتشرت ايضاً عند سائر الشعوب وشاع لاييل او كرون هذا اسم عظيم في آسية القديمة حتى اتصل ذكره الى اوربا. وبسبب ميل اهل فينيقية الى التجول والتنقل نسبوا اليه ارسال البعوث والاقدام على المشروعات والفتوحات والملك المتسع الشاسع ولعالمهم ورّوا بذلك من غير قصد الى ما كانوا يطعمون فيه من الاستيلاء على العالم القديم. اما بقية الامم فانهم سلّموا بحكاية ايل المتسلط وجعلوها على نوع خصوصي في مدينة جبل واذا نقبت عن هذه الحكاية في العالم القديم تجلّى لك ايل في داخلية آسية نظير جبّار متسلسل عن سام او ارام قد اتى من سورية ليستولي على مملكة اشور ويملك عليها سنين طويلاً. وكانت له زوجة اسمها سميرام ويدعونها ايضاً رية (١) لكثرة تبرّجها وكانت هي كذلك من ذرية سام. فولد لهما بيك وسمياه زوس (المشتري) ونين الذي كان ابا بعل. وبعد ان بنى ايل اسوار بابل وزّع الممالك على اصحابه وترك الحكم في يد زوجته سميرام وزحف بجيش جرّار ليفتح المغرب باسره (٢). اما المؤرخون البرنطيون ففي معرض جمعهم لحكايات

(١) يوحنا الانطاكي الفقرة ٣ : ٤ وهذا جعل سميرام ام وامرأة نين

(٢) اوساب . توطئة الانجيل ٩ : ٤١ والتاريخ الفصحي

الشرق يذكرون تارة انه ولد سام واخرى انه ابن حام وينسبون اليه
مثل هذه الاعمال المتقدمة في الشرق والغرب (١) وسترى ايضاً
برهاناً جديداً يؤيد هذه الحكاية في ما نذكره عن بعل صور الذي
ذهب لبني اسوار بابل

وهكذا طاف ايل الجبلي منتصراً في العالم كله كأنه مملكة لا
منازع له فيها وهو يؤسس في كل محل المدائن والسلطنات ويهذب
الارض التي كانت اذ ذاك في حالة التوحش . واكبر بناية شاهدها في
ما وراء الفرات هي مدينة نصيبين ومعناها بالفينيقي الاعمدة . وهناك
وضع ايل اعمدة او حدود مملكته في الشرق كما ان هرقل رفع عمود
سلطنته عند مدخل البحر المحيط صوب الغرب (٢) . ثم جاء من بعد
ذلك وبني مدينة كرونية باسمه وهي التي سميت بعدئذ هيراپول او بنبيق
المعروفة اليوم بمنبج قريباً من حلب (٣) ثم صعد ايضاً نحو الشمال حتى
وصل الى ارمينية ومكن هنالك سلطانه ورحل اخيراً صوب المغرب

(١) ميخائيل كليكا سنة ٥٣٦ بعد الطوفان . وتاريخ قدردان

الصفحة ٢٦ (٢) سنكن يتن فقرة ٨

(٣) سنكن يتن فقرة ٧ . وأيد فيلون كلامه بشهادة اربعة

شركس وايسيفون وبولنك واشيل

وفي هذه البعثة ضم ايل الى مملكته جزيرة رودس (١) واكرت
 (٢) وكثيراً من الجزائر في البحر الايجي والاتيكي (٣) وتزل من
 بعد ذلك جهة ليبية وتجوّل بانتصار في جميع سواحل افريقية (٤)
 وبلغ الى طرطسوس فهزم الجبار أجيح الذي سبقه اليها (٥) ونصب
 العمد الشهيرة حدوداً لمملكته الغربية (٦) ثم عاد بطريق الساحل
 المواجه للساحل الذي ذهب منه وقطع شطوط اسبانية وركب البحر
 حتى وصل الى ايطالية (٧)

وهناك رحبوا به في كل مكان ولاسيما في الجبال التي بُنيت
 عليها رومة من بعد (٨) واخيراً وصل الى صقلية وفيها انقضت حياته

- (١) ديودور ٥: ٥٦ و ٥٨ - زينون فقرة ١
 (٢) كيكرون في طبيعة الآلهة ٣: ٢١ - ارنوب ٤: ١٤
 (٣) هسيود في كلامه عن الآلهة ١٦١
 (٤) ديودور ٣: ٧١ - ٥: ٦٦ سنكن يتن ف ٧
 (٥) تاوفيل في رسالته الى اتتوليك ٣: ٢٩ نقلاً عن طالس
 (٦) حواشٍ على ديونيس الجوّالة الشعر ٦٤
 (٧) مكروب في هجوياته ١: ٧ - قدران الصفحة ٢٨
 (٨) ديونيس الهاليكرناسي (٥: ١٩) يدعو ايلية المدينة التي بناها

ودُفن في قبر لم يزل موجوداً (١)

وزعم بعض اصحاب الخرافات الوثنية انه لم يزل مُبجراً ومُقدماً على اعماله الخطيرة حتى وصل الى الاوقيانوس الاتلنطيسي ولذلك سماه كثير من الاقدمين البحر الكروني او الساترني (٢) . واخبر بلوترك (٣) انهم كانوا يعتقدون ان ايلاً سكن بعد غزواته في جزيرة او في اليابسة التي هي وراء الاوقيانوس الكروني وقال المؤلف نفسه في موضع آخر مخالفاً للرأي العام ان تيتان البرياري أسرايل وحبسه في جزيرة قريبة من الجزائر الكسيتية (جزائر انكلترا)

اما سكنن يتن فجعل مصر واثيكة بكاملهما من مملكة ايل (٤)

ايل على جبل بلاتين في رومة

(١) اقليم الاسكندري (Protrept, 2,30) فيلوك فقرة ١٨٤

(٢) بلين ٤ : ٣٠ — اغاثون ٢ : ٢ — ارغون ١٠٨٥ — ديونيس

الجوالة ٣٢ وهيكاثة (بلين ٤ : ٢٧) يسمي هذا البحر الماكيوم ولعلها

مشتقة من لفظة الملك . وديودور استشهد بتيمة وقال انه يوجد في هذا

البحر جزيرة تدعى الملكية وبعضهم يدعوها أبلس واصل هذه الكلمة

ان بعل اي جزيرة بعل (٣) بلوترك في ادبياته

(٤) سكنن يتن فقرة ٢ : ٢٤ و ٢٥

ومن حيث ان الحكايات الوثنية يونانية كانت او لاتينية تجعل ايلًا من اكبر آلهة بلاد اليونان وايطالية ورومة وتثبت ان بعل وأجبت (قبط او مصر) هما من سلالة كان تسليمها بذلك مؤيدًا للحكايات الفينيقية . وعليه فان اله جبل تسلط نظير ملك واله على عالم الاقدمين باسره ومدة ملكه هي المعبر عنها عند جميع الامم بعصر الذهب المنتشر ذكره في اقوال الشعراء (١)

ثم ان حكاية ايل الذي فتح الدنيا وملك العالم باسره وحاز من المجد والعظمة والسطوة ما قد مر عليك وصفه لا يصح اعتبارها مجرد كناية فقط عن النفوذ الوثني والاستعماري الذي فازت به مدينة جبل حتى في الازمان المتوغلة في القدماء لما كانت اقدر مدينة في فينيقية . لان مدينة جبل بحسب العادة الفينيقية قد خصصت بنفسها هذا اله وجعلته ملكًا عليها الا انها حافظت في حكايتها هذه على تقليدات اشمل واوسع تتعلق بالاله الحقيقي وبسلطته العامة على جميع البشر وسعادتهم الاولى

ونعلم ايضا ان لأدوني في حكايات جبل ذكرًا كثيرًا ومقامًا مهمًا ويتبين لاول وهلة ان سكن يتن كان مجهل هذا الامر . غير

(١) پوسانيا ٥ : ٧ - أئيد في التكمص ٢ الخ

انك اذا تتبعت كلامه الذي يقول فيه بان عليون مات نظير ادوني
 بانياب الوحوش الضارية سهل عليك ان تستنتج ان هذين الاثنين لا
 يُراد بهما عندهم إلا شخص واحد . وهذا الخلط يمكن شرحه بسهولة
 من معنى الاسمين المذكورين لان عليون معناه الاعلى وادوني معناه
 سيدي وكلا الاسمين ينسبهما الكتاب المقدس الى الاله الحقيقي (١)
 وسنكن يتن قد سكت سكوتاً كاملاً في اخباره المختصرة عن الحوادث
 والظروف التي اضافها اليونان الى اخبارهم قصد التحسين فاقصر على
 قوله ان عليون بعد ان ذهب فريسة الوحوش الضارية عبده ابناؤه . غير
 ان التصور الاساسي عن موت هذا الاله لم يزل مشتركاً بين
 الحكايتين . اما الشعراء اليونان فقد دَنَسُوا بسبب خلاعتهم هذا
 الاسم الالهي (ادوني) . ولم يكن ذلك منهم في عهد قديم جداً . اجل ان
 سافو نظمت قصة ادوني كما ذكر بوسانيا (٢) . ولكن لم يدنس هذه
 الحكاية إلا شعراء مدرسة الاسكندرية (٣) وملوك مصر معاصروهم .
 وعليه فان هيئتها الحاضرة لا تمثل اعتقادات جبل الآ في اواخر العباداة

(١) دانيال ٧ : ١٨ و ٢٢ و ٢٥ (٢) بوسانيا ٩ : ٢٩ : ٨

(٣) بيون في القصائد الرعائية ١ — تاوركيت في القصائد الرعائية

١٥ — اقليم الاسكندري عظمته للامم ف ٢

الوثنية . ولدنا دلائل كثيرة لا تدع وجهاً للريب ان ايضاحها على هذه الصورة كان له اساس ما في الوضع القديم . زعم اقيد السفية ان ادوني ولد بفاحشة من مرة مع ايها قنّارة وكانت امه قد تقمّصت سروراً قبل ولادة ادوني هذا الذي ظهر من جرثومة هذه الشجرة (١) ثم ان هذا الفتى الجميل عشقته عشتروت بعد ذلك قتلته المريح (مرس) ومسحه خنزيراً . هكذا كانت حكاية ادوني بالاختصار قبل ظهور النصرانية بقليل وذلك عند المصريين واليونان والرومان . ولكنه كان عندهم ايضاً حكاية ادوني الحكيم (٢)

غير ان مدينة جبل التي كانت مصدر هذه الحكاية لم تسلم بهذه الفرية التي اختلقها عقول اليونان الحقيقية ونظن ان حكاية ادوني الفينيقية قد ذكرها على وجهها الحقيقي القديس مالايتون في مديحه الذي وجهه للامبراطور مرك اورال نحو سنة ١٧٥ . نعم ان الجبليين غلب عليهم النفوذ اليوناني ولكنهم لم ينقادوا له اتقياداً تاماً فلم ينسبوا اسم ادوني الى عليون بل الى تموز (٣) واليك نص كلام القديس المذكور

(١) أقيد في التقمّص ١٠ شعر ٣١٥ الخ

(٢) يوحنا الانطاكي الفقرة ٤

(٣) شهد القديس هيرونيم انهم كانوا لا يفرقون بين تموز وادوني

بموجب نسخة سريانية كُشفت حديثاً في احد اديار نثريه (١) قال :

« ان ابناء فينيقية عبدوا بعلي ملكة قبرس وهذه الملكة بسبب عشقها لتموز بن كوثر (قيثار) ملك الفينيقيين هجرت مملكتها وجاءت لتسكن في جبل مدينة الفينيقيين . فوهبت حينئذ جميع ممالكها للملك كوثر (٢) ولكنها قبل ان احبّت تموز كانت قد عشقت اروس (مرس او المريح) واتت الفاحشة معه فتغيّظ زوجها هوفست (فلكان) من ذلك وجاء فقتل تموز في جبل لبنان بينما كان في قنص الخنازير البرية ومن ذلك الحين ازدادت بعلي قوة في جبل وماتت في مدينة أفقا حيث دُفن تموز (٣)

في رسالته الى بولينه ٥٨ : ٣ الخ

(١) ان الكردينال بترا نشر هذا النص سنة ١٨٥٥ في مجلة

سيليبيوم (Spicilegium) السوليمية

(٢) قال ابلودور (١٤ : ٣) ان صندوق خرج من سورية وجاء

كيليكية وبني مدينة كلودرين وتزوج بفرنك بنت محسر وولد له منها قنارة او قيثار ملك السوريين وابلودور يسمى مرة بازميز

(٣) ان هيكل عشترت في أفقا كان شهيراً وهو محل منفرد

بالقرب من نبع نهر ابراهيم الذي كان يُعرف بنهر ادوني . وارتأى الاب

ولما اخذت هذه الحكاية في الانتشار اختلق القوم لمدن لبسان
كما اختلقوا من قبل لمدن اغريقية تاريخياً كاذباً برمتيه وكانوا مع كل
ذلك يعتقدونه صادقاً . قال أستاذك إِنَّ ببل (جبل) قاعدة قيشار
بُنيت باسم ايل وكركست لادوني وسميت باسم ببل رجل قائد حرب
او باسم امرأة كانت تدعى ببل (١) ومنهم من قال انها سميت ببل

بُزكنو اليسوعي في مقالته في عبادة ادوني ان التقليد الوطني يجعل قبر
ادوني في الغينة من فتوح كسروان وهي تبعد عن أققا نحو ١٧ كيلومتراً
ونصف آخر جهة الغرب . ومن المحتمل ان الوثنيين اكثروا من بناء
القبور لادوني في محال متفرقة لجرد التذكار لا لتعيين مكان موته او
قبره في كل منها

(للمترجم) رأيت في قرية الغينة صخرًا منقوشة عليه صورة حيوان
يفترس فتي تجاهه امرأة تبكي (وغنيي معناها امرأة باليونانية) ويقول اليونان
ان مرس هو الذي قتل ادوني بصورة خنزير بري

(١) اسطفان البرنطي في كلمة ببل . وهذا المؤلف يزعم ان
ببل بنت ميلة هي التي أسست مدينة ببل او جبل . وأفيد في التكمص
(٨ : ٩) قال انها جالت الارض باحثه عن اخيها ومُسخت مين ماء
في بوباس باقليم كارية

من شجر البردي الذي يسمى ببل باليونانية لانه كان يُحفظ فيها من غير فساد بحسب قول الاقدمين . وقال غيرهم ان ايسيس لما بكت على أسر حطّت هناك تاجاً عن رأسها كان مصنوعاً من الببل اي البردي المصري (١)

وحكاية ايسيس هذه التي بكت أسر ثم وجدت في مدينة جبل اشتهرت على الخصوص في العهد المقدوني بمصر وفينيقية وفي جميع الارض التي تسلط عليها اليونان

واخبر المصريون ان جسم أسر الذي قتله تيفون سار على المياه الى جبل وهنالك دُفن وان رأسه في كل سنة يتعاطى ذلك الإبحار (٢) ، قال بلوترك : ان الصندوق الحاوي جثة أوسر قدفته امواج البحر الى شاطئ جبل حيث وقف هنالك تحت طرفاء فصارت هذه الشجرة في قليل من الزمن جذعاً كبيراً عظيماً كثير الاغصان فغشت الصندوق بكامله حتى امتنعت رؤيته . ثم ان ملككندر ملك جبل لما رأى تلك الشجرة غت وعظمت فجأة قطع اغصانها التي كانت مغطية للصندوق وجعل جذعها عموداً اسقف بيته .

(١) أستاذات في شرح ديونيس الجوال ٩١٢

(٢) لوقيان في آلهة سورية ٧

وقيل ان إيسيس نُبِيت الى ذلك بالخبر المنتشر بريح الهية فذهبت الى مدينة جبل وجلست هنالك عند عين ماء حزينة ~~كئيبة~~ ثم عادت بهيئة سنوية تحوم حول ذلك العمود الخشي الى ان انتهت اليها الملكة عشترت وكشفت امرها . فلما عُرِفَت هذه الالهة طلبت عمود الخشب وقطعته بسهولة كلية وقلعت من تحت الغطاء جذع الطرفاء ودهنته بزيت معطر ثم لفتته باللفائف وسلّمتها الى الملك ليحترس عليه . ولذلك يكرم الجيليون الى الان هذه القطعة الخشبية الموضوعة في هيكل ايسيس (عشترت) ثم اظهرت الصندوق واخذت تبكي وتنوح حتى مات اصغر اولاد الملك شفقةً عليها . اما هي فاخذت الصندوق وتزلت في مركب مع اكبر اولاد الملك المذكور وسافرت مبيجرة (١) »

وهذه الحكاية تدل على ما اثبتته الكتابات في ما بعد من شدة العلاقة بين جبل ومصر وادوني وأسر وعشترت وايسيس . وتبين انهم كانوا في كلتا الجهتين يعبدون اشخاصاً بعينها تحت اسماء مختلفة (٢) ولذلك كانت كل جهة من هاتين لها تأثير قوي في الاخرى .

(١) بلوترك في كلامه عن ايسيس وأسر ٨

(٢) ان بلوترك في كتابه ايسيس وأسر (١٥ و ١٦) يتكلم

غير ان الباحثين عن الآثار المصرية يجزمون بكون مصر هي مصدر
 لجميع الحكايات الفينيقية ألا ان ذلك لا يُحمل إلا على تشيعهم
 وتحزبهم لهذه البلاد . والقديس اثناس (١) الذي شاهد ممارسة
 هذه العبادات قد بين ما كان بينها من الفروق العظيمة قال . « ان
 الفينيقيين يجهلون الآلهة التي يعبدها المصريون وكذلك المصريون لا
 يعبدون نفس الالهة التي يعبدها الفينيقيون » هذا وان ظروف هذه
 الحكاية التي نحن بصدها الآن اعني تفتيش ايسيس عن زوجها في
 جبل ونوحها عليه ورجوع رأس أسر الى جبل كل سنة في
 الاحتفالات الادونيسية من شاطئ النيل الى ساحل جبل كل ذلك لا
 يدل فقط على اتحاد هذين البلدين في امر الدين فقط بل على ان
 مركز هذه العبادة هو في مدينة جبل

٢

بيروت

ان مملكة بيروت كان اول من سكنها على قول سنكن يتن الآلهة

عن هيكل ايسيس وأسر في جبل ويظهر ان المراد بهذا الهيكل
 هيكل ادوني وعشترت

(١) في عظته ضد الامم ٢٣

الذين قدموا من مدينة جبل . فان كان ايل هو اول ملك على جبل
فان زوجته بيروت هي التي سميت باسمها هذه المستعمرة الاولى قال
المؤرخ المذكور : « في نحو ذلك الزمن وُلد عليون (ايل) وامرأة تدعى
بيروت فسكننا قريباً من جبل وكان لهما ولد اسمه الوطني ثم سمي بعد
ذلك بالسما » (١)

اما نون فقد اخبر بنوع اصرح عن اصل بيروت قال : « ان
بيروت هي اول مدينة بناها ايل بنفسه لما ان ابتلع في حلقومه المتسع
حجرًا بارادة رية الفطنة . . . وبيروت هي اول مدينة رآها أيون الذي
خلق معها بصحبة الارض معاصرتة . اما ترسوس الحسنة فلم تكن
قد وُجدت لاهي ولا تيبة ولا سرد حيث يوجد طين ثمين على شاطئ
البحر المتدفق بالذهب . وان سرد ام الحاريتين المولودة مع الشمس
لم تكن ايضا كما انه لم يكن شيء من المدن اليونانية ولم يكن
كذلك اركادية السابقة لوجود القمر . لان بيروت وحدها وُلدت قبل
جميع الارض وتقدمت فايون (اي الشمس) الذي يستنير القمر
بضياؤه (٢)

(١) سكن يثن فقرة ٢ : ٨

(٢) نون ديونيلس ٦٧ : ٤١ - ٩١ و

وكيف وجدت بيروت مكاناً ثابتاً تستقر فيه قبل وجود الارض
تلك مسألة يتعسر فهمها . ولكن الشعراء سوَّغوا لنفوسهم الاكثار
من الاختلاقات ولو انها جاوزت حدود الصدق

ان اسم بيروت الذي لا يفترق في الفينيقي عن اسم جبل براتي
(١) يدل كما تقدم القول آنفاً (٢) على السرو الذي كان كثيراً في
بيروت والجبال التي حياها قال نون : « انّ النسمات المحيية الفائحة
بانواع الروائح الزكية تسري مسرعة بين اغصان السرو » (٣)

والحال ان هذا الاسم الرمزي للسرو يدل به في الحكايات الوثنية
على عشتروت الالهة التي كان هذا الشجر مكرساً لها وكانوا لا يفرقون
اولاً بين عشتروت ابنة السماء وزوجة ايل وبين بيروت لان اسم بيروت لم
يكن الاً احدى صفات عشتروت او احد الرموز اليها

فاللخص من ذلك ان الهاً واحداً بعينه أسس بيروت وملاكها
تحت هاتين التسميتين . وفي كلام سنكن يتن ما نصه : « ان عشتروت

(١) سنكن يتن ٧ : ٢ — بلين ١٢ : ٣٩ وقال كثيرون باشتقاق

اسم بيروت من لفظة بئروسنجث فيما بعد عن هذا الرأي ونجترئ هنا
بافادات الحكايات الوثنية (٢) في الفقرة الاولى من هذا الفصل

(٣) نون ديونيس ٤١ : ٤١

ملكّت الناحية بارادة كرون . « فما هي هذه الجهة المختلفة عن جبل
والمختاطة معها ايضاً تحت اسم عام اي الناحية . ليست هي الا مدينة
بيروت التي يذكر اسمها بالالهة عشترت وهذه المدينة التي صارت ايضاً
اقطاعاً للكبيرين الذين كانت عشترت كبيرتهم واولاهم (١)

قال سنكن يتن ان ايل وهب بيروت لبوصيدون (نبتون)
وللكبيرين الفلاحين والصيادين قدّموا فيها الاكرام الالهي لبقايا البحر (٢)
فصارت بيروت بالطبع مكان تأليه للبحر لان جميع هؤلاء الالهة
كانوا بحريين . لان بوصيدون او نبتون هو عندهم اله البحر والكبيرين
هم آلهة الملاحة وعشترت التي هي كبرى الكبيرين خرجت من زبد
البحر . هذه هي العلامة الفارقة لبيروت في مقاطيع سنكن يتن
والحكاية الاكريتية الصادرة ايضاً من فينيقية (٣) تثبت هذا التقليد
بقولها ان بوصيدون كان اول من تسلط على البحر باصر كرون واتفق
ايضاً مع الكبيرين الذين تقاسموا الملك معه في بيروت ووسّعوا نطاق

(١) سنكن يتن فقرة ٢ : ٢٤

(٢) لا نعلم ما اسم بوصيدون في الفينيقية ولكن الظاهر انه اول
الكبيرين كما ان عشترت كانت اولاهم

(٣) ديودور ٥ : ٦٩

سلطنتهم البحريّة ومدّوها الى الاماكن السحيقة

ان نسبة الكبيرين ترتقي بواسطة صديق الى بعل شميم (اي رب السماوات وهو نفس عليون) ووُلد من صديق الذيوسقوريون (١) والكبيرون والكوريبننت (٢) او الساموتراكيون (٣)

ويقال انهم اخترعوا فنّ الملاحة وولد لهم اولاد اكتشفوا منافع الانبثة الطبيّة وعرفوا صناعة توقيف السموم في المدوغين وردّ اضرار السحر (٤)

وقال سنكن يتن في موضع آخر: «ان صديقاً اي البار هو ايضاً اسكولاب ابن احدى الطيطيات بنات عشترت» (٥) اما اسم هذا الاله المخصوص بالطبّ فهو بالفينيقي اشتون (اي الثامن) الذي جعل فيما بعد واحداً مع اسكولاب اليوناني لانه كان يُرمز بالأفعى الى كليهما.

(١) الذيوسقوريون اي ابناء زوس او المشتري وكانوا عند اليونان اثنين فقط كستور وبلوكس

(٢) هو اسم للكهنة الذين كانوا يحتفلون بأسرار الكبيرين ومعناه المضطربون لاضطراب حركاتهم

(٣) اي المنسوبون الى جزيرة ساموتراك

(٤) سنكن ٢ : ١١ و ١٢ (٥) سنكن ٢ : ٢٠

واما الكيرون فهم رفقاء توت العلماء صحبوه لاجل العناية بجمع الآثار
التاريخية عن فينيقية (١)

وبموجب هذه الافادات تكون اهم جكاية عن بيروت مبنية
على عشترت وبوصيدون والكبيرين . والظاهر ان عشترت هي اكبرهم
مقاماً واعظمهم اهمية لان سنكن يتن يقول (٢) ان عشترت وضعت
على رأسها نظير دليل على ملكها رأس ثور (٣) . ولما تجولت في
الدنيا وجدت نجماً ساقطاً من السماء فأمرت ان يُقدّم له الاصكرام
اللاثق بالالهة في جزيرة صور المقدسة (٤) ويظن الفينيقيون ايضاً ان

(١) سنكن ٢ : ٢٧ (٢) سنكن ٢ : ٢٤

(٣) كانوا يصورون عشترت على المسكوكات برأس ثور دلالة
على اسمها الذي يعني قطعان الثيران كما قلنا سابقاً . وكان الثور
مخصوصاً بها رمزاً الى الحياة والسلطة وكثرة النسل — وهذه الحكاية
حملت إيلان . (De natur. anim. XVI, 33) على ان كتب ما
يأتي « ان كتب الفينيقيين تشهد ان بقر بلادهم هي كبيرة الجثة جداً
بحيث ان اكبر الرعاة كان يضطر الى الوقوف على كرسي عالٍ ليتمكن
من حلبها »

(٤) كيكرون في طبيعة الالهة ٣ : ٢٣ و ٥٩

عشرت هذه هي عين افروديت (١) اما كيكرون فقال بان عشتريت ولدت في صور (٢)

وعليه فان عشتريت هذه المشهورة في الحكايات الفينيقية قد جعلت مباءة مملكتها في بيروت ولكن صولتها وسطوتها لم تنحصر ضمن مملكتها الصغيرة بل امتدتا كثيراً جداً . فتخطتا أولاً الى فينيقية كلها لان هذه الجهة كانت بعمومها مخصوصة بعبادتها الى حد ان اعتبرت ممثلاً لها ولديانتها وفتوحاتها وتجاراتها كما ذكرنا سابقاً عن كرون

وليس الفينيقيون وحدهم يكرمون عشتريت كمملكتهم ويجعلونها الفاتحة العامة بل قد تخطى نفوذها الى سائر الشعوب الاقدمين فعبدوها باسماء مختلفة كما يتبين ذلك من تجولها في العالم

لقد امتدت عبادة عشتريت كثيراً حتى عبدها باللقاب متنوعة عدد منها احد المؤلفين القدماء (٣) اكثر من ثلاثمائة لقب وضعها لها الشعراء فكان اليونان والرومان والافريقيون يشبهونها تارة بهيرة

(١) افروديت نسبة الى أفرت واصلها بالفينيقي هفرت اي البقر

فتكون اذا بمعنى عشتريت

(٢) تعد عشتريت مؤسسة لهيكل جزيرة صور الشهير وهناك

كانت خاتمة غزواتها في الارض

(يونون) وطوراً بأرتميس (ديانة) ومرّة بافروديت (الزهرة) (١)
 وكانت هذه الأخيرة أكثر تمثيلاً لها عندهم ألا أنه لما كثّر عدد الآلهة
 لقبوا عشتت الفينيكية بافروديت الاورانية (الزهرة السماوية) (٢) تمييزاً
 لها لكنّ هذا التمييز جرى مؤخراً ولم تكن عشتت عند الفينيقيين الهة
 سماوية فقط بل كانت ايضاً ارضية وجحيمية. وقد وصلت هذه الحكاية
 الفينيكية الى اليونان منذ زمن قديم بواسطة المستعمرات الفينيكية التي
 توغلت في البلاد حتى بلغت الى تيبة وكورنت حيث كانوا يعبدونها
 باسم ايلوتي (ابنة ايل او الهتي) وباسم فينيكية (٣)

اما اليونان فقد زادوا على هذه الاقاويل الشرقية وافسدوها ألا
 ان آثار الحكاية الاولى لا تزال تشير اليها لانهم يذكرون مراراً ان
 الالهة مرّت بشواطئ اليونان قادمة من مياه بيروت او قبرص او
 يجعلونها أم الجنية المائبة بيرية التي من اسمها يشتق اسم بيروت على
 زعمهم . قال بوسانيا (٤) ان افروديت السماوية كانت تعدّ فينيكية

(1) S. Aug. in Jud. II, quest. 67.

(٢) ان افلاطون في المحاورة الثالثة عشرة في الشرائع يقول

صريحاً ان اسم افروديت نجمة المساء اصله من المشرق

(٣) ليكوفرون . تترتس

(٤) بوسانيا ١: ١٤: ٦

وانها جاءت اليونان من جزائر قبرص وقيثارة

وكانت عشترت اول سلطانة او الالهة لجميع المستعمرات الفينيقية
بما انها امرأة ايل او بعل الا انهم كانوا يلقبونها باللقاب عديدة متنوعة
يتوهم لاول وهلة انها اسماء متفرقة لالهات متميزة فكانوا يسمونها
عشترت وعشرة وبعلي وبعلي سما ويو واوروبية وهلينسة وارتاميس
وديدون والزهرة (١) وادرجد (٢) ودرقتا (٣) ودجون (٤)

(١) اسم الزهرة واللات كانا اسمين لعشترت في جزيرة العرب
وكانوا يسمونها ايضاً في الين بالفرقد . وقد وجد ارنوا اسم عشترت
الفينيقية في الكتابات الحميرية . ويقرأ اسمها في الكتابات المصرية
« هاتور » (راجع جسين واكل ورنان)

(٢) معنى (ادر) العظمة والقدرة و (جد) معناه النصيب والرزق
وكان هذا الاسم منتشرًا على الخصوص في بعلبك ودمشق . اما في
بلاد اشور فكانت تدعى ميلية اي ام ومرة اي قمر او شمس . وبلين
لا يفرق بين ادرجد ودرقتا وعليه يمكن ان يكون ادرجد مشتقاً من
(ادير) اي كبير و (جد) اي سمكة (٣) كانوا يصورون درقتا برأس
امرأة وجسم سمكة . واما سميرام فكانوا يصورونها بذهب حمامة

(٤) اصلها من دج اي سمكة او من دجون بمعنى الحنطة

وسلمبا (١) وسميرام (٢) وغير ذلك كثير
وهذه التسميات الاخيرة تذكرنا ببلاد اشور وقد جاء في الحكايات
القديمة ان عشترت رحلت في صحبة نين الى نينوى وصارت ملكة على
هذه الناحية باقترانها بملكها (٣)

قال اليونان ان سلطة هذه الالهة قد عمت كافة بلاد اشور
ويشهد بذلك الآثار التي اكتشفت فيما بعد بمدينة نينوى (٤) وكان
الحجاج يخرجون مرتين في كل سنة من جهات الفرات ويأتون الى
سواحل فينيقية لينقلوا الماء المالح الى هيكلها كانهم يريدون بذلك ان
يذكروا برحلتها اليهم (٥) وان ما نراه من كثرة الاسماء لعشترت
وما يُعزى اليها من الحكايات والاعباد انما هو دليل على امتداد نفوذها
في قسم كبير من آسية

- (١) معنى سلمبا الشبابة الصغيرة
(٢) مركبة من سميراي حمامة وأم اي ام . واخبر نيجيد ان
الاسماك اخرجت من الفرات بيضة كبيرة فحضرها الحمام فنققت منها
سميرام المذكورة (٣) فيلوسترات في رسالته ٤٣
(٤) فيلوسترات في حياة ابولون ١٩: ١ استرابون ١٦: ٢
(٥) لوقيان في آلهة سورية ١٠

ومن حيث ان الفينيقيين كانوا شعباً من اهل الملاحة والاسفار
البحرية جعلوها ايضاً الالهة بحرية وسموها درقتا وادرجد وصوروا نصفها
الاعلى بنصف امرأة ونصفها الاخر بنصف سمكة وقالوا لذلك ان عشترت
هرباً من تيفون تقمصت سمكة وزادوا على ذلك ان ابنتها درقن او درقتا
غرقت في بحيرة اقفاً الا انها عندما سقطت في الماء انتشلها السمك (١)
وعشترت هذه الجوّالة قد سميت باسماء اخرى عديدة اثناء اسفارها الى
المغرب لكن بعض هذه الاسماء رمز الى فتوحاتها او الى فتوحات
الفينيقيين في الاصقاع الغربية ونجترئ من هذه الاسماء بثنائية هي : يو
وايسيس وهيلانة واوروبية وهرمونية وديدا وعنت وتنيت
وكثير من هذه الاسماء والحكايات يعزى الى مدن اخرى
فينيقية خلاف مدينة بيروت . ألا اننا نذكرها هنا كلها لما لها من
العلاقة مع عشترت

حكاية يو = يو هو احد اسماء عشترت المتجولة . وقد اثبت
لود ان هذا الاسم فينيقي الاصل (٢) وقال ان الكلدانيين كانوا
يعبدونها بهذا الاسم الذي يعني بالفينيقية النور

(١) Théon. ad Arat.

(٢) ولعلّ أصله يه الذي هو مختصر اسم يهوه (الذي هو اسم الله في
العبرانية وتفسيره الموجود والكائن او هو مشتق من ياه اي صار جميلاً

ويتبين ان يوهي ذات ايسيس المصرية . وكان المصريون يحتفلون في السابع من شهر طوبه بعيد وصول ايسيس من فينيقية (١) وتخبّر الحكاية ان ايسيس خرجت من صور بعد ان عاشت فيها عشر سنين في الخلاعة (٢) وعادت ايسيس الى فينيقية في ملك تيفون على مصر ثم رجعت الى مصر بعد انكساره (٣) واعتقاد سكتي ايسيس في لبنان كان امرأ شائعاً في جميع مدن فينيقية بل زعم اصحاب الحكاية انها لجأت الى بحيرة افقا (٤)

وفي مدينة جبل وجدت ايسيس ابنها إيف اسيراً عند ملك المدينة . ولوقيان والقديس ايفان وسنكل ونون يثبتون صريحاً ان ايسيس هي نفس الالهة يو وان كليتها يرعز اليها بما يرمز الى عشتارت اعني بصورة بقرة بيضاء وسوداء او رمادية وذلك في مصر وبلاد

وبهياً وكثيرون من الالباء مثل اقليم الاسكندري والقديس ايريني والقديس ايثان واثودوريت يجعلون اسم يوپيتر اي المشتري الذي هو اعظم آلهة الوثنيين مركباً من يو ومن پاتر اي اب باللاتينية

(١) بلوترك وكليماك (٢) القديس ايثان (٣) بلوترك

(٤) ولعلمهم يريدون بهذه البحيرة بحيرة المونة التي يرى على

شاطئها الى الآن آثار هيكل لعشتارت

اليونان وفينيقية وانهم كانوا يجعلون على رأس تماثيلهن قرون ثور
مما يذكر بمسح يوسف وتلك ايسيس وعشترت (١)

وفي زعم شعراء اليونان ان زوس او المشتري مسخ يوسف الى بقرة
بيضاء فجعلتها هيرة تحت حراسة ارغ بانبل . فقتل حرمش الحارس بامر
زوس وهربت البقرة فسلطت هيرة عليها ذباباً أليم اللسع لا ينكف عن
اذيتها حتى اضطرها ان تستمر تائهة على وجه الارض من غير راحة ولا
قوت . وفي عدوها الحثيث اعطت اسمها للخايخ (اليوني) وسمي البوغاز
الذي قطعه بين تراكية وطوريد بالسفور (اي ممر البقرة) . ثم قصدت
نحو الجهات الجنوبية من آسية وجالت في اماكن مختلفة الى ان
اختفت قريباً من صور على رأى من نيكفور واصحابه الذين كانوا
يسعون في طلبها ولكنها ما لبثت ان استأنفت الهرب حتى وصلت
مصرًا فردها زوس هنالك الى صورتها الاصلية وولدت ابنها الاسود
إياف (٢)

وما يدل عند التحقيق على ان ايسيس هي نفس الالهة عشترت
المتجولة هو ان الرموز به الى كليتيها والمحكي عن كل واحدة منهما
خصوصاً امر البقرة والثور واحد . غير ان الذي يمكن هذا التقارب ويشدده

هو ان ارباب الحكايات يزعمون بان الالهة يو رحلت اولاً من فينيقية الى ارغ ومن ارغ الى منف ويجعلونها في كل ذلك منقادة من الفينيقيين (١) وهي اخت بعل (٢) قال ابو لودور انها جالت في جميع سورية حتى علمت بان امرأة ملك الجليلين كانت تُرضع ولدها

ولايسيس هذه تعلقُ بفينيقية وعشّرت من وجوه اخرى . وذلك انها جاءت الى جبل لتفتش عن ولدها الذي استأسره ملك المدينة المشار اليها من بلاد مصر في غزوة له فلقيت هنالك نقابها الذي جعل فيما بعد رمزاً اليها على مثال ما رُمز الى عشّرت بنقابها في مسكوكات جبل وكانت تعود كل سنة الى هناك تنقب عن بقايا أوسر وسميت في آخر الامر هاتور وهو نفس عشّرت او عشّرت . وفي الزمن المتأخر كانت يو تُعبد تحت اسم افروديت الغريبة في منف وجزيرة فار القريبة من ميناء الاسكندرية (٣) حيث كانوا يسمونها ايضاً ايسيس القارية (٤) او كما قال اوفيد يو القارية . وكانوا يصفونها ايضاً بيوفثكا ومعناه باللاتينية العجّة

قصة هيلانة = ان هيلانة كانت معبودة في منف تحت اسم

(١) هيرودوت (٢) سنكل

(٣) ديودور واسترابون (٤) اوساب

افروديت او عشترت لان ابنة يوبيتر هذه وُضعت على ارياف مصر
 بيد منيلا (١) قال هيرودوت : في هيكل بروتي مكان مقدس يُدعى
 افروديت الغريبة واظن انه اُخصص لهيلانة ابنة تندار اما لعلمي بان
 هيلانة عاشت عند بروتي واما على الخصوص لانه لا يوجد هيكل
 غير هذا من هياكل افروديت المتعددة مسمى باسم افروديت الغريبة
 (٢) وبين المشتغلون بقراءة الكتابات المصرية القديمة ان هذه الالهة
 كانت تسمى بست وقد وفقوها مع الالهة القمرية الاسيوية التي هي
 عشترت

وشايح هيرودوت جماعة من المؤلفين وحققوا ان هيلانة التي
 اختطفها باريس هي افروديت بعينها التي هي عشترت عند الفينيقيين .
 هذا فضلاً عن انهم يسمون هيلانة ويصفونها بنفس الاسماء والاصاف
 التي لعشترت . فهيلانة عندهم هي القمر او اورانية (٣) وهي كبيرة
 او محامية السفن (٤) وهذه الحكاية التي نظمها هوميرو كانت معروفة
 من قبله على ارياف فينيقية ومصر . قال في كتابه الالياد ان باريس
 اسكندر خطف هيلانة من سبرطة ولكنه مرّ على صيدون فاستصحب

(٢) هيرودوت ٢ : ١٢

(١) اليان

(٤) اتيناغور

(٣) استرابون وهوميرو

منها نساء كثيرات (١) وقال في كتابه الاوديسي ان منيلا ذهب
اولاً ليقتش عن هيلانة عند فيدونا ملك الصيدونيين وسار من بعد
ذلك الى مصر. اما لوقيان الضليع في الحكايات الوثنية السورية فيزعم
ان هيلانة خطفها قنّارة ملك جبل. وقبرص ليسوقها الى تيرواسة قريباً
من البحر الاسود. هكذا كانت في القديم حكاية هيلانة التي خطفت
من فينيقية

فلذلك تشبه قصتها قصة يواو قصة ايسيس عشترت التي هاجرت الى
مصر (٢) وبلوترك وابلودور يزعمان وفقاً لهذه الافادة ان ايسيس
وافروديت الغريبة التي يخلطها هيرودوت مع هيلانة جاءتا من جبل
اقدم مدينة في الدنيا. وهذه الحكاية تتفق مع حكاية منيلا الذي
جاء فينيقية بعد خراب تروية (٣) ومع حكاية بروتي الذي كان
ملكاً على مصر عند ما خطفت هيلانة (٤)

اما مصنفو اليونان فقد جعلوا بروتي ايضاً مع الكبيرين الفينيقيين

(١) وقيل ان باريس استولى ايضاً على صيدا في اثناء مروره بها

(٢) ليكفرون

(٣) مينندر

(٤) هيرودوت

في ساموتراقية على ارياف تروادة او في مقدونية (١)
وهيلانة التي كانت تُعبد في منف وفار هي الهة متجولة
ويوجد لها ذكر كثير في حكايات فينيقية ومصر واسية الصغرى وبلاد
اليونان . وهي من احدى كبيرات بيروت وقد ذكرنا اوصافها الفينيقية
لسبب ما احرزت من السمعة ولما لها من الذكر في منظومات هوميرو

حكاية اوربة = ومن حكايات عشتروت المتجولة حكاية الالهة
اوربة (٢) التي يزعم ليكفرون انها وُلدت في صرفد واوريبيد في
صور وهذه الالهة التي خُطفَت من فينيقية امتدَّ اسمها شيئاً فشيئاً حتى

(١) اسطفان البرنطي . وكان بروتي رجل انكيرول او منف
التي هي ابنة النيل وحفيدة البعل . وهذه الكبيرة تزوجت بفكان
وولدت قديميل رابع الكبيرين

(٢) المظنون ان اصل كلمة اوربة مأخوذ من (عرب) ومعناها
المغرب والغروب والمساء بالمعاكسة لبلاد الشرق اي آسية التي تشتق
من آس او أوس باليونانية ومعناها الفجر . فتكون اوربة والعربية من
اصل واحد غير ان الثانية مشتقة من (عرب) التي بمعنى البادية . اما
قولهم في اليونانية اوربس فمعناها ايضاً المتسع والمظلم

شمل قارة كبيرة من قارات الارض (١) . واهل الخرافات الوثنية اليونانية ليس عندهم ادنى ريب في كون اوربة هي من فينيقية لانهم يقولون ان اباهها هو فنقس او اجينور (٢) وان اخاها هو قدم (قدموس) . واسمها القديم ايلوتي يجعل لها علاقة مع ايل . وكان اهل قورنت يعطون من غير اعتبار فرق اسم ايلوتي وفينيقية ايضاً لاوربة ومينرقة التي هي ايضاً ابنة كرون او ايل (٣) اما زوس او المشتري فانه بموجب الحكايات اليونانية تقمص صورة ثور لكي يختطف اوربة حتى فتتها بعرف الزعفران الذي كان يرعاه وحملها على ظهره بينما كانت مع صواحبها تقطف الزنبق والازهار قريباً من الشاطئ في جنائن صيدا . او صور او جبل (٤)

وكذلك الفينيقيون كانوا يعتبرون ان اوربة هي نفس عشترت .

(١) كانت حكاية اوربة مشهورة جداً عند من تقدم من شعراء اليونان وكثيرون منهم ذكروها في اشعارهم مثل ستاسيـكور وغيره

(٢) هومير وبوسانيا واوستات ومعنى ايلوتي الاهتي

(٣) ايتناغور وليكفرون وسنكن يتن وغيرهم

(٤) لوقيان وهسيود وغيرهما

ومن ثم جعلوا لها هيكلًا واحدًا في مدينة صيداء (١) وصوّروا
حكاية خطف الثور لأوربة في هيكل عشترت . ومما يؤيد هذا الامر
تلقبهم اوربة بالالهة القمرية

اما الثور الابيض فعند ما ابتعد عن الارياض الفينيقية حمل الالهة
المذكورة فوق الامواج حتى وصل بها الى جزيرة اكريت (٢) حيث
قوي النفوذ الفينيقي وسطعت اشعته على بلاد اليونان خصوصاً .
وكانت الهياكل والمسكوكات في صيداء وصور تشخص اوربة ملتحفة
بنقاب كبير نظير عشترت جالسة على الثور الرمزي ومختطفة من المشتري
كأن ذلك حادث وطني وكان اهل صور يحتفلون كل سنة بتذكار
اختفاء اوربة باسم : المساء الرديء (٣)

هذا وان اختطاف اوربة كان بحسب رأي هيرودوت اول عمل
اقدمت عليه بلاد اليونان لتنتقم من اهل آسية على اختطافهم يو من
ارغ بواسطة الفينيقيين الذين هم اول مسبب لجميع الحروب التي
انتشبت بعدئذ بين المشرق والمغرب . ومضمون هذا الخبر ان بعض

(١) لوقيان . وقال تات ان الصيدونيين كانوا يدعون اوربة عشترت

(٢) هسيود ومُسك

(٣) ملالا

المتجولين اليونان او الاكريتيين خطفوا اوربة ابنة ملك صور كما ان الملاحين الفينيقيين كانوا قد خطفوا يو ابنة ملك ارغ وبذلك تعادل الامر بينهم . غير ان اليونان استأنفوا العدوان لان ياسون خطف ميده في الكلاشيد وحرك بارييس على ان يطغي هيلانة

ثم ان اليونان سيروا جيشا كثيرا . واما اهل آسية فلم يكن لهم من قصد عند هجومهم على بلاد اليونان تحت امره داريوس وكسرى الا الاخذ بثار تروية . وكذلك هجمة الاسكندر على آسية واستيلاؤه عليها لم يكن الغرض منها الا انه ينتصر لبلاد اليونان

ان اوربة من بعد ان خطفت مدت سلطانها في الغرب ولما ان بلغت الى جزيرة اكريت ولدت لحاطفها ثلاثة ابناء وهم مين وردمنت وسربدوم . اما الاولان فملكا بالمجد والعز على اكريت وجزائر بحر ايجي وضربا الخراج على ايتنا ولعلهما استحقا ان يجعلا بعد وفاتهما قاضي الموتى (١) واما الثالث فترك اكريت واستوطن ليكية وملك عليها (٢) ولكن الليقيين يزعمون بان كسنت اكبر آلهة ليقية هو الذي خطف اوربة من فينيقية فولدت له سربدون (٣) . واخبر هيرودوت

(١) هومير (٢) ابولودور (٣) القديس اغسطين في

كتابه مدينة الله ١٢: ٢٨ . اسطفان البنظي

ان سربدون هاجر من ليقية قاصداً جزيرة اكريت مع اوربة ثم رجع
 بها الى ليقية (١) . اما الكاريون فكانوا يعتبرون اوربة من جملة
 كبيرات الالهاتهم لانهم شادوا لها هيكلًا في ساموس وزعموا على ما
 قال اشيل انهم اختطفوها بانفسهم من فينيقية . هذا وان الحكاية تخبر
 عن اوربة ايضاً انها قطعت البسفور (٢) وهي راكبة على ظهر الثور
 ودخلت الى تراقية ووصلت بيوتية حيث تختلط اخبارها باخبار
 هرمونية (٣)

ولنعد الان الى الكلام في جزيرة اكريت مركز الحوادث التي
 جرت لاوربة : كان يرى في ايام تاو فرست الدلب المكرم الذي استراح
 في ظله زوس اي المشتري واوربة عند احدى العيون وكان ذلك قريباً
 من مدينة غرتين حيث كانوا يكرمونها اكراماً لا مزيد عليه وكانوا
 يكرمون في تلك الجزيرة ايضاً قبر اوربة (٤) . ثم ان بوسي فاي زوجة
 مين الذي قيل انه من ذوي قرابة قدم (٥) ولدت مستحاً غريباً
 نصفه انسان والنصف الآخر ثور ولذلك سموه مين ثور . اما مين فخبسه
 في حظيرة يمتنع الخروج منها بناها ديدال الشهير لهذا القصد فتحيّل

(١) هيرودوت (٢) ابلودور (٣) بوسانيا

(٤) جرج سنكل (٥) نون

تأسي على قتله ولذلك نادوا به نصف اله . واعلم ان ما روينا من قصص اوربة هذه بوجه الایجاز الكلي انتشر كثيراً في بلاد اليونان وجميع المغرب ولذلك أُعطي اسمها على ما قال هيردوت لهذه القارة من الارض التي لم يكن لها اسم الى ذلك الوقت (١)

حكاية هرمونية = وهي اقل انتشاراً من حكاية اوربة . ورد في الاخبار الوثنية ان هرمونية هذه هي ابنة المريح وعشرت وزوجة قدم والدة النساء الامازونات (٢) اما قدم فبعد خطف اخته اوربة ذهب يبحث عنها باس من اجينور . ابه مع اخوته كيفا وقيليق وتاس وفين . ولما يثس هؤلاء من وجود اختهم توطن كيفا في اتيوبية الاسيوية او الكنعانية التي كانت يافا عاصمتها . وقيليق في قيليقية وتاس في جزيرة تاسوس وفين في تراقية والبنط . ولكن قدم الذي رافقته خطيبته هرمونية ابنة عشتت ضل الطريق ضلالاً كثيراً . ولذلك جعلت هرمونية في الحكاية الهة اخرى تائهة تشبه كل الشبه لاوربة عشتت

وبيانه ان هرمونية هاجرت نظير اوربة المذكورة من صيدون او صور ثم اختفت تحت هيئة ثور . وتجولات بعد ذلك في عين المواضع

(١) هيردوت ٤ : ٤٥ (٢) جماعة من النساء اهل حرب

التي اتينا على ذكرها بين جزيرة اكرت وتراقية حتى وصلت الى بيوتية وليبية . هذا فضلاً عن انه لا يوجد بين اسماء ورُتب اعيادها الا فروق خفيفة . والظاهر ان الصوريين خلطوا بين هاتين الحكايتين لانهم كانوا يحتفلون في عيد واحد باختفاء اوربة واقتران هرمونية بـ قدم . وكانت هذه العادة الصورية جارية ايضاً بساموتراقية وثيبة . وكان الصيدونيون ايضاً يقيمون عيداً حافلاً معظماً لاختطاف قدم لهرمونية وزاد اصحاب الحكايات المتأخرون بان قدم ما جال البر والبحر الا في طلب هرمونية التي بقيت في اكرت قريباً من نهر ليطا لاجل التفتيش عن اوربة وكان اهل ساموتراقية يحتفلون بعيد عظيم اكراماً لهرمونية الهاربة وبموجب تقاليدات هذه المستعمرات الفينيقية يكون قدم قد خطف هرمونية في جزيرتهم لكي ينتقل بها من عندهم الى ثيبة وعند مروره بتراكية زوج اخته ايدوتية بفيني ملك تلك الناحية (١) وقد شاهد بوسانيا ايضاً على هيكل دوتاو (في جبة من فينيقية) مندبل هرمونية الذي يرى الى اليوم محفوراً على مسكوكات هذه المدينة وكذا عقدها في هيكل ادوني وعُشّرت القديم في مدينة اما تُنت بقبرس . وكان ذلك مهرّاً لها من زوجها قدم الذي تركته بعد ان اخذت المهر المشار اليه (٢)

اما الجيش الذي سيَّره قدم الى بلاد اليونان مع هرمونية للتفتيش عن اوربة فهذا اليق محل لذكره ولو كان اليونان يزعمون بأنه هاجر من صيدا . لانه من المعلوم ان اليونان كما سلف القول غير حرة انما يريدون بصيدا في حكاياتهم الوثنية فينيقية برمتها . هذا فضلا عن ان قدم كان معدودا من جملة الكبيرين (١) في فينيقية وفي بلاد ساموتراقية وكورة تروية وفيجية (٢) واليرية ودلماتية (٣) وليبية حيث بنى مئة مدينة (٤) وفي رودس وثيرة وغيرها (٥)

والحال ان بيروت كانت مركز الكبيرين وبالتالي فاليها وحدها يُنسب هذا القائد الكبير رئيس البعث الاستعمارية والعلمية الموجهة من فينيقية الى بلاد المغرب

(١) ديودور وقدم مشتق من قدم اي الشرق او الزمن السابق .
وقيل من قدمون اي القديم والازلي . وتصغيره عند اليونان واللاتين
قدميل ومنه كاميل بالفرنسية . اما قدميل فقد كان رابع الكبيرين
ورسل الالهة وكانوا يصورون معه رسم الحية التي يرمز بها الابدية

(٢) نقولا الدمشقي في تاريخ اليونان

(٣) اخبر سيك انهم كانوا يرون في دلماتية حجارة قدم وهرمونية

وهيكلها (٤) نون (٥) هيودوت

اما كتبة القصص الوثنية فقد تباينت آراؤهم في هذه الحكاية لان هيرودوت واوريبيد اجمعا على ان قدم هاجر من فينيقية الى بلاد اليونان بجماعة عديدة . ولكن البلودور وفريد فيعكس ذلك يزعمان انه اتى في بادئ الامر من مصر او من ليبيا الى فينيقية . وبوسانيا عارض قولها هذا اشد المعارضة واثبت ان قدم هو فينيقي الاصل حقيقة (١) . وذهب قنون ايضا الى نفس هذا الرأي وقال ان الفينيقيين لما انفذوا قدم الى بلاد اليونان كانوا قد ملكوا جهة مصر بتامها وجعلوا ثيبة من جملة مدنها العواصم . ثم اضاف قنون الى ما تقدم ان الفينيقيين زعموا بان العلة في تسيير قدم انما هي التفتيش عن اخته اوربة ولكنهم في الباطن قصدوا افتتاح مملكة اليونان . وهذا هو السبب الذي حمل قدم المذكور على ان يسمى مقامه ببيوتية باسم ثيبة (اوتيس) عاصمة مملكة الفينيقيين (٢)

(١) وذهب هذا المؤلف مذهب دينودور فقال انه رحل اولاً

الى مصر حيث بنى مدينة ثيبة

(٢) زعم جماعة ان اسم تيبس مأخوذ في هذه الحكاية من اسم

مدينة ثيبة المصرية . والتحقيق على ان الكنعانيين كان عندهم في القديم مدينة بهذا الاسم قريبة من شحيم وقد ورد ذكرها في سفر الملوك الثاني

ولما ان خرج قدم من سفينته الى البر نزل في البلاد المتولى عليها
لنفا الملك (١) والمأهولة بشعب الهيات والآون فقاتل الاولين حتى
اضطربهم الى الحرب. اما الآخرون فاستكانوا له صاغرين وعاشوا
بالاختلاط مع الفينيقيين او البيلسج (٢)

ثم سار من هنالك يستخير الله دلف في امر اوربة فكفه الاله
عن طلب اخته الموما اليها وأمره ان يؤسس مدينة في المكان الذي
تقف فيه بقرة مبقعة على جانبها بلطخة بيضاء على شكل القمر تتقدم له
في مسيره وتهديه الطريق (٣) . وعند ذلك بانث له البقرة رمز اوربة
عشرت وجئت قريباً من عين آرية يحرسها تنين هائل من ذرية المريح

(ف ١١: ٢١) وسمّاها هنالك تاباص وتيس او نيبه وهي كلمة
مشتقة في السامية من تبص اي اللمعان او من تبه اي الفلك او
السفينة تذكرًا للسفينة التي جاء بها قدم كما ان اللاتين كانوا يحفرون
على مسكوكاتهم صورة سفينة ايل التي نزل منها على شطوط ايطالية
قادمًا من فينيقية

(١) تاتيون (٢) بوسانيا

(٣) بوسانيا. وزاد انهم كانوا يرون في عهده مجثم البقرة وبيت

قدم وغرف هرمونية وسيالة

كان يفترس كل من ذهب الى هنالك يستقي الماء . اما قدم فقتله باغراء
 اثينة اوجة (١) وزرع عقيب ذلك اسنان التنين فبرز عنها قوم متسلحون
 تفانوا بالقتال . وأسس قدم بادئ الامر في المكان الذي وقفت فيه
 البقرة حصناً سَمَّاه القدي باسمه وحواليه بُنيت مدينة ثيبة ولما انجز الحصن
 اجتمع الآلهة باسرهم احتفالاً بزواجه مع هرمونية وقدموا له انفس
 الهدايا . وولد له ابن سَمَّاه بوليدور وخمس بنات هن انطينوا واينو
 وسالة والدة ديونيس اوبكخ واغانة ولوكوطة وكلهن اشتهرن جداً في
 بلاد اليونان بسبب نجابة وكثرة نسلهن . وصرف قدم عنايته هنالك
 الى ادخال الآداب والصنائع والفنون وكان اكبر مسبب لانتشار
 الحضارة في بلاد اليونان وملك زمناً طويلاً ولكنه اضطرَّ في آخر الامر
 ان ينتقل مع زوجته هرمونية الى بلاد الآرية ليفرَّ من شهود جرائم ابنته
 اغانة التي ذبحت ولدها بنطي في ولية بكخية . واتصل هناك ان صار
 ملكاً على الآيريين وعلمهم صنائع التمدن . ولما ادركه الهرم مع زوجته

(١) ان بوسانيا زعم اثباتاً لكون قدم فينيقي الاصل حقيقة بان
 ميزرف الثيبية كانت تسمى ايضاً (اوجة) وهو اسم فينيقي خالص وليس
 مصرياً . وفي التحقيق هو مشتق من (آجه) بالعبرانية اي مشى الى
 الحرب وتلك تسمية في تمام الموافقة لالاهة الحرب ميزرف

هرمونية نُسخا حَيَّتَيْنِ وَنُقَلَّا إِلَى الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ (١) . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَّةَ رَمَزَ إِلَى تَجَدُّدِ الشَّبَابِ أَوْ حَيَاةِ الْإِبْدِ . وَقَدْ جُعِلَ قَدَمٌ فِي بَيْوتِةِ اِبْلُونِ الْإِسْثُمُونِيِّ

حِكَايَةُ دِيدِهِ = أَنَّ دِيدَهُ الَّتِي يَمْزُجُونَ حِكَايَتَهَا فِي أَكْثَرِ الْإِحْيَانِ تَبَعًا لِقَرْجِيلٍ مَعَ حِكَايَةِ الْيَسَةِ مُؤَسَّسَةِ قَرْتِ حَدَشْتِ (قَرْطُجْنَةُ) هِيَ أَيْضًا مِمثلةٌ أُخْرَى لِعَشْتَرْتِ . وَمَعْنَى دِيدِهِ أَوْ دِيدَا التَّائِهَةِ (٢) وَاسْمُ اخْتِهَا حَنَّةُ الْمَذْكُورَةِ مَعَهَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مَعْنَاهُ النِّعْمَةُ (٣) . وَمَعَ أَنَّ عِبَادَةَ دِيدِهِ كَانَتْ فِي بَيْرُوتٍ أَقَلَّ انْتِشَارًا مِنْهَا فِي صُورٍ وَصَيْدَاءَ نَذَكْرَهَا هُنَا لَمَّا بَيْنَ حِكَايَتِهَا وَحِكَايَةِ عَشْتَرْتِ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ الشَّدِيدِ فَانْهَمَ كَانُوا يَصُورُونَ عَلَى مَسْكُوكَاتِ صُورٍ وَصَيْدَاءَ تَارَةَ دِيدِهِ وَتَارَةَ عَشْتَرْتِ رَاكِبَتَيْنِ الْبَحْرِ

(١) بوسانيا وأبلودور وهسيود وأوريبيد وغيرهم

(٢) وهي معروفة عند أهل المغرب بديدون . وكان اللاتين والرومان يخلطونها وعشترت مع هيره أويونون التي خلفها إيل في قرت حدشت عند طوفانه في الأرض

(٣) حَنَّةُ اسْمُ مُسْتَفِيزٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَقَدْ كَانَ الْفِينِيقِيُّونَ وَالْقَرْتِ حَدَشْتِيُّونَ (الْقَرْطُجْنِيُّونَ) فِي الْقَدِيمِ يَسْمُونَهُ بِأَحَدِ الْإِهَاتِهِمْ كَمَا ذَكَرَهُ أَوَيْدُ . أَمَّا الْيُونَانُ فَكَانُوا يَسْمُونَهَا خَارِيسَ أَوْ هَرْمُونِيَّةَ

وقاصدتين المغرب كما ان ايسيس عشترت ركبت البحر مسافرة الى مصر واوردت عشترت الى بلاد اليونان . وانما كل ذلك على ما يبدو اشارة الى غزوات عشترت وفتوحات الفينيقيين . وحكاية ديدته تخرج بحكاية أخرى لهرمونية التي تخرج كما ذكرنا باوردت عشترت . فان قدم لما هجر سواحل تراقية استصحب معه هرمونية وسيتونيس ايضاً اي عشترت التراقية وسافر مُجراً حتى بلغ الى ليبيه وأسس هناك مئة مدينة

اما ليبيه هذه فاسمها مأخوذ من ليبيه ابنة يو عشترت والدة اجينور وبلع واينيال (١) وفي بعض الحكايات الليبية انها هي التي بنت مدائن فينيقية ومصر وبلاد اليونان . ومهما يكن من الامر فان قرت حدثت (قرطجنة) بنيت بهمة وسعي كل من ديدته وقدم وسميت في اول الامر قدمية كما تقدم القول عن مدينة ثيبه (٢) واما العذراء هرمونية فسمّاها الليبيون حنة اي النعمة (٣) . ثم ابعدها المغربي يربا من هناك فاضطرت ان تلتجئ الى جزيرة مالطة . وجعلها الملك بط ملكة على تلك الجزيرة ولكنها بعد ان استقرت على الملك ثلاث سنين

(١) اوستاك (٢) اسطفان البرنطي

(٣) نون ديونيس . وروى هيرودوت ان نعمة كان اسماً لاهد

الجأتها الحال ان تشخص الى ايطالية حيث تلقاها انبي بالترحيب
ومسحت بعد ذلك جنيّة مائيّة وُسِّمَت حنّة يبريّة (اي الدائمة) وزعم
آخرون انها مُسحت عجة مثل يو (١)

وهذه الحكاية تُدخل الالهتين ديدنه وحنّة وكذلك قدم في جملة
الكبيرين والفاحين الاقوياء

اما قدم فيلقب فيها بالتجول (٢) لانه سافر مع ديدنه من بيوتية
حتى وصل الى لبيّة وايبريّة. وكان اهل ايبريّة المذكورة يعبدونه بمنزلة
مُوجد للمناجم والمعادن (٣) بالقرب من قرت حدشت على جبل
مكرّس للكبيرين. وكانوا يسمونه هنالك التجول كما سُمي من قبل ايل
او اشمون. وهذا الاسم يتفق تماماً مع ما كتبه سنكن يّتن عن الكبيرين
الذين صورهم بصورة التجولين (٤). واوريّة اخت قدم التي كانت
كبيرة نظير اخيها اوجبتها الاحوال ان تسافر على ظهر ثورها حتى
وصلت الى ايبريّة. وهكذا قد صوّرت على ايقونات كالاهرة (٥)
وفي شمالي فينيقية اي في البنت وتوريدة اشتهرت حكاية عشتارت

-
- | | | | |
|-----|----------------|-----|------------------|
| (١) | اوئيد وهيرودوت | (٢) | نون ديونيس |
| (٣) | بوليب وديودور | (٤) | سنكن يّتن فقرة ٢ |
| (٥) | فلورز | | |

التجولة اشتهاراً عظيماً. لان مجرد اسم خرسونيس. الثوري (القريم) فيه
اشارة صريحة الى رأس الثور الذي تتوجت به عشترت والى الثور
الالهى الذي فرّ على ظهره كل من يو واوربة وهرمونية. وفي حكاياتهم
القديمة ان احدى الالهات هاجرت الى الناحية المذكورة راكبة على ظهر
ثور فعبرت عليه بسفور تراقية (١) والبسفور القيرىاني (٢)

وانتهى بها السير الى مدينة البسفور ومركزها عند المضيق الثاني
في توريدة. وهذه الالهة التي حملها الثور كانت معروفة في هذه الجهات
بكونها عذراء وقرية وكانوا يسترضونها بتقديم الذبائح البشرية
غير ان اليونان يروون هذه الحكايات عن كثير من الالهاتهم
مثل افيجينية ومادية وارتميس واكاتي الثورية وهيلانة وعنت
وتنيت (٣)

وكلاهما في التحقيق اسماء مختلفة مرجعها الى مسمى واحد اي
عشترت الفينيقية . وفيها دليل قاطع على ان الفينيقيين كانوا ذوي
نفوذ متسع

(١) اي بوغاز القسطنطينية

(٢) ويسمى اليوم بمضيق بني كلي وهو يصل البحر الاسود ببحر

ازوف (٣) هي إلهة الحرب

حكاية ميديّة وسفر الارجين = ان ياسون لما امره بيليا ان يأتي
 بجزّة الذهب من قلشيد اي جزّة الكبش الناطق الذي حمل فريخ
 من اخائية الى قلشيد انتخب جماعة من اشجع شبّان اليونان واربطهم
 جأشاً وركب معهم في سفينة تدعى ارج فسارت السفينة بهم تحت
 حماية كيري بيروت مستوطني ساموتراقية . فبينما هم سائرون
 عصفت عليهم ريح زعزع كادت تغرق مركبهم فقدم أرفي الابتهالات
 الحارّة للآلهة الكبيرين لكي ينقذوهم من مخاوف البحر ولم يكن في
 الملاحّة احد غيره مطلعاً على اسرار هؤلاء الالهة . فما لبثت الريح ان
 سكنت في الحال وظهر لهم كوكبان لامعان استقرّا على رأس الديوسقورين
 تبشيراً بحماية الكبيرين . ومن ذلك الوقت جرت العادة بتقديم
 الابتهالات الى الكبيرين عند هبوب الرياح الزعازع (١) . وعلى هذا
 النوال العجيب نجا ياسون ووصل الى قلشيد وقبض على الجزّة الذهبية
 واختطف ميديّة ابنة ايات ملك تلك الارض . ولما كانت ميديّة
 المشار اليها حاذقة في الفنون السحرية يسّرت فيما بعد لركّاب الارج نجاحاً
 وفوزاً بما قصدوا حتى بلغوا سواحل بلاد اليونان بجزّة الذهب (٢)
 وهذه الحكاية شبيهة بالحكايات التي مرّ ذكرها والذي نراه ان

حكايات ميدية وافيجينية وارتميس أخذت كلها عن اصل واحد وهو
حكاية عشترت الفينيقية مع بعض اضافات وزيادات

في ارتميس وعنت وتنيت = ان ارتميس وتنيت وعنت هن الهة
واحدة على ما اثبتته عدة من المؤلفين . وارتميس او ديانا كانت مشهورة
جداً في اكثر الجهات الشمالية من آسية المتقدمة ومركز عبادتها كانت
جزيرة لمن ومنها كانت تمتد الى سائر الآفاق المجاورة . وكانت تُعبد على
الخصوص نظير **كبير** ويلقبونها بالاتيوية (الاشورية) والفارسية
والتراقية والثورية . اما في توريدة فكانت تُعبد نظير متجولة او تائهة
وكان الاسقيط يعبدون نهراً يدعونه تناييس (تنيت) وكانت
سميرام او تنيت الاشورية معبودة في عسقلان حيث كان الاسقيط
الاوريون يأتون لالتماس معونتها

حكاية الكبيرين = ذكرنا ان ايل اعطى هؤلاء الالهة مملكة
بيروت عند ما قسم سلطنته . وذكر سكن يتن انهم دفنوا في بيروت
رفات البحر وهو اله البحر وكانوا آلهة بحريين ومحامين عن الملاحه .
فاول هؤلاء الكبيرين هو بوصيدون (بنتون) ويُحسب من اكبر آلهة
بيروت والبحر . وقد يسمى الكبيرون ايضاً بالفاتحين (١)

(١) ان الكلمة اليونانية مشتقة من « بتح » اي أمن او من
« قتح » كانهم يؤمنون المراكب ويفتحون لها الطريق

وقال هيرودوت ان الفينيقيين كانوا يصورونهم قديماً تحت هذا
اللقب بصورة « پكمه » (١) على مقدم زوارقهم او مؤخرها نظير آلهتهم
المدافعين عنهم

وقد اخبر نون بالاستناد الى ثقايد قديمة ان ديونيس الصوري
واقع بوسيدون رئيس الكبيرين موقعة عظيمة قريباً من بيروت . وهذه
الواقعة الخرافية التي انتهت بنظر آلهة البحر تدلّ على عداوة كانت قديماً
بين اهل صور وبيروت

واشتهر الكبيرون جداً بمهاجراتهم الاستعمارية . اخبر سنكن يتن ان
الكبيرين وجهوا اولى غزواتهم الى جبل قاسيون على تخوم مصر الغربية
حيث استعمر الفينيقيون من قديم الزمان . ثم رحلوا نحو تراقية وتوطنوا
على الخصوص جزيرة ساموتراقية صوب الجهة الشمالية من بحر ايجه
وقد اشتهر اسم الكبيرين هنالك ايما اشتهار حتى اصبح مجداً لهذه

(١) شعب متوهم طول الواحد منهم قدم وثن اي ٣٤ سنتيمتراً
والظاهر ان هذه الكلمة مشتقة من فعم اي كسر وضرب ورجل .
ومفسرو الحكايات الوثنية قالوا بان هذه الصورة اتخذها هرقل الكبير
عند المدافعة عن اتباعه . وعلى ذلك يكون الكبيرون الپكمه بمعنى
الكاسرين والمنازلين او الدائسين بالارجل

الجزيرة عند الاقدمين . واخبر هيرودوت ان الكبيرين أُدخلوا الى تلك الجزيرة بواسطة البيلسج الذين افتحوا في القديم معظم بلاد اليونان وايطالية

واليونان سمو الكبيرين بالذيوسقور (١) وتحت هذا الاسم امتدت سطوتهم الى عامة اقطار المشرق والمغرب . فانهم قد ملكوا نظير الهة من ساموتراقية مركز سلطانهم على تراقية وآسية الصغرى وسواحل البحر الاسود وبلاد اليونان وايطالية وجميع المهاجر الفينيكية . وهومير وفقاً لهذه الحكاية جعل بوصيدون رئيس الكبيرين الذي « يززع الارض » على قمة جبل ساموتراقية ينظر في المواقع التي جرت امام تروية والحكاية الفينيكية تعدّ من الكبيرين سبعة والسبعة عندهم عدد مقدس . غير ان اليونان لم يتفقوا على اسماء هؤلاء الكبيرين ولا على ترتيبهم . فالبعض قصروا عددهم على اثنين اي قستور وپلوق ابني ليدة اللذين امتازا بالشجاعة في تجريدة ركاب الاربع واستحقا بذلك ان يحتلّسا مقام الكبيرين

(١) الذيوسقور معناها المولدون من زوس او الاقوياء والثاني هو الاحسن لان الدمشقي قال ان لقطة ذيوسقور هي ترجمة كلمة الكبيرين الذين اتفق الاقدمون على تسميتهم بالعظماء والاقوياء

والظاهر انه حدث مشهد كهربائي صور لركاب الارج ان الكبيرين
 ظهروا لهم بهيئة نجوم وان ما بدا من الضياء على السواري استقر على
 قستور وياوق . ومهما كان من الامر فانهم جعلوا هذين الاخوين
 السبرطي الاصل بعد موتها نجمين في السماء يموت احدهما ثم يحيا
 الاخر بالتتابع وصارا الكبيرين الوطنيين عند اهل الهلاد
 وارتأى باين ان الكبيرين ثلاثة اعني بهم الزهرة وپوتون
 وفاتون وكانوا يسمونهم فجرين او اثوبيين لانهم قدموا في الاصل من
 المشرق

اما مناسيا البتري فقد رفع عدد الكبيرين الى اربعة : اكسيار
 (الالهة كرس) واكسيوكرسا واكسيوكرس (بلوتون) وهو كسميل (قدم)
 او حرمش (المريخ) كما رواه ديونيسيودور (١)

(١) ان هذه الاسماء الغريبة التي اعطيت للكبيرين حملت العلماء
 على البحث عن اصلها . وهم يسلّمون ان اكسيار احد هذه الثلاثة
 الاسماء هو أشر او اشره الذي بينا سابقاً انه هو نفس اسم عشترت
 تُصرف فيه على ما شاء ارباب الحكايات الوثنية

اما الجزء الثاني من الاسمين التاليين اي كرسو وكرسا فيحتمل
 ان يكون مشتقاً من حرش اي قطع القمح او فلح الارض . وهو معنى

ولم ينفرد اليونان بتكثير عدد الكبارين فمنهم من انكر كون
 الاخوين قستور وپلوق هما من عداد الكبارين المشار اليهم . وزاد
 اخرون عدا حرمش وقدم قبرس (عشتت) وادوني او ممنون وكرسا او
 اكسيكرسا وكيكرب ودردان وياسون وادوني البنطي وفاتون
 القلشيدي اخا هرمونية وابسرت الذي كان ايضا من جملة الكبارين
 فاماته ياسون شر الميتات وقطعته ميديا امام هيكل ارميس في
 بريجيت

واضاف مناسيا الى الكبارين الثلاثة في زعم اليونان كبيرا رابعا
 وهو كسميل كما ان الفينيقيين كانوا يضيفون اليهم ثامنا اعني به اشمون
 وتفسيره الثامن غير ان الثامن لا يُنخل بعدد السبعة المقدس عندهم
 لانه متضمن للسبعة المذكورين ومكمل لهم . والظاهر ان الحية أُعطيت
 له نظير رمز على ملء الحياة وطول البقاء . ولكن اليونان يعدونها دليلا

يوافق كل الموافقة لكرس الالهة الكبيرة التي يشتق اسمها ايضا من (حرس)
 احد اسماء الشمس عندهم كما يعرف ذلك من الوقوف على كثير
 من الكتابات الفينيقية . ومعنى حرس في الاصل : صار حاراً او
 خشناً او جارحاً وحرس ايضا هو اصل اريس او مرس اله الحرب وثاني
 الكبراء

على العافية وقد جعلوها تحت اسم اسكلاب اشهر الكيرين في المغرب
قال الدمشقي : « ان اسكلاب (١) المعبود في بيروت ليس هو يونانياً
ولا مصرياً ولكنه فينيقي . كان ثامن اولاد صديق الذين يسمونهم
ذيوسقور او كيرين فاحبته عشتت الالهة الفينيقية التي هي ام الآلهة
لانه كان شاباً بديعاً في جماله

وبينما كان على جاري عادته ذاهباً للقنص في غابات لبنان علم
ان الالهة المذكورة نصبت له اشراكاً ففرَّ خوفاً من الوقوع بين يديها
ولكنه لما رأى انه لا يقوى على التخلص منها شوّه اعضاءه بفأس معه .
فحزنت الالهة عند ذلك حزناً كثيراً وسمته بيون (اله الطب)
واعادت اليه الحرارة الحيوية وجعلته الها . والفينيقيون يسمونه اشمون
لسبب الحرارة الحيوية المذكورة (٢) ولكن الاكثر فسروا هذا الاسم
بالثامن من اولاد صديق »

وبسبب ذلك صار يُعدّ اشمون اسكلاب عندهم مخترع الطب

(١) لفظة مركبة من ايش اي انسان وكلب لما قيل انه ربي

مع الكلاب

(٢) وعلى ذلك يكون اشمون مشتقاً من إش اي النار والحرارة

ومن مون اي صورة

وشافي جميع الادواء ورأس الاطباء ومحاميهم . وروى عنه انه بلغ من
الحذق في الطب مبلغاً عزيزاً حتى انه كان يبعث الموتى . اما يوبيتز
اي المشتري فتخوف من المنافع التي قوي الناس على استخراجها من
هذه الصناعة العجيبة ولذلك ضرب اشمون بالصاعقة . الا ان ابلون انتصر
لاسكلاب وقتل القيقلوب الذين صنعوا الصاعقة . ولما ان قُتل اسكلاب
اكتنى البشر بالمحافظة على تلاميذه وتقليداته وتأدية العبادة له .
فاُقيمت له المعابد ووضعت فيها الحيات رمز الحياة وكذلك اسكلاب
تذكّاراً لتربيته معها لان والديه بعد ولادته طرحاه فالتقطه الصيادون
وربّوه مع كلابهم

وهذا الحادث يحمل على الظن انه هو نفس الاله انوبيس الذي
هو بمنزلة اشمون عند المصريين فانهم كانوا يصورونه برأس كلب
وكان لاشمون في فينيقية وخصوصاً في قرت حدثت شهرة لا
تقدّر بحيث كان المرضى يزدهمون جماعات حول هياكله طلباً للشفاء
وكان كثير من المتعبدين له يفاخرون بانتمائهم اليه . وكان اسكلاب
هذا معدوداً في البلاد اليونانية نظير أب للعائلة الاسكلابية الكثيرة التي
اشتهرت في قرون الابطال وكذلك في كامل عصر اليونان الحبيد .
وكان اعضاء هذه العائلة يتفرغون خصوصاً للتخرج في اصول الطب عند
هياكل ابيهم اسكلاب حيث كانت المرضى تجتمع طلباً للشفاء . وعدّ

افلاطون بقراط الكبير المظنون انه فينيقي الاصل من العترة الاسكلابية
وقيل ان ارسطو الفيلسوف هو من جملة هذه العائلة

٣

صيداء او صيدون

ان الحكايات الوثنية تعظم مدينة صيداء غاية التعظيم وتصفها
بكونها صاحبة المقام الاول والمنزلة الكبرى في لبنان الجنوبي قال
سكن يث : « وُلد من ذرية بعل شميم القنّاص (صيد) والجزّاف
(صيدون) (١) اللذان اخترا القنص وصيد السمك واعطيا اسميهما
لجماعة الصيادين القناصين والجزّافين (٢) وولد لهما اخوان ككشفا
عن الحديد واهتديا الى صناعة استعماله . اولهما قشور (٣) الذي
نبغ في الفصاحة ومهر في الفنون السحرية وضروب الكهانة . ويروى ايضا
انه اول من اخترع الشص والطعم والحيط لصيد الاسماك والزوارق

(١) انهم عثروا على كتابة بقرب حدثت تثبت ان للفينيقيين

الها يسمى (صيد) وآخر اسمه (صيدون)

(٢) هم اهل مدينة صيدون

(٣) معناه بالقينقية القوي والشديد . وزعم تاتيان انه خرج في

صحبة بيغاز من رأس غرغونة حظية بوسيدون اله البحر

واول من تجرأ على خوض البحار . وبسبب هذه المآثر أله بعد موته
وسمي بعل ملك وزاد بعضهم ان الاخوين المذكورين اخترعا صناعة
البناء بالآجر

« ونبغ من ذرية هذين الاخوين فتیان يسمى الاول الصانع
والثاني الارضي الوطني وزعموا انها اول من خلطا الآجر بدُقاق التبن
وطبخاه على حرارة الشمس واول من اهتدى الى تسقيف البيوت . ومن
جمه اولادهما الحقل والصيد وتمثال الثاني مكرم في فينيقية غاية التكريم
وله هيكل تجرّه الثيران . وكان الجيليون يحسبونه اكبر الالهة

« ثم ان الحقل والصيد حسنا صناعة بناء البيوت والهياكل
وزادا عليها الدهاليز والاسوار والاروقة . وكانا جدّي القناصين والصيادين
« وولد من هؤلاء امين وماج (١) فعلما الناس تشييد القرى
والعناية بالمواشي وولد لهذين ابنان ميسور وصديق اي المذيب والبار
فادخلا في بلادهما استعمال الملح . اما ميسور فولد توت الذي استنبط
الكتابة »

(١) معنى امين صانع ومعنى ماج الرئيس والقائد والكاهن

وبعد كلام طويل اتى سنكن يتن بذكر باني صيدون قال « وُلِدَ
للبحر بوصيدون وصيدون . اما هذه فكانت حسنة الصوت رخيطة
حتى عُدَّتْ مخترعة لصناعة الغناء الموزون بالالجان » وليس من غرض
لاهل الحكاية في وصف صيدون بحسن الصوت الا ان يثبتوا ان
الموسيقى المقدسة من اختراع الصيدونيين

ثم ان صيدون او صيدا على حد سائر المدن الفينيقية عُدَّتْ نظير
شخص وأُلهت ولذلك نقشوا صورتها على مسكوكات المدينة . وارباب
الحكاية يجعلونها ابنة بعل ومغنية مشهورة من قبيلة السيالات (١) لان
السيالة الاولى اي لامية الصيدونية ولدت لزوجها البعل ابنين الاول
أُجِبَت الذي سُميت مصر باسمه والثاني دنا ملك ارج المشهور الذي كان
اول ملك على هذه المدينة من سلالة البعلين . ثم صيدا التي اعطت
اسمها لصيدون الكبيرة ومما يُستغرب في كلام المؤرخين البزنطيين
اتيانهم على ذكر ملكيصادق في معرض نسب الاله صيدون قال ملالا:
« كان في ايام ابرهيم ملكيصادق الوثني الورع وهو من نسل صيدون بن
اجبت ابي الاجبتين اي المصريين . فجاء صيدون هذا من مصر
ودوَّخ بلاد القبائل الكنعانية التي تسمى اليوم بارض فلسطين فقطنها

وربى فيها هذه المدينة الفينيقية التي سُميت صيدون باسمه »

وقد تقدّم لنا القول بان الفينيقيين كانوا يحسبون انهم خلّقوا في نفس بلادهم ولكن ذلك الاعتقاد لم يكن ليؤخر اليونان واللاتين عن القول بكون الصيدونيين في اول الامر كانوا قاطنين سواحل البحر الاحمر ثم رحلوا من هنالك الى فينيقية . وهيرودوت هو اول من ذكر ذلك واقوى استناده في هذا الزعم الى ما سمعه عن كنعاني فينيقية انهم ملكوا في القديم من حدود مصر الى البحر الاحمر . وكانت سواحل البحر الاحمر في عرف اليونان تتناول خلا ارياف البحر المذكور جميع الاوقيانوس الهندي

اما سترابون فكان قد اورد هذه الاخبار في جملة المزاعم الخرافية وهذا نص كلامه : « ان الذين توهموا بكون الارمب هم طائفة خصوصية قادمة من اتيوبية وكذلك الكيفان والبكمة وما اشبه ذلك من الامور لا ينبغي ان يُصدّقوا مطلقاً . لانهم فوق ما يأتون به من الامور التي لا تقبل الصدق يخلطون الحكايات الموضوعة بالتاريخ الحقيقي وما قلنا عن هؤلاء بقوله ايضاً عن يضع الصيدونيين والفينيقيين في خليج العجم او غيره من اماكن الاوقيانوس . اما السبب الموجب لعدم الاعتقاد بهم فهو التناقض المتراكب في كلامهم . فبعضهم زعم ان الصيدونيين والفينيقيين مهاجرون من الشعوب الساكنة سواحل

الاقويانوس ويزيدون على ذلك ان الفينيقيين اتخذوا تسميتهم من البحر الاحمر . وقال آخرون بعكس ذلك ان سكان سواحل البحر الاحمر هم قوم مهاجرة من الصيديرين . ومنهم من ينقل اتيوبية الى فينيقيتنا ويعتقد ان تاريخ اندروميد جرى في يافا »

الآن ان قوماً من المحدثين صوّبوا هذه الحكاية بالرغم عن تكذيب سترابون لها فقد قال فرنسيس ليرمان : ان تقليد الفينيقيين الذي جمعه في نفس مدينة صور المؤرخ هيرودوت البارع في تحري منابع الاخبار وقبلة تروغ بُيبي المعروف بالرأي الصائب وتقليد سكان العربية الجنوبية الذي نقله سترابون ثم التقليد الذي كان جارياً ببابل في اوائل النصرانية ايام أنشئ الكتاب السرياني الكلداني في الفلاحة النبطية جميع هذه التقاليد الثلاثة متفقة على ان الكنعانيين سكنوا في بادئ الامر بالقرب من الكوشيين اخوتهم الاصليين عند ارياف البحر الاحمر او خليج العجم اي في الجهة التي تسمى اليوم في الحارطات الحديثة القطيف »

الآن ان هذه النقول الثلاثة لا تخرج عن دائرة الاخبار الموضوعة والقصص المصنوعة وعليه فلا يمكننا ان نغزو اليها شرف الحقيقة التاريخية وسنبعث ان شاء الله عن قدرها في الفصل الخامس من هذا الكتاب عند بيان الاصول الصادقة للقبائل الفينيقية

ومن حيث نحن الان آخذون في جمع القصص الخرافية الوثنية
لا نرى بأساً من ان نصف الطريق المزعوم بـكون الصيغونيين عند
مهاجرتهم سلكوه مسافرين في خلال العربية حتى وصلوا اخيراً الى
سواحل بحر الروم . قال فرنسيس لزمان :

« ان طريق القوافل الان ممتدة من ناحية القطيف متصلة ببلاد
الحساء وكامل وادي عطفان الى حدّ جبل طويق . وفيما وراء ذلك
بقليل تميل جهة الشمال الغربي في ناحية الوشم الى ان تتصل بمدينة
عنيزة . ومن هنالك تأخذ نحو الغرب مارة بجميع الجهة المسماة بالقسم
لتتصل بطريق الحجّاج على مساواة الحنيكة . فهذه الطريق هي التي
سلكها الكنعانيون عند مهاجرتهم وذلك امر لا يستطاع الارتياح فيه
لانهم لو سافروا بطريق اخرى لما تمكّنوا من قطع مسافة الصحراء
الواسعة المساحة

« ومن عادة اهل الشرق ان المتأخرين منهم يسلكون نفس الطرق
التي خطها اجدادهم ويمكن التقدير ايضاً بوجه الاحتمال الكلي ان
الكنعانيين عند بلوغهم الحنيكة مشوا في الطريق التي يسلكها الحجّاج
كل سنة عند عودتهم من المدينة الى دمشق

« ولما وصل الكنعانيون الى الحنيكة تخلّفت منهم قبيلة واتمّ الباقيون
مسيرهم نحو سواحل البحر المتوسط . وفي تقليدات العرب القديمة ان

قبيلة ثمود اقامت بتلك الجهة ونحتت الجبال بيوتاً لها . وهي عندهم
قبيلة طاغية . لان الساميين الصريحين في ساميتهم سواء كانوا عرباً او
عبرانيين ما كفوا مطلقاً عن وصف الكنعانيين والكوشيين بهذه الصفة»
فهذه اذا هي الطريق التي يمكن ان يقال عن القبائل الكنعانية انها تتبعها
عند هجرتها من بلادها «

ولنعد الآن الى الكلام عن صيدون . ان اجينور عند اليونان
هو خلاصة مآثر ومكارم صيدون واليونان بمفردهم هم الذين حفظوا
لنا اكثر ما هو باق من التقليدات الفينيقية ولو ببعض تغيير . اما اصل
هذا الاسم في الفينيقية فمن المحتمل ان يكون هكنور (١) (قنارة)
ملك جبل وقبرس . ونظن اننا بالاعتماد على التاريخ والحكايات لا
نتجاوز حدود الاحتمال اذا قلنا ان اسم اجينور مشتق من اخنا
(كنعان) الي صيدون . لانهم كثيراً ما يوفقون خنا او اخنا مع
اجينور وفينيق

واعلم ان اجينور عند اليونان هو ابن بوسيدون وليبية ابنة إياف
ومنف اويو . فابن اله البحر الذي هو في الوقت نفسه اخو بعل صار ملكاً

(١) ان الهاء في هكنور هي اداة التعريف في الفينيقية

على فينيقية وتزوج صور (١) فولدت له ابناء كثيرين مشهورين
 وهم قدم وفينيق وقيليق وسور وتاس وسيبول وفيني ودريال وهلان
 واوربة التي زعم هومير بانها ابنة فينيق . وجمهور اصحاب القصص
 الوثنية من اليونان على ان فينيق هو رئيس القبيلة الصيدونية وان قدم
 واوربة وما بينهما هم جميعاً من ابناء تلك القبيلة

وبعد اختطاف اوربة (عشرت الصيدونية) وهي التي وصفنا
 اسفارها الالهية ونقش الصيدونيين رسم الحوادث التي جرت لها في
 جدران هياكلهم ارسل اجينور كل ابناءه للتفتيش عنها . فسافروا اسفاراً
 بعيدة وجابوا البلدان السحيقة من غير ان يظفروا لها باثر ولذلك كرهوا
 العودة الى بلادهم ما عدا فينيق الذي سُميت به فينيقية وسور الذي
 سُميت به سورية . اما قيليق فاقام بجمال تور وسمّاها قيليقية باسمه .
 واستوطن قدم بلاد تراقية أولاً ثم انتقل الى بيوتية حيث أسس
 القديمة التي تحولّت الى مدينة ثيبة (٢) وملك طاس اخو قدم او

(١) اشارة الى انه بنى مدينة صور او الى انها كانت تحت
 سلطانه (٢) اما الحكاية المصرية التي ذكرها اوساب فهي
 ان قدم وفينيق جاءا من ثيبة المصرية ليتملكا على صيداء وصور وان
 أُسر عند طوافه في الارض جعل بوسير ملكاً على فينيقية

حفيده في الجزيرة التي لا تزال الى اليوم مسماة باسمه . اما فيني فاستولى على بفلاغونية وهلان على آسية الصغرى . وسبيل سمي باسمه جبل سبيل بفرجيحة

وعلى هذا المنوال كسب اجينور لصيدون السيادة المطلقة بما كان يرسل من البعثات السلمية والعدوانية من رجال اسرته . لان ابنته اوربة اعطت اسمها لجميع جهة المغرب . واما ليبيبة فكانت سلطنة مصر وسائر جهات افريقية . واما صور زوجته فانها أسست مدينة صور واما بقية ابنائه فانهم اقاموا لهم ممالك كبيرة متفاوتة في البعد عن بعضها في جهات متسعة من الارض . ولا جرم ان اليونان لم يكن لهم ان يمتدعوا حكاية ادل من هذه على المجد والفخامة ليعبروا بها عما تخيلوا لصياداء من النفوذ والشوكة في الايام العابرة . ومع ذلك فكانهم استصغروا هذه الامور فتنسبوا الى اجينور ايضاً انه بنى مدينة صور بنفسه ومد سلطانه حتى الى اوربة حيث بنى في غالية (فرنسة) مدينة اجين كما هو في تاريخ هذه المدينة

واخبر فرقود ايضاً عن ثلاث ازواج أخر لاجينور ولد له منهن اولاد كثيرون

وههنا محل ذكر قدم الاثنا سردنا حكايته سابقاً مع ما سردنا من حكايات الكبيرين

حكاية بعل الفينيقي = ولبعل ايضاً حكاية عند اهل صيدا .
 ذكر سكن يتن ان اياه ايل او كرون وامه رية . ولكن الحكاية
 اليونانية تجعله ابناً لبوصيدون وليية واخاً لاجينور كما تقدم القول . وهو
 مشتري صيدون البحري . واورد ابوليم عن بعل هذا الصيدوني تقليداً
 شرقياً يستوجب بعض الانتباه قال : « اخبر البابليون ان بعل الاول هو
 نفس كرون ومنه ولد بعل آخر او كنعان الذي ولد كنعان أبا الفينيقيين .
 وكان بعل ايضاً اباً لحام الذي يسميه اليونان أسبول واخاً لمصرايم وأباً
 للاتيوبيين والمصريين . وزعم اليونان ان عتل اخترع علم التنجيم . غير
 ان عتل في الصحيح هو عين احنوخ الذي تلقى ابنه متوشالحو عن
 ملائكة الله جميع العلوم التي وجدت في ايامنا » الا ان هذه التقاليد
 المبهمة مع كون الكذب قد امتزج فيها بالصدق على نوع عسر به تخلص
 احدهما من الآخر قد يرى فيها مع ذلك تقريبات غريبة بين بعل
 الاشوري و (بين) كنعان ابي الفينيقيين او الصيدونيين . ولكن ان
 صدق ان بعل الفينيقي ذهب الى بابل فبناها فان ابنه نين لم يقابل
 احسان ابيه ونعمته الا بكونه جاهره بالحرب ودوخ سوراً المحوفة
 وفينيقية ومصر . ويمكن توفيق بعل هذا الفينيقي مع كنعان الذي تزوج
 كما تخبر به الحكاية انقنوة ابنة النيل (١) فأولدها صيدا واجبت

(١) وقال يوحنا الانطاكي انه تزوج صيدا

ودنا وكيفا . اما صيدا فسمت باسمها مدينة صيدا كما كان اجبت
سمى ايضا مصر باسمه واستولى بامر من ابيه على اراضي ميلبود في
العربية . اما دنا فنشر اولاً اعلام سلطانه على ابيية وانتقل من هناك
الى بلاد اليونان حيث سمي اليونان باسمه (١) . اما كيفا زوج قريوبه
ابنة ارواد وابو اندروميده الشهيرة الناجية في يافا او عكاً فجعل مباءة
ملكه الاتيوي في يافا ومد سلطانته من البحر المتوسط الى البحر الاحمر
الى حدود آسية العليا . وكان البابليون والفرس يسمون كيفيين .
ولما ان مات كيفا مسح برجاً من الابراج السماوية وسمي ذلك البرج
باسمه

ثم امتدت سطوة بعل بواسطة عترته الى بعيد كما امتدت سطوة
اجينور . غير ان كلفه بالجد وعشقه للمعارك دفعاه الى ان يفتح جزيرة
قبرس بالقتال . وقرجيل الذي المع الى بعض التقاليدات القديمة المشرقية
قد شبهه في دخوله الى تلك الجزيرة الحصينة بالسيل الجحاف الذي
يذهب بكل شيء . وعند ذلك نهض توكر بن تلمون وقاتله قتالاً
شديداً حتى اتصل الى كفه عن الفتوحات بعد عناء طويل ومواقع
متعددة . ففويت من ثم شوكة وعظم اقتداره فبنى مدينة سلامينة

(١) ان هوميرو كثيراً ما اطلق اسم الدنويين على اليونان باجمعهم

غير ان بعل لم يفقد كامل قدرته ولذلك تمكن ايضاً من أن يؤسس مدينة كتي وسباط وغيرها من المدن في أكثر جهات الجزيرة

حرب تروية = ثم ان صيدون التي اكثر هومير من ذكرها في اشعاره لها نصيب موفور في ما يُحكى عن حرب مدينة تروية . لان اسكندر باريس مع كونه قد تزل من مركبه في ارض صيدون ولقي أحسن ضيافة من بوليدما ملك المدينة المشار اليها نصب له المكاييد وسلب كنوزه وملابسه الارجوانية الجميلة وامتعته النفيسة وسبي كثيراً من النساء الصيدونيات اللائكن من احسن النساء عندده . وكان في تروية على مقدمة الفينيقيين في جملة اكابر رؤساء العسكر الذي احتشد امام المدينة المذكورة ليقوم مع اهل آسية باجمعهم في قتال الهلاد وقد ذُكر بوليدما في الايلياد وُوصف فقط بأنه كان احكم واعقل رجال مدينة تروية . ويروى عنه انه كان يكسر من حدة هكتر ويقا تل قتال الابطال مع النة واجينور الالهي وسربدون وسائر المقاتلة في تروية . غير ان اصحاب الحكايات المتأخرين جعلوا بوليدما قائد المقاتلة الفينيقيين الذين اجتمعوا مع العرب الاشداء والهنود الاغنياء والعساكر الجرارة من سائر جهات آسية ليدفعوا اليونان عن حصار تروية . غير ان اسم بوليدما الذي لم يشم رائحة الاصابة الفينيقية لم يرق بعض اهل الاخبار فزعموا من ثم ان الذي قاد الفينيقيين الى هذه

الحرب هو فالي ملك صيدون . ولكن في هذه الحكاية ايهاًما لسبب
 امتراجها بحكاية ممنون ملك الاتيوبيين الاسيويين وابن الفجر الذي
 قتل انتياوب امام تروية . فان ممنون قد جعل في الحكاية الحديثة قائداً
 للعصائب الاشورية والعساكر المتعددة القادمة للدفاع عن تروية . وعليه
 فان بوليدما قد حارب تحت امرته وتجنّدل صريعاً بجانيه من يد أياق
 اما ممنون فتضرّع ايضاً قتيلاً كريماً بضربة من يد اشيل
 قال يوحنا ترتزان اشيل الالهي تأثر ممنون قائد الهنود واغمد
 في صدره سيفه النحاسي فطارت نفسه . اما أياق فضرب اذ ذاك
 بوليدما رئيس الفينيقيين وقتله . فلما رأت الطوائف قائديها صريعين
 وقع الرعب في قلوبهم حتى كان الرجل منهم يقتل صاحبه ولا يدري
 هذا ان اليونان ذبحوا منهم مذبحاً هائلة فقصده المغلوبون الفرار
 ولكن جثث القتلى منعهم عن ذلك . اما الارجيون فجمعوا السلاح
 المتروك ولم يكفوا عن القتل والقتال الى ان اقبل الليل . ولما خيمت
 الظلمة حرقوا القتلى من الفريقين . واقام الاتيوبيون مأتماً لممنون
 بالرياحين والاعصان الاشورية وجعلوا رفاقه في جرة وصنع مثل ذلك
 لبوليدما وحملت رفاقه بالنوع المذكور الى فينيقية . اما تروية فخربت
 خراباً عظيماً الى آخر الدهر ولكن الفجر ام ممنون (١) نالت من القدر

(١) ذكر هيرودوت انهم كانوا ينسبون الى ممنون التماثيل القائمة

خلود ابنها فاستأنف حياة جديدة امجد من الاولى وفي وقت قريب صار سلطاناً على مصر وفينيقية وسورية وقبرس وليدية ويونية وبابل وبلاد فارس وبقية جهات آسية

وكان هذا الملك العظيم ميّالاً الى فينيقية ويحب الاقامة فيها وأقيم له بها بعد مزارات وبنيات بل ان جميع المقامات القديمة وقباب القبور كانت تُنسب اليه . واخبر سترابون نقلاً عن سيمونيد ان هذا الاله الخالد دُفن عند تخوم فينيقية بالقرب من بَلَط على ضفاف نهر بَدَن . وقد ذكر فلاث يوسف بناية اخرى في فينيقية خاصّة بممنون بالقرب من نهر بعل (النعمان) ولعلها هي التي تُعرف اليوم بتل كيسان . وهذه الآثار تفترض وجود اتصالات قديمة وسياسية بين ممنون والفينيقيين او تثبت على الاقل ان الاشوريين بعد فتح فينيقية اذاعوا حكاية ممنون في الآفاق ورتبوا له في لبنان عبادة كعبادتهم له في بابل حيث كانوا يكللون رمسه كل سنة بالزهور

ولكي تفهم حكاية هذا الملك الاتيوي الشديد الباس في آسية المتقدمة ينبغي ان تعلم ان لفظة اتويي عند القدماء من اليونان هي بمنزلة الكوشي عند الساميين . وعليه فقد كانت هذه اللفظة شائعة كما

على طرق آسية كالتى ترى اليوم على جوانب نهر الكلب

يظهر من الكتاب المقدس (١) لأنها لم تكن تدل فقط على الشعب الساكن اتيوية الحالية (الحبشة) ولكنها كانت تتناول ايضاً بسبب القبائل الكوشية التي توطنت هنالك الجهات المتسعة التي حول فلسطين خصوصاً في بلاد العربية واشور . لان غرود باني مملكة اشور الكبيرة كان كوشياً . وبمقتضى هذه الافادت التاريخية والجغرافية جعل ارباب الحكاية اتيوية مملكة متسعة وزعموا ان ممنون ومترا وفيليجيا كانوا سلاطينها وواضعي شرائعها . فكانت تمتد عندهم الى المشرق والمغرب او الى معظم قارة آسية وافريقية ولهذا اختلف المؤلفون في نسبة ممنون الاتيوي فجعله فيلسترات افريقياً وبوسانيا مصرياً وكدران وملالا هندياً وهيرودوت وديودور فارسياً ووفقاً لهذه الافادات كثيراً ما مزج قدماء اليونان شعوب آسية الداخلية والجنوبية بالاتيوبين الذين هم عندهم نفس الكوشيين او السودان

صور

ان مدينة صور (١) مع ما وصلت اليه من الغز والسطوة وبعد الذكر لم يكن لها في الحكايات القديمة شأن خطير . ولكن الشعراء وارباب الحكايات لما كانت في ايام جاهها واقتدارها اخترعوا لها جملة خرافات ليعلوا منزلتها ويبينوا شرف منبتها وما أثر رجالها غير ان سنك يتن الذي نقل حكاياتها القديمة لم يذكر عنها شيئاً من ذلك وهذا تعريب كلامه :

« ان بعل شميم اقام بمدينة صور فاخترع صناعة عمل الاكواخ من القصب والخيزران والبردي . وجرت له مع اخيه عوس مشاجرات غير يسيرة . وكان عوس اول من اهتدى الى اتخاذ الثياب من جلود الحيوانات التي كان يقتلها بيده . ولما جاء فصل الشتاء عصفت الرياح فاضطربت الاشجار ايما اضطراب وخرجت منها النار بواسطة الاحتكاك فجرى في صور حريق عظيم فامسك عوس حينئذٍ بشجرة منقورة وترع اغصانها وكان اول من تجرأ على خوض البحر وكس حينئذٍ اسطوانتين

(١) معنى صور الصخر سميت هكذا لما في شواطئها او جزيرتها

واحدة للنار واخرى للريح وعبدهما وقدم لهما السكائب من دماء
الحيوانات التي كان يقتنصها. ولما مات هذان الاخوان عبدهما ابناؤهما
بتكريس الاغصان والسجود لتماثيلهما ومنهم جرت العادة باقامة الاعياد
الاحتفالية لهما»

ثم ذكر سنكن يتن ايضا بعض حوادث تتعلق بصور فقال « ولد
من دامور بن عوس والارض ملك قرت (١) الذي يُسمى ايضا
هركل (٢) اما السماء فبناء على ما وعده ابنه دامور من النجدة جاهر
البحر بالحرب مرة ثانية . ولما هجم دامور على مملكة البحر زحف عليه
البحر فهزمه ونجا هربا واكثر من تقديم الذبائح »
وقال سنكن يتن ايضا :

« ولما كانت عشترت تتجول في الدنيا وجدت نجما ساقطا من
السماء فكرسته في جزيرة صور المقدسة » فكان تكريسها لذلك النجم
سببا لاقامة الهيكل المشهور هيكل بعل ملك قرت فوق صخر مجذب
من صخور تلك الجزيرة . وما لبث الصوريون كثيرا حتى كرسوا

(١) معنى قرت مدينة

(٢) مركبة من الهاء اداة التعريف بالفينيقي وركل اي الدائر

والتاجر . وهركل وهرقل كلاهما بمعنى

جزيرتهم لعشثرت هذه واشركوها بما كانوا يقدمون لزوجها من الأكرام
الالهى . وفي احدى الحكايات ان هر كل اتى بها من صيداء والبسها
كاملة حلة فاخرة من الارجوان وقلدها ايضاً غير ذلك من اشعة
الملك . وعلى هذا يكون ملك قرت قد بنى مدينة صور وسماها صور
باسم الجنية المائية بعد ان اخترع الارجوان

وفي حكاية اخرى ان اجينور ملك او اله صيدون أسس هذه
المدينة وسماها صور باسم زوجته . وزعم آخرون ان الملك الذي أسس
المدينة هو صور بن فينيق والحاصل ان الآراء في ذلك متناقضة ولا
يُعرف في الحكايات الى من يُنسب تأسيس هذه المدينة

وزعم نون ان الذين سكنوا الجزيرة وبنوا المدينة هم قوم وطنيون
وانهم وآيون « هم النسل المقدس الخارج من هذه الارض الطاهرة
التي ابدع ترابها من غير زرع ولا غرس صورهم وجمالهم . ثم انهم
رفعوا بصناعة قانونية وطنية كما فعل تراب ارضهم مدينة غير مترعزة
على الصخور التي هي اساسها » وانما بنى هؤلاء الوطنيون مدينتهم
واخترعوا الملاحة باشارة هر كل

وقال سنكن يتن ان الصوريين لم يحلوا في الجزيرة قبل كل ساكن
الاً في رابع جيل لا يون المتسلسل عن الالهة . اما التقليد القديم عندهم
فهو ان بل كان اول ملك على صور وانه كان يملك من قصره على

مدينتي صور وصيدون . وقد يخطون آيون هذا باجينور الذي ملك
هناك ستين سنة . ولما ذهب طور ملك اكرت ذات يوم في غزوة له
تل عند المساء فجأة وخرب المدينة وعاد باوربة اسيرة . فلما رجع اجينور
بعث اولاده للتفتيش عن اختهم وصار المساء الذي أُسرت فيه اوربة
مثلاً للشوم عندهم

اما الصخران اللذان بنيت فوقهما هياكل مدينة صور فسُخِصا وألها
وعُبدَا نظير جنتيتين مائيتين وسميا بالصخرين الخالدين او الامبروسيين
نسبة الى ديونيس الذي اشتهرت عبادته في صور بعد الفتح المقدوني
لان الصوريين كانوا يسمونه احتراماً واکراماً باسم امبروسية احدى الهيات
مرضعة الاله المذكور . والصخران المذكوران مصوران على المسكوكات
الصورية غارقين في البحر او طافين على وجه المياه . فان اشيل تات يقول
« لم يكن للجزيرة اصول في قعر البحر ولكنها كانت طافية على وجه المياه »
الا ان نون اضاف الى ذلك قوله : تحت سكائب دم النسر القدرى
تأصلت التلال الغير الثابتة في امواج البحر بالقرب من صور . وعلى
الصخور غير المترعة بنى ابناء الارض مدينة صور

ولعل المراد بحكاية هذين الصخرين في صور ما جرى فيها من
الزلازل المتأتية عن غضب قلكان وبوصيدون فانهما كانا الهين
مقتردين عدوين لصور ولذلك كانوا يسمعون في استرضائهما بذبائح

وفائية يقدمونها كل سنة

اما دامور الذي يزعم سكن يتن انه ابو ملك قرت وانه الاله الحامي فهو عين الاله تامير الذي معناه النخل في الفينيقي . وعليه فلا يفترق عن الاله الذي سماه اليونان فينيق . غير ان تامير هذا كان معروفاً عندهم بكونه مخترع صناعة ايقاع الالحان وجداً لأُرفي . وقد اشتهر التاميريون في جزيرة قبرس خصوصاً في باف واماتنت . ومن هنا تعلم ان دامور قد حاز في الحكايات الوثنية بعض النفوذ حتى في خارج فينيقية . ألا ان نفوذه لا يصح تشبيهه مطلقاً بالنفوذ الذي حازه ابنه ملك قرت او بعل صور

ان ملك قرت او هر كل كان في التحقيق اله صور بل اله فينيقية بكاملها مدة اعصار كثيرة . ويجب ان يُعتبر في مشروعاته واعماله وتقدمه نظير ممثل للامة الفينيقية بتمامها . ولاشك ان هذه الامة التي اشتهرت بنحوض البحار والاقدام على الاستعمار هي التي اخترعت هذه الحكاية ناسبة لالهها الوطني كنسبتها الى ملكها الزمني والحالد جميع ما أثرها القديمة وفتوحاتها العظيمة برّاً وبحراً . اما اليونان وسائر الشعوب فقد زادوا على حكاية هر كل الصوري اموراً كثيرة . وبالجملة فان كل شعب اخترع له حوادث واعمالاً توافق اذواقه وآدابه ومن ثم كثر عدد المركلين في الحكايات وهكذا انتشرت حكاية هر كل انتشاراً

لا مزيد عليه وصارت له سطوة عظيمة خصوصاً في بلاد اليونان
ان اخص من سمي هر كل ثلاثة وهم هر كل المصري واليوناني
والفينيقي ولكن هؤلاء الثلاثة هم في التحقيق واحد وقد أخذت حكايتهم
عن مصدر واحد صوري ولنا على اثبات ذلك جملة براهين نعرض عن
ذكرها اختصاراً

حكاية هر كل الصوري = ان هر كل المذكور بعد ان أسس
مدينة صور وطنه واكتشف الارجوان جمع كما في التقليد للغارة على
المغرب جحفلًا جرّارًا مؤلفًا من جميع طوائف آسيّة. وكان تحت امرته
مقاتلة الفينيقيين والفرس والعرب والافريين واليونان واللدوريين
والاسقيط السباليين والايوسونيين وغيرهم . وسار في مقدمة تلك
الكتائب الهائلة وركب البحر متوجهًا الى جزيرة قبرس وسماها مقارية (١)
باسمه وكذلك فعل بسائر الجزر الست اعني رودس ولسبس وصاقس
وصامس وقس واكرت فانه بعد ان استولى عليها سماها الجزر المقارية
او السعيدة. وبعد ذلك وسّع دائرة فتوحاته في كثير غيرها من جُزُر
الارخبيل وعدّة اقطار من بلاد اليونان وتراقية والاسقيط. وفي بلاد

(١) تصرّف الاجانب في اسم ملك قرت على وجوه شتى فقالوا :

ماكر ومكار او مقار واكار وبكار وبكار

الاستقيط وُلد له من هيلية ولد سماه استقيط فصار هذا ابا لشعب الاستقيط . وكان او طوليق رفيق هر كل معبوداً في سينوبة وفيها نطق بالوحي بينما كان لوقول يحاصر المدينة . واعظم مآثرة تُذكر عنه في هذه الجهة هي انه انقذ بروميتي من الموت اذ رمى النسر الذي كان ينهش كبده بنبله فقتله

وبعد ذلك استأنف هر كل المسير نحو المغرب وحمل على صقلية ودوخها وقتل فوقها ملك ايطالية الذي كان يذبح الغرباء ضحية لابنه المرنج وذهب لابنه سرد جزيرة سردينية والجزيرة المصابقة لها لابنه الثاني كرسكا . وخلص بلاد غالية (فرنسا) من ترسك الجزائر واسكن الدورين فيها وفي غيرها من الاقاليم . وبعد هذا توجه هر كل جهة الجنوب وافتتح الجزائر الباليارية وايبيرية واسبانية حيث التقط تفاحات الذهب ثم انتصر على اوتية وطيطان ونصب عواميده المشهورة على تخوم الدنيا . وهي على مدخل البحر المتوسط اما العمود او الصخر الذي هو على الشاطئ الاوربي فسمي كلقا والذي على الشاطئ الافريقي سمي ابيلا . وكان هذان العمودان بل قل الجبلان تذكارة للصخري صور ورمزاً الى بلع ملك قرت امام هياكله وعلى الخصوص امام هيكله في صور

ولما لم يكن جميع ما تقدم من المآثر والفعال كافياً لايضاح مجد

هذا الفاتح الالهي زادت الحكاية انه تجول في ليبيّة (افريقيّة) حتى
 اتصل الى الصحراء الكبيرة ومنها باغ توأ شطوط الاوقيانوس واسكن
 فيها الفروسيين وجعل ايضاً موريتانية آهة بالسكان وحارب عتل
 (اتلس) ليبيّن انه اقوى منه على امساك السماء وبني تيبست
 وقبسة في الداخل وكس وتنجيس في الشمال وايكوسيوم على شاطئ
 البحر وقرطا عاصمة نوميدية وكثيراً غيرها من المدن . وبعد هذه الفعّال
 العظيمة عاد الى قادش ومات بها وهناك بنوا فوق مدفيه هيكلًا عظيمًا
 بالقرب من العمودين الرموز بهما الى العالمين اللذين افتحهما . وصار
 ذلك المكان مركزاً للقوة الصورية في المغرب الى ان بنيت قرت
 حدثت (قرطجينة)

ولكن بعض ارباب الحكايات لم يقفوا عند هذا القدر الذي اوردناه
 من قصة هر كل بل زادوا على ما تقدم انه سافر اسفاراً اخرى لغزو
 آسية . فان ديودور يقول : ان هر كل بعد ان عبر المضيق لثاني مرة
 وسلّم ايبيرية التي كان قد دوّخها الى رجال من اهلها كانوا احسنهم
 صدقاً وامانة زحف بجيشه الى القلتية (فرنسا) وطاف في جميع جهاتها
 واستأصل منها الاخلاق الفاسدة وابطل على الخصوص قتل الغرباء .
 ولما كان الناس قد تواردوا عليه افواجاً من جميع الاقطار وانضموا الى
 عسكره بنى لهم مدينة لسكناهم وسماها اليسية اشارة الى جولانه في

مملكته تلك . ثم رحل اليهم جماعة من برابرة تلك النواحي واختلطوا
 بهم وادخلوا فيهم الاخلاق البربرية . وهذه المدينة اليوم هي اعظم المدن
 عند القلتين لانها كانت اول مدينة في بلادهم وعاصمة لجميع مدائنهم
 ومن وقت ما بناها هر كل لم تكف عن ان تدافع بعزة عن شرفها
 واستقلالها الى ان قام قيصر واخضعها للرومانين

« ثم عبر هر كل بلاد القلتية ووصل الى ايطالية ولما مرَّ في جبال
 الالب فتح مسالك سهلة بين الصخور والوهاد ليتكّن عسكره من المسير
 فيها باثقاله . وكان البرابرة المقيمون هنالك يقتلون الجيوش التي يقودها
 سوء النجته الى المرور بمضائق جبالهم او يسلبونهم في الاقل اثقالهم
 ومتاعهم . غير ان هر كل كسر شوكتهم وقتل رؤساءهم وأمن
 الآتين بعده من اغتيالهم . وبعد ان تم له عبور الالب على هذه الطريقة
 واصل السير في غلاتية (غالية التي قرب الالب) وانتهى الى
 لوغورية (١)

ثم ان هذا البطل المقدام جاب نواحي ايطالية جمعا ووقف على
 الحصص فوق جبل بلاتين حيث بنيت رومية من بعد . واستأنف
 المسير ومرَّ بصقلية وزار جميع امكنتها وهزم جميع الجبابرة الذين كانوا

يعيشون فيها ثم عاد الى ايطاليا ومرّ باليلوبونيس . غير ان اقدمه دفعه الى التوجّه بعسكره نحو مصر ومنها سافر الى اتيوية وليبية وقطع صحراء العربية حتى انتهى الى الهند واقام عند السيباويين ثم عاد الى اشور مكلّلاً بالنصر والظفر في جميع المواضع التي مرّ بها »

ولكن هر كل في غزواته هذه سمي باسماء مختلفة لاختلاف الامم التي تحبر عن فعاله العظيمة . فقد سمي في هذه البلاد باسم ديونيس (بكخ) وأربال وسندان . اما سندان فانه لم يسافر عندهم من قادش بل من سورية وبني اولاً في صقلية مدينة ترس وقيلندريس وعبر الفرات وأسّس مدينة الرها ودوّخ بلاد ما بين النهرين وبابل واشور حيث يكرم موته مثل هر كل الفينيقي او اليوناني . وسندان هذا (سردنابال) قد عدّه المؤلّفون القدماء مثل ممنون اتيوبي الاصل (اشوري) . اما نون فقد جعله هندياً وسماه سندان هر كل . ولكن هذه الحكاية لم تتصل الى آسية المتقدمة الا عند ولاية الاشوريين . وهي تشبه كثيراً حكاية ممنون وتدل على اتفاق سندان هذا مع هر كل الصوري

ولما تقدمت معارفهم بالجغرافية في اوان اختراعهم لحكاية سندس زعموا انه جاء من بلد اسمها اتيوية متجهة الى الشرق وقدروا انها موجودة على تخوم الهند وخلطوها بهذه الجهة الاخيرة . ولكن ذلك في التحقيق هو نفس الحكاية التي يُشار بها الى فتوحات

المركليين الاشوريين . فان هؤلاء الفاتحين لما مدّوا سلطانهم نحو
المغرب بشوا هنالك تقاليداتهم ومزجوها بتقليدات آسية المتقدمة وبلاد
اليونان ومصر على حين كان لهم من العظمة ما يُثير العجب ويُقيد
الابصار

ولحكاية هر كل بعل هذا آثار ظاهرة ايضاً في تقاليد بلاد
العربية . لان المحل المسمى فيها جور بعل (١) هو على مقتضى معناه
المكان الذي قُدّم فيه القرى لبعل الصوري (هر كل) عند زحفته على
العربية . اما سفر ديونيس او ديونوس هر كل الى العربية المذكور في اشعار
هومير وغيره من المؤلفين فانه مبني على اسم المينا التجاري ينوس (٢)
الذي يظهر انه نفس نوسا او رافية (٣) . هذا فضلاً عن ان ديونيس
لا يفرقه العرب عن اوروتال الذي كانوا يخلطونه ايضاً ببعل ملك قرت
الفينيقي . اما اليونان فوقّوا بعد ذلك هذا الاله مع اذوني او اذوني أُسر
الذي زعموا انه سافر متأثراً لتيفون . ثم سمّوه ايضاً بجمة اسماء كديسان

(١) راجع سفر اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٧ . وجور مشتق من

جوراي مضافة ومثّل (٢) معنى ينوس وينوه هر ب

(٣) ان مدينة اسقيطوبول في فلسطين كانت تدعى اولاً باسم

نوسا لان مرضعة ديونيس دُفنت فيها عند مرور الاله بها

وديودان ودرسان ودبدا فكانت هذه الاسماء سبباً لاختراع حكايات جديدة عن هذا الاله

الآن ان حكاية ديونيس تغلبت على جميع حكايات هر كل في فينيقية . وزعم الشعراء في اواخر عهد الوثنية انه وجه زحفاته على الخصوص الى بلاد الهند . وقد نظم نون قصيدة طويلة في بيان غزواته ومن المعام ان اليونان الذين بشوا حكايته اوانثذ في سورية اخذوها اولاً من تراقية التي نبغ فيها الكبيرون . وصرح ارباب الحكايات من اليونان بان ديونيس كان فينيقي الاصل بواسطة ابيه قدم . ومن هنا تعلم ان ديونيس ليس في الاصل الا حكاية كبيرة تصرف فيها اليونان ثم الفينيقيون من بعدهم

والظاهر ان حكاية هر كل في صور انما ألفت اول الامر بسبب المقام الذي ينسبونه الى بعل ملك قرت في حكاياتهم عن الآلهة لانه كان عندهم حائزاً جميع الصفات الدينية نظير اله وفائزاً بالحقوق المدنية كمالك حقيقي . وكانت الجماهير التي تهاجر الى البلاد السحيقة وتقيم بها ممالك حديثة لا تخرج عن سيادته المطلقة بل تقر له بالسلطان واداء الطاعة . ولذلك وجب على هؤلاء الرعايا الخاضعين له ان ينسبوا اليه من قبيل الاكرام كما هو جارٍ مع الملوك في ممالكهم جميع اعمالهم ومشروعاتهم وتجاراتهم وغلباتهم وفتوحاتهم

وقام هسيود وهومير من شعراء اليونان ونظما قصائد جزلة في وصف مزايا هركل هذا واعماله ومعانياته . ولكنها اغفلا مزية القوة التي كان يصفه بها الفينيقيون . ثم قام شاعر اقرب منهما الى فينيقية اعني به بيسندر من كمبر في رودس (٦٥٠ ق م) وألف منظومة لقبها بالهركلية اتى فيها على اعمال هركل الاثني عشر التي تبتدى بهيئة رعائية وتنتهي بحروب الفينيقيين العظيمة

اما اخراج هذه الحكاية بصورة جديدة فوق احسن وقع في قلوب اليونان . ومن ذلك الحين اخذوا ينسبون جميع الصفات لهركل فتارة يزعمون انه حكيم وفيلسوف والهي ومخترع وكامل ومتلمذ لقتل او ظافر عليه وحينئذ يدعون انه استروشيتون السماوي ذو الطيلسان المرصعة به النجوم . وطورا يذكرون انه رجل ذو قوة لا تقاوم محبوب من المشتري ابيه ومحكوم عليه من القدر ان يشتغل بلا توان لمنفعة غيره ويطيع مضطهدا لثيما ولم يقبل في مصاف الالهة الا في اواخر ايامه

وقالت الحكاية اليونانية ان هركل في معركة له مع تنين لرن ذي الرؤوس السبعة لدغ لدغات كثيرة ملأت جسمه قروحا هائلة . فلما لم يجد لجراحه دواء استنار الى دلف في ذلك فأمره الاله ان يسافر الى الشرق بقوله : « تمشي الى ان تصل الى نهر ترى حوله غرسة تشبه التين فتعمل منها لزقة وتضعها على محل الالم فتشفى » اما هركل فامتثل

الامر وجد مسافراً حتى وصل بعد العناء الشديد ووجد بالقرب من
 بعض الانهار تلك العشب التي دله عليها ابلون . اما ساق تلك العشب
 واصلها المنقط بالاسود فكان فيها رؤوس على مثال رؤوس التين
 وكلما تُرَع منها رأس نبت آخر مكانه . واما اصلها فيسمى قولقاسيون
 وثمرتها الحسنة المنظر الشمية المذاق عند المصريين تسمى نلبو وهي
 ضرب من النياوفر الكثير الوجود على شواطئ النيل . ولكن لا يوجد
 من انواعها ما خاصته شفاء الجراح المزمنة الا ما ينبت على ضفاف نهر
 النعمان في فينيقية . ويُستخرج منه عصير ابيض وذلك بان يُسحق الاصل
 والزهر والورق معاً ثم يُستعمل هذا المزيج دواء شافياً . اما هر كل فـشعر
 في الحال بحسن فاعليته وتحايدها لمعرفة الجميل بنى بالقرب من نهر النعمان
 مدينة عكا ومعناها حرف او احد الاسنان التي فتحت جراح هر كل
 وعمرت مدينة عكا بالسكان وسارت في سبيل النجاح . ولكن
 سربدون بن بوسيدون عدو هر كل حسدها على تقدمها فزحف
 عليها بجيش كثيف وهزم اهلها شر هزيمة وخرّب المدينة . ولما حلت
 هذه الملة باهل عكا . حتى بوسيدون اله البحر لحنق ابنه وارسل
 الامواج فيما حوالي عكا فجاوزت حدودها وجاءت كالجبال واهلكت
 اولئك الهاربين المتبدين وعند جزر المياه جرّت معها بعضاً الى البحر
 وبقيت جثث الآخرين متفرقة في تجاويف الصخور . ولما ان عادت

الى مقرها خلفت وراءها مشهداً هائلاً اعني بذلك عددًا وافراً من
الجثث المختلفة ومن الاسماك المنثورة على كامل الشاطئ . اما هر كل
فامتعض امتعاضاً لا يقدر من اهانة تلك المدينة التي كان يحبها حباً
شديداً كحبه ابنته و يباركها كبركة لكان نجاته . وعندما كان سر بدون
في ميناء أن بتراقية هاماً ان يرفع مرسة مركبه رشقه هر كل بنبله
نفذت فيه ودهورته ابد الدهر في مملكة ابيه

غير ان التقاليد المكاني في عكا ينسب بناء هذه المدينة الى فرسا
لا الى هر كل فتكون عكا بموجب هذه الحكايات نفس عاصمة المملكة
الاتيوية الكبيرة التي أسسها فرسا في آسية او التي أسسها كيفا ملك
فينيقية على رأي آخرين . ومع كونهم يجعلون عموماً نجاة اندروميد بواسطة
فرسا امام يافا فان ايقونات عكا تدل على ان هذا الحادث المزعوم
انما كان في جوارها . وعلى ذلك فان فرسا اقام امداً طويلاً في الجهات
الفينيقية التي تُفترض مدينة عكا قاعدة لها . وتكون هذه المدينة في
الوقت نفسه عاصمة تلك المملكة الكبيرة الاتيوية التي تقدم القول
عنها سابقاً

اما الايقونات المذكورة فانها تصوّر فرسا واقفاً ويده الواحدة رأس
ميدوس والقيثاره بالآخرى اشارة الى الحرب والغلبة . وكانت اندروميد
ابنة كيفا بن بعل وقسيابة زوجة فينيق او اجينور

دمشق

ان دمشق وفينيقية مع ما بينهما من القرب تتبع كل واحدة منهما في تقليداتها خطة متميزة عن الاخرى . لان فينيقية حيث كانت اكثر استقلالاً حافظت بنوع اوفر على تسلياتها القديمة ولكن دمشق من حيث انها كانت من القديم مستعبدة مسودة فانك تراها تمزج اكثر الاحيان تقليداتها بتقليدات سورية العليا بل بتقليدات ما بين النهرين . واعلم اولاً ان الحكاية الفينيقية الملائنة من مشرب السيادة تنسب الى ايل ملك جبل مملكة ادُد التي ينبغي توفيقها مع هدد او حدد اله دمشق او سورية ولو ان بعضهم سمي ادوني باسم يحيد (اي الوحيد) . وكثيرون من ملوك دمشق سموا بعد ذلك باسم ابن هدد لانهم بلا شك كانوا يدعون كدعوى غيرهم في بقية الممالك انهم من سلالة الاله الذي اقيم اول سلطان على دمشق واشركهم كما يشرك ابناءه ونوابه بحقوقه وسيادته

وتوهم ازباب الحكايات بعد الفتح المقدوني ان دما هو اسم رجل من المحاربين رافق ديونيس في غزواته ثم جاء فنصب خيمته في المكان الذي بُنيت فيه المدينة ورفع هناك تمثالاً للالهة سورية . ولذلك دُعي

الحل المذكور بخيمة دما وباليونانية دما سكيي ومنها دمشق . واخبروا
ايضاً ان اسق الجبار القوي اسعفه ليكرج فربط ديونيس وطرحه في نهر
دمشق . غير ان حرمش قتل اسق وسلحه واتخذ جلده زقاً ودفنه هناك
ثم اتخذت المدينة اسمه وكذلك دعيت باسمه الازقاق المتخذة للخمر
ونقل نيقولا الدمشقي ان ديونيس لما هجم عليه ليكرج بالقرب من هذه
المدينة في مقدمة العرب هزمهم شر هزيمة بما كان يلقي في وجوههم
من الخمور المحفوظة في الازقاق خاصة فسميت دمشق باسم هذا السلاح
الجديد

وقال غيره ان دمشق بن حرمش والجنية المائسة اليميدية جاء من
اركاوية الى سورية وبني مدينة دعاها باسمه . واخبروا ايضاً عن واحد
اسمه دمشق حنق لاهانة لحقته من ديونيس فقطع بفأسه جميع الدوالي
التي زرعهها اله الخمر في جميع منحدرات الجبال بسورية . اما هذا الاله
فاستخدم غيظاً لهذه الفعلة وتأثر المجرم حتى ادركه وسلحه حياً . ومنه
اتخذ اسم دمشق

ومهما كان الامر من هذه الحكايات الخرافية فالمعروف ان الزق
(وباليونانية أسق) في دمشق كان مشهوراً ومكرماً . لانهم رسموا على
هذه المدينة سيلين رفيق ديونيس حاملاً على كتفه زقاً كبيراً . وكانوا
في الاحتفال الذي يقيمونه لديونيس يحمل كل من الدماشقة زقاً

ويجيزون بزق كل من استفرغ مقداراً معيناً من الخمر اول الجميع اي
٣٤٢ من اللتر . وكان الفينيقيون ايضاً على مثال الدماشقة يصورون
سيلين مع زقه وكثيراً ما كانوا يصورون ايضاً بقية آلهتهم حاملين
الاكياس التي تذكر بازقاق بكخ اله الخمر

وبلغ من انتشار هذه الحكاية ما حمل بوسانيا على الجزم بان
سيلين قبر عند العبرانيين في شيلو . وكان الوثنيون على رواية فلور
يعتقدون ان اليهود والسوريين من احرّ العباد للاله بكخ . اما بان الرفيق
الآخر لديونيس فدُعي ايضاً باسمه احد الجبال ومدينة بانياس القريبة من
دمشق . فهذه هي اذا الاساسات التي بنى عليها ارباب القصص
حكاياتهم

وقد اشتدت وطأة الاشوريين على دمشق قبل ان سادت فيها
سطة اليونان . لان ملوك نينوى وبابل من بدء افتتاحهم كانوا قد
استأصلوا بواسطة اجلاء السكان الاصليين جميع التقليدات الدمشقية
القديمة واستبدلوها بالحكايات الاشورية . ومن ذلك الوقت صارت
سميرام ملكة الشرق الكبيرة المنسوب اليها عندهم تأسيس مدينة بابل
اكبر اِلهة لحكايات دمشق الوطنية فزعموا انها ابنة او اخت هدد
وان ذلك اعطاها الدماشقة كأهل عسقلان اول منزلة بين الالهات . قال
القديس ماليتون : « ان عطى الاديباني ارسل ابنته بعله لترض سمية

(اي سميرام الالهة الحمامة) ابنة هدد ملك سورية . ولما ضُرب هدد بالبرص من بعد ذلك بقليل استدعى عطي اليسع العبراني فجاء وشفاه « وكان الدمشقيون ينسبون عن طيبة خاطر الى سميرام جميع ما جرى في جبهتهم من الاعمال العظيمة (١) والقديس صفرون الدمشقي المحتد قد اخبر ببعض التقليدات التي كانت في بلاده قبل ظهور النصرانية بقوله : ان دمشق كانت قاعدة سورية المجوفة وسيدة المشرق باسره لما ملكها نين وسميرام المشهورة . وفي ايام ملكها احاطها بالاسوار وارسل خلقاً كثيراً لانشاء مستعمرات صوب آسية وبلاد اليمن . وهكذا صارت دمشق عند السوريين مركزاً لحكاية سميرام التي طار ذكرها في الشرق القديم لانها في زعمهم النقطة التي وُجّهت منها المستعمرات فوسّعت سلطنة المملكة المذكورة في بلاد اشور وآسية الصغرى والعربية »

اما يُستبين فلتوهمه صدق هذه الامور اخبر ببعض التقليدات الدمشقية المشار اليها ممزوجة ببعض حوادث مشوهة من التاريخ المقدس قال : « اصل اليهود من دمشق المدينة الشريفة في سورية . ومنها ايضاً اصل ملوك اشور بواسطة الملكة سميرام . والملك دمشق قد دعاها باسمه »

(١) ومما ينسب اليها الاقنيسة الموجودة بالقرب من نهري ابراهيم

وبيروت

والسوريون بنوا أكراماً له هيكلًا على مدفن زوجته ارات ولم يلبثوا ان عبدوها بالخضوع الكامل مثل الهة . وخلف دمشق ازيل . ولكن ادر (هدد) وابرهيم واسرائيل استولوا بعد ذلك على هذه المملكة . الا ان اسرائيل لما كان ابا عشرة اولاد اشهر اكثر من اجداده وقسم سلطنته الى عشرة ممالك فرقها بين اولاده »

فقد رأيت ان هذا المؤرخ في معرض كلامه عن دمشق ذكر بعضاً من آباء شعب الله الذين لم تكن للناس بهم معرفة حسنة اوانئذ ولكن هذه التقليدات ولو كانت مبهمة تثبت ان الدماشقة كانوا يتذكرون انهم والاسرائيليين من اب واحد وانهم كانوا يعتبرون حكاية سميرام خاصة بمدينتهم التي يزعمون انها محط قدرة وما أثر تلك الملكة والاخبار التي يذكرونها عن سميرام عجيبة لذلك نضرب عن ايراد انتصاراتها التي اخضعت بها جميع آسية الشمالية ونقتصر على ذكر ما كسبت من الفتوحات في جنوبي آسية مع عساكر سورية وفينيقية . وكان لدمشق عاصمة سميرام سيادة على سورية برمتها . وتوجد ايضاً مدينة ثانية تسمى عسقلان جهة الجنوب كانت تستولي منها سميرام على فلسطين باسرها الى حد مصر . وهذه المدينة تشدد الارتباط بين بلاد ارام وفينيقية في حكاية سميرام لان بوسانيا يقول ان الفينيقيين كانوا مستولين على مدينة عسقلان بفلسطين

ثم ان ارباب الحكاية اخترعوا ايضاً سميّاً لسميرام سموه سمير وقالوا
انه كان يقود احياناً عساكر الملكة المشار اليها . قال ابن العبري بتاريخه
السرياني ان سمير حارب اليونان والكنعانيين وكسرهم

ولما ان فُتحت بلاد فلسطين انتشرت سطوة ملكة دمشق هذه
في العربية انتشاراً صريحاً كما انتشرت سطوة عشتروت الفينيقية .
وينجبرون عنها انها ذهبت متجولة بالابهة في تلك البلاد على مثال
عشتروت . اما بلقيس التي يتوهم العرب انها كانت ملكة على الصابئة
فقد ذكروا من اعمالها واخبارها ما لا يوافق الاً سميرام ملكة جميع
المشرق . وذكر قدماء العرب من اجدادها الهدهاد وشرجيل او
اسرائيل الذي اوردهُ يُستين في معرض كلامه عن دمشق وسميرام .
وقد وجدنا ايضاً ان الحكايات قديماً على ما ذهب اليه اسكندر
بوليستور كانت تجعل اسرائيل ويهوذا وايدومة ابناء سميرام

ان ديودور الصقلي الذي كان يطمئن الى جميع هذه الاخبار
الخرافية تسبب في احيائها عشرين قرناً وملء كتب الادب بالايماآت
والالاعات اليها

واذا ركنت الى اقوال المؤرخين يكون نين باني نينوى وبعل سميرام
قد تسلط على جميع الاقطار التي تألفت منها المملكة الاشورية بين
البحر المتوسط و (بين) نهر السند . وبالأخص على فينيقية وسورية

المجوفة . اما ملكة دمشق واشور فتكون قد رقيت العرش بعد وفاة بعلمها
قال اـكتيسيا « ان في سورية مدينة تسمى عسقلان بجانبها بحرة
كبيرة عميقة فيها كثير من السمك (١) وعلى ضفتها هيكل عظيم للالهة
التي يسميها السوريون درقسا . وهذه الالهة التي يصورونها برأس امرأة
وجسم سمكة لما ولدت ابنة من شاب سوري حملها النخل على قتله وبعد
ان ارسلت صغيرتها الى محل قفر غاصت في البحيرة وتحولت الى
سمكة

« اما تلك الابنة فقد حُفظت من الموت بالنوع العجيب الآتي وهو
ان الحمام الكثيرة التي كانت معششة هنالك لما سمعت صراخها اقبلت
عليها واخذ بعضها يرفّ عليها باجنحته ليدفنها وبعضها يحمل اليها بمناقيده
نقطاً من الحليب مما خلفه الرعاة والفلاحون في الاراضي المجاورة
ويعاجيها به . ولما وصلت الصبيّة الى سنّ تحتاج فيه الى غذاء اقوى
اخذت الحمام تأتيتها من فئات الجبن على قدر كفايتها . وكان الرعاة كلما
عادوا وجدوا جبنهم منقوراً فاخذوا يستقصون عن علة ذلك فتبعوا
الحمام حتى وصلوا الى صبيّة في غاية الجمال فأتوا بها الى اكوأخهم ثم
سلموها الى سينا ناظر الاصطبلات الملكية . ولما كان ذلك الرجل عقيماً

(١) والصحيح انه ليس بقرب عسقلان شيء من البحيرات

فرح بالابنة وبذل اتم العناية في تربيتها كما لو كانت ابنته حقيقة وسماها
باسم سرياني سميرام (اي الحمام) ولهذا اخذ السوريون من بعد ذلك
يكرمون الحمام مثل الالهات (١)

« ولما ادركت سميرام سن الزواج اتفق ان اتى يوحنا لتفقد
الاصطبلات الملكية واقام في بيت سينا . وكان يوحنا المذكور رئيس
مجلس الشيوخ وحاكماً على سورية فلما ان وقع بصره على سميرام
احبها لجمالها الرائع وتزوج بها . وعند ما لحقته مع الجيش الملكي الى
حرب البكتريان كان قد اولدها ولدين هما هيابات وهيدسب .
وهناك اسعفت نين على نصرته غاية الاسعاف . فاحبها نين على كبر
سنه واتخذها له زوجة واولدها ابناً سماه نينوى ثم مات بعد قليل
واورثها تحت الملك

« وكانت سميرام من طبعها هجامة على الاعمال فطمحت من
اول دقيقة لتملكها ان تفوق جميع من تقدمها فخراً وهمت بادئ الامر
ان تبني في كورة بابل مدينة عظيمة وحشدت جميع المهندسين والصناع
الذين في مملكها حتى اجتمع عندها مليونان (اي الفا الف) وكانت
تُحسب اعمالها هذه من احدى غرائب الدنيا ولما ان انتهت منها

وجهت افكارها الى الحرب فدوّخت اولاً الماديين الذين جاهدوا بالعصيان ثم ارسلت الى الفينيقيين الذين كاشفوها بالثورة ايضاً اميراً عربياً يُسمى غونة (او عوناً) كانت قد رفعتهُ الى اكبر مقامات بلاطها. وكان ذلك الامير جامعاً بين العدالة والفطنة والشدة وبواسطة هذه الاخلاق الحسنة اتصل الى اذلال كل ثورة وارغام آسية المتقدمة باسرها

اما سميرام فكانت قد توجهت الى بلاد فارس وجات جميع تلك الممالك المتسعة مخلقة في كل محل آثاراً تدلّ على عظمتها بما أسست من المدن وشيّدت من القصور وخرقت من الجبال ومهدت من الطرق الكبيرة لمرور العساكر والتجّار ولاسيا الطريق الآخذة من القرات الى دمشق والى العربية مارةً بوادي الاردن. بل بما فتحت من الاقنية العظيمة لجمع الانهر وسقي الاراضي حتى ملأت الدنيا جميعها من صيت اعمالها العجيبة. ولكن اخلاقها مع ما اتت به من الاعمال العظام كانت كاخلاق امها درقنا

ولم تكف بالحفاظة على الممالك المتسعة التي اورثها اياها نين بل كانت تطمح في كل آونة الى فتوحات جديدة. قال اسطفان البزنطي انها حملت على مصر واخضعت قسمًا كبيراً من ليبية ثم زارت المشتري آمون لتستخبر هذا الاله عن كيفية نهاية حياتها. فكان جوابه انها تخنى

في اخر امرها عن ابصار الناس وتفوز من اكثر طوائف اسية باكرام لا يزول وذلك بعد ان يكون ابنها نينوى قد كاد لها المكاييد. ثم انها تجولت في كثير من نواحي الحبشة مخوفة بالكرامة وبعد ان رقت شوون مصر والحبشة عادت الى آسية عامدة ان تغزو غزوة أخرى اعظم فحشدت من جميع ممالكها جنوداً كثيرة وطلبت الرجال والمراكب على وجه الخصوص من سورية وفينيقية وقبرس. غير ان حملتها هذه كانت نتيجة خسارة عليها لانها اذ لم تقوَ على مصادمة فيلة ستراتوباتيت هربت مخذولة مع عشرين نفراً من رجالها لا غير. وعندها عدلت عن الفتوحات وفازت بالطمأنينة والسلامة في مملكتها ولكن ابنها نينوى كان في اثناء ذلك يكيد لها المكاييد ويبث لها الفخاخ. فاعتزلت الملك حينئذ بعد جلوسها على العرش مدة ٤٢ سنة ثم تحولت حمامةً وطارت الى السماء في غمامة من الطيور كانت ترافقها. فعبدها الناس مثل الهة وانتشر صيتها في اسية حتى نُسب اليها كل عمل عظيم كما قال المؤرخ سترابون

وهذا هو مختصر حكاية سميرام الكبيرة اي ابنة هدد ومملكة اسية باسرها ما خلا الهند والظاهر ان اسمها أُخذ من اسم الملكة سمورام زوجة الملك بنلنخيس الثالث (سنة ٨٥٠ ق م) التي احدثت بعض اعمال مهمة في بابل

غير ان هذه الحكاية الوهمية التي اخبر بها اكتيسيا لا ترتقي الى اصل قديم جداً ولو قال بذلك العلماء المتقدمون والمحدثون واعلم ان بين حكاية الامازون وحكاية سميرام ارتباطاً شديداً لانهن كنَّ معروفات في سورية وكنَّ فيها ملكات اذ قال ديودور « ان ميريئة ملكة الامازون الليبيات جنّدت جيشاً قدره ثلاثون الفا من الامازون مشاةً واثنا عشر الفا خيالة وطافت بهنَّ في قسم كبير من افريقية وعند مرورها بمصر صادقت هور بن ايسيس الذي كان ملكاً هناك وقتئذٍ . ثم زحفت من هنالك على العرب وذبحتهم ذبحة هائلة وعادت بطريق الشمال وافتتحت سورية . فلما علم الصقليون بنصرتها بادروا للقاءها بالهدايا ودخلوا في طاعتها . ولكونها سرت من قبولهم لسلطانها عن رضاهم تركتهم وحرّيتهم » . ثم انها واصلت فتوحاتها وجعلت حدّ ملكها عند نهر قيق وانحازت الى سموتراقية وافردتها لام الآلهة . ولكنها انهزمت في اخر موقعة لها مع مَبس وسبييل . ثم ان هر كل المنتصر لآسية اهلك الامازون وابادهنَّ

بعلبك او هليوبول (١)

ان مدينة بعلبك التي سماها اليونان هليوبول كانت مدينة بعل وعشترت . وزعم مكروب ان اصل هذا الاله الشمسي من مصر وان الكهنة المصريين هم الذين حملوه الى هنالك لانه يقول « ان الاشوريين والسوريين يكرمون الشمس بما لا مزيد عليه من الالهة والاجلال في مدينة هليوبول . وتمثال هذا الاله حمل من مصر من المدينة التي تسمى ايضاً هليوبول في ايام ولاية سينمور الذي يحتمل ان يكون نفس سينوب وكان قد نُقل أولاً الى مصر نقله اوبيا رسول ديليور ملك الاشوريين والكهنة المصريون الذي كان زعيمهم برتميت . وهكذا هذا الاله الذي مكث دهرًا طويلًا عند الاشوريين نُقل اخيراً الى مدينة هليوبول »

ولعل الباعث على القول بان اصل بعل الهليوبولي من مصر انما هو ناتج عن تسمية المدينتين باسم واحد عند اليونان والرومان . وقد اقرّ مكروب نفسه ان عبادة المشتري الشمس في مدينة هليوبول السورية لم

(١) معنى بعلبك مدينة بعل لان معنى بك في الفينيقية مدينة اوبيت . وقد ترجم اليونان بعلبك الى لغتهم بهليوبول ومعناها مدينة الشمس لان بعل كان عندهم الهاً شمسياً

يكن من علاقة بينها وبين الآلهة المصرية . فضلاً عن ان الاسماء التي يدعون بها هؤلاء الاشخاص ليس لها حقيقة في التاريخ . لان الاله الشمس المصري وكذلك الفينيقي او السوري لم يسميا لازوس ولا يويستر ولا ابلون وانما سُميا رآ وبعل وهما اسمان بينهما اختلاف كثير كما هو بين اسمي المدينتين نورا وبعل بك . وبما ان الحكايات المصرية لانتشارها بين الرومان واليونان صارت منبعاً لجميع الحكايات اندفع مكروب كسائر جامعي الخرافات الى الزعم بان اصل بعل الهليوبولي من مصر مع ما يوجد من التناقض العظيم بين الهليوبولين

وكان لبعل من حيث هو اله شمسي ومبدأ للحياة والوجود حكايات مخصوصة به وكان الهاً عمومياً لجميع القبائل الساكنة فينيقية وسورية . وعلى ذلك لا يمكن ان تعتبر حكايته مصرية الاصل او اشوريته دون اجفاف بجميع الأنبياء القديمة فتخمينات مكروب في شأنه غير مرضية ولكنه لا يسهل اليوم في حالة العلم الحاضرة ان نجزم جزماً مطلقاً لمن كان التقدم في حكايات سورية المجوفة حيث كان النفوذ الاشوري قوياً وقديماً . واذا سلمنا بوجود نفوذ بين اشور وسورية العربية لا يمكننا ان ننكر مع ذلك ان لاسم وحكاية بعل صفات اولية اخص بفينيقية منها باشور . ومن التحقيق عن عبادة بعل وعشترت في هليوبول يعلم ان حكايتهما برمتها وطنية ومسحتها فينيقية خالصة لا اشورية لان فيها

من العوائد والاسرار مثل ما عند الفينيقيين وهياكل المدينة المرقومة مرتبطة اشد الارتباط بهياكل اليمونة واقفا وصور المعروفة بكونها فينيقية من غير ردّ

ان مجرى العاصي الذي يبتدئ فيا حوالي بعلبك كانت له حكايات تتفق اتفاقاً تاماً مع حكايات هذه المدينة . فان ايل جبل او هليوجبل سلطان حمص لم يكن الا الهاً شمسياً مخصوصاً بجميع صفات الحكايات الفينيقية . وكان هيكل حمص كهيكل بعلبك مفرداً للشمس . والاله اسيا الذي كان مستولياً على حماة يحتمل ان يكون نفس الاله بعل الذي عُبد في قرت حدشت باسم اشمون مصحوباً باللقاب الشمسية . غير ان الحكايات الخصوصية لهذه المدن ولارواد وطرابلس لم تتصل اليها واصكن لا سبيل الى الشك في انه كانت لها كسائر المدن اللبنانية تقاليدات خاصة بها عن الهتها وابطالها

هذا وان خاصات اله هليوبول الشمسي تبين ان البعل الذي كان معبوداً فيها له علاقة كبيرة بابلون الاله الشمسي عند اليونان . واخبر اصحاب الحكايات عن بعض امور من قصة ابلون قرروا انها جرت حوالي بعلبك في حمص او البقاع . وقالوا ان مرسيا احد النافخين الحاذقين بالشبابة بسبب ما كان عليه من الكبرياء دعا ابلون ليفاخره في النفخ بالآلة المشار اليها فقبل الاله دعوته وغالبه حتى غلبه ثم سلخه حياً عقاباً

له على قحتِه . والنهر الذي جرت على ضفته هذه الحادثة دُعي من بعدها باسم مرسيا . ولكن اهل فرجيية ادَّعوا انها جرت في بلادهم اما بلين فقد اخبر انه كان ايضاً في سورية المجوّفة نهر يسمى مرسيا يفصل فامية عن ولاية النازريين (١) وسترابون وبوليبي جعللا مرسيا بالقرب من خلقيس بلبنان التي هي غير بعيدة عن بعلبك في السهل الذي سمّاه اولها مَسِيّا او مرسيا (٢) ولا يمكن ان يكون الا ما هو معروف بالبقاع في ايامنا ان التين تيفون او اله الشمال المشووم له ذكر مستفيض في حكايات سورية المجوّفة بل الحكايات المصرية ايضاً . وانما جرت نكبتُه الهائلة بالقرب من بعلبك . ولعل هذا التين هو نفس قتن الذي قتله ابلون في صباه برمي النبال على شاطئ الارنط (العاصي) (٣) . ومهما كان

(١) ان هذه الحكايات بدأت بعد استيلاء المقدونيين على سورية . وقد بنوا بالقرب من فامية هيكلًا بيماً للشبابة على شواطئ النهر حيث غالب مرسيا ابلون . وكان في نية القديس مرقل ان يهدم هذا الهيكل فقتله عبدة الاوثان (٢) والى اليوم نهر في سفح لبنان الشرقي بالقرب من عين الجر يُدعى ايضاً مرسيا

(٣) ان اقليم الاسكندري يدعوتيفون بالشامي اشارة الى الاسم العبراني صفون الذي معناه الشمال والحني والمشووم . وفي القصائد

من هذا الامر فالمعروف ان تيفون لم يـُـكونوا يصـُـورونه دائماً بصورة
التنين وانما هو شخص متعدد عبـُـدته ام كثيرة فـُـصـُـورته كل منها بهيئة
فان اليونان زعموا انه جبّار وابن الارض والترتر (الجحيم) وجعل هوميـُـر
قبره في قيليقية ولكن الحكاية تجعل قبره في سورية المجوّفة

وفي الحكاية المصرية يجعلون تيفون عدواً للآسر
ويقولون ان هذا الاله الشرير قدم من سورّية وحارب آسر ولكنه
انهزم في آخر معركة وفرّ بعيداً عن مصر . وذكر بلوترك عن هزيمته
تقليداً يُشير حتى عند الوثنيين الى خروج العبرانيين من مصر وهذا
كلامه : واما الذين يخبرون ان تيفون بعد غلبته فرّ من المعركة
وركب حماراً ولم يُصب الا في اليوم السابع لهربه وانه انشأ في
ذلك الحين اورشليم واليهودية يظهر من امرهم انهم يسوقون الخبر الى
تاريخ اليهود »

وعاد تيفون الى وادي العاصي الذي كان قد سافر منه . لان
العاصي كان النهر المفرد له فانه هو الذي انشأه بواسطة تثنيات المتلوية
عند ما ضرب بالصاعقة فغار في الجحيم قال سترابون : « هنالك يجعلون

الهوميـُـرية ذكر ان ابلون قتل بسهم الحية فتن (التي كانت قد غـُـذت
تيفون الاله) ومعنى فتن بالفينيقي حية وافعى

حكاية تيفون الذي ضرب بالصاعقة ومقام الارعيين (الاراميين) الذين تكلمنا عنهم . وقيل ان تيفون كان تنيناً هائلاً فلما ضرب بالصاعقة ضربات هائلة هم ان يجد له كنفاً عميقاً يقيه منها ففتح في الارض اثلاماً غاية في الاتساع وهكذا حفر مجرى النهر وعند ما جهد آخر الجهد لينغوص في الارض فجر الينابيع حتى ملأتها ماء ودُعي النهر باسم تيفون . ولكن هذا النهر قد كان أفرد عند مصبه لابلون المنتصر على التين والاله الشمسي مثل بعل . وكانت له ايضاً بالقرب من انطاكية غابة دفني المشهورة ومحلها فوق اواخر تعاريج العاصي قبل ان يصب في البحر

وحكاية التين تيفون هي في ارجح الظن مصدر الخبر اخر غريب نقله سترابون عن بوصيدون بقوله : « اخبر انهم عثروا في سهول مقرة بفينيقية على حية ميتة شغل طول جثتها فدأن ارض . واما ضخامتها فشيء عظيم بحيث اذ وقف خيالان عن جانبيها لم ينظر احدهما الاخر . وفيها يمكن ان تبتلع به انساناً او حصاناً وكل فلس من فلوس جلدتها كان اكبر من ترس » . وعلى هذا فان قصة ذلك المسخ المسمى اجيس الذي يذكرون عنه انه كان يقذف من فيه لهيباً عظيماً اشعل به غابات لبنان حتى عم الحريق آسية باسرها واتصل الى الهند ما هي الا رواية اخرى عن التين تيفون

وقد أُخرجت حكاية تيفون بصورة أخرى فيما اخترعوه حديثاً عن بعض مآثر لديونيس الفينيقي ورفقائه وخصومه زعموا انها جرت على عدوتي النهر العاصي . فان بوسانيا يقول ان ارنط هو جبّار هندي او اتيوبي كُشفت جثته في تابوت طوله اكثر من احد عشر ذراعاً (٥ امتار ونصف آخر) لما ردم الرومانيون قسماً من مجرى العاصي ليتمكنوا من ركوب القوارب فيه الى حد انطاكية . وهذا الجبّار الذي اخبر عنه فيلسترات بان قامته ليست اثني عشر ذراعاً فقط بل ثلاثون (١٥ متراً) كان هائلاً مثل تيفون . وقد كسر على ضفة العاصي ذلك الجيش الجرّار الذي قاده ديونيس نحو الهند تعظيماً لمسيره الانتصاري في خلال فينيقية الغنيّة بالكروم . ولكن ديونيس ما عثّم ان استبدل تلك الكسرة بنصرة باهرة ودهور خصمه في العاصي حيث استخرجهُ الرومانيون من بعد مرور اعصار وقرون

هذا وان الحكاية الفينيقية لا تنسب لديونيس فقط الانتصار النهائي على عدوه ارنط ولكن ايضاً كثيرين من ارباب الحكايات قد سكتوا بالتام عن فراره من وجه ارنط . لان ارنط في زعمهم جاء من الهند ليرد غارة ديونيس في صحبة سندس هر كل . غير ان هذا الجبّار العظيم ما هو الا نون اعني هندياً مثل مُرة وسائر رؤساء جيش درياد الهندي . وزعم ديودور انه مرّ ان ملك الهند اشرف الذبائح التي ذبحها

ديونيس . ولما وقعت الواقعة بين ارنط المذكور وديونيس طعنه ديونيس برمح المكنف باغصان العاشقة واوراقها فكسر شكة سلاحه ومن يأسه انتحر بسيفه وتدرج في الارنط الذي سمي باسمه . وقامت الجنيات المائة بحفلة مأتمه ونقشن على قبره هذه الكلمات الآتية : هذا ضريح ارنط زعيم الجيش الهندي اهان ديونيس وانتحر »

فالناتج من هذه الاختلاقات ان ديونيس كان عندهم في اواخر عهد الوثنية بمثابة زوس او يويتر بطل الحكايات القديمة في سورية المجوفة . وعليه فلم يتغير من هذه الحكايات الا الاسم واما جوهرها فبقي على ما كان . وقد ذهب الفلاسفة المحدثون اتباع افلاطون والشعراء وبذلوا آخر ما عندهم من الجهد لتحسين الحكايات الوثنية وجعلها رموزاً علمية ليقاوموا بها الديانة النصرانية المنتصرة فذهب سعيهم عبثاً

وكانت دمشق في سورية من اخص المراكز التي استحكمت فيها عبادة ديونيس كما رأيت ولهذا افتخرت بانها سمت ملكها انطيوخوس الثاني عشر ديونيس الجديد كما كانت تسمي بذلك سابقاً ملوكها بني هدد

ألا ان الحفلات الحلاعية التي كانت تقام لهذا الاله الخمري انما كانت تجري على الخصوص في نواحي بعلبك اي في السهول المتسعة

الخصيبة من سورية المجوفة حيث كان كرومه وقصره . قال نون : ان ديونيس اسكر من ثمرته الشريفة اهل الناحية باسرها حتى ثنيات السهول الخصيبة التي يشرف عليها لبنان العبوس . ولما رأى منزل عشتريت في اعراسها انشأ من كرومه غابة ملتفة وقدّم لادوني وقيشارة هدية من اغصان واثمار الدوالي التي كان قد برأها يا آلهات الطرب اللبنانية غنينَ لنا في هذا السهل القريب من بيروت ملك الغابات منظومة اميمون (لقب بيروت) . « والحرب المتبددة في الوديان والروابي المحيطة بسهل البقاع تدلنا اليوم ايضاً على ان ديونيس كان اكبر ابطال هذه الاماكن في عهد سقوط الوثنية

ثم ان ديونيس الذي اخبرنا عن مآثره قد مُزج في الحكايات المستحدثة بدامور اله الحكايات الوثنية القديمة في فينيقية اعني به ابا هر كل ملقرت . ودامور هذا اوتاميرا يذكر اسمه بثمر او شجر النخل الذي هو عندهم رمز الى سلطنته الفينيقية والسورية والعربية رمز بدله اليونان في عبادتهم لديونيس بثمر واغصان الدوالي ولا شك في ان النخل كان اول صفات هذا الاله كما كان حقيقةً رمزاً الى فينيقية القديمة وبلاد الهند والعربية وشجرة عشتريت الممتازة واسارة الى الحياة وتجدد الولادة للحياة في العبادات الفينيقية

حكاية فينيق = وهذه الامور تناسب كل المناسبة لحكاية

ذلك الطير المشهور عند الاقدمين باسم فينيق او النخل والذي كان يُجىء الى هليوبول فيموت بها ثم يحيا

ولكنه مع وجود هذه العلاقات الظاهرة مع فينيقية جزم اكثر كتبة الحكايات بان اصل قصة فينيق من مدينة هليوبول المصرية الا ان الدلائل متظاهرة على ان مصدرها من هليوبول الفينيقية . ومن الاكيد انه كان للمصريين طير وحيد مثل فينيق يسمى في قلمهم القديم بئو او ونو وعودات هذا الطير العجيب وموته ثم حياته لا تفترق عندهم عن حكاية فينيق

فالراجح اذا ان الاصل الاول لهذه الحكاية كان اجنياً عن مصر وانه نُقل اليها مع اخص مناسباته من فينيقية حيث كان يمكن ان يكون اشارةً اما الى النخل واما الى تجدد الزمن المتصل او الى دوران الشمس واما الى التناسل الطبيعي واما الى قصة ادوني وهركل اللذين عادا الى الحياة بعد موتهما . فضلاً عن ان اسم فينيق الذي سُمي به هذا الطير في جميع الاماكن ما عدا مصر ومذاهب بعض الاقدمين تثبت هذا الرأي وتسوغ لنا الجزم بكون مركز هذه الحكاية في هليوبول من سورية المجوفة

وقد لخص القديس هيرنيم حكاية فينيق كما كانوا يخبرونها في سورية بالكلام الآتي : « ان فينيق طير يعيش في الهند ولكنه بعد خمسين

سنة من حياته يحجى ليجمع طيوب لبنان ليصنع منها بعد ذلك عشا ولهذا يظهر لكاهن هليوبول الاعظم في شهر فرمنوت او فرموت « ويغطي الكاهن حينئذ هيكل الاسرار ويلقى فينيق عليه طيوبه الممزوجة بالعنبر الجذاب (الكهربائي) وعند شروق الشمس يخفق فينيق بجناحيه فيلتهب العنبر بواسطة اشعة الشمس وتشتعل الطيوب فتحرق فينيق . وفي الغد يرون دودة متولدة من رماده وفي اليوم الذي بعده ينبت للدودة اجنحة وفي اليوم الثالث يعود الى طبيعته الاولى ويطير الى وطنه »

وذكر تاقيت ان ذلك الطير رؤي حقيقة في السنة الرابعة والثلاثين لطيبار . وتكلم عن ظهوره ايضا كثير غيره من كتبة الوثنية ولا شك ان هذا الطير لم يره احد ولكنهم كانوا يذكرون عنه انه بكبر النسر وان رأسه مزين بطرة ريش وعنقه مكثف بريش ذهبي وريش ذنبه منه ابيض ومنه احمر قاني وعيناه كأنهما شهابان لامعان

واصحاب التلمود يعتقدون ايضا هذه الحكاية ويوردونها ممزوجة بخرافاتهم قال الرابي اشعيا : ان فينيق طير يعيش الف سنة وبعد مرورها ينبعث لهيب من عشه فيحرقه . ولكن يبقى فيه بيضة تخرج منها بعد قليل اعضاؤه ويعود الى الحياة . . . وهذه القيامة أعطيت لفنيق من عند الله لانه كان الطير الوحيد الذي أبقى على حواء ان يأكل من الثمرة المحرمة

اما آباء الكنيسة وغيرهم من الكتبة حتى القرون الاخيرة فقد جعلوا لهذه الحكاية شهرة عظيمة لانهم قدّموها برهاناً على اثبات قيامة الموتي . وكانوا يعتقدون ان ما ذكرنا عن فينيق هذا في شأن موته وقيامته الغريبة كان يجري في بعلبك مرة او مرتين في كل الف سنة حيث كان يرتقي الخطب العطري ارتقاءه عرش الشرف والخلود فتحرّقه اشعة الشمس على مرأى من العظماء والكبراء والاحبار والكهنة وعدد لا يحصى من الشعوب المتقاطرة لمشاهدته من جميع جهات اسية . ولا يلبث قليلاً حتى يحيا ثانية من رماده ويطير مجدداً شبابه السماوي (١)

ولا مرء ان هذه القصة مثال بهي على القيامة الموعود بها في اخر الايام . وقد بادر آباء الكنيسة الى قبولها من الوثنيين الذين ما كانوا يرتابون فيها ليقاتلوهم بسلاحهم ويفهموهم تعليم النصارى عن قيامة الاجساد

(١) ان الذين ذكروا حكاية فينيق كمثّل لقيامته الموتي هم اقليم الاسكندري واوريحان وترتوليان والقديس كيريل الاورشليمي واوساب والقديس غريغور النزيثي والقديس ايفان والقديس سينااس والقديس هيرونيم والقديس امبروس ولكنت . ومن الوثنيين بلين وسينيك وتاقيت وميلا وسولين وفيلسترات وليبان وغيرهم

والحاصل ان حكايات وتعاليم آسية التي اخترعها الكنعانيون قد انتشر معظمها في بلاد اليونان وسائر المغرب بواسطة تجار فينيقية ومستعمراتها. ولو شئنا ان نأتي بالتفصيل على ما كان للفينيقيين المذكورين من النفوذ في الحكايات القديمة شرقاً وغرباً لطال بنا المجال غير ان ما قد ذكرناه في هذا الشأن واف بمقصودنا. ولكننا نضيف الى ما تقدم ان الفينيقيين قد بثوا في المغرب حكايات مشهورة مستعارة من الكتاب المقدس مثل حكاية الثعالب التي كانوا يركزونها ويعلقون في اذنانها مشاعل موقدة. وحكاية فيليمون وبوقيس وحكاية الشيخ هيرية الذي زاده المشتري وعطارد وحكايات هر كل وفرسي وياسون الذين ابتلعتهم المسوخ الجحريه ونجوا منها سالمين وغير ذلك من الحكايات التي ذكرها اوفيد وغيره

ومن المحقق ان فينيقية القديمة اصابته منزلة رفيعة في التمدن الاول. فلو انها حافظت على صحة التقليدات الاولى ونشرت تعاليم الحقيقة الخلاصية لكانت منزلتها ارفع الا انها بدلاً من ذلك قد بثت في كل مكان حكايات شهوانية وعبادات مفسدة تنصب الاختراع حقيقةً والشهوة ديناً كرامةً لالهة تستوجب كل هزء واستحقار. ولكننا مع ما رأينا للفينيقيين من الاضاليل والامور المنكرة نتعزى لما انهم قد بثوا بين الامم البربرية بعض تقاليد بل بعض معتقدات مستعارة من شعب الله

وعلى ذلك فانهم تسببوا مع نشر حكاياتهم في حفظ هذه التقاليد
الالهية التي كانت في الاصل شائعة بين جميع الامم وقد وُجدت في
جميع جهات الارض مع اختلاف قليل او كثير

الفصل الرابع

في

الاصول الارامية

ان ما ذكرنا من الحكايات والتقاليد العارية عن كل حقيقة
ونقد ولو قبله هيرودوت ابو التاريخ مع غيره بكامل التصديق والثقة
لا يصلح مطلقاً ان يكون اساساً حقيقياً تاريخياً. فان اهل التاريخ لم
يتصلوا الا بعد البحث العنيف والاستقصاء المديد الى ان يفرزوا ما كان
في الاخبار القديمة مجرد اختراع عما هو صادق وحقيقي

ولما اكدت مناصبة النصرانية للوثنية فوز الحقيقة الموحاة قررت
ايضاً هذا التقدم النهائي. وابجاث كبار المؤرخين في شأن الحكايات
قد اقلت انواراً ساطعة على اخبار العهد القديم

نسلم بان هذه الحكايات تشير بواسطة الاشخاص الذين تخبر
عنهم وبواسطة المآثر التي تنسبها اليهم الى عوائد اللبنانيين في القديم

منذ عهد نشأتهم . لان الذين وضعوا هذه الاختلاقات كان ينبغي عليهم لاجل ان يجعلوها مقبولة ان يخرجوها مخرجاً يوافق افكار سامعيها ولما كانت هذه الاخبار معدومة من كل سند وبرهان وشهادة حقيقية ترفعها الى مقام الحقيقة التاريخية لا يمكن ان يقبلها الرجل العاقل كحوادث صادقة اما قبول الشعوب القديمة لهذه الحوادث وتصديقها فلا يصلح لنا حجة لقبولها فان قبولهم لها كان مجانياً من غير برهان

قال بعض العلماء ان كل حكاية من هذه الحكايات وجد لها اساس حقيقي ثم اضاف اليه ارباب الاخبار ما عن لهم وحسنوه بما رأوه موافقاً

الّا ان هذا الرأي مردود فلو افترضنا ان الحكايات ممتزجة بحوادث صادقة واختراعات تخيلية لزمنا في هذه الحال واسطة أكيدة لنميز الحق من الباطل والحال انه من المستحيل بدون افادة تاريخية وضعية ان نحصل على هذه الواسطة التي تحقق لنا صدق الحوادث وتفرض الحقيقي من الغير الحقيقي وبدون ذلك يكون كل شيء منها مزنوناً بعدم الصدق

وعلى ذلك لا يمكننا ان ننسب لحكايات لبنان ادنى منزلة تاريخية ولا ينبغي ان نشغل في ايراد الحوادث بتعدد الشهادات ولا ان نعين مدات ولا نوقت اوقاتاً ولا نقرر اصولاً احتمالية قبل ان

نتحقق الحوادث التاريخية الثابتة. وبدون ان نضع اولاً واسطة تبين لنا ما في هذه الحكايات المستخرجة من الامور الحقيقية لانتصن مطلقاً من استخداما بنجاح اكيد اذ انه لا يرفع قطعاً بناء تاريخي على اساس رمل متحرك

ومثل هذه الاخبار تكفي للاتيان بتخمينات تحتل الصدق ولكنها لا ترتقي اصلاً الى بيان الحقيقة عن زمان الاشخاص والحوادث ولا عن اصول الشعوب والمدن ولا عن سطوتهم الاولى ولا عن اسباب واميال المؤسسين

وهل يستفاد من كبار مؤرخي بلاد اليونان ورومة افادات اوضح فيما يتعلق بازمان الشرق القديمة ؟ كلاً فان هؤلاء المؤرخين لا يختلفون بهذا الامر عن ارباب الحكايات ولذلك فان الشرقيين قد خطؤوا وهم وعنفوهم على جهلهم المطبق فيما يتعلق بتاريخ شعوب آسية القديمة

وقد لخص يوسف المؤرخ تعنيف اهل الشرق لهؤلاء المؤلفين بقوله : « من العجب ان بعض الناس يظنون انه يكفي لاجل معرفة الحوادث القديمة تصديق اليونان من دون التفات الى ما يقوله سائر الشعوب والحال ان الامر بخلاف ذلك لانه لا بد لاجل صحة الحكم على الامور ان ينظر اليها في حقيقتها لا في آراء مشتبهة ليس لها من اساس

وفي التحقيق ان كل شيء هو حديث عند اليونان وكل شيء عندهم
كانه من حوادث امس فان تاسيس مدنهم واتقان الصنائع ووضع
الشرائع كل ذلك جديد عند هذه الامة

« وقد اضطروا للاقرار بان المصريين والكلدانين والفينيقيين
فضلاً عن الاسرائيليين عكفوا قبلهم بزمان طويل على حفظ الحوادث
التي تلاحظ امهم . وان جودة هواء بلادهم وافقت غيرتهم على ان
لا يدعوا شيئاً يدرجه النسيان من الفعال العظيمة في تاريخهم وحافظوا
على الكتابات العمومية التي كتبها احذقهم واحكمهم . اما بلاد اليونان
فبعكس ذلك كانت قد أصيبت ببلايا كثيرة محت ذكر ماضيها وفي
مدة هذا التجدد المتصل قام في اعتقاد كل مدينة منها انها اول الشعوب
ومع ذلك فما هم جميعاً الا قوم جدد ولم يعرفوا الكتابة الا متأخراً
لان الذين عرفوها منهم يفتخرون بانهم تلقوها عن الفينيقيين بواسطة
قدم . ولكن لا يمكنهم ان يُظهروا لا في هياكلهم ولا في سجلاتهم
العمومية اثرًا لشيء من الكتابات المؤرخة في ذاك الوقت . بل ايضاً
يُشكّ فيما اذا كانوا بعد ذلك بزمن طويل اي عند غزواتهم لمدينة
تروية يعرفون استعمال الكتابة . . .

« فمن لا يرى اذاً بطلان دعوى هؤلاء اليونان الذين يجسرون
على الافتخار بانهم هم المنفردون بالاطلاع على الامور القديمة وان ليس

من احد يستطيع ان يقدم عنها للعموم تاريخاً صادقاً حقيقياً إلا هم
هذا فضلاً عن انه يتضح من كتاباتهم انهم لم يخبروا بشيء صادق ولم
يأتوا إلا بتخمينات اختلقوها كما تثبت ذلك انتقاداتهم على بعضهم
وما لهم من الآراء المتناقضة في الامر الواحد . لانه ليس بين ايديهم
شيء من الانباء القديمة يؤيد وجه الحقيقة لطالها ويكذب منكرها

« اما غاية الذين عنوا منهم بالكتابة فلم تكن غيرة على اثبات
الحقيقة وان كانوا قد نادوا بذلك وطنطنوا اذ لم يقصدوا إلا ان تنتشر
لهم سمعة في اجادة الانشاء ويفوقوا جميع من تقدمهم فيه

» ولهذا السبب ملأ البعض منهم كتاباتهم بالحوادث الاختلاقية
وافرغ آخرون مجهودهم في التزلف الى اهل المدن والحكام اكتساباً
لرضاهم وطمعاً في نعمهم وكثير لم يعنوا إلا بانتقاد تصانيف الآخرين
والطعن فيها آملين بذلك ان يبنوا لهم مجداً على خراب مجد اقرانهم .
اما ان ذلك ليهدم سنة التاريخ الاساسية التي لا تتخذ سلطتها لتحقيق
الحوادث إلا من اتفاق الشهادات ؟ ومثل هؤلاء المؤرخين يزعمون انه
كلما قل اتفاقهم مع غيرهم كانوا بمقدار ذلك احق واصدق .

« فإذا لو سلّمنا اختياراً لليونان بالسبق في اجادة الانشاء وحسن
البلاغة لا نسلم لهم مطلقاً بصدق التاريخ القديم وخصوصاً بصدق
الحوادث التي جرت في بلادنا . . . لانهم لم يأخذوا القراءة ومبادئ

الحكمة ولاسيا صناعة ينقل الحوادث العمومية الى الاعتبار الا
متأخرًا عند مخالطتهم الفينيقيين . « (١)

وهذا الحكم على كتبة اليونان للتاريخ القديم مهما ظهر شديدًا
هو قريب من قول الرومانيين الذين كانوا يقضون العجب من الفصاحة
اليونانية لان كيكرن قد طعن اشد الطعن في مكر اليونان (٢) وقال
سلست ان مؤرخي اليونان يرفعون ابطالهم بمقدار ارتفاع عقولهم في
طرق البيان (٣) . وقال تاقيت انهم لا يستحسنون الا اعمالهم الخاصة
(٤) . وسامهم بلين القوم الفخر بما ليس عندهم (٥) وعنفهم
ككونتليان على انهم يستجيزون في التاريخ الجوازات الشعرية . وقال
يوقنال ان كل ما كتب اليونان في تاريخهم هو محض اختلاق
وهل المؤرخون الرومان انفسهم يوثق بهم فيما يتعلق بالتاريخ
الشرقي في الازمنة القديمة ؟

ففي الجواب على ذلك نكتفي بالتلميح الى الحكايات المستحيلة
التي اخبر بها يوسفين ويوقنال وكونتليان وتاقيت عن الشرق القديم

(١) قلاص يوسف ضد ايون ١ و ٢ و ٣ و ٥ و ٦

(٢) في محاماته عن فلاك (٣) كاتلينا ٨

(٤) تاقيت في تاريخه ٨٨ : ٢ (٥) بلين ٣ : ٦

خصوصاً عن اليهود اذ مزجوا تاريخ الآباء العبرانيين بتاريخ الهتهم
وتاريخ ملوك سورية فضلاً عن انهم لم يتكلموا عن الشرق الا اخذاً
عن اليونان واليونان لم يعرفوا من الشرق الا بلاد مصر وكانت معرفتهم
بهذه البلاد قاصرة ايضاً

وليس بودنا الا ان نبني اولاً اساساً ثابتاً على الشهادات الوطنية
الشرقية لكي نجني بواسطتها فائدة من الانباء الغربية او نستعين
بالاستدلالات التاريخية والتخمينات وربما تخلص لنا منها افادات
صادقة او قلما يكون قريبة من الصدق . وما الانتقاد في التاريخ لدينا
الا البحث الصرف عن حقيقة الامور ولهذا فاننا لا نعتبر الانتقاد الا
اذا كان القصد منه الكشف عن الحقيقة وتمييزها من الباطل . فعلى
المنتقد في المسائل التاريخية ان لا يتعرض للخطا الانبذه ولا يذكر
الشر الا ليصل الى الخير ولا يبين منهاجاً سيئاً الا بقصد اتباع
المنهاج الحسن . فهذه هي اذاً واجبات المؤرخ الصادق وعليها تجري
واليها ننحو وجل قصدنا بل غاية اعمالنا وحياتنا حب الحقيقة والبحث
عنها واظهارها برونقها والمدافعة عنها واقناع الجميع بها اذا امكن
الامر

ومن العلماء في هذا العصر من غشت الاوهام والمعارف الناقصة
على بصائرهم فانكروا صدق اخبار الكتاب المقدس الذي وضحت

حقيقته من غير ردّ وصدّقوا بعض نصوص من مؤرخي الرومان واليونان الذين ابنّا لك جهلهم فيما يتعلق بتاريخ المشرق وبعض اصول سامية مشتبّهة في أكثر الاحيان او بعض آثار مشكوك فيها لا يستطيع المتكلم عنها الى الان غير حدس وتخمين . أمثل هؤلاء بحثوا عن الحقيقة بحشاً صادقاً ام ليس انهم دفعوا نفوسهم الى علم خادع غرار ونكبو عن النور ليمشوا في الظلام وعدلوا عن اليقين لا ثبات غير اليقين ؟ ولهذا فاننا سلطنا مسكناً مخالفاً لمذهبهم هذا في ابجاثنا عن تاريخ لبنان وجعلنا الكتاب المقدس اكبر دليل في كل مسألة امكن ان يهدينا اليها بنوره الفائق كل نور ولا سيما فيما يلاحظ القرون الاولى . فهناك نجد عن القرون المشار اليها ما يعزّ علينا ان نجده في محل آخر

ومما يسرّ كل مسيحي ان جميع ما اتى العلماء من الابحاث التي كان اكثرها عدوانياً كما نتحقّق مراراً فيما يجي ادى الى تقرير شهادة ساطعة للكتاب . وسنستعين ايضاً ببعض فقر من التواريخ الوطنية النادرة الوجود التي سلمت لحسن الحظ من الضياع والتلف . وبما جمعه المؤرخون المحدثون من الآثار والكتابات والمسكوكات والتقليدات والشهادات الثابتة . وكل ذلك اذا لم يكشف لنا عن حقيقة اصول لبنان كشفاً شافياً فانه يبين قلما يكون اموراً نفيسة معتبرة . وفيه نجد اساساً يبني

عليه التاريخ الصادق واركاناً ثابتة نتقوى بها على اكمال صنوف كثيرة من النقص في تلك العصور بواسطة الاستدلالات المنطقية والاستقراآت العقلية . ولما كانت المدة التاريخية التي ازمعنا الكلام فيها لا تكحل العين الا بانوار ضعيفة لم يكن فيها مجال امين للتخمينات الاتفاقية ولكننا نأمل بمساعدة تلك الانوار ان نشرع في البحث عنها من غير مثار ونخوض فيها بما يلزمها من الحرص الذي يؤمننا من الخلل

فلنأخذ الان في الخبر الذي جرتنا الى وضع هذه المقدمة قياماً بمجد الله الذي دبرت عنايته جميع الحوادث
ان نص الكتاب المقدس لا يكشف قبل الطوفان كشفاً وافياً عن تقليدات لبنان المتعددة بحيث لا يستطيع ان يجعل شيء منها في مقام الحقائق التاريخية . ثم ان البشر من بعد الطوفان اخذوا يتقدمون شيئاً فشيئاً حسب ما اضطرهم غزو عدوهم الى شرقي ارض الميعاد (١)

(١) التكوين ١١ : ٢ : « لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في ارض شنعار فاقاموا هناك » فان هذا النص وغيره من ترجمات الكتاب المقدس تبطل على ان البشر جاؤوا من شرقي شنعار لاجل ان يسكنوا في جبال آسية الداخلية . والمشتغلون بالمباحث الشرقية في ايامنا يقبلون

حتى الى سهول شنعار او بابل (١) بين دجلة والفرات . غير ان هذه الجهة ما عمت ان ضاقت على هذه العشائر الاولى . فعزموا وفقاً لاسر

هذا المعنى بكل طيبة خاطر ليثبتوا ان الشعوب الاولى بعد الطوفان رحلت من جبال الهند . غير ان النص العبري يُخلص منه معنى اوفق للتقليد العمومي الذي اشرنا اليه في الفصل الثاني . فان فعل « نسع » بالعبرية معناه : إنتقل من مكانه او ذهب او سافر فهو بمعنى نسع العربي اي ذهب في الارض . اما الحرف (من) فمدلوله مبهم ويحتمل ان يكون معناه « من او الى » . وعلى ذلك يكون المعنى ايضاً : « لما رحلوا الى المشرق او نحو المشرق » . والذي يُثبت ان (من) العبرية تأتي بمعنى (الى) هو ان الكتاب المقدس استعمل بعد قليل (التكوين ١٣ : ١١) نفس هذا التعبير بمعنى ارتحل صوب المشرق بقوله : وارتحل لوط الى المشرق : حيث عبّر عن (الى) بن . والحال انه يتكلم هنا عن لوط الذي ارتحل جهة سادوم واعتزل ابراهيم وذهب الى وادي شرقي ارض كنعان حيث مكث ابراهيم . وعلى مثل ذلك اذا فان ابناء نوح في ذهابهم الى المشرق وسفرهم من حوالي الارض المقدسة وصلوا الى المكان الذي بُني فيه برج بابل . وهذا المعنى يقوي التقليد القائل باستقرار السفينة على لبنان الشرقي . والحاصل ان المعنى

الله كما يظهر ان يتفرّقوا في العالم . ولكنهم قبل ان يتفرّقوا احبوا ان يظهر وا مقدرتهم باتيان عمل جنوبي وشرعوا في ان يببنوا برجاً يبلغ الكواكب اما الله فلكي يخزي كبرياءهم ويسهل تفرّق الشعوب عاقبهم بتبليبل اللغات (٢) وحينئذ تفرّق ابناء نوح بعشائرهم وتقاسموا العالم فسكن ابناء يافث بلاد الهند واوربّة واولاد حام افريقية اما ذرية سام

الاول لا يفترق في الحقيقة عن هذا بما ان العبرية ايضاً كانوا يطلقون اسم المشرق على الجهات التي تتاخم الارض المقدسة نحو الشرق . وانما سافر اولاد نوح من هذه البلاد المتاخمة للاردن حتى وصلوا الى ارض شنعار

(١) يراد بشنعار بلاد بابل ولو كان العرب يطلقون اليوم هذا اللفظ على بلاد النوبة ومصر العليا اي اتيوبية القديمة وطن كوش او الكوشيين . وان كلام فلاث يوسف الذي يسميها شنعار بابل (في الآثار اليهودية ١ : ٤ و ٧٣ : ١٢) والترجمة السبعينية في جملة مواضع (اشعيا ١١ : ١١ - زكريا ٥ : ١١) والترجمة السريانية في جميع نصوصها . ودانيال (٢ : ١) لاتدع وجهاً للرب في ذلك . والحاصل ان شنعار كلمة سامية يمكن اعتبارها بمعنى نهريْن او ما بين النهرين

(٢) التكوين ١١ : ٧ و ٨ و ٩

فاقامت بأسية . وهوؤلاء هم على ما هو معروف اصول الانسان الثلاثة
الكبرى التي تألف منها البشر وعمرت المسكونة (١)
ان ارام خامس اولاد سام سكن في جهة آسية المتقدمة التي تمتد
من دجلة الى البحر المتوسط ودعيت باسمه الجهات التي سُميت فيما بعد
سورية واشور وما بين النهرين وارمينية

ولكن ليس من مقصدنا ان ندون تاريخ هذه البلاد المتسعة ولا
ايضاً ان نكتب اخبار الجهة التي سميت ارام على الخصوص وانما سنقصر
مباحثنا التاريخية على جبال لبنان ووهاده

ان عشيرة ارام التي عمرت بلاد سورية لم تقضِ زمنًا طويلاً
كغيرها من العشائر في قطع البلدان الواسعة حتى تستقر في موطنها
الجديد تحت سماء لبنان الصافية وتلجأ الى سفوح رباه الهيوبة . فان لبنان
اذا صدقت التقاليدات التي اوردناها لم يكن ارضاً جديدة في عين اولاد
نوح . لان الاب ارام وهكذا سام في الراجع كانوا عائشين ايضاً عند ما
سكنت ذريتهما هذه الارض المباركة ارض الآباء الاولين ولا يبعد ان
يكونا قد بادرا كلاهما الى الإقامة بارض الميعاد هذه (٢) . ولما كان

(١) التكوين ١٠

(٢) ذهب قوم الى ان الاراميين ايضاً جاؤوا من سواحل البحر

أكيداً ان ارام دُعيت باسمه جميع الجهة المشار اليها كان ذلك ممّا يؤيد
ظننا ويدينه من الصحة (١)

هذا فضلاً عن ان ابناء هذا الاب الاربعة تركوا آثاراً ظاهرة
تدل على سكناهم فيها لان عوصاً اقام بناحية عوص وهي ارض مملكة

الاحمر . وحجتهم في ذلك آية من سفر الملوك الرابع (١٦ : ٦) تخبر عن
الملك رصين انه افتتح آية واستردّها لأرام . ولكن حجتهم هذه ضعيفة
اذ يكفي لصحة الآية ان تكون المدينة المذكورة قد صارت في حوزة
الاراميين وقتاً ما . ولاسيا لان متن الآية الاصل يدل على انه اضاف
آية الى ارام وبالنتيجة لا يفترض تملكاً سابقاً لها

(١) قد بينا في الفصل الاول من كتابنا ان هذه الناحية لم تسم
ارام لارتفاعها وعلوها وانما سُميت بذلك نسبة الى الاب ارام

(٢) عوص هو اسم بكر ارام واسم وطن ايوب الصديق . ويتوهم
الى الان كثير من العلماء انه الاسم القديم لغوطة دمشق وهوران
الى حد الادومية . ولفظة غوطة التي تسمى بها وادي دمشق توافق
كل الموافقة للاسم العبراني من حيث المعنى (اي الارض الندية الخصيبة)
واللفظ (ذكر ذلك جسين) واما السبعون مترجماً ما ابقوا وجهاً للريب
في ان ارض عوص كانت فيما حوالي دمشق . لانهم يسمونها العوصية

دمشق وحوران (٢) وحولا في الحولة (٣) وجاثر في بلاد جشور (٤)

(اوسيتيس) ويجعلونها على تخوم الادومية والعربية . والقديس افريم بموجب هذا التقليد يجعل ارض عوص فيما حوالي البثنية القديمة (في شرح كتاب ايوب) . واما القديس هيرونيم فيجعلها بالقرب من حرمون في ارض الجولان (المسائل العبرانية الفصل ١٥ في التكوين ٣٠) وارميا (في مراثيه ٤ : ٢١) يقرنها بالادومية

(٣) ان اسم الحولة كما مرّ لنا هو قديم . وقد ذكره فلاف يوسف في جملة الاقاليم المعطاة لهيرود . وليس من مانع يمنع نسبته الى الاب حول

(٤) كانت مملكة جشور في جوار جبل ؟ جلعاد (؟ الصلت) (يشوع ١٣ : ١٣ - سفر الملوك الثاني ٣ : ٣ و ١٣ : ٣٧ و ١٥ : ٨ - سفر اخبار الايام الاول ٢ : ٢٣) . ومن حيث ان هذه الكلمة تعني في اللغات السامية الجسر قال قوم باشتقاقها من جسر الاردن الذي يسمى اليوم جسر بنات يعقوب او من جسر على النهر العاصي . ولكن جسر النهر العاصي بعيد جداً عن فلسطين فضلاً عن ان افتراض الجسورة على الانهار في تلك الاعصار المتقدمة هو افتراض مجاني من غير سند وعليه فان الراجع اذاً ان هذا الاسم مأخوذ من جاثر ابي القبيلة التي

وماش في جبال ميس (١) فقد كانوا من ثم آباء القبائل التي شغلت
أكبر قسم في لبنان تحت اسم الاراميين

نعم ان قوثيل ايضاً يدعى في سفر التكوين ابا السوريين وذلك
في الترجمة اللاتينية (٢) ولكن النص العبراني يسميه أبا ارام وهذه
العبارة يمكن ان تعني فقط انه كان له ولد بهذا الاسم . ولكن ان اصررت
على القول بان قوثيل كان ابا لشعب فانه لم يكن ممكناً ان يكون الا
جداً لقبيلة خاصة من الاراميين سكنت بعض جهات ما بين النهرين
وبالنتيجة ليس له علاقة مع الاراميين سكان لبنان

وهكذا يُقال عن اخويه عوص وبوز انها صارا ابوين لقبيلتين
صغيرتين اراميتين خارجاً عن لبنان . وبالْحَقِيقَةُ ان اليهو بن بركثيل
الذي زار ايوب في ارض عوص كان بوزياً الا انه كان غريباً (٣)

سكنت هناك . ثم ان المشابهة الواقعة بين بقية قبائل هذه الجهة من
حيث اصل تسميتها تقرب حدسنا هذا من الحقيقة

(١) يتكون من هذه الجبال القسم الغربي من وادي الحولة .

وهذا التقدير هو ولا شك ارجح من ان نقدر ان ذرية ماش اقامت
بجبال ماس في ماسية (Mésie) وهي قسم من بلاد السرب والبشناق

والبلغار (٢) التكوين ٢٢ : ٢١ (٣) ايوب ٣٢ : ٢

فهذه القبائل الخصوصية اذا لا تمنع مطلقاً ان يكون اكبر اصل
للاراميين او السوريين خصوصاً في لبنان هو ارام بن سام الذي
استولى على هذه الجهة بعد تفرق الشعوب اما بنفسه او بواسطة ابنائه
وقد تمكن ابناء ارام في تلك الارض المتسعة الخصصية التي قُدمت
لهم في بلاد ارام الحقيقية او سورية ان يمدوا الى بعيد خيامهم ومنازل
عشائهم من البادية في الشرق الى البحر الكبير في الغرب ومن تخوم
الكنعانيين صوب صيدون الى مضائق جبل الثور (طورس) في الشمال
وكان هؤلاء المهاجرون الجدد من الاراميين يتفرقون في ربي لبنان
ووهاده كلما كثرت عشائهم حتى ملأوا في قليل من الزمن جميع
جهات الناحية المذكورة . وكانت كل عشيرة من هؤلاء المهاجرين
تؤلف قبيلة خصوصية في الارض التي تستولي عليها وتشتغل بمجراتها
وكانت كل جماعة مستقلة بنفسها بسبب انفرادها عن الاخرى . اما
الاب فانه كان يترأس او يملك على عشيرته وعلى مجموع العشائر
المتسلسلة منها او المتصلة بها بنسب . والعلاقات الرابطة بين هذا الرئيس
الجديد والقبيلة الاصلية او قبيلة البكر كانت مقصورة عادة على
اتصالات اخائية واغاثة ايام الشدة . وعلى هذا المنوال نشأ كثير من
الممالك الصغيرة التي نجد آثارها في التاريخ . وحدود هذه الممالك المستقلة
لم تكن لتتخطى مطلقاً الى ما وراء السهول او الوديان التي كانت

تكتنف البيوت السحجة او خيام القبيلة . وكانت الرعايا منحصرة في قوم قلائل ينمي عددهم سريعاً . وجميع هذه القبائل المنفصلة على النوع المتقدم كانت مرتبطة بالجنسية العمومية بواسطة تقاليد يحافظون عليها بجرص عن وحدة ذريتهم واصلهم . ومن تلك الممالك الارامية التي نشأت اوانثذ في ارض لبنان لم يحفظ التاريخ الا ذكر ما يلي منها

١

مملكة دمشق (ارام دمشق) (١)

هي اسم مملكة بناها الاراميون امام الفرات ومن المرجح انها كانت اقدم ممالكهم وبسبب قدامتها فازت بالمقام الاول بين جميع

(١) دمشق تلفظ بالسريانية درمسوق و ~~فومسوق~~ وقال بعض العلماء انها مشتقة من ادم اي الارض ومن سق التي معناها الاحمر في السريانية . ولكن ارض دمشق ليست حمراء ولكنها اما بيضاء او سوداء . وعلى هذا نفضل تفسير من يقول ان دمشق مشتقة من دم شقه اي شرب الدم اي دم هابيل والقديس هيرونيم في تفسيره لسفر عاموس (١ : ٥) شرح اسم الدمشقيين بشاربي الدم اشارة الى اضطهادهم شعب الله . وقال في زكريا (١ : ٩) : (ان دمشق تُفسر

الممالك الارامية . وقد ذكرنا سابقاً وفقاً للتقليد وسائر انباء الكتاب المقدس ان عوصاً بكر ارام يُعتبر مثل مؤسس لدمشق (١) وكبرت هذه المملكة مع توالي الاعصار ولما وصلت الى عزّها وجاهها ضمت اليها اكثر الممالك التي تجاورها . على ان منظر الغور الذي نشأت فيه هذه المملكة من اعجب المناظر واعظمها في الشرق كله . فان ما فيه من السهول الفسيحة المخصبة التي تشقيها المياه الغزيرة من جميع جوانبها ويكسوها اغصان نبات وانضره هو اقوى داع بعث الاراميين الى اختياره محلاً لاقامتهم

ثم ان ما كان لدى الاراميين من اسباب الثروة رفعهم عاجلاً الى حالة راهنة من السعادة واصبحت مملكتهم على جانب عظيم من الفلاح والاقبال . فان كانت ارضهم اولاً ضيقة على نسبة عددهم فانها ما كذبت ان اتسعت الى ما وراء سهل دمشق وامتدت شمالاً الى

في لغتنا بشارب الدم او دم المسيح فيشار بالمعنى الاول الى شعب دمشق الدموي وبالتالي الى توبته من بعد ظلمه »

(١) راجع الفصل الثاني من كتابنا هذا . وعده القديس هيرونيم مؤسساً لمملكة دمشق ومملكة تراكونيت او ارض عوص (في التكوين

سهل حمص نحو تخوم ممالك حماة وصوبة وكانت من جهة الغرب داخلة في لبنان الشرقي الى حد ممالك البقاع. ويمجدها من ناحية الشرق البر الاقتر ورمال البادية وهي واصله من الجنوب الى حرمون الاكبر يمجدها ممالك معكة وجشور وباشان . لانه يوجد بجذاء حرمون ارض مجدبة ممتدة الى حد البادية وفاصلة سهل دمشق من الجولان وبلاد حوران هذه هي الحدود الطبيعية الفاصلة بين المملكة الدمشقية والبلاد الجنوبية . هكذا كانت مملكة دمشق الصغيرة منذ ايام تأسيسها او بعدها بقليل

٢

مملكة صوبة

كانت هذه المملكة على جنوبي ممالك الاراميين . غير ان الريب العظيم الواقع في الاخبار المتعلقة بها يمنع من ان نذكر لها حدوداً معينة والظاهر ان تخومها كانت ممتدة من شمالي لبنان الشرقي نحو التخوم الشرقية لحمص وحماة (١) الى حد ارض حلب (٢) ونهر الفرات .

(١) سفر اخبار الايام ٨ : ٣ و ٤

(٢) ان بنيامين التودلي (في رحلته ص ٥٤) اورد تقليداً يهودياً

يجعل ارام صوبة في حلب

وبمقتضى انباء الكتاب المقدس والاستدلال العقلي لا يبعد ان تكون هذه المملكة قد استولت على الارض التي قامت بها فيما بعد مملكة تدمر . لان الكتاب المقدس لما جعل تدمر من ارض حماة واصاف مملكة حماة الى صوبه بقواه (حماة صوبه) بسبب اتحاد تينك الملكتين في ذلك العهد دلّ بذلك صريحاً على ان صوبه كانت قريبة من حماة صوب المشرق حيث هي الى اليوم تدمر . وزد على ما تقدم ان سائر هذه الناحية لما كان مشغولاً بمالك اخرى كان هذا الموقع ممّا ينطبق فقط على موقع صوبه ومن حيث ان كلمة صوبه تدل على الموقف العسكري لا يمكن ان يصدق هذا المدلول الا على تدمر التي كانت في القديم موقعاً مهماً بل اضطرارياً بسبب الينابيع التي على طريق الجند في بادية سورية . وعلى ذلك تكون مملكة صوبه قد ضمت جميع ينابيع بادية ارام على تخوم دمشق وحماة ورحوب في شرقي لبنان

٣

مملكة حماة (١)

هي مملكة قديمة جداً واقعة في وادي العاصي وقد ذكرت دفعات عديدة في الكتاب المقدس حداً شمالياً لارض الميعاد . ولكن هل كانت

(١) ان حماة وبالعبرانية (حمت) لها معنيان حرارة الشمس لان

هذه المملكة ارامية ام كنعانية؟ تلك مسألة يُشكل حلُّها مع ما نحن عليه من قلة المعلومات فيما يتعلق باصل هذه المملكة. ورأي جمهور المؤرخين على ان مؤسسها حماة اخر اولاد كنعان (١) الا انه ليس من شيء يثبت ان مؤسسها كنعاني الا وحدة الاسمين. ولكن هذا البرهان ضعيف اذا عرفت ان مدينة اخرى حصينة في ارض الكنعانيين كانت تسمى ايضا بجمت او حماة ثم أُعطيت فيما بعد لسبط نفتالي (٢) وذكر الرّبيون انها نفس مدينة طبرية (٣) فلماذا والحالة هذه لا تكون المدينة الثانية التي أسسها حماة نظير قصبة لسبطه فسكنها ذريته في اول الامر. وان الاتحاد المكاني الذي حافظت عليه اولاً القبائل الكنعانية يدني هذا التخمين من الصحة اكثر من الاول ويسوغ لنا القول بان الحمايين توطنوا مع سائر الكنعانيين في التخوم الاولى التي عيّنهم لهم موسى. ولما كان معنى لفظة حمت المدينة الحصينة كان هذا المعنى مما يعني من الالتجاء الى اسم المؤسس بنفسه

فعلى ذلك قد دُعيت بهذا الاسم لا من اسم حماة بانهم بل من

(حما) اسم للشمس عند الشعراء (ايوب ٢٨: ٣٠ ونشيد ١٠: ٦ —
 وشعيا ٢٦: ٣٠) او محل حصين ومدينة مسورة (١) التكوين
 ١٨: ١٠ (٢) يشوع ٣٥: ١٩ (٣) يوناثان بن عزيال وغيره

تحسينها. ولكن الكتاب المقدس قد ترك لنا افادة نفيسة جغرافية تُعين الحدود الاولى للكنعانيين بعد تعداد قبائلهم قال موسى في سفر التكوين : وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وانت آتٍ نحو جرار الى غزة وانت آتٍ نحو سدوم وعمورة وادمة وصبوئيم الى لاشع (١) . فهذه افادة يقينية تعلمنا بان القبائل الكنعانية كان حدّها الشمالي مملكة صيدون واننا لنفضل هذه الافادة على جميع التخمينات ونظن ان مملكة حماة كانت ارامية من تأسيسها مثلما وجدها متأخرًا داود الملك . وقد اتحدت مملكة حماة فيما بعد بمالك الاراميين اتحادًا شديدًا كاتحادها مع اخوة من نسل واحد وعشيرة واحدة (٢) . وتسمى ايضا حماة صوبة اما لكونها حليقة لارام صوبة واما لاختلاطها بها (٣) . وهذه الدلائل تبدو لنا قوية جدًا لاجل الاقرار بان الاراميين كانوا المؤسسين الحقيقيين لمملكة حماة ولاجل ان نعتبر جميع الممالك الكنعانية التي قامت فيما بعد في القسم الشمالي من لبنان انما أُسست في عهد متأخر . ولما كانت مملكة حماة قائمة في مركز حسن وجب ان تكون من تأسيسها قد

(١) التكوين ١٠ : ١٩

(٢) ملوك الثاني ٨ : ٩ سفر اخبار الايام الاول ١٨ : ٩

(٣) ٣ ملوك ٨ : ٣

افلحت ومدّت حدودها الى اعظم قسم من وادي العاصي من الشمال الى مصب النهر المذكور ومن الجنوب الى تخوم ممالك قدس او حمص والبقاع ودمشق . وانما ينفتح سهل حماة عند منابع النهر العاصي التي تنجس من اللبوة ونبع العاصي في سفح لبنان الشرقي والغربي . وهناك ينبغي ان يكون المدخل او التخم الجنوبي لمملكة حماة المعروف في الكتاب المقدس بكونه حداً للارض الموعودة لشعب الله (١)

وكانت مملكة صوبة تحدها من جهة الشرق اما من جهة الغرب فكانت واصله الى البحر او واقفة عند جبال عكار والسلسلة القليلة الارتفاع الفاصلة بين وادي العاصي وساحل البحر ؟ المتوسط . وقد كانت هذه الارض الغنية تُعدّ دائماً كاهراء لسورية العليا

٤

مملكة حمص

كانت لحمص بنفس الوادي المشار اليه مملكة مهمة على تخم مملكة حماة وكانت ممتدة في القسم الجنوبي من السهل المذكور . غير انها وان كانت قد أسست في القرون القديمة كما شهد بذلك اميان مركاين (٢) فمن الراجح انها لم تكن موجودة عند ما خطط موسى حدود

ارض الميعاد ولم تكن تسمى في الاول مطلقاً باسم حمص . ويُستدل من الآثار المصرية انه كان في موقع حمص الحالي مدينة كبيرة وحصينة جداً يعدها المصريون نظير مفتاح لآسية المتوسطة ويعتبرها الاسيون مثل ترس قوي ضد الغرباء . وكان ملكها زعيم المحالفات الارامية التي كانت تنعقد دفعاً للاجانب . وهذه المدينة تسمى قدس اي المقدسة وكانت في القديم مركزاً دينياً وسياسياً معاً (١)

والكتابات الهيروغليفية تخبر انها كانت على شاطئ العاصي عند عطفته التي يدنو بها من حمص حيث كانت مياه الغزيرة جداً تنزلة خندق طبيعي يدفع هجمات العدو عن الاسوار . وهذا الاسم القديم لم يذهب ذكره تماماً لان ابا الفداء الحمصي الاصل وزكرياء القزويني سما باسم قدس البحيرة المتكونة عن النهر العاصي بين حمص وربة . وكانت هذه المملكة فائزة في ايام الحروب المصرية بقوة عظيمة وسطوة متسعة



(١) لا تخالف بين كلمة قدس وحمص لان حمص اسم للشمس

وقدس مدينة الشمس المقدسة

مملكة رحوب (١)

كان موقع هذه المملكة بحسب كلام سفر العدد (٢) عند مدخل حماة اعني عند التخم الجنوبي لهذه المملكة . ومدخل مدينة حماة المستفيض ذكره في الكتاب المقدس كان عند المخرج الشمالي للوادي العظيم الذي سماه يشوع والانبياء بالبقاع . وذلك الوادي الجميل الذي كان معظمه اوانثد مغمورًا بالمياه يسري بمضيق طويل حرج بين لبنان الشرقي والغربي الى ان يتصل بسهل حماة حيث يستأنف الجبلان الابتعاد عن بعضهما

وعلى ذلك تكون مملكة رحوب قد شغلت اكبر قسم من سهل البقاع المعروف عند الاقدمين بالسهل العميق او بسورية الجوفة بين لبنان الشرقي والغربي الى حدّ سفح جبل الشيخ وكانت عاصمتها مدينة بعلبك اللهم ان لم تكن تلك المدينة المشهورة مملكة كهنوتية مستقلة .

(١) ملوك ٦ : ١٠ و ٨ - قضاة ١ : ٣١ - ورحوب وبيت

رحوب كلاهما اسم لحل واحد او ان بيت رحوب اسم المدينة ورحوب اسم الكورة

(٢) العدد ٢١ : ١٨

ولفظه رحوب التي معناها الرحب والعريض والمتسع توافق هذا الوادي العظيم وتثبت ما ذهب إليه ظننا

غير ان كثيراً من آيات سفر يشوع (١) وسفر القضاة (٢) تجعل رحوب في ميراث سبط اشير. وكانت رحوب فيما بعد الجهة التي قامت فيها مدينة لايش او دان (٣) وذلك ممّا يدل صريحاً على ان ارض رحوب كانت صوب التحم الشمالي للاسرائيليين بالقرب من منابع الاردن

ومع ذلك قد يسهل التوفيق بين جميع هذه النصوص اذا قُدر ان المدن المختلفة المنفصلة عن ارض رحوب (وربما كانت تلك المدن من مستعمراتها) قد دُعيت باسمها. او اذا قُدر ايضاً ان مملكة رحوب كانت تشتمل اقله في بعض مدنها لاعلى البقاع فقط ولكن على الجبال القليلة الارتفاع التي تفصل في عرض نحو ٦٧ كيلومتراً هذا الوادي من وادي الحولة. وبهذه الطريقة نكون قد ذكرنا بكامل الدقة التي تستلزمها النصوص التاريخية تحوم هذه المملكة من مدخل حماة في الشمال الى مدينتي لايش ورحوب في الجنوب (٤). وليس في هذه المسافة

(١) ٢٨: ١٩ و ٣٠ و ٣١: ٢١ (٢) ٣١: ١

(٣) قضاة ١٨: ٢٨ (٤) يشوع ٢٨: ١٩ و ٣٠

التي تجعل عرض المملكة المشار إليها زهاء ١٣٤ كيلومتراً شياً من
الاستحالة والعلو إذا عرفت أنها كانت كذلك في أيام اقتدارها وعزها
آونة سميت بالمملكة الرحبية وخصوصاً إذا اعتبرت أن جودة تربتها
وسعت ثروتها وجعلتها مملكة زاهرة جداً. ومع ذلك فالراجع أنه في
مبادئ التاريخ كانت الممالك اللبنانية صغيرة جداً. وكانت الملوك إذ
ذاك كثيرة العدد كما كانت المشايخ في لبنان من زمن قريب

٧

مملكة معكة أو أرام معكة (١)

أسس هذه المملكة على رأي البعض معكة بن ناحور الذي ذكر
في الكتاب المقدس مع قموثيل أبي ارام أو السوريين (٢)

(١) تثنية الاشتراع ٣: ١٤ — يشوع ١٢: ٥ — ١٣ : ١٣
سفر الملوك الثاني ١٠: ٦ و ٨ — سفر الملوك الثالث ١٥ : ٢٠ — سفر
الملوك الرابع ١٠ : ٢٩ — سفر اخبار الايام الاول ١٩ : ٦ و ٧ . ومعنى
ارام معكة ارام المحصورة او المضيقة . وكان لمدينة آبل بيت معكة
اهمية عظيمة وذكرها الكتاب المقدس من جملة امهات مدن اسرائيل
بقوله : انت طالب ان تهلك مدينة بل أمماً باسرائيل (سفر الملوك الثاني

(٢) (١٩: ٢٠) التكوين ٢٢: ٢٤

ومن حيث ان كلمة آبل نجدها في اكثر الاحيان مضافة اليها كلمة معكة فذلك يحمل بالطبع على الظن بان موقع هذه المملكة انما كان في كورة آبل (ايلينة) التي وجب ان تكون من جملة المستوطنات الاولى الارامية . غير ان كورة آبل كانت بعيدة جداً عن تخم العبرانيين الشمالي الذي ذكرت بالقرب منه دفعات عديدة مملكة معكة وآبل بيت معكة (١) وعليه فلا يمكن بادنى وجه من الاحتمال تعيين موقع المملكة الموما اليها هناك . وقد اجمعوا اليوم على انه كان في سفح حرمون الاكبر

وهل كانت شرقي مملكة رحوب او غربيها فالجواب على ذلك ان مدينة آبل بيت رحوب التي هي نفس قرية آبل الحسائية (٢) الواقعة على ربوة مرتفعة في الشمال الغربي من سهل الحولة تدل على ان موقعها كان غربي رحوب . غير ان اسم بيت معكة المضافة اليه مدينة آبل يدل بمقتضى مصطلح اللغة العبرانية على قرب الاولى من الثانية وعلى ذلك امكن ان تسمى آبل باسم معكة اما لانها كانت واقعة مقابل ناحية

(١) سفر الملوك الثاني ١٠ : ١٦ — سفر الملوك الثالث ١٥ : ٢٠

(٢) وتسمى اليوم آبل القمح تمييزاً بينها وبين قرية اخرى تدعى

آبل الهواء تبعد عنها مسافة قليلة في ارض مرج عيون

معكة من غير ان تكون قسماً منها. او لانها كانت جزءاً منها بمنزلة
اقليم او مستعمرة قبل الفتح الاسرائيلي ولو ان الكنعانيين لم يزالوا دائماً
متغلبين على غربي حرمون

وعليه فان من ذهب الى ان موقع معكة في الجانب الغربي من
رحوب فلا اساس لقوله فان جميع الانباء تدل بعكس ذلك على
ان موقعها كان شرقي رحوب. والارض التي وراء لايش ودان تصلح
لان يكون فيها مدينة محصنة ومملكة صغيرة فضلاً عن ان معكة قد ورد
ذكرها مع الممالك الارامية الشرقية اعني جشور وباشان وارحوب (١)
ولم يذكر عن مملكة من الممالك في ذلك العهد الاول انها حلت ذلك
الحل الشهير. وعليه اذاً يمكن التخمين بالاحتمال الكلي ان عاصمتها كانت
بعل جاد او بعل حرمون الواقعة كما يُظن عند منبع الاردن الاكبر
وان هذه العاصمة هي التي صارت فيما بعد قيصرية فيلبس او بانياس

هذا وان الوديان الثلاثة الحرجة التي تلتقي بهذا الحل الضيق
بين الجبال المرتفعة هي مما يُشيرُ المحجب ويذكرنا باسم معكة الذي
تأويله الضيق. وتكوين هذه الارض يدل دلالة واضحة على ان المملكة
المذكورة كانت صغيرة قليلة الاتساع ومما يقوي رأينا هو ما ينجر عن

بني عمون انهم لما اصبحوا مكروهين عند داود استأجروا من معكة
الف رجل فقط مع انهم استأجروا من غيرها الى حد عشرين ألفاً (١)
وكانت حدود معكة ضيقة يتعذر ان تمتد إلا امتداداً قليلاً في سهل
الحولة الى حد اراضي رحوب ولايش التي تجاورها ولكنها كانت ممتدة
تبعاً لما فيها من الوديان نحو الشرق في الجبال التي تسمى اليوم جبل
حيش جنوبي حرمون حتى الى تخوم جلعاد وجاثر وطوب

٨

مملكة طوب (٢)

لا يعرف من هذه المملكة الا اسمها وقال بعضهم ان هذا الاسم
لا يدل على مملكة بل على ملك غير ان الطريقة التي اتى فيها الكتاب

(١) سفر الملوك الثاني ٦١٠ :

(٢) سفر الملوك الثاني ١٠ : ٦ و ٨ وهي بالعبرية ايش طوب
ومعناها الرجل الصالح والوديع . وهذا اللفظ الذي وضع اولاً للدلالة على
شخص قد نُقل الى الدلالة على المملكة ومثل ذلك كثير . فان ارام واشور
وكنعان من اسماء الممالك قد نقلت كلها من اعلام شخصية غير ان
فلاّث يوسف (الآثار اليهودية ٦ : ٧ و ١) ظن ان المراد به ملك لا
مملكة ولكن لا يحسن تغليب رأيه على مفهوم نص الكتاب المقدس

المقدس بذكره في جملة سائر الممالك التي اخذنا في البحث عنها يمزق كل ريب عن هذه المسألة وكان موقع هذه المملكة في نواحي حرمون ولعلها كانت في منحدره الشرقي في الجهة المدعوة اليوم بالبلاس على تخوم ممالك معكة وجاثر وباشان ودمشق

٩

مملكة جشور

أسس هذه المملكة في الاصح جاثر بن ارام او احد اولاده كما تقدم القول . يثبت ذلك ان العلماء الى يومنا لم يظفروا باثر لذريته في غير محل

وهذه المملكة الصغيرة كانت جنوبي حرمون في الجهة الشمالية من جبال جلعاد المسماة اليوم جبل حيش . لاننا نراها دائماً مذكورة مع ارجوب ويائير ومعكة وباشان بالقرب من حرمون وجلعاد (١) . وعلى ذلك فقد كانت ضفة الاردن اليسرى عند مخرجه من بحيرة ميروم حداً غربياً لمملكة جشور . مع اننا لانسلم مع جماعة من العلماء بانها دُعيت بهذا الاسم من الجسر الذي بُني متأخرًا في تلك الجهات . وقد بينا

(١) تثنية الاشتراع ٣ : ١٤ يشوع ١٣ : ١١ و ١٣ سفر الملوك

في ما سلف الاسباب التي توجب ذلك . فأينا إذا ادنى الى الصحة
 ووافق النصوص الكتابية . وقد امتد الجشوريون من الاردن نحو
 الجنوب الشرقي من حرمون على التخم الجنوبي للمالك معكة وايش
 طوب ويطور وكانت بلادهم في معظمها كثيرة الحزون والوعور
 وصارت متأخرًا قسماً من تراكونيت وجهة الجولان الحالية (١)

١٠

مملكة يطور (٢)

كانت شرقي مملكة جشور . اسسها على رأي بعضهم يطور بن
 اسمعيل بن ابراهيم من امته هاجر المصرية (٣) فدعا يطور باسمه كامل
 هذه الناحية التي يظن انه قد ملكها بصفة زعيم متبدل . واليطوريون

(١) يشوع ١٣: ١١ و ١٣

(٢) معنى يطور حظيرة او سور او قرية البدو او الصخر والمعنى
 الاخير اشد مطابقة لطبيعة البلاد . وعلى ذلك فيكون قد ترجمة
 اليونان ترجمة حرفية الى لفظة تراكونيت التي كانت تطلق احياناً على
 جميع الناحية

(٣) التكوين ١٥: ٢٥ و ١٦ اخبار الايام الاول ١: ٣١

قد انجدوا اخوتهم العبرانيين عند افتتاحهم لارض الميعاد (١) ولكنهم لم يكسبوا الشهرة الا في اواخر زمان الامة اليهودية . وبعد افتتاح الاسرائيليين وقضوية يائير الجلعادي دُعي ثلاثون مدينة من هذه الارض باسم مزارع يائير (٢) ولكن ما لبث الاسم الاول ان عاد الى الظهور على السنة العرب مع بعض تغيير بقولهم جادور وكانت حدود هذه المملكة الصغيرة ممتدة في الشمال الى تخوم مملكتي ايش طوب ودمشق ومن الغرب الى تخوم جشور ومن الجنوب الى باشان ومن الشرق الى ارجوب او تراكونيت . فكانت مملكة يطور اذاً مشتملة على الجادور الحالي مع قسم من حوران . غير ان بعض المؤلفين مدوها الى ما وراء هذه الحدود الى الجهات المجاورتها (٣) التي صارت في ما يلي من الزمان مشهورة بايواء اللصوص وقطاع الطرق (٤)

(١) اخبار الايام الاول ١٩:٥

(٢) سفر العدد ٣٢:٤٢ تثنية الاشتراع ٣:١٤ يشوع ١٣:٣٠

يهوديت ١٠:٤ اخبار الايام الاول ٢:٢٢

(٣) فلاف يوسف الاثار اليهودية ١٧:١٣ — بلين

(٤) استرابون وكيكرون ورجيل ولوقيان

مملكة ارجوب

كانت هذه الارض متحدة اشد الاتحاد بمملكة يطور . وهل
كانت هذه المملكة مستقلة او لم تكن دائماً الا اقليماً خاضعاً لجميع
الولايات المحيطة بها ؟

تلك مسألة ليس لدينا من الانباء التاريخية ما يسهل لنا الجزم
بها . فمن جهة نعلم علماً يقيناً ان عوجاً مَلِك باشان ضمها الى مملكته لما
استولى عليها الاسرائيليون (١) ومن اخرى لا نصدق ان جهة من مثل
هذه منيعة الموقع مشتملة على ستين مدينة حصينة لم تنتظم في هيئة
مملكة كبيرة مع ان اصغر المدن في تلك الاوقات كانت تقيم عليها
ملكاً مستقلاً

وفيا يلي من الزمن اطلق اليونان على ارضها الوعة الكثيرة
الصخور اسم تراكونيت وهو ترجمة حرفية للفظه ارجوب التي تأويلها
مجمع الحجارة . ومن هذه التسمية يُستدل بصراحة على ان المملكة

(١) تثنية الاشتراع ٤: ٣ و ١٣ و ١٤ — سفر الملوك الثالث

المذكورة ما هي إلا ركام الحمم المتصدعة والصخور والحجارة البركانية الملقاة باختلاط كلي في وسط السهل متكوناً عنها جملة مضائق ومغاور ومآوٍ وهي التي يسميها العرب اليوم لذلك السبب بناحية اللجا . وهذه الناحية انما هي هضبة مرتفعة ذات شكل بيضي قليل الانتظام كانت في كل زمان ملجأ للعصاة وقطّاع الطرق

١٢

مملكة باشان (١)

ان مملكة باشان الشهيرة أسسها الاراميون في بادئ الامر لانها لم تُعتبر مطلقاً مثل ارض كنعانية (٢) ويوجد الى اليوم آثار تدل على غلبة الاراميين عليها في الاخرة المركومة في ارضها . ومع كون

(١) تثنية الاشتراع ٣: ٣ و ١٠ و ١٤ — يشوع ١٢: ٥ الخ
ومعنى باشان الارض اللينة المطمئنة والرياض اللينة والرمل الرقيق .
ويقارب هذا الاسم في العربية « البثن » اي الرياض و « البثنة » اي الارض السهلة والزبدة وكلا الاسمين يوافقان تلك المدائح الغراء التي نقرأها في الكتاب المقدس عن مراعي هذه المملكة وقطعانها وسلاسل جبالها وخصبها

(٢) سفر العدد ٣٥: ١٣

الاموريين قد استولوا عليها وجعلوها مملكة متسعة (١) فان سكانها ما زالت اكثريتها ارامية

وكانت هذه المملكة في ايام حرب الاسرائيليين ممتدة الى قرب حرمون متاخمة للمالك التي في سفحه حتى تلحق بتخوم دمشق (٢) . وكان نهر يلبق (الزرقا) وجبل جلعاد يحدها غرباً وتأخذ من العربة او وادي الاردن نحو الشرق الى حدّ صلخد والبادية . غير ان مملكة باشان لم تحصل على جميع هذه المسافة المتسعة في بادئ الامر وانما كانت مقصورة على ارض المدينة المقفرة التي تسمى اليوم بلسان العرب بالبثنية . غير ان عوجاً ملك باشان كان قد هجر هذه العاصمة ونقل مقامه الى شرقي ارجوب في مدينتي عشتاروت واذرععي (٣)

واعلم ان زيادة اتساع المملكة المذكورة هو الذي حمل اليهود ليطلقوا احياناً اسم باشان على الخمسة الاقاليم الشمالية الواقعة فيا وراء الاردن اعني بها يطور (الجادور) والجولان (٤) وتراكونيت (ارجوب

(١) تثنية الاشتراع ٨: ٣

(٢) اخبار الايام الاول ٢٣: ٥

(٣) تثنية الاشتراع ٤: ١

(٤) تثنية الاشتراع ٤٣: ٥ — يشوع ٢٦: ٢١

او اللجا (وهوران (١) والبثنية (باشان) (٢) ويمكن ان يكون
الذي دعاهم الى ذلك هو ان جميع هذه الاقاليم الواقعة جنوبي دمشق
كانت لاحقة قلما يكون قسم منها بملكة باشان . ولما كانت ارض باشان
بوجه العموم ذات سهول متنوعة خصيبة ووهاد حسنة كثيرة الغاب
والاشجار موفرة المراعي والكلاب تالت شهرة عظيمة وسمعة طاهرة
وهذه التربة التي كانت اخصب تربة في ارام كثرت فيها من
قديم الزمان المدن والقرى واصبحت مركزا للاعمال الاجتماعية والمدنية
ولم تزل سهول باشان الى اليوم تدل دلالة صريحة على سكنى الاراميين
فيها لانك تجد في كل محل حالته منها مدائن وبنيات مختلفة ترتقي الى
ذلك العهد القديم . وهندسة البنيات المذكورة غليظة ولكنها غير
معدومة من الطرافة والبهجة وجدران البيوت مصنوعة من قطع
كبيرة من البازلت (ضرب من الحجارة البركانية) غاية في الصلابة .
اما الابواب واقفال النوافذ فضخمة جدا تدور على قطب مصنوع في
القطعة الصخرية وترتكز من اعلاها ومن اسفلها على ثغرتين محفورتين
في الحائط . اما السقوف فمستوية وم مصنوعة من صفائح طويلة من الحجر
المذكور لم تزل واقية لهذه المساكن حق الوقاية منذ الوف سنين

قال الكتاب المقدس انها كانت ارض الجبابة (١)
واعلم اننا ما ذكرنا من هذه الممالك لم نعد جميع الولايات المختلفة
التي أسسها الاراميون قديماً في ارض لبنان الشرقي
كان البشر في ذلك الصدر الاول ميّالين الى تقسيم القبائل
وجعل كل شعب صغير مستقلاً عن الآخر . ولم يطمع الاقوياء الى
توسيع تخومهم وقهر اخوانهم الا بعد انتشار الشعوب وامتدادهم .
وسرى ايضاً بعد هذا الزمن في ارض الاراميين ممالك أخرى صغيرة
متمتعة بالاستقلال مثل بعلبك وابيلينة وخلقيس وغيرها التي يرتقي
تأسيسها الى قديمة عريقة . ولكن من حيث ان التاريخ لم يأتِ بذكرها
في ذلك العهد القديم لا نجسر بدون انباء تكشف عنها على ان نَحْن
عليها تخمينات لا اساس ثابت لها

(١) تثنية الاشتراع ١١: ٣ و ١٣ — يشوع ١٢: ٤ الم يكن بين

الاراميين الجنوبيين احد من الجبابة ؟ ان هذا مما نجهله ولكن ليس
من شيء يثبت انه لم تكن لهم اكبر يد في آثار هذه الناحية . اما
نص الكتاب فيسمي هؤلاء الجبابة رافائيم

مملكة جبل (جيل)

ويوجد مملكتان معروفتان ومشهورتان خصوصاً في الاخبار الوثنية
الفينيقية ينبغي ذكرهما لاسباب موجبة مع المالك الارامية التي سلف
الكلام عنها لا مع ذرية كنعان التي تجاورهما وهما مملكتا الجليلين
والبيروتين

لا شك ان القبائل الارامية المتوطنة في سهل حماة والبقاع امكنها
بكل سهولة في تلك الايام ايام التنقل والانتشار ان تدخل بالتدرج
الى وهاد لبنان الشمالي القريبة منها وتنتزل من هناك بسرعة نحو شاطئ
البحر لتستوطن في السواحل المعتدلة الهواء والخصبة التربة

ثم ان هذه المنافع بل الفوائد التي تنجم عن السكنى بقرب البحر
الكبير انما هي التي حملتهم على الرحيل والاقامة بالسواحل المذكورة .
وان مجاورة الاراميين الذين عمروا الجهات الشرقية من لبنان تدفع الى
الظن بان قبيلة من قبائلهم هي التي اسرعت اول الجميع فقطعت
الجبال اللبنانية وجاءت فنصبت خيامها في شاطئها الشمالي واقامتهم
بالجبل كانت كافية لان يسموا جليلين (١) . وهذا التخمين المستخرج من

(١) ذكرنا سابقاً اصل اسم هذه القبيلة وهنا نضيف الى ما تقدم

طبيعة الاماكن يدل على الاقل ان ليس من صعوبة مطلقاً فيما يتعلق بتقديرنا هذا . فضلاً عن انه من المؤكد ان تأسيس مملكة الجليلين يرتقي الى اقدم الاصول الفينيقيّة . ومع قطع النظر عن الحكايات الوثنية القديمة التي تجعل مملكة جبل دائماً اقدم الممالك فانك تجدها مذكورة في سفر يشوع وقد سماها هناك ارض الجليلين (١)

وزيادة في البحث عن اصل المؤسسين الاولين لمملكة جبل نقول ان اول نور يهدي خطانا في ظلمة هذه الازمنة انما هو بلا حياء الديانة

ان اسم الجليلين (اي المنسوبين الى الجبل) المكرر دفعات متعددة في الكتاب المقدس (يشوع ١٣ : ٥ سفر الملوك الثالث ٥ : ٣٢ — حزقيال ٩ : ٢٧) يُطلق خصوصاً على هذه القبيلة التي امتدت الى حدّ بيروت ليس فقط لان مدينة جبل كما نبّه عليه استرابون (١٦ : ٢) كانت قائمة على جُبل اي جبل صغير ولكن بالخصوص لان هؤلاء القوم قدموا من الجبال المشرقة عليها . ووجب ان يعتبروا جليلين حقيقة . وهذا التفسير هو مقبول بالاجلال عند العلماء من قرون طويلة

ولكن يمكن ان يؤتى بتفسير اخر فتكون جبل مشتقة من (جب) اي الحصن والارتفاع ومن (ال) اي الله

(١) يشوع ١٣ : ٥

التي كانت اكبر رابط بين القبائل الاولى . فان كان اسم الهها الاول
وعبادته واحدة عندها دلنا ذلك على وحدة اصلها . والحال ان اكبر
اله عند الجبليين انما هو الاله ايل وكان ايل اسماً لله عند العبرانيين
وجميع الاراميين من بني سام

ويثبت ذلك اسماء الاعلام التي كانوا يركبونها مع لفظة ايل او
هَدَد. وكان في القرن التاسع قبل المسيح ملكان على دمشق متعاصران
احدهما يسمى حزائيل والاخر بنهدد باسمي اكبر آلهة هذه المملكة
الارامية. وقد كشفت المحدثون اليوم جملة حجارة ارامية قديمة جداً
وجدوا محفوراً عليها اسم ايل الذي هو مثل بعل عند الكنعانيين (١)
وهذه المشابهة الواقعة ما بين الجبليين والاراميين في عباداتهم والمخالفة
في اسم الههم بينهم وبين الكنعانيين ولو كانتا لا تصلحان برهاناً قاطعاً
مع ذلك تدلنا على ان اصل الجبليين ارامي . والذين يجشوا حق
البحث عن اصل هذا الشعب اثبتوا وجود علاقات عديدة لهم مع
العبرانيين ولا يمكن حمل ذلك الا على ان اصلهم ارامي (٢)
وعندنا في التاريخ برهان اقوى واوثق . لان موسى لا ذكر مواليد

(1) M. de Vogüé. La Syrie Centrale. Revue archéol.
ann. 1869.

(2) Renan. Mission de la Phénicie : II, Movers, die
Phoniz.I, 5.

الشعوب عدّد بمزيد العناية آباء القبائل الكنعانية (١) ثم اتى في ما بعد ذلك في عدة نصوص باسماء تلك القبائل نفسها (٢) التي من ذرية كنعان ولكنه لم يأت مطلقاً بذكر قبيلة الجبليين. وزد على ما تقدم ان موسى الكاتب الالهى لما عيّن تحم الجبليين الجنوبي حدّاً اخيراً للكنعانيين صوب الشمال صرّح بذلك ان هؤلاء الجبليين ليس لهم اقل اشتراك في الاصل مع الكنعانيين قال : وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وانت آتٍ نحو جزار الى غزّة وانت آتٍ نحو صدم وعمورة وادمة وصبوئيم الى لاشع (٣)

ان القبائل الكنعانية وقفت عند الحد الذي تنتهي به مملكة

(١) التكوين ١٠: ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨

(٢) التكوين ١٠: ١٩ و ٢٠ و ٢١ — الخروج ٣: ١٧ — ١٣ :

٥ — ٢٣: ٢٣ — ٢: ٣٣ — ١١: ٢٤ تثنية الاشتراع ٧: ١ —

١٧: ٢٠

(٣) التكوين ١٠: ١٩. وفي النسخة السامرية بدل جزار عسقلان

واما بقية المدن المذكورة في الآية فهي بقرب البحر الميت وعليه فان الحدود الشمالية والجنوبية للكنعانيين كانت من صيدون الى الاردن

ومن البحر المتوسط الى البحر الميت

صيدون والحال ان تخم الصيدونيين الشمالي لم يتخطَ مطلقاً نهر الدامور وفقاً لجميع الانباء التاريخية لان جبل لبنان لم يطلق عليه اسم كنعان او فينيقية الا في ما تأخر من الزمان عند ما ارتقى الصيدونيون والصوريون الى اعلى مراتب العز والمجد بما ان هؤلاء الكنعانيين كانوا اكثر السكان شهرة ونشاطاً. ولكن جميع الافادات الباقية لنا عن هذه الشعوب تظهر بالرغم عن الاسم المتقدم ان الجبليين كانوا منفصلين عن غيرهم انفصلاً تاماً من حيث الامة والسياسة ولا شيء يثبت ان الجبليين اظهروا للكنعانيين جيرانهم صداقة تدل على وحدة الاصل او انهم خضعوا لسلطانهم او انهم دخلوا في محالفاتهم. وعليه فاذا ثبت ان الجبليين لم يكونوا كنعانيين وجب ان يكونوا من العشيرة الاخرى الاولى التي سكنت لبنان اعني بها عشيرة ارام (١) وبناء على ذلك فان سكان مملكة جبيل الذين دانوا فيما بعد

(١) ان اسم الجبليين يوافق اسم ارام في المعنى موافقة تجعل الاسمين مترادفين. فان كلاً منهما يدل على الارتفاع. غير ان هذه المشابهة يمكن ان تكون اتفاقية ولكن الاحسن ان تتأول بوحدة الاصل بين الاراميين والجبليين. والعلاقات العديدة الرابطة بين القبائل الارامية تؤيد على الاقل ما ذهبنا اليه

بالدين النصراني (وهم الموارنة المتمسكون بشديد التمسك بالايمان الكاثوليكي) يكونون من نسل سام لا من نسل حام الملعون

١٤

مملكة بيروت

ان السهل الضيق الذي يفصل الجبال عن البحر في كامل سواحل فينيقية اضطرَّ الجبليين في قليل من الزمن الى ان يمتدوا على طول الشاطئ كلما تكاثرت عشائرهم . وكان اضطرارهم الى الاقامة بارض جديدة موجبا لهم الى تأسيس مملكة اخرى جبليّة في سهل بيروت الجميل (١) الواقع على مسافة اثنين وثلاثين كيلومتراً من جبل . ولا ريب في ان الذين أسسوا هذه المملكة هم جماعة سافروا من جبل في الزمان القديم . يؤيد ذلك العلاقات السياسية التي وجدت دائماً بين هاتين المملكتين والاتفاق في تقليداتهما الوثنية وموقع ارضهما وتشابه سكانهما اخلاقاً

ان تخوم هذه المملكة الجديدة قد امتدت منذ تأسيسها كما

(١) معنى بيروت (وبالأصل بروت) الخروط وكثيراً ما يترجمونها الآن بلفظ السرو لان شجر الراتنج الذي ترجمها به الاقدمون لا يوجد في لبنان . ومن المحتمل ان يكون المراد ببيروت شجر الصنوبر الذي هو كثير حولها

كانت متأخرًا الى نهر الدامور على مسافة ثمانية عشر كيلومترًا من
عاصمتها نحو الجنوب . وامتدت صوب الشمال الى حد نهر الكلب على
مسافة اربعة عشر كيلومترًا . والظاهر ان هذا الحد الثاني مدلول عليه
باسم النهر نفسه لان الكلب عند الاقدمين كما هو معروف كان رمزًا
الى الحراسة عند مداخل القصور وثغور الممالك . وعليه فان المكان
المعطى لهذا الحيوان الامين عند هذا النهر في مضيق الجبل يشير الى
حد او مدخل المملكتين المتاخمتين وكان الحارس المتيقظ لهذا التخم
تموز الى الحرب الذي كان الكلب مفردًا له (١) فضلًا عن ان هذا
المضيق العميق المحفور تقريبًا حفرة عموديًا على مسافة نحو من تسعة
كيلومترات سادًا كل ممر على شاطئ البحر يدل من نفسه على انه
كان حدًا طبيعيًا لتينك المملكتين المتقاربتين

وعلى ذلك فان مملكة بيروت كانت تشتمل على مسافة نحو من
سته وثلاثين كيلومترًا من ساحل فينيقية . غير ان عرضها كان ضيقًا
جدًا والسهل الذي ينسب اليها مع كونه اوسع من بقية الساحل الذي

(١) وفي حكايات المصريين ان الكلب انوبي كان يحرس ابواب
الافق التي تدخل وتخرج منها الشمس مثل الكلب كريبير عند اليونان
والرومان الذي يحكى عنه انه كان يحرس اسكفة مملكة الاموات

تشتمل عليه لا تبلغ مسافته أكثر من تسعة كيلومترات الى حد لبنان .
ولكنه كان ممكناً ان ينفذ الى الجبال . وقد اصاب بعضهم اذ قدّر بان
الكتاب المقدس اتى بذكر البيروتين في طي اسم الجليلين (١)
الذين كانوا اخوتهم من حيث الاصل . غير ان عبارة الكتاب ليس
فيها شيء . يحدّد تخوم الاراضي التي قطن فيها كل من هاتين الامتين
اما مملكة الجليلين فكان يحدها جنوباً كما مرّ مملكة بيروت
ولكنه لا يمكن ان يعين لها شمالاً حد معروف في ذلك العصر المتقدم
ومع هذا فالظاهر انهم مع تمكّنهم من الانتشار في الساحل دون
معارض عدلوا عن ذلك ايثاراً للبقاء في داخلية الجبال التي قدموا منها
وآثار ولايتهم كثيرة شرقيّ جبيل الى ما وراء اعالي افقا واخرتها (٢)
وبعكس ذلك من جهة الشمال نرى ايتوبال ملك صور قد بنى في

(١) يشوع ١٣ : ٥ — سفر الملوك الثالث ١٨ : ٥

(٢) ان حكاية قينارة تحبر ان هذا الملك بنى هيكلًا لعبادة
ادوني في افقا (لوقيان في آلهة سورية ٩) وافقا على مسافة نحو من
واحد وثلاثين كيلومتراً في داخلية الجبل . وبالتحقيق ان مملكة جبل
كان ممكناً ان تمتد الى ابعد من ذلك ايضاً الى حدّ المنحدر الشرقي

من لبنان

القرن الثامن قبل المسيح مدينة البترون (١) على مسافة نحو من ١٨ كيلومتراً من مدينة جبل عند مدخل مضائق وجه الحجر في موقع حسن ولكنها كانت اذ ذاك مهجورة ولم يكن للملوك جبل طمع في الاستيلاء عليها وبناء عليه لم تكن ارض مملكتهم لتبلغ المدينة المذكورة اي مدينة البترون

المدن اللبنانية

وقبل ان ننقل الى الاصول الكنعانية توجب علينا الحوادث بما بينها من الارتباط ان نتكلم عن المدن التي اسستها الممالك الارامية في ذلك العهد الاول. اما المدن العواصم فلا شك انها لم تُبنَ منذ اول ظهور اولاد سام بل ينبغي بعكس ذلك التقدير بان قبائل ارام اتخذت سكناها أولاً على مثال ابراهيم ابي الالباء في الحيام والمغاور قائمة على رعاية مواشيها ولم يخطر لها ان تشيد المنازل من آجر او من حجر الا عند ما كثرت العشائر واضطرت بسبب تحصيل معيشتها ان تحرث الارض وتتعاطى الحرف والصنائع

ومما يُثبت ان الشعوب اللبنانية كانت في تلك العصور تتخذ
الغيران بيوتاً لها ما نراه الى اليوم من الكهوف الكثيرة اما في السفح
الغربي او في السفح الشرقي وقد جاء في الكتاب المقدس (١) اثبات
ذلك . وذكر فلاف يوسف (٢) واسترابون (٣) ان عساكر برمتها
كانت تختبئ في تلك المغاور المتسعة وتقيم بها اقامتها بالحصون
غير ان القول بطول مدة سكناهم في الخيام جملة قرون مما يخالف
انباء الكتاب المقدس لان الاراميين الذين جاؤوا من بابل كانوا
اصحاب معارف وصنائع يقتضيها بناء ذاك البرج العظيم والمسافة القصيرة
التي قطعوها بين بابل ولبنان لم تكن لتنسيهم اياها . وعليه فانه لم تفقهم
المعارف الاستعمالية الضرورية لمثل تلك البناءات الاولى ولذلك فلم
يكن عليهم ان يعانون مشقة الاختراع . فضلاً عن ان الحاجة كانت
تضطرهم الى الاسراع في العمل لكي يقيموا ببساتين كورة دمشق
الجميلة . اما المدن التي بنوها بعد استيطانهم الاول فهي معدودة عند
الجمهور من اقدم مدن الدنيا

(١) سفر الملوك الاول ١٣ : ٦

(٢) فلاف يوسف في الاثار اليهودية ١٥ : ١٠

(٣) استرابون ١٦ : ٢ و ٢٠

لا نقصد مطلقاً معارضة هذه الآثار القديمة بل غاية رغبتنا هي بعكس ذلك البحث والتنقيب في مجاهل تلك القرون الاولى قصد ان نستخرج منها دليلاً او فقرة قديمة تصلح لتقريرها واثباتها بالنص الصريح والشهادة البينة . لان كل مؤرخ منصف يؤد هذا ويريده لذلك شئنا ان نبسط الكلام في مبادئ هذه المدن الشهيرة التي شرفت في اوائل امرها جهات لبنان لما عُرف به اهلها من الجد والاقدام والنشاط . وقد كان الاقدمون شديدي الحرص على المعالمة باحترامهم لتقاليدات المدن القديمة واصول الاماكن وقدامة المدن التي ذكرها بلين مهتراً طرباً اذ قال في كتابته لمكسيم : احترم مجد المؤسسين القديم وهذه الشينوخة المكرمة في الانسان والمقدسة في المدن . اذ الاكرام للآثار القديمة وللأعمال العظيمة وللحكايات ايضاً . لا تسقط شيئاً لاي كان لا من مقامه ولا من حرّيته ولا من افتخاره بنفسه »

الآ ان التاريخ لا يسمح لنا ان نجري هنا على مشورة هذا المؤلف اللاتيني فيما يتعلق بالحكايات واعجاب المرء بنفسه . ولكننا قد استوفينا الكلام في هذا الشأن عند ايراد الحكايات القديمة لاهم المدن وسنبذل في ما بقي أقصى الجهد لنجمع كل ما حفظته الدهور عن هذه المدن القديمة اللبنانية



مدينة جِبِل (١) او ببل (٢) او جُبيل
هي اول مدينة قامت في لبنان بل في العالم بأسره (٣) ولا شك

(١) هكذا يسمى الكتاب المقدس هذه المدينة كما ورد في نبوءة
حزقيال : وشيوخ جِبِل وحكامؤها كانوا فيك جلافة (وهم الذين
يسدون دروز الواح السفينة بالخيوط والخرق والقير) لخصاصك (٢٧)
(٩ :

ووجد هذا الاسم ايضاً على مسكوكاتها وكتاباتهما . وكان السوريون
يسمونها **جِبِل** (جِبِل) . والقديس هيرونيم (في كلامه عن
الاماكن العبرانية) كتب الاسم العبراني « جِبِل » ايضاً . وسكانها
الحاليون يسمونها جبيل مصغر جبل . وتوهم بعضهم ان عوبال بن عابر
(التكوين ١٠ : ٢٨) هو الذي أسسها ألا ان ذلك غير صحيح اذ ليس
بين الاسمين في اللغات السامية ادنى تقارب لا من جهة المخرج الصوتي
ولا من حيث الاصل الاشتقاقي

(٢) ان ببل عند اليونان هي ترجمة لفظة جبل . وقولهم جبيل هو
رجوع الى الاسم القديم « جِبِل » الذي بقي سالماً عند الشعب كغيره
من الاسماء الارامية . وجبل القديمة هي التي سُميت اولاً بهذا الاسم

انه من المستحيل تحقيق هذه الاسبقية المطلقة لان الطريق الذي اتبعته القبائل الازامية في هجرتها آتية من سهول شنعار يحمل بعكس ذلك على الظن بان السكنى في داخلية لبنان سبق تأسيس هذه المدينة. ومهما كان من الامر فن الثابت ان اصل هذه المدينة يتقدم العهد التاريخي بكثير . ولما كان مركزها الحالي عند شاطئ البحر المتوسط ما اختير الا بسبب ما ينجم عنه من المنافع البحرية فيحتمل انه لم يكن هناك من اول الامر . لان شعب الجبليين منذ وصولهم الى ساحل البحر لم يكونوا ليوجهوا افكارهم الاولى الى تعاطي الملاحة وفي السنين الاولى من اقامتهم لم يعتنوا الا بالمواشي وحرثة الارض واستخراج موارد الرزق من وطنهم الجديد الى ان قام اعقابهم وسهلوا لهم الوسائط لاثيان مشروعات اسمى . والتاريخ يثبت ان المدينة المبنية في الساحل انما هي مدينة جبل الجديدة وانه في جنوبي المدينة المذكورة كانت مدينة

وذلك مما يدل على ان هذه التسمية لم تكن بسبب الربوة الحالية . وكان الصليبيون يسمونها جبلة (Giblet ou Gibleh) وهي غير جبلة التي في شمالي اللاذقية

(٣) اسطفان البزنطي . واثبت هذا الامر ايضاً اوستاك وكثير

غيره من الكتبة متابعة لسكن يتن (فقرة ٢ : ٢٢)

أخرى اقدم منها تُدعى جبل القديمة (١) وتُعرف عند الاقدمين ببالي
بل

غير ان تعيين المحل الذي كانت فيه جبل القديمة امر مشكك
فهل كانت جبل المذكورة سربا وهي رأس صغير مشرف على خليج
جونية في كسروان وراء مضيق المعاملتين كما يظهر من كلام استرابون
(٢) . ولكن المسافة العظيمة المؤلفة من زهاء ثمانية عشر كيلومترا
الفاصلة للرأس المذكور من مدينة جبل تمنع على رأينا ان تكون جبل
القديمة نفس سربا . فان المدينة القديمة كان ينبغي ان تكون متحدة
اتحادا ادبيا شديدا بالمدينة الجديدة لكي تسمى الجديدة باسمها وتعرف
بكونها محلا للحوادث المختلفة التي جرت في الاولى من الاصل . لان
الجبليين لم ينسبوا حكاياتهم مطلقا الى مكان منفصل تمام الانفصال عن
محل سكناهم . هذا فضلا عن ان جبل اقليم الذي ذكره استرابون قبل
جبل القديمة لما كان الى اليوم غير معروف لم يكن بصالح للدلالة على
موقع سربا او غيرها من الاماكن المجاورة لمدينة جبل لان على الشاطئ
الجنوبي كثيرا من الرجي امكن ان يسمى كل منها بهذا الاسم

(١) استرابون ١٦ : ١٩ — بطليم ١٥ : ٥ و ٢١ — بلين ٥ : ١٧

(٢) سترابون في المحل المذكور

وهل كانت برجا وهي ميناء قريب من نهر ابرهيم كما ذهب البعض . لا نظن ذلك فان هذا الميناء لا يوافق كما لا توافق المدينة الجديدة ايضاً حاجات مستعمرة الجبليين الاولى . ثم ان المسافة الكبيرة التي تبلغ زهاء اربعة عشر كيلومتراً من مدينة جبل تجعلها مدينة متميزة تماماً مثل سربا . ونصّ بلين (١) واسترابون (٢) يؤيدان هذا الرأي لانها سماها جبل القديمة بما يدل على ان موقعها كان في جنوبي نهر ابرهيم . ولكن كلامهما ليس مما لا يقبل ردّاً اذ ليس بثابت انها يدلان بمكان الاسم على موقع المكان . لان بلين لا يراعي هذا الترتيب دائماً واذا شئت ان تتحقق ذلك كفالك ان تقابله ببقية الجغرافيين مثال ذلك انه ليس من احد يشك ان نهر ماغورا هو نفس نهر بسيروت الواقع شمالي المدينة . ولكن بلين ذكره قبل المدينة كما فعل نهر ابرهيم وجبل القديمة . وكذلك استرابون لا يراعي الترتيب المكاني في شأن البلدان التي لم يزرها بنفسه . وهذا هو السبب الذي يحملنا على الارتباب في الموقع الذي يظهر انها نسباه الى جبل القديمة

(١) بلين ٥ : ١٧

(٢) استرابون ١٦ : ٢ اما بطليم (٥ : ١٥ و ٢١) فيؤخذ من

كلامه ان جبل القديمة لم تكن على الشاطئ

وهل كانت اخيراً سمر جبيل كما ذهب اليه بعض اهل العلم بقولهم ان سمر جبيل كانت عرش ايل وعاصمة المملكة . فالجواب ان ذلك لا يوافق ايضاً لسبب ان الحل المذكور بعيد ايضاً زهاء ثمانية عشر كيلومتراً عن مدينة جبل ولاسيا لوقوعه في شمالي المدينة . مع ان جميع الاقدمين الذين تكلموا عن جبل القديمة يقولون بانها كانت في جنوبي المدينة

وهذه الآراء المتعارضة حملت كثيرين من الكتبة المعتبرين على انكار وجود جبل القديمة المذكورة وهو ايضاً قول مردود لا صحة له . اذ لا يحق ان ينكر بدون برهان وجود موضع شهد به جميع الجغرافيين الذين ذكرواها وجميع الذين اتوا من بعدهم . وعليه فان جبل القديمة قد وجدت حقيقة ولكن لم يكن ينبغي ان يكون وجودها متيئراً عن جبل الجديدة لان جميع الحوادث الاسطورية (نسبة الى الاسطورة وهي الحديث الملقق) والتاريخية لامة الجليليين قد جرت برمتها كما سبقت الاشارة الى ذلك في مكان واحد فان قلعة ايل يذكر عنها دائماً انها كانت ضمن اسوار جبل التاريخية ولكن الحكاية تثبت ان عليون جد ايل لم يتجمل اذ ذاك الإقامة بها بل انه كان ماكثاً في جوارها (١)

ولهذه الاسباب يظهر ان الموقع الحقيقي لجبل القديمة (وهو اول مركز اتخذهُ الجليليون لاقامتهم) لا يمكن ان يجعل بوجه قريب من الصحة الا على الرّبي القائمة عند جنوبي جبيل على مسافة قريبة من البحر نحو الجبل . وذهب بعض المحدثين الى ان هذه المدينة التي غابت آثارها عن الوجود كانت في قصوبة التي معناها القلعة وهي تشتمل على التلال القريبة من جبيل في جهة الشرق وهذا تعريب كلامه : « عند رؤية جميع هذه الاعمال المتراكبة على بعضها والمنفصلة بزهاء كيلومتر عن جبل الحالية يعرض سؤال عما اذا كانت جبل القديمة في موضع قصوبة

« وقد نهينا ان عبارة سترابون (عن الراية الراكزة عليها جبل) هي اتم موافقة لهذا التقدير . ولكن حزقيال قد صرح من جهة اخرى ان جبل كانت من الثغور البحرية . فهل وُجدت يا ترى المدينة مع ميناء لها بعيد عنها كما هو الامر في مدينة طرابلس اليوم ؟ ان من انطباق الامور طبعاً لادل وهلة ان نجعل جبل القديمة في قصوبة كما ان صور القديمة كانت مقابل صور الحديثة . غير ان الجغرافيين الاقدمين قد اجمعوا كلهم تقريباً على جعل جبل القديمة في جنوبي نهر ادوني » (١)

ومهما كان الامر في الموقع الحقيقي الاول الذي اتخذهُ الجليليون فمن المعلوم انه بالقرب من جبيل الحالية وُجد اول مركز تسابق الناس فيه بالنشاط والاقدام على ساحل لبنان البحري

وقد وصل الجليليون في مدة قريبة الى مرتبة عظيمة من السعادة وال عمران حتى بنوا مدينة مهمة على ساحل البحر واتوا اعمالاً عظيمة تثبت لهم النشاط والاقدام لانهم وسَّعوا دائرة تجارتهم وبثوا مستعمراتهم في كثير من الآفاق والراجع انهم وصلوا قبل جميع ممالك الدنيا الى مقام القوة البحرية واستولوا على سلطان البحار قبل ما يخطر لاحد ان ينازعهم فيه . ولكن التاريخ يصور لنا جبيل مثل مدينة مقدسة لا مثل مدينة ذات اقتدار وسطوة

٢

بيروت

كانت مدينة بيروت مباءة مملكة بيروت التي أسستها جماعة من الجليليين ولكنه بمقتضى اسم وتقليدات بيروت لم يتم هذا التأسيس الا بعد تعاقب السنين الطوال اي بعد ان افسدت الوثنية ديانة الجليليين الاولى . فان حكايات البيروتين الدينية شبيهة كل الشبه بحكايات جبل وممتزجة بها امتزاجاً ذاتياً

ولما انفصل الجليليون عن بقية القبائل الارامية لم يحيشوا الا باسم

الاله الحقيقي (ايل) واسمهم غير آتيهم مطلقاً من الحكايات بل من الجبال التي سكنوا فيها او التي مروا بها ليصلوا الى وطنهم الجديد. اما البيروتيون بخلاف ذلك فاتوا باسماء خرافية وسموا مدينتهم باسم معناه السرو (بروت) رمز عشترت زوج ايل او عليون محامية وملكة مدينتهم (١)

ان بروت (٢) المدينة الجديدة المفردة لبروت عشترت بُنيت

(١) سكنن يتن فقرة ١١ : ١٢ و ٢٠ و ٢٤

(٢) بيروت اصلها بروت **ك**ما مرّ بك من قبل وهي كلمة مجموعة معنى مفردها السرو (نشيد ١ : ١٧) وقد فسرتها الترجمة العربية القديمة بالصنوبر ولا يبعد انه كان فيها قديماً كما هو اليوم غابة صنوبر مفردة لعشترت . الا ان الرأي الاعم ان بيروت مشتقة من « بروت » جمع بثر فان اسطفان البزنطي زعم انها دعيت هكذا لجودة مائها . واننا لتسلم بهذا القول من غير صعوبة لو كان مبنياً على اشياء صادقة . ولكن الامر **بعكس** ذلك اولاً لان مياه آبار بيروت مالحة كريمة على الذوق وثانياً لان المهاجرين الجليلين لم يكن يخطر لهم من ساحة وصولهم ان يحفروا الآبار العميقة مع انه يوجد فيها نبع غزير نعم لم يكن كافياً لحاجات المدينة الحالية الكبيرة ولكنه بلا ريب كان

على ساحل البحر عند طرف رأس يدخل في المياه زهاء خمسة كيلومترات ويتكوّن عنه رأس السهل المثلث الزوايا الذي يسمى حتى يومنا هذا باسم المدينة وهناك يرتفع الرأس المذكور ارتفاع تلّ بهي المنظر عظيم المساحة يشير رسم ارضه الى مشابهته لجزيرة صغيرة في القرون الاولى ولكن عند قدوم مستعمرة الجليلين كانت رسوبات المياه قد احدثت

كافياً للمدينة الصغيرة التي بنوها . فكيف صح لهم ان يتركوا ماء هذا النبع الجيد ويعدلوا الى حفر الآبار ذات المياه الكريهة . اما ما يذكرون من الاسانيد لاثبات هذا الرأي فلا يصلح حجة قاطعة لابطال رأينا لان الكتابات القديمة هي اشد موافقة لقولنا منها لقولهم . والشاهد على ذلك ان جسين اثبت انه وردت كتابة هذا اللفظ (يبروت) فيها بالنوعين . وفي الحقيقة ان سكن يتن لم يذكر بروت عشتريت مثل الهين مختلفين بل بمنزلة اله واحد . الا ان هستيسون الميلتي ذهب الى ما يخالف الرأيين المتقدمين وقال ان الفينيقيين كانوا يدلون على القوة بلفظ بروت فان « اير » و « ايروت » معناهما القوي والشجاع وعند حذف الحرف الاول يكون الباقي بروت . وعلى ذلك يكون معنى بروت مثل معنى رومة اي القوة . ومن جملة معاني اير الثور والحال ان الثور كان صفة اخرى لعشتريت (مزمور ٢١ : ١٣)

تغيراً عظيماً في هيئته الجزرية بحيث صار في غاية المناسبة والمواقفة
لسكنى اولئك القوم لان منحدر التل المشار اليه كان مائلاً قليلاً صوب
البحر ومن حيث ان الارض متكونة من الحواري الصلبة كانت صالحة
لان ترفع فوقها الابنية العظيمة وتستخرج منها بسهولة لوازم البناء .
وكان ينبجس نبع غزير من اسفل ذلك التل ويرتفع مقابله على مسافة
قليلة في البحر صخور عظيمة تصلح لان تكون ملاذاً اميناً من الاخطار
المداهمة في ذلك العصر وتكون بواسطة الجزيرة الصغيرة القرية منه
مرفاً صغيراً وخليجاً واسع بين رأسين يمكن ان تلجأ اليهما سفن كثيرة في
ايام العواصف . ثم ان ما يكتنف المدينة من السواحل البهيجة والغابات
العظيمة والحقول الخصبة المسقية بمياه النهر كل ذلك كان يضمن لهؤلاء
المهاجرين الجدد اقبالاً وسعادة اكيدتين . اما الرمل فما كان في تلك
الايام قد سطا على الجهة الجنوبية من السهل فغطاها بكثبانها . وانما كان
سهل تلك الناحية مخصباً صالحاً للسكنى كما يبين ذلك عند حفر الرمل
وعلى هذا فان المدينة القديمة كانت اقرب الى الراس من المدينة الحالية
اي انها كانت في المحل المسمى راس بيروت . لان ما يكتشف هناك
من الاثرية والحفائر لا يسوغ الريب في ذلك مطلقاً . ولم يعدل الاهلون
الى السكنى فيما وراء رأس بيروت الا فيما يلي من الزمان عندما اعيتهم
غارة الرمال فغشت ارضهم

ترى من كان رأس المهاجرين الذين بنوا بيروت ؟ - ليس من شيء يدلنا على ذلك بل الحكاية تعلمنا ان ايل او ملك جبل جاء بنفسه وترأس على بنيان المدينة الجديدة (١) . نعم ان برفير يتكلم كما لو كان بين يديه فهرست الملوك الذين تعاقبوا على عرش بيروت غير ان ذكره لاسم ابي بعل يدل على انه خلط او وفق ملوك بيروت مع ملوك صور . والحاصل ان اسم مؤسس هذه العاصمة قد باد ذكره مع اسماء الذين خلفوه . اما المهاجرون الجبليون فقد خطوا في التقدم خطوة سريعة واجمع الشعراء على انهم اصابوا السعادة في وقت قريب حتى حسدهم الصيدونيون وامتعضوا ممّا وصلوا اليه من التقدم والنجاح بسبب ما بينهم من اختلاف الجنسية ومن ثم اغاروا عليهم غارة هائلة فدحروهم البيروتيون وردوهم خاسرين (٢)

-
- (١) سكن يث . واسطفان البرنظي واستاك
 (٢) نون وديونيس ١٦ الخ . ان هذا المؤلف ذكر ثلاث اغاني في مدح حروب وظفر بوصيدون (بنتون) الذي كسر ديونيس (بكخ) في ضواحي بيروت واطمأن على ييرة (بيروت) التي اعطاه اياها ايل او ملك جبل . وانما ذكرنا هذه الحكاية لشدة قربها من الصدق ولانها تكشف لنا من تحت ستار الخرافة تقليدًا فينيقيًا عن المعامع العظيمة

دمشق (١)

ان تأسيس دمشق سبق في اقوى الظن تأسيس المدينتين الساجليتين اللتين مرَّ ذكرهما . لان القبائل الارامية لما هاجرت نحو لبنان وصلت اولاً واقامت بالمنحدر الشرقي . وهناك بادر عوص بن ارام المظنون بانه مؤسس دمشق الى اقامة محل لسكناه . ولا شك ان دمشق قد حازت شهرة عظيمة في القدماء وكانت من ايام ابراهيم طائفة الصيت في جميع المشرق وانما جعل لها ذكرًا بعيدًا عند الاقدمين حسن موقعها وخصب تربتها وبسطة اقتدارها وسطوتها . والمحدثون من العرب يصفونها باحسن الاوصاف وافخمها كقولهم انها جنة الارض وعروس المدن وانسان الدنيا . وغير ذلك . وسماها ارميا النبي بقرية المسرة (٢)

التي اولدها في القديم قرب صيدون من بيروت . اما بيروت فلم تكن لتستكين مطلقاً لعدوتها صيدون . وكان اهلها ذوي شجاعة وانفة لذلك يسميها كتاب السيلآت (١٦: ٧٨) بيروت المجيدة والايّة

(١) ذكرنا فيما مضى اصل هذا الاسم فلا حاجة الى التكرار . وهذه المدينة واقعة في ٣٣ و ٣٢ و ٢٨ من العرض الشمالي

(٢) ارميا ٤٩: ٢٥

بُنيت هذه المدينة أولاً في وادي متسع عند ذيل جبل قاسيون
بالقرب من مخرج برّدي وانتشاره في السهل الذي يرويه بئانه فيجعلهُ
شبيهاً بجنةٍ انيقة

ان المكان الذي قدّرنا وقوع دمشق فيه أولاً يقرب من الجبل
مسافة كيلومتر واحد بزيادة عن المدينة الحالية . وانما اوجبتنا الى هذا
التقدير هو ان المكان المذكور كان انصب لنزول امة قليلة العدد ووفق
لتحصنها فيه . وقد ورد في رسائل المرسلين الاقدمين من اليسوعية في
الكلام عن دمشق ان القديس هيرونيم (١) قال ان المقدونيين
جدّدوا بناء دمشق ليس في محل تأسيسها الاول بل في محل ابعد منه
بقليل . والسبب الذي اضطرهم الى ابعاد المدينة عن مركزها الاصلي
هو اشراف الجبال عليها من اكثر جهاتها فاختراروا من ثم ان يجعلوا
المدينة في السهل المتسع التي هي فيه اليوم بحيث تكون قريبة من
الانهر الكثيرة التي تزيدها رونقاً ورفاهية غير ان سفح الجبل كان بمنزلة
مجنّ للمدينة القديمة فان كانت معدومة من بهجة السهل ورونقه فانها
كانت مستعيضة عن ذلك بكونها اوفر اماناً واكثر طمأنينة

قلنا ان عوصاً هو المظنون بانه باني دمشق وما اجمع العلماء على
نسبة تأسيسها اليه الا بالاستناد الى رواية فلاّث يوسف (٢) هذا

(١) في اشعيا ١٠: ٧٧ (٢) فلاّث يوسف في الآثار اليهودية

فضلاً عن ان جميع الامور تثبت الرأي المشار اليه . اما الرأي المخالف الذي ينسب تأسيسها الى اليعازار خادم ابراهيم لانه يسمى بالدمشقي (١) فهو عارٍ عن كل سند مثل خبر نيقولا الدمشقي الذي ادعى بان ابراهيم ابا المؤمنين كان اول ملك على هذه المدينة . (٢) وكانت دمشق في ايام ابراهيم مدينة ذات اهمية كما يستفاد ذلك من نص سفر التكوين (٣)

٤

بعلبك (٤)

تعدّ بعلبك كما سلف لنا من اقدم مدن الدنيا . ولكن ماذا كانت تسمى قبل ان دعاها اليونان هليوبول (مدينة الشمس) والعرب

١ : ٦ و ٤ . وقد كرّر القديس هيرونيم هذه الشهادة في شرح العدد الثالث من الفصل ١٥ من التكوين

(١) التكوين ١٥ : ٢ لربما كان هذا الخادم مولوداً في دمشق ولكنّه بالاجمال لا يمكن خادماً رجل متعبداً ان يؤسس المدن

(٢) ذكره يوسف في الاثار اليهودية ١ : ٧ و ٢ وذكر يُستين

(٢ : ٣٦) نفس هذا التقليد (٣) التكوين ١٤ : ١٥

(٤) بحث العلماء عن اصل هذه التسمية مدة طويلة وما ظفروا

بعلبك ؟ ان كل شيء يحمل على الظن ان السوريين او الفينيقيين
دعوها قبل الفتح المقدوني ببعلبك ايضاً . لان الكتابات المسماة تسميها
بعلبكي كما يسميها ايضاً اصحاب التلمود . وقد استمرت تسميتها هذه عند
الوطنيين في مدة ولاية اليونان والرومان . وشهد اميان مركلين (١) ان
الاسماء السامية في سورية التي بقيت مستعملة عند الوطنيين رغمًا عن
اسماء المدن الجديدة التي وضعها اليونان عادت الى الاستعمال العام بعد
الاستيلاء العربي . ولكن هذه التسمية نفسها اما كانت بدل تسمية اخرى
قديمة ؟ ظن كثير من المؤلفين ان الكتاب المقدس يذكر بعلبك قديمًا
تحت اسم بعل جاد (٢) الا ان هذا الرأي مع ظهور قربه من الصحة
تنقضه النصوص الصريحة . نعم ان النصوص المذكورة تذكر بقعة لبنان
(البقاع) ومدينة بعل جاد التي تحت حرمون او الجبل الشرقي (٣)
الا ان هناك قرينة ظاهرة على ان تلك الانباء الجغرافية عن بعل جاد

بطائل . ولكن ما كشف من الكتابات الفينيقية يتكفل ببيانها :
فيوجد في بلوت (Pænulus 5, 2, 12) هذه الكلمات « مي بر بكأ »
التي تفسيرها « من ابن مدينة » فمعنى بكأ بالفينيقي مدينة وعليه فان
تفسير بعل بك مدينة بعل (١) ٣ : ١٤

(٢) هذا رأي ميكائيليس وروسنلر وغيرهما (٣) يشوع ١١ : ١٧

هي عن موقع اكثر اتجاهاً الى الجنوب من موقع بعلبك . لان بعل جاد هي في الحقيقة حد الفتوحات التي اكلها يشوع فكانت اذاً من جهة املاكه وفيها انتصر وقتل جميع الملوك الكنعانيين . والحال انه ليس شيء في الكتب المقدسة مما يسوغ لنا الظن بان يشوع افتتح جميع جهات لبنان الشرقي ولا بالخصوص انه امتلك الى حد بعلبك فيما وراء دمشق

ومما ثبت هذه الامور هو ان الكتاب المقدس قد صرح فيما بعد ذلك بان بعل جاد كانت في عبر الاردن (١) وتكلم هنالك عن الارض التي امتلكها الاسرائيليون من بعل جاد في سفح حرمون الى حد مدخل حماة (٢) والحال انه لو فرض ان المراد منها فقط الوادي الضيق الذي يؤدي من بعلبك الى مدخل سهل حمص وحماة لما كان في ذكرها من اهمية او على الاقل ما كانت تبتدى من هذا الحد الشمالي الذي لم يفتحه يشوع ويملكه الاسرائيليون عند قاعدة حرمون الاكبر . وبناء عليه فان بعل جاد لم يكن ممكناً ان تكون في مركز بعيد عما وراء وادي الحولة صوب المنحدر الشمالي لحرمون . وربما انها كانت في موقع بانياس الحديثة لان لايش (دان) المدينة القريبة منها يمكن

بحسب التقسيم القديم ان تكون من املاك الكنعانيين وتكون بعل جاد من املاك العبرانيين

ولنرجع الى الكلام عن بعلبك القديمة فنقول : ولو انه كان متعذراً علينا ان نخلط بعلبك مع بعل جاد فان لدينا مع هذا من الانباء ما هو كافٍ لاثبات اهمية وقدامة الاولى من هاتين المدينتين لان ما في هذه الابنية الاولى من الصخور العظيمة المدومة من الهيئة الهندسية تضطرنا الى الاعتراف بانها قديمة جداً بل انه لا يوجد ما هو اعرق منها قدامة . وهذه الابنية العجيبة تدلنا دلالة صريحة على انها كانت معبداً عظيماً وان امة من الجبابرة كانت تسجد فيها للشمس . ولما كانت بعلبك مستترة في سفوح الجبال عند تحم كثير من الممالك محمية بلبنان الغربي من لصوص البحر وبالشرقي من حبال ومكايد اهل الشرق كان مركزها من اوفق المراكز التي تجعلها محلاً مخصوصاً بعبادة بعل وتغشي اسرارها بغشاء لا ينفذ اليه البصر . ومن ثم فان هذه المدينة كانت في اول الامر مسجداً للعبادة السورية الفينيقية . ومع انها واقعة في احسن محل عند مدخل البقاع الشمالي مشرفة على سهول بهية تشتمل على مسافة اكثر من مئتين واثنين وعشرين كيلومتراً مربعاً وقادرة ان تمتد شوكتها ونفوذها وتصل الى اعلى درجة من السعادة وترتبط باحسن العلائق مع جميع الامم القديمة نرى انها لم تكن مطلقاً

الا مركزاً دينياً ومعبدًا مشهورًا لبعل وقاعدة مملكة كهنوتية يرجح انها كانت صغيرة جدًا. ومن حيث انها كانت تجاري جميع الممالك التي تجاورها بالعظمة والاقدام بسبب ما كان لها من الكرامة الدينية استخدمت عطايا الامم وهباتها رفعت تلك الآثار الجبارية التي لا تزال الى اليوم نقضي العجب من خراباتها . اما ولاية مدينة بعل فانها كانت كهنوتية محضة وألاً فلا اقل من انها كانت منقسمة بين كاهن بعل الاكبر و (بين) ملك اخر مكلف على الخصوص بسياسة الامور المادية وهذا ما كانت تقتضيه الحالة الدينية لتلك المملكة الصغيرة. غير ان بعلبك هذه مع ما كانت عليه من الولاية الدينية تحولت في ما يلي من الزمان لسبب وقوعها بين صور وتدمر على طريق القوافل الى مدينة تجارية مهمة ووصلت الى حالة معتبرة من النجاح حتى صارت من ازهر مدن سورية المجوفة

٥

حمص

ان في ما وراء بعلبك في وادي العاصي مدينتين قديمتين جداً وهما حمص وحمّة. واذا نظرت الى معنى تسميتهما قطعت ان عبادة بعل الشمس قد غلبت عليها منذ تأسيسهما . ويحتمل ان تكون قد هاجرت اليهما قبيلة بعلبكية او قبيلة اخرى تتصل بها نسباً

اما حمص (١) فقد قيل ان ارام بن سام هو الذي أسسها بنفسه فان صدق ذلك فانها بقيت زماناً طويلاً خاملة الذكر ويحتمل انها كانت مختلطة بقدس وهي مدينة في عبر العاصي كانت في القديم ذات اهمية عظيمة كما تشهد به الآثار المصرية . ولا شك ان هذه المدينة الجديدة بنيت تحت حماية بعل لان اسمها ليس في الحقيقة الا احد القاب الاله الشمس باللغات السامية وهيكلها لعبادة الشمس كان يضاهي هيكل بعلبك عظمة . ومن المعلوم ان ولاية هذه المدينة ولو انها لم تكن في يد الكهنة فقد كان لهؤلاء مع ذلك نفوذ قوي في امور المملكة وخرج منهم فيما يلي ملوك تولوا عرش السلطنة الرومانية . ومن حيث ان مدينة حمص واقعة في حاشية البادية على طريق التجارة الاسيوية وقائمة في سهل عظيم غير بعيد عن العاصي وعن البحيرة التي

(١) معنى حمص في الارامية اشتدّ وسخن واختر ومنها في العربية حمص الحب اي حمسه وقلاه . وعليه فان حمص كانت عند الاراميين اولاً وصفاً للشمس ثم صارت اسماً مخصوصاً بالاله الشمس . فينتج من هنا ان حمص أسست بارتباط شديد مع بعلبك مدينة بعل الشمس وان قدس التي اخبرت عنها الآثار المصرية لا تختلف عن حمص التي كانت مدينة الشمس المقدسة

ير فيها النهر المذكور وجب ان يكون لها منذ تأسيسها اهمية كبيرة كما
وجب ان تكون ايضا مطمحا لجميع انظار القاطنين

٦

حماة (١)

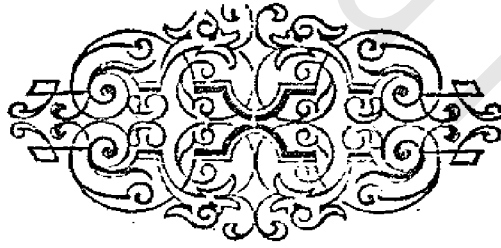
هي على مسيرة يوم من حمص نحو الشمال مبنية في وادٍ ضيق
وراء ربوتين وممتدة على عدوتي النهر العاصي في وسط الجنائن البهيمة
وقد ورد ذكرها في الكتاب من عهد قديم جداً والمملكة التي كانت
حماة عاصمة لها اشتهرت في ذلك الزمن على الخصوص بكونها تحماً
شمالياً لارض الميعاد (٢) فقد كانت اذاً من ايام الخروج اكبر مدائن

(١) من حمَّ بالعبرانية او حمت بالسريانية ومعنى كليهما سخن
وصار حاراً . واما حمَّ بالعبرانية فمعناها ايضاً حرارة الشمس . وبما ان
عادة السريان ان يبدلوا التاء صاداً فعلى ذلك يحتمل ان تكون حمت
وحمص من اصل واحد . على ان تقارب هذه المدن الثلاث اي
بعلبك وحمص وحماة المحصورة بعبادة الشمس يقرب هذا التفسير
من الصحة

(٢) سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ — سفر يشوع ١٣ : ٥ و ١٩

٣٥ : سفر يهوديت ٣ : ٣ الخ

سورية العليا كما انها لم تزل مدينة مهمّة الى ايامنا هذه. وانما بلغت ما بلغت من العمران بسبب موقعها الحسن في وادي العاصي عند الطريق الممتدة على طول مجرى النهر المذكور لانها كانت تؤدّي اليها بالضرورة جميع القوافل القديمة التي تسافر الى الجهات الشمالية من آسية



فهرس

الجزء الثاني

الفصل الثالث

صفحة

١٩٣	في الخرافات الوثنية بلبنان	
٢٠٧	جبل او جبيل	١
٢٣٣	بيروت	٢
٢٧٢	صيدا او صيدون	٣
٢٨٧	صور	٤
٣٠٢	دمشق	٥
٣١٣	بعلبك او هليوبول	٦

الفصل الرابع

٣٢٦	في الاصول الارامية	
٣٤٢	مملكة دمشق	١
٣٤٤	مملكة صوبة	٢
٣٤٥	حماة =	٣
٣٤٨	حمص =	٤
٣٥٠	رحوب =	٥
٣٥٢	معكة او ارام معكة =	٦
٣٥٥	طوب =	٧
٣٥٦	جشور =	٨

صفحة

٣٥٧	٩ مملكة بطور
٣٥٩	١٠ = ارجوب
٣٦٠	١١ = باشان
٣٦٤	١٢ = جبل (جبل)
٣٦٩	١٣ = بيروت
٣٧٢	المدن اللبنانية
٣٧٥	١ مدينة جبل او بيل او جبيل
٣٨١	٢ بيروت
٣٨٦	٣ دمشق
٣٨٨	٤ بعلبك
٣٩٢	٥ حمص
٣٩٤	٦ حماة



الفصل الخامس

في

الاصول الكنعانية

بليان

ان الاصول الكنعانية معروفة اكثر من الاصول الارامية التي مرّ الكلام عنها وفيها مجال فسيح للبحث والاستقصاء لان القبائل الكنعانية المعروفة خصوصاً بالقبائل الفينيقيّة قد اتت في قديم الدهر اهم ما يحق ذكره في التاريخ دينياً كان او مدنياً واخبار شهرتها لا تزال الى الان مطمئنة عند جميع الامم مع ارتباطها اشد الارتباط بشهرة العبرانيين ان حاماً ثاني اولاد نوح قد جلب على نفسه لعنة الله بكلامه وبما استحلّ النظر اليه في حال سكر ابيه . فلما افاق نوح من خمره امتلاً حالاً من الالهام الالهي وفي وقت غضبه الابوي رشق باللعة عائلة ابنه الشرير ولكنّه اوقع تلك اللعة فقط على آخر اولاد ابنه الاثيم اما لانه كان اشدّ شبيهاً بابيه واما لانه شاركه في ذنبه فقال : ملعون كنعان عبداً يكون لعبيد اخوته (١)

(١) التكوين ٩ : ٢٠ و ٢٧

فكانت نتيجة هذه اللعنة كما يجب تقديره انفصال كنعان وعائلته
حالا عن بقية ذرية نوح لانه لما صار بغيضاً الى اخوته وابيه تنحى عنهم
وفرّ على مثال قايّن يلتمس له وطناً اخر يستتر فيه خجلته فما عثم ان وصل
الملعون الى لبنان وابتهج بجودة هوائه وحسن موقعه وطيب تربته فاقام
بمنخفضه الجنوبي واحلّ عائلته في الجهة التي دعيت ارض كنعان او
الكنعانية وهي التي سُميت بعد ذلك باحسن الاسماء اي ارض الميعاد
والارض المقدسة وفينيقية وفلسطين

ان عائلة كنعان انتشرت في كامل ارض تلك الجهة ثم تكاثرت
حتى احتلت من صيدون الى جزار وغزة ومن هناك الى حدّ تخوم
سدوم وعمورة وادمة وصبوئيم الى لاشع (١) وهكذا تقسمت هذه
الارض النخبة بين احدى عشرة قبيلة متألّفة من عائلات ابناء كنعان
الاحد عشر وهم الصيدونيون (ابناء صيدون) والحثيون (ابناء حث)
واليبوسيون (ابناء يبوس) والاموريون (ابناء امور) والجرجاشيون

(١) التكوين ١٠: ١٩ ان القديس ابيفان (في البدع ٦٦ - ٨٣)

وغيره كثيرين من القدماء اخبروا انه بعد ان قسمت الارض بين بني
نوح لم يستطع كنعان ان يسكن في افريقية بسبب شدة حرارتها فاضطر
ان يرجع الى فينيقية

(ابناء جرجاش) والحويون (ابناء حو) والعريون (ابناء عرق)
والسينيون (ابناء سين) والارواديون (ابناء ارواد) والصماريون (ابناء
صمار) والحمايون (ابناء حماة) (١) . هذه هي القبائل الكنعانية التي
عمرت في بادئ الامر هذا القسم من آسية المتقدمة . ألا ان هذه الارض
قبل ان يسكنها النسل المبارك أعطيت أولاً للنسل الملعون
ولما كان هؤلاء الكنعانيون مطبوعين على الحرص والنشاط
للكسب اخذوا منذ بدء اقامتهم يجدون حتى توصلوا الى استخراج المنافع
من تلك الارض الغنية التي امتلكوها وبلغوا اعظم الجاه والاقتدار
ورقوا الى اعلى درجات السعادة التي وجد هم عليها الاسرائيليون عند ما
استولوا على اراضيهم (٢)

وربما تعجب متعجب من السعادة الغريبة التي وصل اليها الكنعانيون
رغمًا عن لعنة ابيهم نوح البار وعن كثرة جرائمهم ومرتكباتهم . فاقول
ان الله قلما يعتبر خيور الدنيا الزائلة لذلك تركهم ينتفعون بمنافع الارض
ويستمتعون بالمجد الزمني مكافأة لهم على نشاطهم وحرارتهم في العمل
وشجاعتهم وفطنتهم وسائر فضائلهم الطبيعية وتلك عناية من الله عجيبة

(١) التكوين ١٠ : ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨

(٢) سفر العدد ٢١

نادى بها القديس اوغسطين في كلامه عن الرومان الذين كانت بدايتهم جماعة متألفة من قطاع الطرق (١) ولكنه بعد ان مهد لهم طرق الهداية فاذ لم ينتفعوا بها بل توغلوا في الاثم ضربهم بيده القديرة منتقمًا منهم وجعلهم « عبيدًا لعبيد اخوتهم »

لا يصح لنا ان نتوقف عند هذه القشور الخارجة بل ينبغي ان نحوض في هذه المسئلة فترى بسهولة ان تلك اللعنة الالهية والابوية قد حلَّ تأثيرها في هذا النسل منذ بدئه . اذ ان ذنب حام وكنعان كان على اعقابهما بمنزلة خطيئة اخرى اصلية قد بثت فيهم على ممر العصور ارداء الاهواء وطبعت فيهم اغلظ الاميال واشدّها فسادًا . فان كنعان خصوصًا وجميع هذه القبائل قد دتسوا اعراضهم بما تعلقوا به من العبادات الفاضحة التي تتخذ ذكر نظرة كنعان الدنسة . بل الظاهر ان هذه الامة لم ترتفع كل هذا الارتفاع الا لتتكب باشد النكبات وتُطرد اقبح الطرد من وطنها الزاهر وتسلم الى عبودية ابدية في كل ارض سكنتها . فالكنعانيون هم ملعونو العهد القديم كما ان اليهود هم ملاعين العهد الجديد

ولكنك اذا نظرت بعين المدقق الى سعادة الكنعانيين ثبت لديك

انه يمكن اعتبارهم منذ ذلك الزمن القديم عبيداً لآخوتهم وفقاً لنبوّة نوح . وذلك لانهم اخذوا من اول امرهم يتعاطون التجارة والصنائع لخدمة سائر جهات الارض وشرعوا يشتغلون لابناء سام ويافت ليلهم مع نهارهم ويكدّون بالعمل ولا كدّ العبيد رجاء ربح ليس هو في الحقيقة الا اجرة زهيدة لنصّيبهم . نعم ان تجارتهم كانت ذات منفعة وقد سيقوا اليها بعناية ربّانية غير ان لتحصيل الثروة وتعاطي اسباب التجارة طريقة اسمى واشرف . فان الامة التي تستغني بمحاصلات بلادها وتشترى بما يزيد على حاجاتها بضائع جيرانها المحترفين هي ولا شك اقل استرقاقاً واكثر استقلالاً وثباتاً من امة لا تعيش ولا تستغني الاّ بان تراقب حاجات سائر الامم فتشتغل لها وتحمل اليها حاصلات اتعابها لكي تفوز منها باثمانها . والحق يقال ان نسبة الامة الاولى الى الثانية نسبة السيد الى العبد . وبهذا المعنى كان كنعان من اول الامر عبداً لعبيد اخوته . وزد على هذا ان النبوّة المذكورة قد تحققت بجميع اجزائها . يُثبت ذلك ان عشيرة كنعان بل عشيرة حام وان وُجدت في بعض الجهات وكانت اكثر السكان عدداً فانه ليس لها مطلقاً حياة خاصّة طائفية يتكوّن عنها مملكة مستقلة

وما دعانا الى تقديم الكلام بهذه الشروح انما هو ما يتولد من الريبة في العقول بسبب نجاح اهل الشر بل نبوّة نوح التي صبّت اللعنة

على اصل الكنعانيين الذين استمرَّت لهم السعادة زمنًا مديدًا
واعلم اننا لم نتحرَّ البحث عن جميع القبائل الكنعانية في اصل
انتشارها ولا تعيين المكان الذي تزلت به كل منها ولا تعداد جميع
الممالك الصغيرة التي أسستها. بل اننا بعد ذكر هذه الاشارات العمومية
عن اصل الكنعانيين نبحث عن اشهر قبائلهم التي سكنت في جنوبي لبنان
وقد اعترض المحدثون من اهل العلم على ان خبر محبي الكنعانيين
توأ الى جهة لبنان خبر ناقص . واقترح هؤلاء العلماء بانهم قد اصلحوا
امورًا كثيرة في تاريخ هذه الاصول الشرقية وتوهموا انهم يستطيعون
الاثبات بان فلسطين كانت مأهولة بالجبابرة قبل وصول الكنعانيين
بعده مديدة وزعموا ان ابناء كنعان لم يصلوا الى سواحل البحر المتوسط
الا بعد ان اقاموا مدة طويلة عند خليج فارس وقضوا وقتًا مديدًا
يتيهون في صحراء العربية

فيتعين علينا قبل كل شيء ان نبحث عما اذا كان ثابتًا او راجحًا
بقاء اثر في فينيقية او فلسطين للشعوب التي يزعمون انها اقامت بهاتين
الجهتين قبل الكنعانيين . والحال اولا ان الكتاب المقدس قد سكنت
سكوتًا تامًا عن قدوم هؤلاء الشعوب . ثانيًا ان المؤرخ يوسف والتقليدات
الفينيقية لا يؤخذ منها اقل نبيًا وضعي في هذا الشأن . والحجة الوحيدة
التي عوّلوا عليها لتقرير هذا الرأي ما يروونه عن بعض مؤرخي اليونان

المحدثين بالاضافة الى ذلك العهد ثم بعض اسماء غريبة لعشائر اولئك
الجبابرة

وهل هؤلاء الجبابرة سبقوا الكنعانيين حقيقة الى ارض كنعان ؟
هذه هي المسئلة المقصود اثباتها فاذا ثبتت فقلما تهم بعدها غرابة اسمائهم
التي هي من غير شك سامية محضة ولكن ذلك امر يتعذر تقريره مع
ما لدينا من الانباء التاريخية . هذا فضلاً عن ان كل شيء يثبت ان
هؤلاء الجبابرة الذين يُفترض انهم سبقوا الكنعانيين الى هذه الناحية
لم يكونوا بعكس ذلك الا من عداد الكنعانيين انفسهم . واعلم اننا لا
نتكلم هنا الا عن الجبابرة الذين كانوا عائشين في النواحي المجاورة
للبنان قبل دخول الاسرائيليين في ارض الميعاد
هلم الان نبحث عن اصل جبّار مشهور من الرافائيين (١) ذي قامة

(١) الرافائيون هم اكبر قبيلة من الجبابرة . ولعل هذه التسمية
مشتقة من « رفا » بالعبراني بمعنى شني وبني او على الأرجح من اصل
محفوظ ايضاً في العربية اي « رفع » فيكون معنى الاسم « المرتفعين او
العالين » وهو نفس معنى قولك « الجبابرة » . وقد أطلق هذا الاسم
فيا بعد على الجن والشیاطين والاموات (اشعيا ١٤ : ٩ — امثال
٢ : ١٨ الخ)

كبيرة اعني به عوج ملك باشان الذي كان طول سريره الحديدي او في الارجح ناوسه المحفوظ في ربة بني عمون لا اقل من تسعة اذرع اي خمسة امتار في الاقل او مقدار قامة ثلاثة رجال اعتيادين (١) والحال ان هذا الجبار الذي يظهر انه مثال تاريخي لنسله لم يكن من قبيلة سبقت الكنعانيين الى هذه الارض كما يزعمون وانما كان ملك قبيلة الكنعانيين الاموريين (٢) وكان هو ايضا امورياً (٣) بل هو اخر من بقي من الجبابرة (٤) الذين استأصلهم بالتقريب العمونيون والموابيون. وعليه فان الجبابرة الرافائيين لم يكونوا كما يظهر من امر هذا الملك الا عشائر كنعانية خالصة

(١) تثنية الاشتراع ١١: ٣ ويحيى البعض عن عوج اموراً مضحكة قال ابن خلدون في الكلام عن الجبابرة : وولع القصاص . . وسطروا عن عاد وثمود والعمالة والكنعانيين في ذلك اخباراً عريقة في الكذب من اغربها ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من العمالة الذين قاتلهم بنو اسرائيل في الشام زعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه في الشمس «

(٢) تثنية الاشتراع ٨: ٣ (٣) عاموس ٩: ٢

(٤) تثنية الاشتراع ١١: ٣ — يشوع ٤: ١٢

وقد ورد ذكر كثير من عشائر الجبابة ولكنه لا يمكن ان يُعين لها اصل غير اصل الرافائيين لانها تدخل في الاكثر تحت هذه السمية الجنسية

ان بني عناق (١) كانوا جبابة مقيمين فيما دون الاردن واستولوا على حبرون . والاييمون (٢) والزوزيون او الززميون (٣) كانوا مقيمين بعبّر الاردن وقد تسلطوا مدة طويلة على ضفاف البحر المائت ونهر

(١) يشتق هذا اللفظ من « عنق » بالعبراني ومعناه العنق . قيل انهم سموا بذلك لطول اعناقهم ولكن تكنيتهم ببني عناق تدل على ان عناق اسم لابي عشيرتهم

(٢) الايمون وبالعبراني « اميم » اي الاهوال والهائلون سموا بذلك اما لهيئاتهم الخيفة واما اشدة قوتهم وفراط قسوتهم لانهم كانوا قومًا اهل غارات وسفك دماء . ولكن ليس من دليل يمنع اعتبارهم مثل كنعانيين

(٣) ان هذه الطائفة من الجبابة تدعى بهذين الاسمين (التكوين ١٤ : ٥ الخ - تثنية الاشتراع ٢) والظاهر ان هذا اللفظ مشتق من « زعزم » بالعبراني اي ارتعد ورجف فيكون المراد به الطائفة التي تاتي الخوف والارتعاد

الأردن . غير ان جميع فروع هؤلاء الجبابرة انما هي متسلسلة عن اصل واحد كنعاني . لان نص تثنية الاشتراع لا يسوغ الرب مطلقاً في نسبة هؤلاء الى نفس ذرية الرفائين وكونهم من جملة افراد العشائر الكنعانية خصوصاً الامورية . وهذه آية الكتاب « فقال لي الرب لا تُعادِ الموابين ولا تناصبهم حرباً فاني لست معطيكم من ارضهم ميراثاً اذ لبني لوط وهبت عار ميراثاً وكان الاعميون قد اقاموا بها قبلاً وهم شعب كثير طوال القامات كالغناقيين . وهم يحسبون جبابرة (رفائين) كالغناقيين والموابيون يسمونهم اعميين . . . وارض بني لوط تُحسب من ارض الجبابرة لان الجبابرة (الرفائين) اقاموا بها قبلاً والعمونيون يسمونهم زمزميين وهم شعب عظيم كثير طويل القامات كالغناقيين فاهلكهم الرب من بين ايديهم فطردوهم واقاموا مكانهم كما صنع ابني عيسو المقيمين بسعير اذ اهلك الحوريين (١) من بين ايديهم فطردوهم واقاموا مكانهم الى هذا اليوم (٢) »

والحال ان هؤلاء الجبابرة كما هو منطوق الآية يدعون رفائين

(١) الحوريون وبالعبراية « حريم » مشتقة من « حر » اي الثقب والمغارة كانهم كانوا يسكنون الغيران في جبل سعير

(٢) تثنية الاشتراع ٩: ٢ و ١٠ و ١١ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢

(او رفائيم) ولكن الموابيين والعمونيين سموهم باسماء خصوصية توضح صفاتهم الخارجة فقط ولا تدل مطلقاً على اختلاف اصلهم عن الكنعانيين . وقد ذكر عنهم مثل ذلك عند غارة كدراً لعومر والملوك الذين معه وهم الذين ضربوا الرفائيين في عشتاروت قرنيم والروزيين في هام والاييمين في شوى قريتائيم والحوريين في جبلهم سعيير (١) غير ان جميع هذه الانباء التاريخية لا يُستدل منها على وجود فرق بين هؤلاء الجبابرة و (بين) الكنعانيين بل ايضاً بين قبائل الرفائيين المختلفة ألا في اسماء العشائر والقبائل التي أخذت من عناق ابيهم او من قوتهم وقاماتهم واكنة ليس من شيء يدل على تميزهم عن نسل الكنعانيين القابل كغيره من الانسال ان يكون فيه جبابرة . ولما كان جميع هؤلاء الجبابرة من الرفائيين وقد تأكد ان الرفائيين كانوا كنعانيين فقد وضح اذا ان كل الجبابرة كانوا من بني كنعان . وما نراه من انهم « اقاموا بهذه الارض قبلاً » (٢) فان هذه القبلية لم يذكرها الكتاب مريداً بها انهم تقدموا الكنعانيين اخوتهم بل عنى بذلك كما يشير منطوق العبارة الى تقدمهم الموابيين والعمونيين الذين كانوا من ذرية حفيد

(١) التكوين ١٤ : ٥ و ٦

(٢) تثنية الاشتراع ٢ : ١٠ و ٢٠

ابرهم ولم يتألفوا طائفة إلا عند ما كان الكنعانيون قدما في البلاد
بلا شك (١)

ان اقدم الانباء التاريخية لا تسوغ على وجه الاطلاق اثبات كون
الكنعانيين عند وصولهم الى ناحية لبنان وجدوها مأهولة بقبائل الجبارة
ولكن بعكس ذلك يجب القول بان الكنعانيين هم اول الذين قدموا
للاقامة بالجهة التي نسبت اليهم وهي التي ذكر موسى حدودها بكامل
التدقيق (٢)

ولم يقع في ارض الميعاد مهاجرة قديمة بعد قدوم الكنعانيين إلا
مهاجرة الفلسطينيين ولذلك تنبه الناس اشد الانتباه الى هذه المهاجرة
حتى صار اسم الفلسطينيين مرادفا للمهاجرين ولكن هؤلاء ما اقاموا
إلا بقسم صغير من ساحل البحر المتوسط. ثم ان اللغة الكنعانية التي
استمرت سالمة من غير اختلاط الى حد الازمنة التاريخية هي حجة أخرى
لا تدفع على انه لم يقع غارات ولا امتزاج امم في ارض لبنان او
فلسطين. وليس من وجه مقنع على رأينا لموافقة بعض الآباء الاقدمين
في ان الكنعانيين لم يكن لهم حق شرعي في الحلول بهذه الارض قبل
الجميع لان نوحا على زعمهم كان قد وهبها لسام فغصبه اياها كنعان.

وذلك لان الكتاب المقدس لم يصرح مطلقاً بشيء من هذا لما وعد
شعبه ارض كنعان (١)

قد ثبت ان الكنعانيين اقاموا اول الجميع بهذه الجهة فبقي بحث
اخر فيما اذا كان قد وقع لهم مهاجرات سابقة قبل وصولهم الى سواحل
البحر المتوسط . لكن بما ان ابناء كنعان كانوا اول من اقام بهذه
الارض الجميلة التي تسمى باسم ابيهم فهل يقرب من الصحة انهم لم
يصلوا اليها منذ تفرق الشعوب ؟ . اذ ليس يتصور ان هذه البلاد
الكثيرة الخصب التي كانت تتنازعها رغائب الاقدمين لمكان حسنها
استمرت غير مأهولة مدّاتٍ طويلاً بينما كان الكنعانيون يهيمنون في
صحاري العربية . ومع هذا لا ينبغي عليك ان القدماء من اليونان كان
عندهم رأياً شائعاً ان الفينيقيين هاجروا من سواحل البحر الاريثري
والحال ان الاقدمين ما كانوا يفهمون بهذا الاسم فقط البحر الاحمر
ولكن جميع بحر الهند ايضاً وخصوصاً خليج فارس . وهذا الرأي الذي
انتشر في القديم اخذاً عن اليونان لم يزل العلماء الى يومنا هذا يدافعون
عنه مدافعتهم عن مسألة تاريخية

(١) التكوين — ١٢ — ١٣ : ١٥ — ١٥ : ١٨ — ٢٣ —

من اين علم اليونان ياترى هجرة الفينيقيين ؟

الظاهر انهم في الاصل توهموا انها مذكورة في اشعار هوميرو لان الشاعر المشار اليه عند تعديده لشعوب المشرق التي كان قليل المعرفة باحوالها قال ان مركب منيلا قدفته المياه الى بلاد الاتيوبين واتى بعد هؤلاء الشعوب باسم الصيدونيين والارميين (١) وقد استنتجوا من ذلك ان الصيدونيين اقاموا اولاً في ما وراء الحبشة في جهة البحر الاحمر غير ان هذه النتيجة التي استخرجوها هي عارية عن كل برهان كما ان النص المستخرجة منه مبهم . اما هيروودوت فقد ذكر كلاماً اصرح واوضح قال : « ان الفينيقيين كما يخبرون هم بانفسهم اقاموا اولاً عند البحر الاريتري ولكنهم رحلوا من هناك وجازوا فسكنوا سواحل بحر سورية وجميع هذه الجهة السورية الواصلة الى حد مصر تسمى فلسطين » (٢) الا ان شهادة الفينيقيين التي اوردها هيروودوت اثباتاً لصحة مهاجرتهم اولاً من سواحل البحر الاريتري لا يستبعد صدقها اذا لم يرد بالبحر الاريتري الا البحر الاحمر الحالي الذي امكن للفينيقيين او الكنعانيين ان يدرسوا سواحلهم قبل غارة الاسرائيليين . غير انه من

(١) هوميرو في الاوديسة الرابعة ٨٣ و ٨٤

(٢) هيروودوت ٧ : ٨٩

المستحيل ان يكون الفينيقيون قد اخبروا هيرودوت بمثل هذا الخبر اذا ارادوا مهاجرة من مكان ابعد وذلك لان الفينيقيين ينادون دائماً بانهم اصليون ووطنيون في فينيقية كما يعرف كل من وقف على اخبارهم وحكاياتهم واسماهم واختراعاتهم وعليه يسوغ لنا التوهم بان هيرودوت اما انه ضلّ ضللاً لا صريحاً في اتيانه بشهادة الفينيقيين لاثبات هذه المسئلة واما ان ذلك كان من جملة رداآته التي وُجّه عليها بلوترك اكثر من مرة (١) . غير ان في عبارة هيرودوت هذا ابي التاريخ قرينة تبرئ ساحته وتضمن صحة التقليدات القديمة فان الفينيقيين الذين تكلم عنهم ما هم الا الذين سكنوا ساحل فلسطين وعليه فانه قد اشار بذلك الى انباء اخذها عن اليهود وهذا يدل على انهم اخبروه بعبورهم البحر الاحمر

وهذه الملاحظة توضح بغاية السهولة كل شيء بموجب انباء وضعية وتاريخية غير انها تنقض القول بالمهاجرات الكنعانية . ومع هذا فان

(١) ان هيرودوت (١ : ١) اقرّ انه تلقى اكثر اخباره عن الفرس . قال يوسف المؤرخ : جميع المؤرخين يتهمونّه بالكذب (يوسف ضد ايون ١ : ٣) وقال عنه ديودور (١ : ٦٩) انه تجرأ على ايراد اخبار افصكية

يستين مختصر تروغ بمبي قد ذكر عن هذه المهاجرات الفينيقية كلاماً
 اصرح واوضح من كلام المؤرخين السابقين قال : ان الفينيقيين لما
 آذتهم الزلازل في اوطانهم واضرت بهم هجروها واقاموا اولاً بالقرب
 من البحيرة الاشورية ثم رحلوا من هناك وتزلوا عند البحر . وفي ذاك
 المحل بنوا مدينة سموها صيدون لكثرة الاسماك في ساحلها لان صيدون
 باللغة الفينيقية معناها السمك (١) الا ان هذه الشهادة لا تعلمنا عن
 محل اقامة الفينيقيين الاولى ولا عن موقع البحر والبحيرة الاشورية التي
 تركوها ولو انه امكن التقدير بكل سهولة ان مراده بذلك خليج
 فارس (٢)

وكيفما كان الامر فان يستين قد لخص فقط ما كان قد رآه

(١) يستين ١٨ : ٣ والصحيح ان معنى صيدون صيد السمك

لا السمك بعينه

(٢) من المحتمل ان يكون يستين قد اراد بذلك خليج فارس

لان هيرودوت والرومان واليونان كانوا يسمون الفرس والاشوريين باسم
 واحد . وعلى ذلك فقولهم خليج فارس والخليج الاشوري كلاهما بمعنى
 واحد . وكذلك برسكيان لم يفرق بين البحر الاريتري والبحر الاشوري

(شعر ٨٤٣)

من كلام هيرودوت وعليه فليس هو بشاهد جديد وشهادته لا تغني شيئاً في هذه المسئلة التاريخية. ومن ثم كان الاحسن بنا ان نرد في هذا الخبر منبعه الاصلي ونذكر كلاماً آخر لهيرودوت قال : ان فهما الفرس يخبرون ان الفينيقيين كانوا السبب الاول في الحروب التي انتشبت بين اليونان والبرابرة. وزعموا ان هذه الامة عند ما تركت البحر الاريتري (خليج فارس او اشور) جاءت فاقامت بشواطئ البحر المتوسط في نفس الناحية التي هم مقيمون بها اليوم وبادروا في الحال الى معاناة الاسفار الطويلة في البحر لينقلوا بضائع مصر واشور الى جهات مختلفة حتى الى أرج اكبر مدينة اذ ذاك في بلاد الهلاد (١) وهنا يجب التنبيه الى ان الفرس لما رأوا الفينيقيين مقيمين بجزائر خليج فارس توهموا ان ذلك الحل الذي جعلوه وسيلة للمتاجرة بين الهند وفينيقية هو وطنهم الاصلي. ثم افتخروا بعد ذلك ان الفينيقيين المشهورين ولدوا في نفس مملكتهم القديمة. غير ان هذه الاخبار التي لا اساس لها هي على حد امثالها من الحكايات التي استخرجها هيرودوت من بلاد اشور ومن ثم كانت التقايدات الفينيقية فيما يتعلق بهذه الاصول اقوى منها واثبت

ألا ان استرابون قد ذكر كلاماً نفيساً يمكن ان يبين اصل هذا التقليد قال : اذا سرت في خليج العجم رأيت جزيرتي تيروس وارادوس وفيهما هياكل تشبه هياكل الفينيقيين . ويزعم سكان هذه الجزائر ان ارواد وصور اللتين للفينيقيين (في البحر المتوسط) هما من مهاجرهم ومستعمراتهم (١)

واعلم ان زعم سكان خليج فارس وزعم الفرس ايضاً قد تلقاه القدماء من اليونان بكامل الثقة . ثم تكررت هذه الاخبار واضيفت اليها زيادات وتحسينات . فنتج عن ذلك انهم خلطوا الفينيقيين بالاريتريين وتوهموا ايضاً وجود جهة تدعى الاريترية صوب بحر العربية ووجود جزيرة تسمى اريترية او اريتية ونهر يدعى اريترو وملك يدعى اريترو وجزيرة تدعى ببل (جبيل)

ولكنك اذا تأملت الاخبار المبهمة المتساقضة التي اولدت أولاً هذا الرأي عرفت ان اقبال العلماء عليه لم يكن مستنداً الى امر تاريخي حقيقة . وقبل اثبات هذا الامر نورد على سبيل الاستطراد تقليدات العرب والنبط فيما يتعلق بهجرة العمالة الشرقيين او القبائل الكنعانية الى داخلية بلاد العرب . لانه ما عدا كونها حديثة جداً بالاضافة الى

هذا الشأن لا يمكنها بحسب ما نطن ان تولينا اقل نور في المسئلة
الحاضرة عن وطن الكنعانيين الاول . وذلك بما انها لا تعين مطلقاً
النقطة التي سافر منها المهاجرون ولهذا فان العمالة المذكورين امكنهم
ان يذهبوا الى داخل العربية سواء قيل انهم سافروا من فلسطين
ليؤسسوا لهم مهاجرة في خليج العجم او قيل انهم شخضوا من خليج العجم
وقدموا منه الى لبنان

وليس عندنا حجة تقوى على ابطال زعمهم في ان الكنعانيين هاجروا
اولاً من جهات البحر الاريتري او خليج العجم قاصدين بلاد فلسطين
او فينيقية الاتقليد سكان جزيرتي تيروس وارادوس الذين يباهون
بكونهم أسسوا مدينتي صور وارواد . ولما كان تشابه الاسماء هو اقوى
ما يدعم هذا الرأي وجب البحث فيما اذ كان هذا التشابه موجوداً
حقيقة بين الجزيرتين والمدينتين المار الكلام عنهما . فالجواب على ذلك
بالسلب لان بقية المؤرخين يكتبون هذه الاسماء بطريقة مختلفة . فان بلين
اعرض عن ارادوس وسمى الاخرى تياوس وقال انها على مسافة خمسين
ميلاً عن الساحل وانها مشهورة جداً بكثرة اللؤلؤ (١) وكذلك اريان
سمها تياوس ايضاً وذلك ممّا يوقع الريب في صحة مثل هذا البرهان .

وكيفما كان الامر فان النظر الى طبيعة الاماكن يحملنا على الجزم بان اقامة الكنعانيين اولاً بتينك الجزيرتين امر مستحيل . والجزيرتان المذكورتان تسميان اليوم « البحرين » وتشتملان في خليج فارس على جملة جزائر صغيرة كثيرة الرمال اخصها : اراد وتاروت وسحوت بحرين . ومع ان هذه الجزائر مشهورة بكثرة اللؤلؤ وبكونها محط التجارة فان تربتها على غاية من الجذب والحل بحيث لا يمكن ان تقوم بكفاية سكانها مع قلتهم

والحال ان مجرد ما قدّمناه يكفي للجزم بان القبائل الكنعانية لم يكن ممكناً على سبيل الاطلاق ان تفتكر في الاقامة اولاً بتلك الرمال ثم ترحل منها قاصدة افتتاح ارض الجبارة . ولا بدّ من الوقوع في التناقض اذا قدرنا بان هؤلاء البدو المساكن الذين كان اكثرهم قوَّاماً على رعاية المواشي قد غادروا السفن التي كانت تمكّتهم من ان ينشؤوا تجارة واسعة في خليج العجم ويتنبهوا لاصطياد اللؤلؤ قبل ظهور عصر التفخّل والزينة

اين كان اذاً مركز التجارة المتسعة التي انشأها الكنعانيون في خليج العجم قبل وصولهم الى فينيقية ؟ واين تيسّر لهم تهيئة معدات ذلك العمل الكبير ؟ واين كانت ترعى مواشيم التي كانوا يقتاتون بالبانها ويكتسون باصوافها ؟ لان الانسان لا يعيش ويحيا من اللآلئ .

ولكنك اذا تأملت ان تلك العشائر الاولى التي لم تكن تُعنى إلا باليجاد ما لا تستغني عنه من الحاجات وما تضطر اليه اضطراراً مطلقاً هي التي قدروا لها انها بلغت ذلك المبلغ من التقدم في الحرف والصنائع مع اقامتها في تلك الجزائر القاحلة قضيت العجب من سهولة تقارب الخطأ على الانسان ومسارة الاوهام البشرية الى ما يتعذر صدقه .

هذا واننا لو سلمنا بان هذه القبائل كانت لها حقيقة عند خليج العجم منازل زاهرة ومواطن ناضرة كما يزعمون أفيتصور انهم غادروا بجمالتهم وطناً وصل الى حد كبير من السعادة والرغد وعمدوا الى صحراء العربية الهائلة مع انه لذلك العهد لم تكن الزلازل الارضية معروفة ؟ وان كانوا قد عولوا على المهاجرة فهل تركوا سفنهم وتقحموا الخوض في تلك الرمال المحرقة التي تردي سا لكها ؟

ومما يزيد كذب سكان خليج العجم بياناً هو ما نعرفه من ان صور وارواد لم تبنا منذ وصول الكنعانيين الى فينيقية . لانها محدثتان بالاضافة الى قبائلهم

ولم تكن صور موجودة او كانت على الاقل من غير تسمية عند افتتاح الاسرائيليين . وارواد لم تكن ايضاً موجودة في ذلك العهد ولكن صيدون كانت مدينة زاهرة من قبل ذلك الوقت بمدة طويلة . فلماذا اذا لم يكن يفخر هؤلاء المؤسسون الاريتيون بانهم بنوا صيدون اكبر

مدينة للكنعانيين في فينيقية ؟ ومن هنا يظهر مكرهم وكذبهم في
 حكايتهم هذه . ومهاجرتهم من تيروس (او تيلوس) وارادوس تكذبها
 الانباء التاريخية تكذباً صريحاً . لان صيدون هي اول مدينة فينيقية
 وقبل تأسيسها لم يكن مطلقاً احد من السوريين بما ان الذين بنوا
 صور هم قوم من الصيدونيين . ومن بعد فتح اسرائيل لا يمكن ان ينسب
 الى مهاجري سواحل البحر الاريتري تأسيس احدى هاتين المدينتين
 لانهما كانتا قد عُرِفتا حينئذ واشتهرتا بحيث لم يكن من يتجرأ على القول
 بان شعباً غريباً قدم فأسسهما في فينيقية . فضلاً عن ان هذه الحكاية
 انما ظهرت حين خسرت صيدون شوكتها وصارت اكبر المشروعات
 البحرية الى ايدي السوريين والاروايين وذلك في المدة الثانية لفينيقية
 بعد ان كانت مدنها قد بُنيت من عهد طويل . وعليه فان مؤسسي
 صور وارواد لم يقدموا لا من تيلوس ولا من ارادوس . وصور لم تتخذ
 تسميتها من جزيرة تيروس بخليج العجم حيث الارض كلها رملة وانما
 دُعيت بذلك لكثرة ما في موقعها الحالي من الصخور وهكذا ارواد
 ايضاً سميت بذلك لان ابناء ارواد هم الذين بنوها

ثم ان استرابون الذي نقل الينا مزاعم السكان في خليج العجم قد
 صرّح بكذبها اذ قال : « ان المؤلفين الذين يقولون باتيان الصيدونيين
 من بحر العجم او من مكان آخر من الاوقيانوس او الذين يزعمون بتنقل

منيلاً والفينيقيين في شواطئ الأوقيانوس يشبهون من يخلط هيئة التاريخ بظواهر الحكاية. وإن ما يحمل على عدم تصديقهم والثقة بهم هو التناقض الذي بينهم لأن بعضهم يذهبون إلى أن الصيدونيين والفينيقيين هم قوم مهاجرة من سكان الأوقيانوس ويدعون أنهم يسمون فينيقيين (أي حمراً) لأن البحر المذكور يسمى البحر الأريتري (أي الأحمر). وزعم فريق بعكس ذلك أن أهل الأوقيانوس هم مهاجرة من الفينيقيين. ومنهم أيضاً من ينقل اتيوبية إلى فينيقية (١) « هذا هو حكم سترابون على مزاعم سكان الجزائر في خليج العجم. وقد أشار بكلامه الآنف الذكر إلى أشعار هوميروس السالفة (٢) التي ساقت الشراح لئلا يتوهم وجود شيء من الغلط في كلام هذا الشاعر العظيم إلى القول بجعل الصيدونيين مع الاتيوبيين عند البحر الأريتري حيث ذهب منيلاً بركبه لزيارتهم كأنهم افترضوا أن قنساء السويس كانت إذ ذاك مخروقة. ومن هنا تعلم أنهم في تلك الأزمنة القديمة كانوا يجهلون الأمور الجغرافية جهلاً فظيعاً حتى أداهم ذلك إلى عدم التفريق بين اتيوبية آسية واتيوبية إفريقية. لأن يافا أو عكا كانتا من

(١) سترابون ٢: ١ و ٣٥

(٢) هوميروس في الأوديسة الرابعة ٨٣ و ٨٤

مدن اتيوبية (١) وفي الحقيقة ان جزائر خاليج العجم هذه لم يهاجر اليها
 الا جماعة قليلة من الفينيقيين لاجل التجارة مع بلاد الهند
 وهذه الاسباب المتعددة مضافة الى تقليد الكنعانيين والفينيقيين
 والاراميين المستمر تقوض اركان رأي من يقول بمهاجرة ابناء كنعان
 من خاليج فارس . لانك مهما تسنى لك الارتقاء في سلم التاريخ تجد
 عند جميع القبائل الكنعانية هذا التقليد وهو : انها انما تألفت شعوباً في
 لبنان وفلسطين وجميع حكاياتها القديمة الوثنية متعلقة بنفس الامم
 التي تسكنها اذ فيها تجعل خلق ايها الاول خنا (كنعان) او فينيق
 وتقول بخروجه من طين فينيقي مع الجيل الاول من الالهة او ابناء
 الارض الاولين وترغم ان اقدم مدن الدنيا بُنيت بفينيقية
 واذا عارضت التاريخ العبراني بالتاريخ الكنعاني استدلت على
 ان اقامة هذه القبائل بارض كنعان ترتقي من غير مهاجرة الى الاعمار
 الاولى . لان العبرانيين جاؤوا فلسطين في عهد تاريخي متقدم على كل
 تاريخ وآثارهم الثابتة تتجاوز ايضاً بكثير اقامتهم في آسية المتقدمة .
 ولكنه ليس في آثار العبرانيين هذه ولا في آثار الكنعانيين ما يثبت
 لهؤلاء حقيقة مهاجرة خصوصية اذ ليس لهم ادنى مشاركة على سبيل

الاطلاق لا في الاصل ولا في اللغة ولا في الطباع مع شعوب الجهات التي يفترضون انها كانت اول مقام لهم . وعندهم تقليدات مخصوصة بهم والحاصل ان هذا الشعب قد انتظم امة في نفس الارض المستولي عليها وحافظ على تقاليده الاصلية مستقلاً عن سائر الشعوب التي يزعمون انه مرَّ بها

وهذه الامور التي لا مردَّ عليها تؤيد اشد التأييد لجميع البراهين التي اتينا بها لنقض الرأي القائل بحدوث مهاجرة كنعانية من شواطئ البحر الاريتري

ان الذين يزعمون بمهاجرة الفينيقيين من جهات البحر الاحمر ليس لديهم الا اقوال مبهمة ومذاهب مريبة ومتناقضة واسانيد غريبة ومحدثة مجهولة الاصل ومحشوة بالاغاليط . ومثل هذا الحدس غير المدعوم ببناء تاريخي ينبغي اطراحه ونبذه ظهرياً ما لم نجعل تاريخ اصول الامم والمهاجرات الاولى بمنزلة الحكايات الملفقة

فالناتج مما تقدم ان الكنعانيين ولاسيا الفينيقيين لم يهاجروا من خليج فارس او من بلاد العربية بل قدموا رأساً من شنعار وجعلوا اقامتهم في سواحل البحر المتوسط عند تفرُّق الشعوب لاول مرة . وليس في العلم سبب عقلي لمعارضة هذا القول . فضلاً عن ان مجرد نص الكتاب المقدس الذي يعين ارض كنعان اول مقام لجميع

الكنعانيين بعد مغادرتهم غب الطوفان لمهد البشرية يُنبئنا باصدق الاشياء واحقها فيما يتعلق باقامة الكنعانيين في الصدر الاول . والوقائع والحوادث تؤيده وتثبت حقيقته ناقضة لاراء مؤرخي اليونان ولما ذهب الحديث

ومن بعد ان قررنا هذه الحقيقة لاقبنا ان ننتقل الى بيان الممالك التي انشأتها هذه القبائل الكنعانية في لبنان الجنوبي من عهد حلولها فيه . فان وقفت دون تعيين مواقع تلك الممالك وبيان حدودها مشاكل عظيمة وعقبات شاقة الا ان امر مملكة صيدون اكبر تلك الممالك واشهرها هو اقلها نصبا وجهداً

١

مملكة صيدون

ان صيدون بكر كنعان عند قدومه من آسية الداخلية (ولعل ذلك قبل ان يتفرق اخوته) اقام مع عشيرته عند شاطئ البحر المتوسط في سهل جميل يمتد الى سفح لبنان الى حيث تنخفض قمم الجبل المذكور وتترامى نحو الجنوب . ولما تزل صيدون بتلك الارض البهيمة رفع اساسات مملكة صيدون الشهيرة التي دعيت باسمه . غير انه لما كان لفظ صيدون يدل في اصله على صيد السمك (١) اتخذ القوم

(١) صيدون مشتقة من « صود او صيد » بالعبراني اي نصب

من ذلك تخمينات جمة فقال بعضهم ان المدينة سميت بذلك لكثرة السمك في مائها وقال آخرون لان السكان اخذوا يعانون صيد السمك بعد قليل من اقامتهم . وعلى ذلك فلا يكون صيدون بن كنعان هو الذي اعطى اسمه لقبيلته ولدينته كما تشير اليه عبارة الكتاب المقدس بل انه هو الذي تسمى بذاك الاسم من المكان والحرفة التي اختارها . ولكن عمدتهم الى عكس منطوق عبارة الكتاب وان كان في امر غير ذي بال لكنه ملوم وخارج عن الصواب

ألا يوجد سبب اخر لهذه التسمية الا كثرة الاسماك واصطيادها ؟ ولماذا لا يقال ان صيدون كان فيه منذ صباه قبل وصوله الى شاطئ البحر المتوسط ميل شديد الى صيد الاسماك والى صيد الطيور فسمي لسبب ذلك بهذه التسمية ؟ ولماذا لا يقال ان اياه هو الذي سماه بذلك الاسم من حين ولادته تفاؤلاً بما سيكون على ما هي العادة الى اليوم في الشرق ؟ وفي كل الاحوال يمكن التقدير ان ابنه لم يولد الا من بعد تزول كنعان بهذه الامكنة

واذا تأملت ان صيدون معناه صيد السمك وصيد الطير معاً

الحبائل للسمك او للطير وعلى ذلك يكون معناها قنص الطائر وصيد السمك كصاد وتصيد في العربية

فضلت ان ترتقي لبيان اصل هذه التسمية الى اسباب اعظم ووفق لعادات الحاميين او الكوشيين الذين هم من نسل واحد مع صيدون افليس طبعياً ان نشبه صيدون (الصيد او الصياد) بنسبه غرود الذي كان « اول جبّار على الارض . وكان جبّار صيد امام الرب ولذلك يقال كغرود جبّار صيد امام الرب » (١) . وانك لتجد في جملة القبائل الكنعانية قوم القزيين الذين ليسوا بمقتضى معنى هذه التسمية الا قبيّة من الصيادين (٢) والحال ان الزعيم الذي كان يخلف في السلطان كنعان اباه بما له من حق البكرية ويتقلد سلطة متسعة قلما يكون على القسم الاكبر من نسله (٣) كان يستحق ان يُلقب في لبنان بلقب الصياد كما كان يلقب به غرود ايضاً في ارض بابل نظير زعيم مقتدر

(١) التكوين ١٠ : ٨ و ٩

(٢) التكوين ٢٥ : ١٣ - ٢٧ : ١٩ - ٣٦ : ١٥ -

٤٩ : ٣

(٣) التكوين ١٥ : ١٩ واعلم ان لفظ (القزيين) بالعبراني

معناه الصيادون وربما كان في هذه الآية مرادفاً للصيادونين الذين

لا ذكر لهم فيها

ثم ان هذا الاسم كما قال الآباء القديسون لم يكن يدل حينئذٍ فقط على القوة والحداقة في قنص الحيوان بل ايضاً على الشجاعة والمهارة في التسلط على الناس واسترقاقهم (١) . وما لبث ان انتشر تعبير اهل الشرق اي « اصطياد الناس » في العالم كله بواسطة البشارة الانجيلية . لانها سميت الرسل صيَّادي الناس (٢) لانهم يجمعون الناس باحبولة السلطان الالهي وشرك الحقيقة ولكن بالحلم والاقناع ومن حيث ان صيدون كان احلم من غرود في سلطانه فأن يشبه بصيَّاد السمك اولى من ان يُشبه بصيَّاد الوحوش

وكيفما كان الامر يمكن الاستنتاج بان اسم صيدون سواء كان بمعنى صيَّاد السمك او قانص الوحش انما كان اشارة الى سلطانه الابوي

(١) القديس اوغسطين في كتابه مدينة الله ١٥ : ٤ — وقد كانت الحرب في عيون المحاربين الاولين صيداً للناس . وشاهد ذلك ان ارسطو ذكر الغزو فيما بعد في جملة انواع الصيد

(٢) متى ١٩ : ٤ — مرقس ١ : ١٧ — وارميا النبي (١٦ : ١٦) قال : هاءنذا ارسل صيَّادين كثيرين يقول الرب فيصطادونهم وبعد ذلك ارسل قناصين كثيرين فيقتنصونهم عن كل جبل وكل تل ومن نخاريب الصخر

وبكرية وشجاعته وحذاقته الاستعمارية

وكان على مثال غرود اول من عرف ان ينشئ مملكة فرغ عشيرته وقبيلته بواسطة سلطانه الابوي الى درجة الالفة المدنية والى مقام الامة بعناها السياسي فاخرج منها شعباً اكثر الشعوب شهامة واقداماً وشهرة في ذلك الصدر الاول بل اول شعب منتظم للسعي وراء منافع المادية ومتأهب للقبض على ازمة سلطان البحار. وعليه فان صيدون ملك كآب بل مثل سلطان شواطئ البحر المتوسط واعطى جميع مجاوريه مثلاً على الهيئة المدنية كما ان غرود الكوشي احد ذوي قرابته فعل مثل ذلك عند ضفاف الفرات ودجلة (١) والكتاب المقدس يسمي احياناً جميع الكنعانيين صيدونيين (٢) إما لارجحية نفوذ هؤلاء على سائر القبائل وإما لان صيدون كان بكر اولاد كنعان وإما لان اهم مركز التجارة كان عند الصيدونيين

ومع هذا فان مملكة صيدون لم تكن متسعة الحدود . وان قيل هل استطاع صيدون بصفة كونه بكرًا ان يثبت نفوذ وحقوق نسله في جميع القبائل الكنعانية ؟ قلنا ليس عندنا نبأ صادق يصلح لاثبات هذا

(١) التكوين ١٠ : ١٠ و ١١

(٢) العدد ١٣ : ٢٩ — ايوب ٤٠ : ٣٠ — امثال ٣١ : ٢٤

الامر ولكن الاكيد ان سلطته هذه كانت قصيرة المدة . لان اقسام العشائر وغوآها واستقلال كل واحدة منها قلل اولاً تلك السلطة جداً وما عثمت هذه الرابطة الضعيفة ان انحلت عراها فيما بعد انحلالاً تاماً . ولا نجد اقل اثر لهذه السلطة التي تربط جميع القبائل الكنعانية بقبيلة الصيدونيين في حين ما افتتح الاسرائيليون ارض الميعاد . نعم لا يُنكر انهم كانوا يعدّون بعضهم بعضاً اخواناً وكان كل فريق منهم يهتم لمصلحة الآخر ويتأذى لاذيته ويساعده في حين الحاجة وكان جميعهم يباهون بانتمائهم الى كنعان تذكّاراً للاصل الذي تفرّعوا عنه ورمزاً الى اخاتهم . بل انهم قد اشاروا ايضاً بحسب الاصطلاح القديم الى الشعوب المنفصلة عن امّتهم اي الشعوب الغير الكنعانية بتعبير يدل على الكراهية والنفور بمعنى لفظ الأممي او البربري الذي كان العبرانيون واليونان والرومان والمصريون يسمون به الاجانب تحقيراً لهم (١) ولكن الكنعانيين مع اشتراكهم في الاصل واللغة والدين والعوائد والطباع لم يكن لهم حكومة واحدة . وعليه فان حق الولاية الابوية البكرية تفترق فرقاً ذاتياً عن

(١) هيرودوت ٢ : ١٨٥ — كان العبرانيون يسمون غير اليهود

جويم اي الامم ولعل الكنعانيين والفينيقيين كانوا يستعملون نفس هذه التسمية للامم الغريبة عنهم

الحق الذي كان للبكر نفسه على عشيرته التي انتظمت قبيلة او امة مستقلة بذاتها

فكانت اذا قبيلة الصيدونيين منفردة انفراداً تاماً من جهة ارضها وحكومتها عن سائر الشعوب التي من نسلها. لان الفصل التام الذي كانوا يجعلونه في تلك الايام الاولى ما بين الانسال والقبائل ولاسيا ما كانوا يبذلون من العناية لاجل حفظها (١) وشدة حرصهم على تقيد الانساب والمواليد كل ذلك يدل على ان هذه القبيلة لم تختلط مطلقاً بغيرها. غير ان اطلاق اسم الصيدونيين احياناً على جميع الكنعانيين يعلمنا من جهة اخرى ان هذه القبيلة كانت كثيرة العدد راجحة على غيرها. فبقي علينا ان نبحث عن حدود ارضها على قدر ما يأذن فيه الامكان

كان يحد مملكة صيدون من الشمال كما تقدم القول نهر الدامور على تخوم مملكة الجبابين في بيروت. ومعولنا في تعيين هذا الحد شهادة المؤرخ يوسف (٢) الذي عينه فيما بعد ذلك عند بلاتانية وهي مدينة صغيرة قائمة على جنوبي النهر المذكور. غير انه وان كانت الازمان

(١) التكوين ١٠

(٢) يوسف في الحرب اليهودية ١: ٢٧٢ - يشوع ١٣: ٤ و ٦

متباعدة فان الشهادة المذكورة لا تفقد شيئاً من قدرها لان هذا الحد الشمالي لمملكة الصيدونيين لا يظهر انه طراً عليه شيء من التحول مطلقاً. اما الحد الجنوبي فقد جرى عليه تبديل كبير في ممر الاعصار الا ان الصيدونيين عند امتداد سطوتهم في الصدر الاول مدوا حدودهم على طول الشاطئ الجنوبي الى حد جبل الكرمل . وذلك يُستنتج من بركة يعقوب لولده زبولون بقوله : « زبولون في ساحل البحر يسكن وعند مرفأ السفن وطرف تخمه الى صيدون » (١) والحال ان يشوع يعين حدود زبولون في امكنة هي على الحقيقة غير معروفة اليوم (٢) حق المعرفة ولكنها كانت ملاصقة للكرمل واما مرفأ السفن فلعله لم يكن بعيداً عن جون عكاء (٣) وكان التخم الجنوبي لسبط اشير متاخماً عند شاطئ البحر لحد زبولون وكانت نقطة التقائهما عند جبل الكرمل (٤) . فتخوم اشير وزبولون تعين اذاً بكمال التدقيق الحد الجنوبي القديم للصيدونيين عند هذا الجبل حيث

(١) التكوين ١٣ : ٤٩

(٢) يشوع ١٩ : ١٠ — تثنية الاشتراع ٣٣ : ١٩

(٣) فلاف يوسف في العاديات ٥ : ١ و ٢٢

(٤) يشوع ١٩ : ٢٦

كانت ارض زبولون متصلة بصيدون وهذه النتيجة هي مهمة جداً لانها تدل على ان سكان عكا وصور وسائر الثغور البحرية الى حد الكرميل كانوا جميعهم من قبيلة صيدون

اما حدود مملكة صيدون من جهة الشرق فليس عندنا انباء حقيقية في شأنها . ولا شك انها كانت ممتدة في عامة السهل الى حد منحدرات الجبال . غير ان السهل المذكور لما كان ضيقاً جداً حتى لا يتجاوز عرضه اربعة كياومترات تنفر النفس من حصر مملكة شهيرة (حتى في اوان نشأتها) في مسافة قليلة من الارض وعلى ذلك يجب ان تكون مشتمة على الوهاد الاولى من لبنان . ولكن الى اين كانت ممتدة في لبنان ؟ نقول اننا نعلم حسناً ان صيدون قد بنى مدينة لايش في بحيرة ميروم (الحولة) على مسيرة يومين من مدينة صيدون . ولكنها كانت مستعمرة بعيدة جداً عن تخوم الصيدونيين حتى عجزوا عن اسعافها في حملة اهل دان (١) وعليه فان ارض صيدون لم تكن داخلة كثيراً في الجبال الغربية بل وقفت حدودها عند القمم الاولى تاركة الوهاد الداخلية لكثير من الملوك الصغار الكنعانيين (٢) . هكذا كانت مملكة

(١) القضاة ١٨ : ٧ و ٢٨

(٢) يشوع ١١ : ١٠ - ١٢ : ١٨ و ٢٣ - القضاة ٥ و ١٩

الصيدونيين التي كانت قليلة الاتساع حتى في ايام عزها واقتدارها
 ثم ان قيام صور وغيرها من مدن الصيدونيين بممالك مستقلة
 أنقص في جهة الجنوب انقاصاً معتبراً ارض المملكة المذكورة وقد كان
 استقلال هذه الممالك من عهد قديم . وذلك من زمن يشوع لما كان
 أخذاً في افتتاح ارض كنعان . ويُستدل عليه من تقسيم تلك
 الجهة الى كثير من الممالك الصغيرة من غير ان يكون لصيدون سلطان
 او حماية على المدن الصيدونية المنبثة على شاطئ البحر المتوسط . وهذه
 الحال التي اترلت صيدون الى الدرجة الثانية في فينيقية قصرتها اخر
 الامر على جهة الشاطئ عند السهل الجميل المحيط بأسوارها في عرض
 زهاء ١٧ كيلومتراً نحو الجنوب

واعلم ان مدينة صرّفت انما كانت دائماً من ذلك الحين حداً
 فاصلاً بين صور وصيدون وكانت كلتا المملكتين تتنازعانها فتضمها
 الاولى الى املاكها زمناً ثم تستولي عليها الاخرى حيناً . وايليا النبي
 قد فرّ إليها في ايام أتبعل فراره الى مدينة متاخمة خارجة عن ولاية
 الملك المشار اليه ليتخلص من اضطهاد ابنته ايزابل زوجة آحاب (١) .
 وكذلك في ما يلي من الزمان قد ذكرها النبي عوبديا (٢) والقديس

لوقا (١) بمنزلة مدينة للصيغونين . غير ان أسقلا قد عين الحد الجنوبي لصيغون عند ارنيثوبول التي كانت على شمالي صرفت وذكر هذه المدينة في جملة مدن الصوريين وتابعة على ذلك فيما بعد اخيل تات

٢

مملكة صور

وعلى هذا فان صرفت وضواحيها كانت حداً شمالياً لمملكة صور عند ما انفصلت هذه المملكة عن مملكة صيغون . اما صور فقد حافظت اولاً في الجنوب (وان كان الراجح انها نشأت كما سنقول) بعيد هذا مملكة مستقلة في سهل عكا . على نفس الحدود التي كانت لصيغون نريد بذلك جبل الكرمل (٢) . الا ان أسقلا يجعل تلك الحدود ابعد مما ذكر اي عند نهر الصوريين بالقرب من دور جنوبي الكرمل ولكن اصحاب التلمود اتفقوا على جعل التخم الشمالي لاسرائيل قريباً من عكا حيث كان مبدأ المملكة الصورية في ايام ازهارها . اما سفر المكابيين (٣) الذي هو اولى بالتصديق والثقة فقد عين الحد

(١) لوقا ٤ : ٢٦

(٢) يوسف في حرب اليهودية ١١ : ١٨ ع ٩ — ٣ : ٣ ع ١

(٣) سفر المكابيين الاول ١١ : ٥٩

الحقيقي لمملكة صور عند عقبة صور اي عند المضيق الذي يؤدي الى سهل عكا. ويفصله عن سهل صور بواسطة الرأس الابيض والناقورة والمشيرفة . وذلك مما يحمل على الظن بان سلطان الصوريين الحقيقي وقف عند تلك الحدود ولم يتخطأ الى ما وراءها. اما التحم الذي نحو المشرق فغير مقرر وقد طرأت عليه عدة تبديلات مع تقلبات الزمان . لانه لما كان منحصراً أولاً في الوهاد الاولى الشرقية التي تلي ربوات صور فقد امتد بعد ذلك بجهد متواصل مدة مديدة من الزمان الى جميع جهات الجليل العليا بالتقريب . ولاشك ان الصوريين قد ازدادوا في هذه الناحية لانهم اغتنوا فرصة جلاء الاسرائيليين الى اشور فوسعوا ارضهم الى حد قادش نقتالي فوق ذرى الحولة على مسافة نحو من سبعة وعشرين كيلومتراً من صور كما شهد يوسف المؤرخ (١) عما كان في زمانه . اما استقلال الصوريين فليس عندنا بينات على تقرير زمانه وتاريخه . غير انه لا وجه للريب في انهم تخلصوا من سلطان صيدون واقاموا لهم على مثال سائر الشعوب الصغيرة مملكة مستقلة في ايام قدوم الاسرائيليين الى ارض كنعان . ولكنهم لبثوا مدة غير يسيرة خاملي الذكر وان كانت مدينتهم قد لقبت بالمدينة المحصنة فما

(١) يوسف في الحرب اليهودية ١٨: ٢ - ٣: ٢٠ ع ٣

كان ذلك ألا دايلاً على وجودهم هناك ليس إلا . اما في ما يلي من الزمان فانهم نشطوا من عقال الخمول وهبوا من رقدة الوئنة وبلغوا من الفلاح المبالغ الطائل في ايام ملك داود وسليمان . وفي الايام المشار اليها انتشر هؤلاء الصوريون انتشارهم السياسي وارتقوا الى سلم الاقتدار الراجح ولما سطعت انوار مجدهم وبهرت عيونهم اخذوا ينازعون صيدون شرف القدامة وسلبوا حقوق الاولية تلك المدينة التي اخرجتهم الى ضياء الحياة الوطنية والسياسية

وقد اشتدت هذه المسئلة واضطربت اياما اضطرام بين الصوريين والصيدونيين في ايام ولاية اليونان والرومان اي بعد ان ذهبت آثار مجدهم وامحى ذكر فخرهم الاول . وتحزب لكل من المدينتين قوم من الاجانب ودام الخلاف بين العلماء في هذه المسئلة حتى الى ايامنا هذه . قال استرابون ينبغي ان تُشبه صور بصيدون في العظمة والمجد والقدامة كما تخبر بذلك بعض الحكايات . نعم ان الشعراء يعظمون صيدون بزيادة حتى بلغ من هومير انه لم يأت باسم صور ولكن المستعمرات المؤسسة في ليبية وايبارية حتى فيما وراء العواميد تجبل صور اشد تبجيل . وكلتا المدينتين كانتا في القديم والى اليوم معظمتين ومجدتين . وقد جرى بحث طويل عن ايتها كانت قاعدة الفينيقيين (١) وكل

من الامتين قد ادّعت لنفسها هذا الفضل لا من جهة ان كل امة هي مؤسسة مستعمرات لان ذلك وصف يصدق على كليهما بل من جهة انها مؤسسة للامة الفينيقية وللمدينة خصيتها. وكانت كل واحدة تدّعي هذا الحق لنفسها دون سواها وتنقشهُ على مسكوكاتها (١) ومن حيث ان اصولهم مغشاة بظلمات كثيفة ومبرقة ببراقع الابهام والالتباس تسنى لكل فريق ان يزعم ما شاء من الازعام
 ألا ان ما نعلمهُ عن قبيلة الصيدونيين وتكون مملكتهم بين لنا ان السوريين ما هم الا فرع من الصيدونيين اتصل الى الانفصال عن جرثومته وان يفوقها قوة ومجداً. وقد كان اسم الصيدونيين في ذلك الصدر الاول وفيما بعده ايضاً يدل على سكان صيدون وعلى النسل الصيدوني جميعه المنتشر في كامل الشاطئ من الدامور الى الكرمل .

(١) قد وجدت ايقونة فيها رسم انطيوخوس الرابع (قبل المسيح بمئة وثمانين وستين او سبع وستين سنة) وعليها هذه الكتابة « لصرام صيدنم » اي في صور ام الصيدونيين . ووجدت ايقونة اخرى كانها رد على هذه الدعوى مكتوب عليها : « الصيدونيون مذلة صور الكاذبة » وقد عدّدت صيدون في بقية مسكوكاتها كثيراً من المدن القديمة التي بنتها هي وذكرت صور اخر مدينة منها

وبهذا المعنى ورد مراراً في سفر يشوع والقضاة وكثيراً ما يظهر أنه استعمل مكان اسم الكنعانيين . وكان اسم الصيدونيين فيما تأخر من الزمان أيضاً بالرغم عن سطوة صور يُطلق على نسل الصوريين وأصلهم الاول . وكان حيرام ملك صور غير ان رعاياه كانوا يسمون صيدونيين (١) واما أتبعيل الذي اتفقت تواريخ صور على أنه كان ملك المدينة المذكورة (٢) فقد سمي مع ذلك ملك الصيدونيين (٣) وليس احد من هؤلاء الملوك يسمى ملك الصوريين بل ملك صور فقط فقد ظهر ممّا تقدّم اذا ان اسم الصيدونيين كما يُطلق بالخصوص على سكان صيدون (٤) يطلق أيضاً بالعموم على جميع اعضاء القبيلة الصيدونية المنبثة على شواطئ لبنان الجنوبي . اما الصيدونيون بعكس ذلك فما هم الا سكان صور وارضها مع استراهم صيدونيين .

(١) سفر الملوك الثاني ٥ : ١١ سفر الملوك الثالث ٥ : ١ و ٦
 — ٩ : ١١ اخبار الايام الاول ١٤ : ١ — سفر اخبار الايام الثاني
 ٢ : ٣ و ١١

(٢) يوسف في حرب اليهودية ٨ : ١٣ ع ٢ الخ

(٣) سفر الملوك الثالث ١٦ : ٣١

(٤) القضاة ١ : ٣١ — حزقيال ١٧ : ٨

وتسميتهم هذه الجديدة لا تفقدهم مطلقاً اسم نساheim الاول وموادهم
الصيدوني

وقد اجمع ايضاً كتبه التاريخ اقتداء بهومير على اطلاق اسم
الصيدونيين على جميع سكان لبنان الجنوبي وعلى السوريين ايضاً عند
ما بلغت صور اوج العز. فهذا ورجيل قد سمي ديدا السورية صيدونية
وهذا هورات وغيره قد سموا ارجوان صور بالارجوان الصيدوني .
وبالاجمال فانهم اقتداء بهومير يسمون كامل جهة فينيقية صيدونية (١)
ولما لخص القديس هيرونيم جميع هذه الشهادات حكم حكماً لا عوج
فيه بقوله : ان التواريخ تشهد بان صور هي مستعمرة فينيقية (٢) .
ثم ان هاتين الامتين مع انفصال كل واحدة عن الاخرى والعداوة
الواقعة بينهما قد عدّهما كثير من الامم شعباً واحداً اما لوحدة اصلهما
او لصغر ارضهما او لتشابه متاجرهما وحرفهما (٣)

وهذه البراهين التي يُستطاع تكثيرها ايضاً توضح احسن الايضاح
ان الصيدونيين كانوا معدودين عند جميع الشعوب مثل السكان

(١) لوقا ٢٦: ٤ — وغيره

(٢) القديس هيرونيم في تفصيل الفصل الثلاثين من نبوءة

اشعيا (٣) متى ٢١: ١١ و٢٨ الخ

الاولين لفينيقيه الجنوبية وان صور على مثال كثير غيرها من المدن
غالت بوصف قدامتها اشد الغلاة وغصبت غصب الابنة الكنود
شرف صيدون اول مقام لقبيلتها (١)

اما الحجج التي اتى بها اهل صور اثباتاً لدعواهم على الصيدونيين
فلا معول عليها لان معظم ما اتوا به بعض احاديث عن مجدهم الماضي
وبعض حكايات كاذبة وتقليدات متأخرة هي نتيجة هوس وطني .
هذا وان صور لم تُلقب بعاصمة الصيدونيين الا على مسكوكاتها اليونانية
وفي عهد تغران (قبل المسيح بسبعين سنة) . فمكان من ثم اقتحارها
باصل يجعلها الاولى في الاصول الفينيقية متأخراً جداً . ولو انها لم تدع
الا شرف كونها عاصمة اي أمّا لكثير من المستعمرات والمدن المؤسسة
في خارج فينيقية لما عارضتها صيدون في هذه الدعوى لانها اليتق بها
من كل ما سواها

٣

مملكنا اكزيب وعكا.

ولكن نشاط قبيلة الصيدونيين لم يجتزئ بتأسيس هاتين المملكتين

(١) قال اشعيا (٢٣ : ١٢) لا تعودين تفتخرين ايتها المنهكة

العدراء بنت صيدون

على شاطئ البحر الكبير بينما كانت كل مدينة محصنة تنشئ مملكة .
ولأنه في ما وراء الرأس الأبيض او المضائق التي أطلق عليها طويلاً اسم
عقبة الصوريين يندسط الى حد الكرمل سهل متسع يشتمل على مدينتي
أكزيب (١) وعكّو (عكا) (٢) وكلتاها قائمتان على شاطئ
البحر وعليهما اسوار متينة دُحر عندها الاسرائيليون اقوى دحر (٣) .
ولكن مع كون سكانهما من اصل صيدوني فانهم لا يقدمون لا في

(١) معنى اكزيب السيل لان الجدول المسمى جدول القرن
ينصب في البحر قريباً من هناك . وقد ذكر اسم هذه المدينة في سفر
يشوع (٢٩: ١٩) وفي سفر القضاة (٣١: ١) وقد سماها المؤرخ
يوسف (في العاديات ٥: ١ و ٢٢ وفي الحرب اليهودية ١: ١٣ و ٤)
اكديّة وكذلك بطليم . وتُعرف اليوم بقرية زيب على مسافة نحو ٩
كيلومترات من عكا .

(٢) قد نُقش اسم عكا على المسكوكات بهذه الصورة « عك »
اي الرمل المحرق ولعل ذلك لانهم كانوا يتخذون من نهر النعمان
القريب من هذه المدينة الرمل الصالح لاصطناع الزجاج . وسميت فيما
بعد بطولومايس ايضاً

(٣) القضاة ١ : ٣١

ذلك العصر ولا في ما بعده ادنى دليل على تعلقهم السياسي بصيدون
او بصور. ومن هنا يتضح انه قام هنالك مملكتان صغيرتان صيدونيتان
مستقلتان تمام الاستقلال فتقاسمتا ذلك السهل الحبيب وتخطتا الى
الوديان المجاورة الى حد مملكة اشير

٤

مملكة اكشاف

كانت مملكة اكشاف في سفح الكرمل عند تخوم الصيدونيين (١)
بحسب الرأي الراجح . ولما كان موقع المدينة المذكورة في سبط اشير
وقد سُكِّبت في الترجمة السبعينية «كياف» احتمال ان تكون نفس
مدينة حيفا الحالية . وهذه المملكة التي ذلت لهجمة الاسرائيليين لم
يكن مستطاعاً لها ان تكون ذات مسافة متسعة لانه كان اذ ذاك
ملك على الكرمل (٢) وملك على دور في الجنوب (٣) وملك

(١) يشوع ١: ١١ - ١٢ : ٢٠ - ١٩ : ٢٥ - قد كتب
اسم هذه المدينة بصور مختلفة في الترجمات المختلفة اي اكشاف
واكشاف وكياف وكياف اما اسمها الفينيقي او العبراني الاصيل فهو
اكشاف اي طلسم ورقية اما موقعها فمختلف عليه

(٢) يشوع ١٢: ٢٢ (٣) يشوع ١٢: ٢٣

ثالث ايضاً على عكاء (بحسب تقديرنا) في الشمال . وكان ملك
اكشاف فيما تأخر من الزمان من جملة المحاربين الذين قاتلهم يشوع
عند بحيرة ميروم (١) فغلبه واعطى مملكته ارثاً لسبط اشير (٢)

٥

القنيون والقنزيون والفرزيون والقدمونيون

بعد ان فرغنا من تحديد اهم ممالك الكنعانيين على شاطئ
البحر المتوسط وجب الان ان ندخل في باطن لبنان او الجليل الاعلى
للبحث عما أسسه الكنعانيون هناك من الممالك . ولا شك ان الوقوف
على الممالك الاولى في هذه الجهة من لبنان لما يقتضي نصباً وجهداً
طويلاً اذ لا يستطيع التوصل الى تعيين اسماء القبائل التي اقامت
بالممالك المذكورة ولا الى تعيين الاماكن التي احتلتها الا بوجه التقدير
والتخمين

اما التوراة فقد ذكرت اولاً بعض اسباط لا يمكن ان توافق
اسماؤهم الجديدة اسم احد من ابناء كنعان (٣) وعليه فان اول ما

(١) يشوع ١٢: ٢٠ (٢) يشوع ١٩: ٢٥

(٣) التكوين ١٥: ١٩ و ٢٠ و ٢١ الخ

تهم معرفة الوقوف على اصل هذه القبائل المجهولة في ارض كنعان .
فما عدا الرفاثيين والعناقيين الذين سبق لنا بيان اصلهم الكنعاني لدينا
اربع قبائل مجهولة اسمائها عندنا . وهؤلاء هم القينيون والقززيون
والقززيون والقدمونيون والظاهر ان هؤلاء اقاموا اما جميعهم او على
الاقل قسم منهم ببلبان الجنوبي

اما القينيون (١) والقززيون (٢) فلا يمكن اعتبارهم اولاً
اسباطاً جديدة . فان اسم الاولين بمعنى المعدنين اي الفعلة الذين
يشتغلون بالمعادن وكانوا شديدي الارتباط بالعمالقة والمدينين (٣)
وليس في هذا ما يدل على انهم كانوا قبيلة غير كنعانية . ومن البين
ان هذا الاسم لما كان اسماً لحرفة امكن ان يطلق على ناس من جميع
القبائل وخصوصاً على الصيدونيين لانهم كانوا اهل حرف وصنائع .

(١) القينيون اسم مشتق من (قون اوقين) بالعبراني اي ضرب
ونقش ورمح . وعلى ذلك فيكون معناه المشتغل بالحديد او الفضة او
الرماحة

(٢) قد مرّ بك تفسير لفظ القززيين وانهم بمعنى الصيادين

(٣) التكوين ١٥ : ١٩ — العدد ٢٤ : ٢١ و ٢٢ — القضاة ١ :

١٦ — ١١ : ٤ سفر الملوك الاول ١٥ : ٦ — ٢٦ : ١٠

اما الآخرون فكانوا صيادين بمقتضى مدلول تسميتهم وليس بالمحتمل مطلقاً انهم كانوا قبيلة مخصوصة . وبسبب براعتهم في مطاردة الوحش أطلق هذا الاسم على بعض عشائر من سائر القبائل . ويمكن التقدير ايضاً بان اسمهم مرادف لاسم الصيدونيين اي الصيادين . ولكن مقام هذين الشعبين مما لا يستطيع تعيينه لانهم لا شك كانوا قومًا موافين من عدة عشائر وامكة كثيرة

اما اسم الفرزيين والقدمونيين فيذكرنا أولاً ان كل قبيلة عند الكنعانيين والاراميين والعرب والقدماء من العبرانيين كانت تتألف طائفة بين قليلة العدد او كثيرته . والوحدة الوراثية التي تجمع العائلة الواحدة للاقامة معاً لم تقوَ على منع القبائل التي انتشرت في بطون الارض عن ان تنقسم لتتلافى حاجاتها في ضمن دائرة الحالتين الاوليين للانسان اعني بهما العيشة الزراعية والعيشة الرعائية

ان العيشة الزراعية او الفلاحية كانت تقتضي من المقيمين بالداخل اوفر من المقيمين عند الشاطئ ان يتفرق عشائر الفلاحين الى قرى مختلفة وكان يكفي القبيلة المتفرقة في سفوح الوهاد وعلى رؤوس الجبال ان تحافظ على قصبة او اكثر تجعلها مركز اعمالها وملجأ لها في آونة الاخطار ألا ان هذه الاماكن كانت اقل اعتباراً من اماكن السهل حيث كانت الاراضي اقل امتداداً فلم تتأخر الصناعة عن ان تعقب المعيشة

الزراعية والرعاية. وهذه الحال اعطت في الداخل اهمية عظيمة لاهل الحقول وبسبب كثرة عددهم والمنافع الحاصلة من اعمالهم سموا باسم مميز لهم ومن ثم لقبوا بالحالة التي هم عليها «فرزيين» اي اهل الحقول او القرى (١)

على ان مجرد دلالة هذا الاسم توجب الاستنتاج بانهم لم يكونوا قبيلة متميزة عن قبائل الكنعانيين وان كانوا قد ذُكروا معها اكثر المرات تحت هذا الاسم الخصوصي فانهم ما كانوا الا قرويين لاحقين بكثير من قبائلهم. وبناء عليه فلا تستغرب اذا ما وجدتهم في اماكن كثيرة متباعد بعضها عن بعض . لانهم هذا جبال لبنان الجنوبي التي عمروا قلما يكون جزءا منها (٢) احتلوا ايضا جبال افرايم (٣) ويهوذا (٤) . ولكن هؤلاء القرويين بعد ان بنوا فيما تأخر من الزمان

(١) الفرزيون جمع فرزي اي حقلي او ساكن الحقل وهو مشتق من فرز بالعبراني اي انفرد وانتشر . ولا شك ان العبرانيين الاولين لسبب ما كانوا عليه من العيشة الرعائية والمتبدية استغربوا حالة الفلاحين هذه ودعوهم بالاسم الذي يوافق حالتهم

(٢) يشوع ١: ٩ - ١١: ٣ - ١٢: ٨ - ١٧: ١٥

(٣) القضاة ٥: ٣ - ٣ ملوك ١٩: ٩ و ٢٠ (٤) القضاة ١: ٤ وه

مدناً لهم وجَّهوا افكارهم الى الصنائع والاشغال الثانوية حتى فازوا من المدنية بما كافاً حالتهم اذ ذاك ولم يزالوا يسمون فرزيين كما كانوا أولاً . ولعلمهم لم ينقطعوا عن اطلاق الاسم المذكور احتقاراً على قروي الجبال الذين كانت عيشتهم في قراهم اشبه بعيشة المتوحشين

وبمثل الاسباب المتقدمة يمكن ايضاً شرح اسم القدمونيين . لان الكنعانيين الذين اختاروا الحال الثانية التي فرضتها الحاجة على القبائل الاولى اعني العيشة الرعائية قد لاقوا اضطراباً مزدوجاً في امر القيام بجالتهم تلك . فان بعضهم مع قيامهم على مواشيهم لم ينفصلوا الاً انفصلاً وقتياً عن بقية قبيلتهم ولذلك لم يزالوا مشتركين في حقوقها ومنافعها . واما غيرهم فبعكس ذلك هجروا تمام الهجر مواطن قبيلتهم وذهبوا الى الاماكن البعيدة يلتجئون لهم مراعي اوفر خصباً فتزلوا بها واصبحوا متميزين تميزاً تاماً بعيشتهم وقبيلتهم . وهكذا كان على ما نرى اصل القدمونيين الذين لم يُذكروا في الكتاب المقدس الا مرة واحدة (١)

(١) التكوين ١٥ : ١٦ — معنى القدمونيين الشرقيون او الساكنون

في جهة الشرق اية كانت قبيلتهم . ولعلمهم هم الذين سموا فيما بعد

بني قدم اي ابناء المشرق (القضاة ٦ : ٣ و ٣٣ — ٧ : ١٢ — ٨ : ١٠

— ايوب ١ : ٣ —)

وقد كانوا بمقتضى دلالة اسمهم « الشرقيين » . وعليه فان هذا الاسم كان ينبغي ان يُشير على الخصوص الى القبائل التي كانت في عبر الاردن . والحال ان الارض في شرقي سورية وفلسطين كانت لها صفة خاصة تسعف على العيشة المتبدية من الازمنة القديمة الى ايامنا هذه نظراً الى ما فيها من السهول المتسعة التي لا تصلح للفلاحة فتكون قاحلة مرملة في ايام الصيف الاّ انها في ايام الشتاء والربيع تكتسي في اكثر جهاتها بالحضرة الكثيرة والمراعي الخصيبة التي تكون متعاقبة بحسب تقدّم الفصل في طريق المواشي التي تذهب جهة الشمال . ولاشك ان خصب البراري المذكورة هو الذي حمل تلك العشائر الراغبة في العيشة الرعائية على الرحلة اليها وزين لها حالة البداوة في شرقي سورية

ومن حيث ان الرعاة لم يجدوا مراعي كافية لمواشيهم في الارض المحروثة وفي الارض الضيقة الساكنة فيها قبائلهم الحضريّة اختاروا المعيشة في الحيام وعلى حواشي البادية كما يفعل البدو من العرب الى يومنا هذا لكي يقوموا على مواشيهم فيدعوها تارة في البراري وتارة في الاراضي المأهولة . وهؤلاء هم القدمونيون الحقيقيون او الشرقيون الذين لم يكونوا نسلًا مستقلًا مفترقًا عن الكنعانيين الاولين بل كانوا عشائر متفرعة عن قبائلهم . غير ان القدمونيين سكان البادية لم يكونوا

باجمعهم من نسل الكنعانيين لان الاراميين وبقية المتسلسلين عن سام
 والكوشيين وسائر ابناء حام كانوا الجزء الاكبر من الرّحل الذين
 سكنوا البراري المحيطة بسورية وثلث شبه جزيرة العرب . ولم يقتصر
 اولئك القوم الرّحل على سكّنى البادية لان بعض قبائل صغيرة قد
 آثرت ان تسكن بالقرب من المدن والقرى في خيام من الحجر تأبى
 النقلة والتحوّل على ما نراه الى اليوم في بعض الاماكن من لبنان . تلك
 ولا شك حالة محزنة ولكنها كانت عزيزة عند محبيها . على ان هذه الحياة
 القريبة من الحياة المتوحشة لم تكن مع ذلك في شيء من الموافقة
 لاولئك التعساء الذين كانوا يحيونها خارجاً عن التمدّن والاماكن الالفية .
 ثم ان القبائل المتنقلة لبثت على حالها التي كانت عليها عند هجرها الالفة
 المدنية من غير ان تخطو خطوة واحدة في سبيل الدين والصنائع والعلوم
 بل تقهقرت احوالها عند سكناها للبادية وتأخرت معارفها . لان البادية
 التي على سياق واحد لا تعلمهم شيئاً اذ لا تعطيتهم معلماً الا الطبيعة
 والابل ولا حرية الا حرية حمر الوحش والنعام فهم بذلك يشبهون
 الشجرة التي ليس لها من يعتني بفلاحتها فبقيت من ثم قواهم العقلية
 جامدة وفقدوا التمدّن الانساني واصبحوا لا يثرون الا اثاراً وحشية .
 ولكن اهم شيء يحافظون عليه محافظة شديدة انما هو قبيلتهم والخط
 الفاصل بين عشائرتهم . ومن هذا الوجه يمكن اعتبارهم كحفظة امناء

على التقليد الاول بل من مهرة العارفين بالانساب . ومع ذلك فان العناية الالهية قد اجبرتهم على السعي في الخير العام اذ كلفتهم بجمع محاصيل البادية ونقلها الى الجهات البعيدة فقاربت بذلك بين الشعوب التي تفصلها بحار من الرمال . وهكذا كان القدمونيون او شرقيو سورية وفلسطين فرعاً منفصلاً عن قبائل الكنعانيين والاراميين . هذا وان الفائدة المتعلقة بالهيئة الالفية في الحياة المنتمة ظهر لنا انها تستدعي الشروح المتقدمة عن اصلها عند تحم لبنان الشرقي

العموريون والحثيون والحويون

بعد ايضاح ما تقدم بقي علينا بيان قبائل كنعان التي استقرت اولاً في باطن لبنان . ولما تكلمنا عن ارامي باشان اوضحنا ان العموريين بعد ان دحرهم الموآبيون والامونيون من شواطئ البحر الميت الشرقية والاردن الاسفل صعدوا الى الجهات الارامية واستولوا على مملكة باشان وارجوب وهوران وملكووا تخوم دمشق الى حد ذيل حرمون . وهذان النسلان المتعاديان كانا يعيشان بعد هذا الفتح بالاختلاط في ارض واحدة

اما الاراميون فكانوا اضعف منهم ولذلك دانوا لسلطانهم
القاهر مع انهم كانوا في الراجح اكثر السكان عدداً

ان حثاً (١) ثاني اولاد كنعان لم يبتعد كثيراً عن اخيه البكر
صيدون . والظاهر انه تزل في الجبال الداخلية المتاخمة لارض
الصيدونيين وقد نُسب اهل قبيلته اليه فسموا بالحثيين ثم اشتهر هذا
الاسم غاية الاشتهار في ارض مصر واشور . واعلم ان معنى الحثاة الذي
يتضمنه لفظ حث يبين انه ليس لفظاً خالياً من المعنى في هذه القبيلة
لان الارض المنسوبة اليه التي كانت تنشر شجاعة وقوة محاربيها اعطته
من السطوة عند نسله والاجانب ما جعل اسم ارض الحثيين مرادفاً في
بعض الاحيان لاسم ارض الكنعانيين (٢) واسم الحثيين ايضاً بمعنى
الكنعانيين (٣) . وهذا هو المعنى المقصود من جملة نصوص في التوراة
(٤) ولا يمكن تأويلها بخلاف ذلك الا اذا قسمت هذه القبيلة الى

(١) معنى حث الخوف والهول وشدة الرعب (٢) يشوع ١ : ٣

(٣) يشوع ١ : ٤ — سفر الملوك الثالث ١٠ : ٢٩ — سفر الملوك

الرابع ٦ : ٧

(٤) التكوين ٢٣ : ٣ وه و ٧ و ١٠ و ١٦ و ٢٠ — ٢٥ : ٩ و ١٠

— ٢٩ : ٣٠ و ٣٠ — العدد ١٣ : ٣٠

فروع متعددة ضد كل احتمال في شمالي وجنوبي ارض كنعان (١)
وكيفما كان الامر فان التاريخ قد ذكر انهم عند الفتح الاسرائيلي
كانوا على هضاب لبنان الاخيرة. لان يشوع صرح انهم كانوا يسكنون
مقابل لبنان (٢) وكثيراً ما سماهم سكان الجبال (٣) وقد حاربهم
عند مياه ميروم (٤) وسكن اسرائيل بعد ذلك فيما بين الحثيين (٥)
ولكن لم يدم ذلك الاختلاط منتشراً الا في شمالي ارض الميعاد . وقد
سميت هذه الناحية فيما بعد ذلك ارض الحويين (٦)
ولم تزل الهضاب والتلال التي على غربي الاردن بالقرب من بحيرة

(١) ان اسم بنات حث (التكوين ٢٧: ٤٦) المعطى للكنعانيات
اللائي جول ممرا كان يُراد به بلا ريب بنات الكنعانيين عموماً وذلك
لانك تجد في ما يلي هذه الآية : لا تأخذ من بنات كنعان (التكوين
٢٨: ١ و ٢ و ٣) فضلاً عن ان الآثار المصرية القديمة تسمي نسل كنعان
حَثْ او حَثَا

(٢) يشوع ١: ٩ - ذكر يشوع هنا كما ذكر في غير موضع
(٤: ١) ان ارض الحثيين كانت قرية من لبنان

(٣) يشوع ٣: ١١ (٤) يشوع ٣: ١١ و ٥ و ٧

(٥) القضاة ٣: ٥ (٦) سفر الملوك الثاني ٢٤: ٧

الحولة تسمى الى اليوم ارض الخيط (١) وليس اليوم من يسكن في هذا السهل البهيج الخصب الا بعض الاعراب المتنقلين يقيمون به مدة من الزمان ثم يرحلون . غير ان اسمها الذي هو اشد بقاء من كتابات آثارها القديمة يُذيع حتى الان ان الحثيين ابناء حث هم الذين كانوا سكانها الاولين

وكان الحويون (٢) يسكنون ايضا في جنوبي لبنان . وقال يشوع ان الحويين كانوا يسكنون تحت حرمون في ارض المصفاة (٣) . وفي سفر القضاة ان الحويين كانوا مقيمين بجبل لبنان من جبل بعل حرمون الى مدخل حماة (٤) وهذه الالفاظ تدل دلالة صريحة على

(١) ويظن ان لفظة خيط هي تحريف اسم حث بحسب اللفظ

اليوناني

(٢) معنى الحويين القرويون كالفرزيين وله معنيان آخران اي

الحياة والحيوان ومعنى حواء في العربية جماعة البيوت المتسدانية وهي من وبر . وقال بوختر ان معنى حو في اصل اللغات السامية ما خلا العبرانية هو الحية وظن انه يتصل بذلك الى شرح حكاية قدم الذي زعم اليونان بانه تحول حية مع هرمونية

(٣) يشوع ١١ : ٣ (٤) القضاة ٣ : ٣

هضبة مرج عيون القائمة غربي وادي التيم مقابل المنحدر الغربي لحرمون ولكن هذا الشعب كان قد تخطى الى ما وراء تلك الارض سواء كان ذلك من جهة البحر او بالخصوص من صوب الشمال حيث كان مختلطاً بالاراميين في بقاع لبنان الى حد التخم الجنوبي لمملكة حماة الكبيرة (١)

وليس في جبال لبنان شعب آخر كنعاني لان الاموريين والرفائيين الذين كانوا شرقي الاردن وحرمون والحثيين والحويين المقيمين غربي الجبل المذكور مع الفرزيين اي الفلاحين والقدمونيين او البدو (٢) والصيدونيين سكان الشاطئ هم القبائل الوحيدة الكنعانية التي يُستطاع مع بعض التأكيد الجزم بان مقامها كان نحو الجهة الجنوبية من اللبنانيين واما سائر القبائل التي من ذرية كنعان حتى القبيلة التي تزلت في لبنان متأخرًا فالدلائل متظاهرة على ان مساكنها كانت ابعد مكاناً في جهة الجنوب ولم تزل كذلك حتى اضطرت الى المهاجرة والفرار من وجه الاسرائيليين

ثم ان هذه العشائر او القبائل الكنعانية التي عمرت في الاصل

(١) القضاة ٣ : ٣

(٢) ان الرّبي يوناتان سمي الحويين في ترجمته قدمونيين او شرقيين

شرقي الكنعانية لما كانت مفطورة على الاعجاب والخيلاء قد حدثت فيها انقسامات داخلية لم تقتصر على تمزيق اتحادها العمومي فقط بل مزقت ايضاً اتحاد كل قبيلة بمفردها. لان جنسيتها الاولى قد انحلت عراها منذ عهد نشأتها . فان شدة ما فيها من النشاط كانت وسيلة لتفريق عشائرها فاندفت المائبة الغزيرة التي كانت تنعشها على الشعوب الاجنبية لكي تحصل من ذلك ميزانية مستمرة في تأسيس الامور العظيمة . وقبل ان ينهض كنعان تلك النهضة الانتشارية انشأ اولاً بما تيسر له من الظروف الموافقة عدداً عديداً من الممالك المستقلة . اما الصيدونيون الذين يظهر انهم حافظوا على سلطان اكثر اتساعاً فانه نهض منهم اربع او خمس قبائل ونظموا ممالك مستقلة ثم تابعتهم القبائل الداخلية على هذه الطريقة

٧

مملكة حاصور

ليس بين جميع هذه الممالك التي كانت في جبال لبنان الجنوبي مملكة اوفر سني وجلالاً من مملكة حاصور (١) لان هذه المملكة التي

(١) يشوع ١١: ١ و ١٠ - ومعنى حاصور القصر والحصن المسور

كانت قديماً رأس الممالك التي نشأت بتلك الجهة كانت تشتمل على قسم من الجليل الاعلى حول الوهاد القريبة من بحيرة ميروم (١) . ولكن هل نستطيع سبيلاً الى تحديد تخومها مع ان موقع حاصور بل موقع قاعدتها لم يزل امراً مشكلاً ؟ . اجل ان اسم حاصور قد وُجد على الاخرية في كثير من اماكن الجليل الاعلى ولكنه يصعب اختيار واحد منها يوافق تمام الموافقة للانباء التي لدينا عن هذه العاصمة القديمة . زعم روبنسن احد السياح المشاهير من اهل العصر الحاضر ان موقع حاصور كان على التلة المغطاة بالاخرية المرتفعة بالقرب من بحيرة الحولة عند جنوبي قادش نفتالي (٢) وتلك التلة تسمى اليوم الخربة . الا ان تسميتها التي تعني خرابات قليلة الاهمية تدل دلالة واضحة على ان

(١) يوسف في العاديات ٥ : ٥٠٤

(٢) ان هذا المؤلف كما عرفت يجعل حاصور فوق تل الخربة واما حجته التي وافقه عليها بعض العلماء فهي ان المكان المذكور قريب من بحيرة ميروم طبقاً لاشارات الكتاب المقدس وانه موجود على خط مستقيم على الطريق التي اتبعها تغلت فلاسر . غير ان هذه الحجّة بعيدة عن الاقناع لان للقرب درجات متفاوتة المساحة . والجنود الاشورية الكثيرة كان يمكنها من غير تعب ان تباعد بعض كيلومترات عن

تلك الحرات ليست بقايا عاصمة كبيرة ذات اعتبار . وزد على ما تقدم ان التلة المذكورة هي قريبة جداً من موقع قادش المعروف حتى لا يُدري كيف ان هذه المدينة الاخيرة امكن ان تنفرد اولاً بمملكة مستقلة ويتصل بعد ذلك سبط نفتالي (١) الى الاستيلاء عليها بسهولة مع انها كانت عند ابواب مملكة حاصور الزاهرة والقوية وقتئذٍ فلنبحث اذاً في الجهة الغربية لعلنا نقف على أثر لهذه المدينة :

ان في داخلية الجبال على مسافة اربعة عشر او ثمانية عشر كيلومتراً من الحولة (ميروم) أخربة يظهر من امرها انها توافق غاية الموافقة لمركز حاصور القديمة . اذ انها تسمى باسم يشبه الاسم القديم اي حصيرة او النبي حاصور الذي يكرمه الشيعة الى يومنا هذا نظير بطل حارب يشوع بن نون . اما المكان المتسع المنبئة فيه بقايا هذه المدينة القديمة

طريقها المستقيم لتستولي على المدن الكبيرة في تلك الجهة . والظاهر من انبائها انها قد فعلت ذلك

(١) القضاة ٤ : ٢ — يعلم من هذا الفصل ان باراق ودبورة قد جمعا جند اسرائيل في قادش نفتالي لمحاربة ملك حاصور وجيشا فيها وجعلها مركز العمل . والحال انه لو كانت عاصمة يابن قريبة جداً من قادش لامتنع ذلك عليهما (القضاة ٤ : ٩ و ١١)

فموقعه بين دبل وعين ابل وبنت جيل وقرى عند الجنوب الغربي من الحولة بالقرب من يرثون التي كانت بلا شك من ميراث سبط نفتالي (١) وقد كانت التلة المرتفعة على جنوبي المدينة المذكورة بمنزلة حصن منيع (٢) ثم ان ما هنالك من الحجارة الكبيرة المنحوتة بغير احكام والاسوار الغليظة والصهاريج العميقة والقبور الشهيرة وجميع الاخرى العريضة في القدماء المنتشرة في تلك الارض تبين بوجه صريح انه هنالك وجدت مدينة من اهم المدن الكنعانية هذا فضلاً عن ان شكل الوهاد المطيفة بذلك الحل تؤيد هذا التقدير. لانك ترى هناك قمماً كثيرة قائمة على ركن من السهل يمكن ان تمرّ بينها طريق مستسيلة بالرغم عن وعورة الجهة المذكورة لتجتاز بها المركبات المسلحة التي كانت اكبر قوة لهذه المملكة. لان المركبات انما كانت في ذلك العصر اخوف سلاح واهولة في القتال . والحاصل ان الاسم والمسافة والموقع

(١) يشوع ١٩: ٣٨ ان قرب هذه المدينة التي كانت ميراثاً لسبط نفتالي من اخرة حصيرة يخالف السبب الذي حمل روبنسن وغيره على رفض هذا الرأي . فاذاً تكون حدود نفتالي واصله الى هناك

(٢) يشوع ١١: ١٣

بل شكل تكون الأرض تضطربنا إلى الحكم بأنه هنالك كانت
قاعدة مملكة حاصور

بناءً على ما قررناه من موقع قاعدة حاصور يظهر لنا أنه يمكن
تعيين حدود هذه المملكة بوجه الاحتمال الكلي على النوع الآتي :
كانت حاصور محدودة من جهة الشرق ببخيرة ميروم وداخلة
بباطن الجبال تابعة للحد الجنوبي والغربي لمملكة قادش الصغيرة .
وكانت من جهة الشمال واصله إلى حد مملكة عيون (مرج عيون)
والى نهر الليطاني . اما غرباً فيحدها الصيدونيون وجنوباً همالك سهل
ماجدو

٨

مملكة قادش

كانت مملكة قادش (١) بالقرب من حاصور مملكة كهنوتية

(١) يشوع ١٢ : ٢٢ — ١٩ : ٣٧ — معنى قادش بالعبراني او

الفينيقي المقدس والمكان المقدس او الحرم وقد سميت فيما بعد قادش
نفتالي لانها خرجت ميراثاً لهذه القبيلة . واما الان فليست الا قرية
حقيرة يسكنها المتأولة وهواؤها رديء جداً ويحيط بها اخرة كثيرة

بجدة كما يعرف ذلك من تسمية قاعدتها بالمدينة المقدسة . ولما كان موقع هذه المدينة مقابل سهل صغُننيم (البطيحة) (١) . على التلال الاولى المشرقة على بحيرة ووادي ميروم او الحولة كان سلطانها محصوراً في ارض ضيقة لكن خصيبة . اما حدود قادش في ارجح الرأي فانما كانت تبتدى شرقاً من وادي ميروم القريبة وترتقي شمالاً مبتدئة من حدود حاصور تابعة حواشي البحيرة والبطائح الى تخوم مملكة رحوب الارامية ومشتمة على جبال ميش الى حد تخوم ابل وعيون . وكانت مملكة حاصور ايضاً تحدها غرباً وجنوباً فضلاً عن ان شكل الارض يرسم حدوداً طبيعية في الجبال القريبة القليلة الارتفاع التي هي غربي قادش وفي وادي هندج العميق جنوباً . والمخلص من ذلك ان كل الاشياء تضطرننا الى الاعتقاد انه هكذا كانت مدة ازمان طويلة حدود مملكة قادش

وكلها حديثة لا يرتقي اكثرها الا الى القرون الاولى من النصرانية

مملكة افيق

ان مملكة افيق (١) الوارد ذكرها في كتاب يشوع ليس لها ارض معلومة حق العلم . لان مدناً كثيرة سميت بهذا الاسم وكل واحدة منها تستطيع ان تدعي انها هي تلك المملكة القديمة فليؤذن لنا اذاً في هذه المسألة المبهمة ان نورد في نوبتنا الاسباب التي يظهر لنا بموجبها ان موقع هذه المملكة كان بلبنان في ناحية الصيدونيين اولاً اننا نلتجئ وفقاً لاحصائية يشوع الى البحث عن هذه المملكة بالقرب من خاصور (٢) ثم نجد بعد ذلك مدينة تسمى افيق في بلاد الصيدونيين كانت من ميراث سبط بني اشير (٣) في جهة الشمال (٤) ولكنهم لم يتصلوا الى فتحها (٥)

(١) يشوع ١٢ : ١٨ — ١٣ : ٤ — ١٩ : ٣٠ — ومعنى افيق بحسب تقاليد القديس هيرونيم اندفاق الماء والسيل او الصخر والوادي . وهذان المعنيان يوافقان كل الموافقة لقصة جزين . وقد زعم آخرون بان معناها القلعة والمدينة المحصنة

(٣) يشوع ١٩ : ٣٠

(٢) يشوع ١٢ : ٩

(٥) القضاة ١ : ٣١

(٤) يشوع ١٣ : ٤

وذهب بعض المفسرين الى ان مملكة افيق المذكورة في الكتاب
 المقدس هي نفس افقا الواقعة عند منبع نهر ابراهيم في لبنان غير ان
 افقا هذه تبعد زهاء تسعة وثمانين كيلومتراً شمالي صيدون حيث عين
 الحد الشمالي لسبط اشير فلم يكن ممكناً مطلقاً ان تكون قسماً من
 الارض الاشيرية . فضلاً عن ان افيق قد ورد ذكرها في الكتاب مع
 مغاور صيدون (١) ومن ثم كانت صيدون ومغاورها آمن دليل لنا
 للوقوف على المملكة التي ننشدها . ألا ترى ان هذه الدلائل مع اسم
 افيق الذي معناه النبع الكبير المندفق (كما تقدم الكلام) هي كلها
 متحققة في جوار صيدون اي في الجبال المرتفعة شرقي المدينة المذكورة
 وفي الوادي البهيج الراكزة فيه قصبة جزين ؟ لان هناك نبعاً كبيراً
 متفجراً من الصخر يكون من مخرجه نهرًا يسمى اليوم النهر الجزيني فينصب
 من شلالات عالية في وهاد بسري العميقة ويلتقي بنهر الباروك فيتكون
 عنهما نهر يسمى نهر الاولى ينصب في البحر على مسافة خمسة كيلومترات
 تقريباً من فوق صيداء . ومن هذا النبع العظيم تعلم سبب تسمية هذه
 المملكة فضلاً عن ان المغاور العميقة الشهيرة المنبثة هنالك والتي اختبأ
 فيها الامير فخر الدين المعني مدة غير يسيرة مع قسم من عسكره تتفق

اشد الاتفاق مع ما ذكر في الكتاب المقدس عن مغاور الصيدونيين
وهذه الامور المتقدمة تدفعنا الى الجزم بأنه في هذا الحل وجدت
قاعدة مملكة افيق الصغيرة التي كانت ارضها مشتتة على الجبال العالية
ومحدودة بتخوم صيدون ونهر الليطاني ومملكتي حاصور ورحوب .
وكانت رحوب متصلة بمملكة افيق من جهة البقاع والجبال الفاصلة بينها
(اي رحوب) وبين الحولة . ولهذا السبب ورد ذكرهما جملة في الكتاب
المقدس عدة مرات (١) . ويمكن التقدير ايضاً بوجه الاحتمال ان
قاعدة مملكة افيق كانت على الطريق بين جزين وحاصبياً بالقرب من
كفرحونة حيث ينجر من شق عميق في جبل الريحان نبع غزير جداً
يتكوّن عنه نهر الزهراني . الا ان القول بانها كانت في جزين افضل
بسبب حسن موقعها واخربتها المهمة لان جزين وواديها مكتنفان بجبال
عالية هي لهما بمنزلة اسوار منيعة . وهذه المملكة نظراً الى وقوعها في
هذا المكان الحصين كان يتيسر لها ان تنتشر بكل أمن وتنتفع بالينابيع
المتدفقة في تلك الوهاد والمتفجرة في جميع جوانب جبل الريحان مارة
برباه وتلاله ومنخفضة بالتدرج الى الشقيف والليطاني حيث تلتقي
مملكة افيق بمملكتي عيون وحاصور . هذا فضلاً عن ان الاخرة العريقة

في القدامة المنتشرة فيما حول جزين تجعل تخميناتنا هذه في درجة
اسمى من الاحتمال. وهذه هي الممالك الوحيدة الكنعانية التي لدينا في
شأنها انباء تاريخية تسوغ لنا ان نجعلها على المنحدرات الاخيرة من
لبنان الجنوبي

١٠

مملكة امم الجبلجبال وعيون

ولكننا اذا خضنا في تقديرات اقل احتمالاً وجدنا من الاسباب
ما يجعل مملكة امم الجبلجبال في لبنان ايضاً (١) لان المكان الذي
عينه لها يشوع قريباً من دور (٢) يبين ان ارضها لم تكن بعيدة عن
ناحية الجليل الاسفل. ومع هذا فان اسم الجبلجبال (٣) وبلاد الامم
(جوثيم) (٤) مقترنين معاً يُعبّر عنهما عادة بـ «الجليل الامم» (٥) الذي
ليس الا الجليل الاعلى او الجليل اللبناني. ويقرب من الصديق جداً
ان مملكة الامم في الجبلجبال التي نحن الان في صددها كان مركزها
في هذه الناحية. اما اسم «امم الجبلجبال» فانما اطلق في هذه الجهة

(١) يشوع ٢٣: ١٢ (٢) يشوع ٢٢: ١٢ (٣) القضاة ٢: ٤

(٤) التكوين ١٤: ١ (٥) اشعيا ١: ٩ - متى ١٥: ٤

على بعض القبائل الكنعانية التي بسبب شدة تمسكها بالوثنية دفعت
العبرانيين ان يلقبوها بلفظ جوئيم (الامم) الذي عمّ فيما بعد جميع
الناحية

اما عيَون (١) التي هي مصفاة الحويين بذيل حرمون (٢) فلا
يبعد انها كانت اولاً مملكة اخرى مستقلة في لبنان الكنعاني ولو انه
لم يكن عندنا ادلة وثيقة لاثبات ذلك. غير ان اهمية هذه القبيلة واسم
عيون الذي يتكرر عدة دفعات واخرية هذه المدينة على تلّ دبين
(مرج عيون) كل ذلك يقرب قولنا من الصدق. اما هذه المملكة
فلم يكن ممكناً لها في كل حال ان تتسع وتمتد كثيراً لانها كانت

(١) سفر المالك الثالث ١٥ : ٢ - سفر المالك الرابع ١٥ : ٢٩

عيون اي الاخرية هي باجماع عامة السياح نفس مرجعيون التي بسفح
جبل الشيخ وراء وادي اتييم . غير ان معنى هذا الاسم ولو كان في
اللغة المنقول عنها مختلفاً عن معناه في العبرية الا ان الاسم العربي
أخذ عنه لاشتراكه معه في الصوت ليس الا - اما مصفاة فمعناها
بالعبرية السهل والمرج . وتلّ دبين هو ربوة في السهل المذكور فيها بعض
خرابات تدل على انه هناك كان مركز عيون لا محالة

(٢) يشوع ٣١١ :

مكتنفة بمحدود رحوب وقادش وحاصور وافيق . وعلى ذلك كانت مقصورة على سهل مرج عيون الحالي الذي لا يبلغ امتداده إلا نحو تسعة كيلومترات

هكذا كانت في القديم حال القبائل الكنعانية وكيفية اقامتها بلبنان على حسب ما يتيسر للمؤرخ ان يستشفه من وراء الآثار والامكنة . فلم يبقَ علينا اذاً لاجل استتمام مباحثنا عن الاصول الكنعانية الا ان نتكلم عن اهم المدن التي بنوها في ذلك العهد القديم وها نحن نذكر ذلك على غاية من الایجاز

صيدون

لا نكير ان صيدون هي اقدم مدينة بناها الكنعانيون . فان بكر كنعان هو الذي أسسها ودعاها باسمه (١) وبسبب ما كان لهذا المؤسس من حقوق البكارة جعلت المدينة

(١) التكوين ١٥ : ١٠ و ١٩ — يشوع ٨ : ١١ — ١٩ : ٢٨ — يوسف المؤرخ في العاديات (١ : ٦ و ٧) ملالا ك ٣ = وجميع مؤرخي قسطنطينية . ومعنى صيدون صيد السمك او قنص الوحش كما مر . وهي واقعة في الدرجة ٣٣ والدقيقة ٣٤ والثانية ٥ من العرض الشمالي

قاعدة لمملكة الكنعانيين الاولى . ومع ما وقع من الانفصال المتتابع بين جميع القبائل الكنعانية وخروج قسم ايضاً من العشيرة الصيدونية استمرت اول قاعدة في كنعان ومركزاً للأعمال والتجارات وملاً لآلة العامة القبائل المنسوبة الى هذا النسل واحدى القواعد الكبيرة في آسية القديمة وقد بنيت المدينة المذكورة في سفح طرف لبنان على قمة داخلية في البحر بهيئة رأس تشرف منها على البحر وعلى سهل متسع كثير البساتين والجنائن

وارتأى جماعة من المحدثين ان صيدون لم تُبنَ اولاً عند البحر بل في داخل الجبل وذلك ليقولوا بوجود صيدون عتيقة (بالي صيدون كما وجد صور عتيقة (بالي تير) وجبل عتيقة (بالي ببل) (١) غير

(١) ان الاب بركنو في رسالة له (عن عبادة ادوني) قد صرح بهذا الرأي غير انه قبض قبل ان يتمكن من الاثبات بالبراهين الداعمة له . وقد ظن القديس هيرونيم ايضاً مع بعض الاقدمين ان صيدون صيدونان اي صيدون كبيرة وصيدون صغيرة . والظاهر ان اقوى استنادهم في هذا الرأي الى كلام يشوع (١١ : ٨) حيث قال : « صيدون الكبيرة » غير ان ذلك وصف لبيان حالتها ولا يلزم عنه وجود صيدون اخرى صغيرة

ان اصحاب هذا الرأي لا يستطيعون سبيلاً الى شهادة قديمة تؤيده
وتنقض اقوال التاريخ وتقليدات جميع القرون التي تعزو على الدوام الى
صيدون موقعها التي هي فيه الان على ساحل البحر

ولا ريب ان خصب السهل المتسع والمنافع الناجمة من البحر الكثير
الاسماك والصخور البارزة من المياه مقابل الراس كلها دفعت صيدون
المؤسس الى اختيار ذلك المكان موقعاً للمدينة . ثم ان ميل تلك
الجماعة الحديثة النشأة الى صيانة نفسها كان يدفعها في اول مقام لها الى
ان تسعى في طمأنينتها لتأمن من هجوم الوحوش الضائرة وغارات
الاعداء . والحال ان الصيدونيين قد حصلوا هاتين الغايتين عند شاطئ
البحر باختيارهم ملاذاً قريباً من المياه وقائماً على صخور تمنع عنهم ما
عساه ان يفجأهم من النكبات . ومن غير ان نذكر القارئ بتلك
المساكن العظيمة التي كانوا يبنونها باوربة القديمة في البحيرات لمثل
هذه الاسباب نصادف في فينيقية ملاجئ كثيرة تشبهها قد اعدتها
العناية الالهية على طول الشاطئ فاسرعت الناس حالاً الى الانتفاع
بها وذلك مثل صور وبيروت وطرابلس وارواد . هذا فضلاً عن ان
اسم صيدون الذي يشير الى صيد السمك يدل على ان الصيدونيين هم
اول من بادروا الى الانتفاع بهذه الحرفة

ولكن منفعة كهذه وَّجَّهت اولاً خواطر الصيدونيين الى ما عندهم

من الصخور فلم يتأخروا عن استخدام الفائدة التي تنجم لهم من معاونة الملاحه في مركزهم الكثير الموافقة . ولذلك اقاموا عند الشاطئ المعد من قبل الطبيعة احسن اعداد مراعى امينة متسعة اسعفتهم غاية الاسعاف على توسيع نطاق الملاحه والتجارة . ولما كانت صيدون حسنة الموقع مجهزة من كل ما يجعلها قوية وغنية نجحت نجاحاً سريعاً وصارت في اقرب وقت الدولة الاولى البحريّة والملكة الاولى في البحر المتوسط . وشاهد ذلك انه في افتتاح يشوع لارض كنعان كانت تلقب بصيدا الكبيرة (يشوع ١١ : ٨ - ١٩ : ٢٨)

صرفت

ولما بلغ الصيّدونيون هذا المبلغ العظيم من السعادة بنوا مدناً كثيرة في ارضهم . واقدم مدينة ساعدت في الخصوص على تقدّم صيدون هي مدينة صرفت (١) التي كانت على مسافة ١٥ كيلومتراً ونصف اخر

(١) معنى صرفت مسبك المعادن من صرف العبراني اي ذوب وبسبب خشية اهلها من لصوص البحر نُقلت من عهد طويل الى ربوة قريبة من مركزها القديم وسميت صرفند ولم يبقَ منها على الشاطئ الا قليل من بقايا رسومها

جنوبي صيدون عند شاطئ البحر. وقد اشتهرت في الكتاب المقدس
بضيافة ايليا النبي (١) واسمها يدل على انها كانت مدينة صناعية
أسسها الصيدونيون لاقامة اسواقهم المتعددة في ايام ازهار تجارتهم
ففيها اذا كانت المسابك واهم معامل الصيدونيين. ثم ان حالة صرفت
التي يدل عليها اسمها لا تدع ريباً في ان تأسيسها كان متأخراً كثيراً
عن صيدون

صور

اما صور (٢) التي نالت اعظم السناء والابهة وكانت مجد فينيقية

(١) سفر الملوك الثالث ١٢: ٩ و ١٠ — لوقا ٤: ٢٦

(٢) صور لفظ فينيقي معناه الصخر. وقال تاردوريت (في شرح
الفصل ٢٦ من نبوءة حزقيال) ان سكانها كانوا يسمونها « صور »
باللفظ الفينيقي حتى في القرن الخامس ولذلك كان اللاتين مثل بلوت
وورجيل خصوصاً في عصر اوغسط يسمونها « صرة » . وكان اليونان
يسمونها تيروس لان هذا اللفظ في لغتهم معناه الجبن . وقد مر عليك
عوائدهم في نقل الاسماء الى لغتهم — وموقع هذه المدينة على شاطئ
البحر في الدرجة ٣٣ والدقيقة ١٧ من العرض الشمالي

ومركز العلم القديم فانها ترفع تاريخ تأسيسها الى زمن اقدم . ولا مرء
 انها من جملة اقدم مدن الدنيا والمؤرخون يتنافسون في مدح قدامتها
 ويسمونها « صور العتيقة » (١) و « اقدم المدن » (٢) . قال استرابون :
 اكبر واقدم مدن الفينيقيين من بعد صيدون هي مدينة صور . وكذلك
 النبي اشعيا (٣) أنبأ الصوريين على افتخارهم بقدم مدينتهم . ولا شك
 ان جماعة من الكنعانيين عند ما كثرت العشائر في صيدون بادرت الى
 الاقامة بسهل صور القريب والمشابه للسهل المحيط بصيدا في كونه ذا
 تربة جيّدة تسقيها الينابيع المتعددة وواقعاً مقابل الصخور البارزة في
 البحر على مسافة قليلة من الشاطئ كما في صيدون وطنها الاول
 ولما وقع نظر هؤلاء المهاجرين الجدد على تلك الصخور البيضاء

(١) ورجيل (٢) ديونيس الجوّالة وغيره

(٣) اشعيا ٢٣ : ٧ — قال بعض المفسرين ان باني صور هو
 تيراس . وهالك كلام الاب نو في كتاب اسفاره الى الارض المقدسة
 (٥ : ٢٢ ان صور (تير) قد اتخذت) هذه التسمية من تيراس سابع
 اولاد يافث الذي بناها . واما نحن فاننا نرى ان اسم وأصل صور هما
 مختلفان وهذا الرأي غير مقبول لاسيما لان احد ابناء يافث لم يكن ليقوى
 ان يؤسس مدينة في ارض كنعان

الجرّدة المشرفة على البحر والسهل سموّا مقامهم الجديد مع كامل الناحية « صور » اي الصخر . ووجهوا عنايتهم الى الانتفاع بالثروة التي القتها الطبيعة بين ايديهم . فاخذت مدينتهم تتقدّم تقدّمًا بطيئًا لكنّه مكن ان يشوع وجد مدينة صور في غاية الحصانة (١) عند ما وزّع الاراضي التي افتحها على اسباط اسرائيل . واذ لم يكن في هذه الناحية من لبنان مدينة اخرى تسمّى بهذا الاسم تعيّن ان يكون المراد بها في سفر يشوع نفس مدينة صور التي حازت فيما بعد نهاية الشهرة (٢) غير ان صور هذه لم يكن لها في ذلك العهد اقل اهمية لا اولية ولا ثانوية في فينيقية . والّا فلماذا لم يذكر اسمها في سفر القضاة (٣) في جملة المدن التي حاربت الاشوريين ؟ وكيف لم يُذكر ملكها في عداد الملوك الذين تحزّبوا على يشوع ؟ وكيف لم يشر اليها يشوع الا مرة واحدة على وجه

(١) يشوع ١٩ : ٢٩

(٢) من المستحيل ان يكون في لبنان الجنوبي مدينة اخرى تسمّى صور ويُستدل على كون المراد بصور في نص الكتاب هذا صور التاريخية ما جاء ايضًا في سفر الملوك الثاني حيث يسمي صور الحقيقية صور المحصنة

او حصن صور (٢٤ : ٧)

(٣) القضاة ١ : ٣١

الاستطراد مع انه قد اتى مراراً باسماء اماكن كثيرة لا اهمية لها ؟ (١)
 فلو كان لها في ذلك الزمن شيء من الاهمية لما اغفل ذكرها . وذلك
 ينقض رأي القائلين بكون صور كانت قاعدة لمملكة صيدون وقد
 مرّ الكلام عن هذه المسئلة بالتفصيل

وهنا بحث آخر : اين أسس الصوريون مدينتهم لأول مرة في
 الجزيرة ام في البر ؟ ولأية من المدينتين حق الاسبقية الصور ام لبالي
 تير (صور العتيقة) ؟ اعلم ان بالي تير (٢) هو اسم يوناني محض

(١) يشوع ١٢ : ١٩

(٢) ان استرابون (١٦ : ٢ و ٢٤) يجعل صور العتيقة على مسافة
 ثلاثين غلوة (خمسة كيلومترات ونصف) من صور . وهذه المسافة تدل
 على انها كانت عند الشاطئ مقابل الجزيرة في سهل صور . اما بلين
 (١٧ : ٥) فقد اثبت هذه الشهادة بصريح الاثبات جاعلاً المدينتين
 مدينة واحدة متصلة بواسطة البرزخ قال : ان محيط صور تسعة عشر
 الف قدم (٢٧ كيلومتراً تقريباً) مع صور العتيقة . اما المدينة (المبنية
 في الجزيرة) نفسها فمساحتها اثنتان وعشرون غلوة (اربعة كيلومترات
 ونصف) فهذه هي المسافة التقريبية من الجزيرة الى حدّ بئر سليمان (تل
 البركة) مع اعتبار امتداد محيط المدينة شمالاً وجنوباً . وهذا التنبيه

فلا يعتمد عليه للقطع في هذه المسئلة لان اليونان اتباع اسكندر الذين أطلقوه على المدينة البرية لم يراعوا مطلقاً حقوق المدينتين واسبقية التأسيس . ولكنهم عندما حاصروا صور ورأوا الاخربة المتراكمة التي أحدثتها العساكر الاشورية مبشوة في كثير من الاماكن ظنوا انها هي صور العتيقة (بالي تير)

ولكن مؤرخي الاسكندر بعينهم قد اثبتوا انهم وجدوا على البر مدينة قائمة ايضاً فيها هيكل قديم لهركل هدموا منه جانباً واستخدموه لمواد الحصار (١) وعليه فلم يكن ممكناً لهم ان يطلقوا على هذه المدينة اسم صور العتيقة (بالي تير) بمعنى انها بنيت اولاً عند الشاطئ ثم خربت خراباً تاماً فجددوا بناءها في الجزيرة ولكنهم اشاروا بذلك فقط ان مدينة البر كان نصفها خراباً عند وصولهم مع ان مدينة الجزيرة كانت عامرة مقبلة . هذا كل ما كان يمكنهم ان يروه ويثبتوه وهذا هو جميع ما يراد من اسم صور العتيقة الذي أطلقوه عليها

وكان المؤرخون الشرقيون قبل هذا العهد مثل اشعيا (١: ٢٣)

يعفينا من الدخول في الجدل مع القائلين بوجود صور العتيقة على شطوط نهر القاسمية على مسافة نحو تسعة كيلومترات او اكثر من المدينة

(١) اريان ويستين وديودور

وهـ و٨ و١٥ و١٧) وحزقيال (٢٦ - ٢٧) وسائر كُتُب الاسفار
 الالهية يسمون باسم واحد مدينة الجزيرة ومدينة البر. وقد جرى على هذه
 الطريقة فيما بعد كُتُب اليونان واللاتين (١) لاعتقادهم ان المدينتين ما
 هما الا مدينة واحدة. ولم يكن في جوانب المضيق الا قوم صوريون.
 وعليه فان هذا التفريق بين صور وبالي تير (صور العتيقة) ليس من
 الاهمية بالمنزلة التي يتصور فيها. اذ يحتمل انه لم يجر على السنة العموم
 الا في زمن متأخر جداً. ومع ذلك فان اقوى اعتماد القائلين بكون
 المدينة البرية هي اقدم من مدينة الجزيرة انما هو على هذه التسمية اي
 صور العتيقة (بالي تير). الا ان الاستناد الى هذا الاساس الواهي
 والتعويل على قصة مرهومة اعني بها ان الصوريين اشاروا على الاسكندر
 بتقريب الذبائح لهركل في هيكل صور العتيقة لسبب انه اقدم (٢)
 خيل ذلك لبعض العلماء فيما مضى انهم يتكفون من ان يثبتوا بان
 مدينة الجزيرة لم تُبن الا بعد ان اخرب نبوكدنصر صور العتيقة في
 اوائل القرن السادس (٣) ولذلك فان علماء العصر الحاضر يطرحون

(١) اريان ويوسف بلين ويستين (٢) يستين

(٣) هوات في تاريخ بدء الملاحة ص ٣٤. كلمت في شرح

الفصل ١٩ من سفر يشوع. بريزون في اصل البابليين والمصريين حج

مثل هذه الدعاوي طرحاً تاماً لاعتبارهم انها مما لا يمكن اثباته . لاننا صرنا اليوم نعرف حق المعرفة ان مدينة الجزيرة كانت موجودة قبل ذلك الزمن المتأخر (١) كما اننا نعلم ايضاً بموجب ما اوردناه من الانباء ان صور القديمة لم تدرس تماماً من بعد مرور الفاتح الاشوري اما الزاهيون الى قدامة مدينة الجزيرة فيتوهمون ان الصوريين انما أسسوا مدينتهم أولاً في الجزيرة (٢) ويحتجون بان المدينة انما سميت باسمها من صخور الجزيرة وان الانبياء يصفونها بكونها واقعة على مجاري المياه (٣) و اضافوا ايضاً الى قولهم ان الجزيرة وجب ان تكون مسكناً لهذه الامة التي كانت تتعاطى التجارة البحرية غير ان جميع هذه الاسباب لا تصلح حجة قاطعة لاثبات الاسبقية لمدينة الجزيرة . وان قيل ان الصخور ولو بعيدة قليلاً في البحر أثرت في

٢ ص ٢٢٥ . جهن في الاركيولوجية ق ٦ ك ١ . قوله في البحوث

التاريخ مج ٣ ص ١٦٤ - نيبوهر وموقرس الخ

(١) يوسف ضد بولودور ١ : ١٧

(٢) ريلند في تاريخ فلسطين . - دي ونيول في شرح التاريخ

المقدس مج ١ ص ٢٢ - هنغستبرك في تاريخ صور ص ١

(٣) حزقيال ٢٦ - ٢٨

قلوب المهاجرين الاولين فحملتهم على ان يسموا بها مدينة البرّ وعامة السهل قلنا ان ذلك لم يكن ضرورياً لان الشاطئ لا يخلو ايضاً من الصخور. فان الرأس المسبى اليوم معشوق المرتفع في موضع صور العتيقة كان بنفسه سبباً كافياً لهذه التسمية المكانية. وان قيل ان الانبياء يشيرون الى مدينة الجزيرة فينفون بذلك مدينة البرّ؟ نجيب ان المدينة التي يتكلم عنها الانبياء قد اغار عليها الفرسان بنجيلهم وكانت محاطة بالحدائق (١) أفلم تكن بالضرورة اذاً مدينة برية؟ ثم انه يمكن تعاظم التجارة البحرية على وجه حسن في مدينة مبنية على الشاطئ مثل صور العتيقة كما يمكن معاطاتها في مدينة قائمة في وسط المياه واي سرّ يتطلب ان لا تكون التجارة البحرية الا في الجزر مع ان اغلب الثغور البحرية واكثرها نجاحاً مبنية على شاطئ اليابسة هذا فضلاً عن ان تجارة صور لم يتأت لها النجاح منذ عهد تأسيسها

ومع ذلك فاننا نرى ان اصحاب هذين الرأيين انما اخطأوا في كون كل فريق نظر الى جهة من الحقيقة واذا جمعنا زعماتهم ولو ظهرت متناقضة امكنا منها ان نتصل الى الصحيح. وذلك لان جميع ما عندنا من الانباء متظاهر على اثبات ان صور وصور العتيقة ليس لهما الا

اصل واحد وانهما بُنيتا معاً في عصر واحد عريق في القدماءة. ولصكن
صور العتيقة كانت اولاً المدينة الكبرى وفازت بالسلطان والسعادة الى
ان سكست مدينة الجزيرة نُورَها. هذا هو الامر الذي تثبتهُ الآثار
وتؤيدهُ

واذا استنبأنا تقليدات صور الوثنية وجدنا انها متفقة على كون
تأسيس المدينتين وقع في وقت واحد. قال سنكن يتن : ان التوأمين
شميروم او هبسوران واوسوس بنيا في وقت واحد مسكنين احدهما في
في البرّ والاخر في الجزيرة فاكملها من بعد ابناؤهما» وفي الحلين المذكورين
هيكلان قديمان فمنهم من يقول ان هيكل صور العتيقة اقدم (١)
ومنهم من يدعي بان هيكل صور اقدم (٢)

ويمكن ان يقال ايضاً بوجه الاجمال ان اتحاد مدينتي صور هو امر
مفترض في جميع الحكايات الصوريّة. واننا لنعلم ان هذه الحكايات
حتى التقليدية منها ليست تصلح برهاناً للحزم في الامور التاريخية ولذلك

(١) يستين ١١ : ١٠

(٢) هيرودوت ٢ : ٤٤ — ان خبر هيرودوت هذا المأخوذ بكل

امالة عن كلام كهنة هر كل بين ان هيكل الجزيرة هو الذي بني اولاً.
وقد مال اريان ايضاً الى هذا الرأي

لا نوردها هنا إلا بمثابة شهادة على الرأي الذي كان للصوريين في العهد التاريخي بشأن تأسيس مدينتهم . ومن هذا الوجه لها قوة لا تدفع لنقض الآراء الواهنة التي يسندها أصحابها الى الانباء الصورية هذا وان الظروف التي وجب ان تبنى فيها صوراً أولاً تسوغ لنا بوجه التخمين ان نبين كيفية قيام المدينتين في وقت واحد . قد تكلمنا فيما مرّ عن الفائدة العظمى التي كان ينبغي ان تحمل المهاجرين الجدد ليتزاحوا على الانتفاع بالجزيرة التي كانت صخورها مرتفعة بالقرب من الشاطئ المقيمين به . والحال ان الجزيرة المذكورة كانت تصلح لهم ملجأً مأموناً من الغارات الفجائية . ولذا احسنّا لم يكونوا ليجدوه عند الشاطئ لايواء قواربهم بل محلاً في غاية المواقفة لصيد الاسماك . فهل يمكن ان هذه المنافع الجمّة لم تبعث اولئك المهاجرين اولى الاقدام على ان يبنيوا لهم هنالك مقاماً كما بنوا عند الشاطئ ؟

ولكن لما اراد الصوريون فيما تأخر من الزمن ان يوسعوا تجارتهم البحرية اصبحوا في غاية الاحتياج الى الجزيرة ليجعلوا لهم مرفأً كافياً وموافقاً . والحال ان جميع الشاطئ الصوري ليس فيه مرفأً اخر يمكن ان يأوي السفن من الرياح الجنوبية الغربية التي تعصف هناك عصفاً شديداً في ايام الشتاء . وكيف يتصور ان هؤلاء المهاجرين المماوتين ذكاء ونشاطاً الذين كانوا يسافرون الى المحال البعيدة ويبنون فيها الابنية

الشاقة قد اهماوا هذه الجزيرة الحسنة الموقع مقابل مساكنهم ولم يجعلوها محطاً تجارياً ومركزاً بحرياً ومصاداً (مكان صيد) لاصداف الارجوان؟ كلاً ان الصوريين لم تجر لهم مطلقاً غفلة مثل هذه عن مصالحهم . وعليه فانهم قد بنوا من الازمنة الاولى قلماً يكون بعض مساكن في الجزيرة

وبناء عليه كانت الجزيرة جزءاً من المستعمرة الاولى وكانت من اقوى الاسباب التي رفعت صور الى اوج العمران واقيم في احدى الجزر من ذلك الوقت الهيكل المشهور الذي ما عثم ان جلب بشهرته في وقت قريب جماعة من المهاجرين نحو بعل ملقوت ونحو بيت ايل او النجم الساقط من السماء الذي قيل ان عشتروت اسقطته (١) . وهذه العبادة اوجبت ان تُلقب الجزيرة بالقدسة (٢)

ولكن جميع ذلك لم يكن له اوانثذ اهمية عظيمة تمنع من ان تكون صور العتيقة اكبر قسم في المدينة . فقبل ان عملوا الاعمال الكبيرة في ايام ملك حيرام على مسافة قليلة من البحر (٣) كانت الجزيرة

(١) سنكن يتن فقرة ٢: ٢٤ (٢) سنكن يتن في الحل

المذكور — هيرودوت ٢: ٤٤ (٣) يوسف في العاديات ٩: ١٤

منحصرة في صخور مجرّدة ومنفصلة لا تشتمل إلا على مكان ضيق كثير الحجارة معدوم من الماء . وكانت امواج البحر وزلازل الارض المتتابعة وقتئذٍ تخيفهم من ان يبنوا بنايات كبيرة . وكل يرى ان مثل هذا المحل غير صالح لان تكون فيه مدينة مهمة . واذا تأملنا في خلوة الماء الذي لا يحتمل وجوده في ذلك الصخر القاحل أجبرنا على التصريح بان اقامة شعب كبير هناك كان امراً مستحيلاً من غير ان يكون لهم منزل آخر عند الشاطئ . وعليه فلا يصح التقدير بان الجزيرة (حتى في ابتداء المهاجرة) اسكنت جميع الشعب السوري

وهذا التقدير مثبت اثباتاً قوياً بشهادة مينندر وديوس (١) والآثار المصرية التي تعلمنا ان مسافة الجزيرتين الضيقة لم تكن مشغولة بالبنائات في القرن العاشر قبل المسيح عند ما زاد عليها الملك حيرام أكثر من نصفها . ومع ذلك فانه لم يكن للجزيرة من بعد تكبيرها إلا نحو الف وستائة متر طولاً ونصف ذلك عرضاً

أفلا تدل مثل هذه الحالة دلالة صريحة على ان منازل الجزيرة لم يكن لها الى حدّ ذلك الحين إلا اهمية قليلة ولو ان صور كانت قد صارت زاهرة وقديرة بما انشأت من مستعمراتها ؟ . اما منبع عظمتها

(١) يوسف في العاديات ٨ . وفي كتابه ضد ايون ١ : ١٧٠ ١٨٠

وعمرانها فانما مصدره على الخصوص مدينة البر حيث كانت تتقاطر قبائل الفلاحين واهل البدو للمبايعة وللمقايضة . وعليه فان صحرا صغيرا لم يكن كافيا لامة عظيمة كانت لها علائق متسعة وتجارة بحرية غير يسيرة . هذا فضلا عن ان الصوريين كان يلزمهم لاجل ان يستخرجوا مثل هذه المنفعة العظيمة من الجزيرة المذكورة ان يكونوا قد ادركوا نجاحا تجاريا حقيقيا كما جرى لهم ذلك لا بدء نشأتهم بل في الايام الحسنة من سيادتهم البحرية . وكانت صور العتيقة قبل ذلك المدينة الكبرى والاولى في الاهمية

ان سهل بر صور بواسطة جودة تربته وكثرة اسباب ثروته كان اكبر باعث على ذلك التقدم الاولي . وبالنظر الى ما فيه من المنافع الغزيرة استقرت فيه تلك المستعمرة عند نشأتها واختارته مقاما لها . وقبل ان يتجه خاطرها الى الاعمال البحرية اما كان ينبغي لها ان تهتم اولاً بحاجاتها الضرورية وتحث ذلك السهل الخصيب لتحصل منه اقواتها واقوات مواشيها ؟ بل اما كان ينبغي لها ان تجعل الشاطئ بسبب خلو الجزيرة من الماء مركزا اضطراريا للاتصالات التجارية مع قبائل داخلية الجبال ؟ . وهذه الاحوال كانت تتطلب من المهاجرين ان يقيموا اولاً في مدينة البر ويسعوا في الوقت نفسه في اغتنام منافع الجزيرة للمستقبل

ومع ما يوجد من ظلمات الاشكال التي ركمها تضارب الآراء
 في مركز مدينة البرّ العتيقة فلا نرى من المستصعب الوقوف على موقعها
 فان المياه النخيزة الموافقة للصحة التي تتفجر من نبعي راس العين وتدلّ
 البركة في سفح الرّبي المرتفعة على الطرف الشرقي من السهل في مقابلة
 صخور البحر قدّمت لاولئك المهاجرين احسن محلّ يمتنونه لتحقيق قصد
 الاقامة . فاختاروه من ثمّ محلاً لسكناهم وبثوا فيه بنايات مدينتهم
 الجديدة على شمال وجنوبي ذينك النبعين . وجميع ما بقي لدينا من
 المعلومات يجعل صور العتيقة في هذا المحلّ . والى الان توجد قناة عظيمة
 وهي آخر ما خرب من هذه المدينة بتدئى من النبعين محيطة باعلى
 السهل الى حدّ معشوق ثمّ تتجه بعد ذلك الى صور الجزرية . وكانت
 القناة المذكورة من جهة الشرق حدّاً لهذا القسم من صور البرية التي
 امتدّت فيما يلي الى جميع الشاطئ . والحنايا القديمة الباقية من هذا
 الاثر هي الواسطة الوحيدة التي منها نعلم الموقع القديم لهذه المدينة في
 اخر مدتها . ولا شك ان الموقع المذكور لم يتغيّر تغيراً يُعتدّ به
 هذا فضلاً عن ان المكان المشار اليه يوافق كل الموافقة للبناء
 التي ذكرها المؤرخون الاقدمون — فان استرابون (١) يجعل صور

العتيقة على ثلاثين غلوة اي نحو خمسة كيلومترات ونصف كيلومتر من صور الجزرية وانت ذاهب الى الجنوب . وهذه المسافة هي نفس المسافة الفاصلة اليوم بين شبه جزيرة صور وآبار سليمان او بُرك ماء رأس العين . اما بلين (١) فبعد ان ذكر لصور ولبالي صور محيطاً متساوياً قدره ١٩٠٠ قدم (نحو ٢٧ كيلومتراً) قال ان صور العتيقة كانت قريبة جداً من صور وكان مركزها بناءً على ذلك ممتداً في السهل مُقابل شبه الجزيرة الى ما وراء النبعين المذكورين في الربوة القريبة . فهذا الموقع الجميل والمتسع هو بلا مرأى مركز صور العتيقة التي غُرسَت على ما قال النبي هوشع في مرتع (٢) ولكنه اذا كانت صور العتيقة اولاً اكثر قسماً عاصمة الصوريين عمرائاً فان الجزيرة قد عقبها فيما بعد حتى صارت المركز المهم لسلطان فينيقية . فيتحصل اذاً من الانباء التاريخية والتقديرات المبنية على اقوى الحجج ان تأسيس صور وبالي صور كان بواسطة مهاجرة من صيدون رحلوا الى هناك من بعد تأسيس هذه المدينة بسنين طويلة . والذي احوجنا الى التوسع في الكلام عن اصل هذه المدينة انما هو اهميتها وما للعلماء فيها من الآراء المتضاربة . غير ان شهرة هذه القاعدة العظيمة قد كشفت على نوع ما في

زمان ما نور سائر المدن الكنعانية في لبنان . ولذلك لما تكلمنا عن
صور العتيقة فكاننا قد اتينا بتاريخ فينيقية . اما بقية المدن اللبنانية فقد
سكت المؤرخون عن زمن تأسيسها وخيت الظلمة على اخبار نشأتها
فلم يبق من امرها الا امارؤها ولذلك نضطر الى تكرارها والاخبار
عن اصولها

اكزيب

ان اكزيب التي مررنا ذكر مملكتها هي على مسافة ٧٧ كيلومتراً
جنوبي صور في سهل عكا . وقد سماها اليونان بعد ذلك اكديو
وسماها يوسف المؤرخ عركة (١) وكرر هذه التسمية عدة دفعات
قال السيد مسلين انه كان في اكزيب (المعروفة اليوم بالزيب

(١) يوسف في العاديات ٥ : ٢٢٤١ - ٨ : ٣٤٢ - وفي الحرب

اليهودية ٥ : ١ . وقد سماها الصليبيون كازال هوبرتي Casale Huberti
وكانت اذ ذاك قرية الاهمية وهي اليوم اقل اهمية من قبل وتسمى
زيب . ولا يصح خلطها مع مدينة عركة المشهورة في شمالي لبنان .
ويحتمل ان يكون لفظ عركة المعطى من يوسف لا كزيب اما ناتجاً عن
غلط النسخ او عن خلطها مع عكا

او حصن الزيب (كما كان في صيدون وصور وبيروت الخ صف من
الصخور يدفع عن الشاطئ هجمات الاعداء ويمكن ان يصلح عند الاقتضاء
محلًا للسكنى . وهذا المكان القائم على شاطئ البحر فيه ربوة كانت من
دون ريب حصنًا للمدينة . وعلى الشاطئ الى اليوم آثار عديدة تدل ان
هناك مدينة غنية

عكُو او عكا

هي مبنية على شاطئ البحر ابعد من هناك على مسافة نحو من ١٢
كيلومترًا بازاء الكرمل . ولم يرد ذكرها الا مرة واحدة في الازمنة
القديمة (١) وهذا كل ما نعلمه عن اصلها . ولكن بعض الثقيليدات
السريانية ينسب تأسيسها الى اكوريس احد ملوك مصر (٢)
غير ان هذا الملك الذي هو من السلالة الثامنة عشرة على رواية مانثون
لم يذكر اسمه على الآثار المصرية لابل ان سكوتهم هو مخرج له من عداد

-
- (١) القضاة ٥٠ : ٣١ معنى عكُو او عك بالعبрани الرمل المحرق اشارة
الى ما فيها من الرمل الصالح لصنع الزجاج او الى كثرة الرمل فيها
(٢) تاريخ بطاركة انطاكية وهو كتاب خطي في عين تراز

الملك وعليه لم يكن يستطيع ان يؤسس مدينة عكا التي ليس لاسمها
 الا مشابهة وهمية مع اسم هذا الملك الوهمي (١) ولكن نصر
 الكتاب المقدس (٢) يثبت بانها ترتقي مثل مدينة محصنة الى قدامة
 عريقة . والذي جعل هذه المدينة كثيرة الاهمية وصيرها معتبرة مثل
 مفتاح لفينيقية والجليل وسورية في كل الازمان انما هو موقعها في
 الشاطئ الشمالي عند خليج مبهج في مدخل سهل متسع مخصب قبالة
 الجليل بل مرفأها الذي في طرف رأسها لانه كان قديماً من آمن المرائي
 بل ما فيها من الصخور المرتفعة في مياهها على حد ما يوجد في صور
 وصيدون على مسافة قليلة من الشاطئ . وشتان بين ما هي عليه اليوم
 من الانحطاط والحمول وبين ما كانت عليه في القديم من الشهرة

اكشاف وقادش وعيون

قد سلف لنا ان مدينة اكشاف هي التي قام موضعها مدينة
 حيفا الحديثة الواقعة في طرف سهل عكا في منعطف رأس جبل

(١) فرنسيس ليرمان في التاريخ القديم ٣ : ٣

(٢) القضاة ١ : ٣١

الكرمل . غير انه في جميع الاعصار لم يكن لها اهمية الا ثانوية ولا يبعد انها كانت مرفأ السفن (١) الذي ذكره يعقوب في بركة زبولون مثل تخم لصيدون كما تقدم القول

اما مدن الداخلية التي تحول ايضاً دون معرفة اصلها ظلمات الازمنة فقد اتى يشوع بذكر جملة منها (٢) غير ان اكثرها ليس له اهمية تاريخية . اما حاصور التي احزت مكانة معتبرة في عهد الفتح الاسرائيلي فلم يبقَ منها اليوم الا اطلال ورسوم والعلماء مختلفون فيما اذا كانت هذه الرسوم من بقاياها حقيقة . واسمها الذي معناه الحصانة والمنعة يدل على انها كانت في اول امرها قلعة

وقادش التي كانت في الازمنة الكنعانية تعدّ مدينة مقدسة عند اهل الجهات المجاورة لبحيرة ميروم قد بقي منها الى ايامنا خرابات مهمة لانك تجد فيها بنايات على الهيئة الفينيقية وقبوراً منحوتة في الصخور التي تجاورها واجاجين كبيرة من قطعة واحدة مبثوثة في السهل تشهد بقدامة اصلها . ولا شك انها كانت في اول امرها هيكلًا للعبادة كما يُشير اليه اسمها

وعيون هي مدينة الحويين القديمة وقد بقي منها الى اليوم بقايا قليلة
تكل قمة تل دبين المستديرة في وسط سهل مرج عيون الحسن
النظر (١) ويمكن هذا الموقع من الحسن والفائدة بنت فيه القبيلة
المذكورة قاعدة مملكتها

آبل

ان هذه المدينة القائمة على تخوم عيون هي ايضا مدينة قديمة كانت
تحتسب من الامهات (٢) ولم تعد من الامهات لانشائها المهاجر في
البلاد البعيدة ولكن لكثرة ما بنت حولها من المدن التي كانت تسمى
بنات لها . وقد نالت اهمية عظيمة في مدة طويلة عند تخوم فلسطين
الشمالية (٣) . اما اليوم فهي قرية حقيرة تدعى قرية حبيب
ولا ترى فائدة من ان نعد بقية المدن القائمة الاهمية في النظر

(١) سفر الملوك الثالث ١٥ : ٢٠ — سفر الملوك الرابع ١٥ : ٢٩

— سفر اخبار الايام الثاني ١٦ : ٤

(٢) سفر الملوك الثاني ٢٠ : ١٩

(٣) سفر الملوك الثالث ١٥ : ٢٠ — سفر الملوك الرابع ١٥ : ٢٩

— سفر اخبار الايام الثاني ١٦ : ٤

التاريخي فان ما اوردناه عن اقامة الكنعانيين اولاً في لبنان الجنوبي هو كل ما يمكن للمؤرخ ان يجمعه بهذا الشأن . نعم ان هذا القسم الذي عمره عند شاطئ البحر المتوسط وبثوا فيه بناياتهم هو ارض صغيرة ضيقة ولكن له اهمية عظيمة فيما يتعلق بديانة وقدن العالم القديم ألا ترى انه من هذا القسم من لبنان خرج ملاحون اولو اقدام وجراء وسافروا باسم فينيقيين الى جميع البحار واختلطوا بجميع الامم وأسسوا في الاماكن البعيدة مهاجرهم ووصلوا اليها سطوتهم التمدنية

ان الامة الكنعانية التي اتينا ببيان اصلها قد اظهرت من اول امرها اقداماً ونشاطاً وحذقاً وشجاعة وصبراً واقتداراً على الاختراع والاستنباط . فوجهت خواطرها اولاً الى احراز الغنى وحشد الطيبات وظهرت اثرتها لنفسها في جميع اعمالها وبدت حكمتها الارضية المحضة امرًا عجيباً في عيون الفلاسفة الاقدمين (١) . وقد جمعت هذه الامة خلافاً عزيزة لانها تظهر في تضاعيف العصور مثل شعب غازي سلمي وشديد البأس . ومثل مُبجر مقدم ومتعقل . ومثل دؤار جسور وفطن . ومثل تاجر محتمل ومحتم . ومثل صانع حاذق ومجتهد . ومثل صاحب حرفة بصير وحكيم . وجملة القول انها تظهر في كل مكان ظهور غني

(1) Philosophumena. L. IV... Phœnicum sapientia admirabilis est.

يعرض للبيع اندر واعزّ تجارة في جميع الجهات . ومع كونها قد اقامت في عدة اما كن بين كثير من الشعوب حافظت اشد الحافظة على خلالها الميزة لها ولبثت نافرة من مخالطة الغربين الذين هم بوجه العموم اوفر ثقة بخلطائهم واكثر اطمئناناً الى معاشريهم

ولم يكن لها ميل الى الحرب ولكنها كانت اذا اضطرت اليها ابلت فيها بلاء حسناً هكذا كانت في لبنان ذرية حام او ابناء كنعان . وما كان فيها من الصفات المارّ ذكرها والرغبة في الاستيلاء والقوة على الانتشار اعدتها للقبض على ازمة العالم . ويقع للشعوب مثلما يقع للافراد فان الله تعالى يناسب بين اهليّاتهم للامر الذي يشاء تسليمهم اياه ويرشدهم الى ما قدّر لهم من غير ان يضرّ بحرية الافعال البشرية

اما اراميو لبنان فانهم يخالفون كل المخالفة لهؤلاء التجّار الجريئين لانهم اقل منهم اقداًماً واجتهاداً وحدقاً واكثر تعلقاً باوطانهم واوفر سداجة في رغباتهم واعظم ميلاً الى السلم والراحة . وبنائاتهم هي اقل اهمية وبعداً . وكذلك ملاحه من سكن منهم عند شاطئ البحر كانت اقل نشاطاً ونجاحاً . واما صناعتهم فضعيفة ايضاً ومشروعاتهم يقارنها الخوف وسطوتهم منحصرة واعمالهم قليلة الاهمية ونشاطهم السياسي والتجاري محدود . ولكن لهم من بعد الفينيقيين مكانة معتبرة بالنسبة الى تلك الحضارة الاولى . وقد انتقادوا طوعاً لسلطان جيرانهم واشتركوا

معهم في صنائعهم ومشروعاتهم وخالطوهم في نجاحهم وتقدمهم .
ولكنهم انما وجهوا خواطرهم وتجارتهم على وجه خاص الى داخلية
اسية والعربية يستجلبون منها البضائع الى اسواق فينيقية

هذا وان طباع هاتين الامتين لم تلبث ان فسدت شيئاً بعد
شيء ، بتمادي الازمان اذ من الاكيد ان اليونان والرومان في اوائل
النصرانية كانوا يعدون الفينيقيين والسوريين مثلاً للخداع والخبث
والخسة . قال كيكرون « ان الامة الفينيقية هي كثيرة المكر كما تشهد لنا
بذلك الآثار القديمة مع عامة المؤرخين » (١) وقال في موضع اخر
« انهم ولدوا للعبودية » (٢) « وانهم قطع خسيس » (٣) وبهذا
ايضاً قال الشعراء اللاتين الذين يصفونهم بالنسل الصبور والشديد الصبر
(٤) ويذكرون اسم السوري بمنزلة مرادف للعبد (٥) . وسقراط
ايضاً يعد السوريين في جملة الامم التي ولدت للعبودية (٦)
وكان اليونان عموماً يتوهمون في الفينيقيين والسوريين اوهاماً

(1) Gicer. Orat. edit. Card. Mai, p. 13.

(2) Cicer. Orat pro Prov. Consul .5. «Tradidit in servitutem Judæis et Syris nationibus natis servituti.»

(3) Cicer. in L. Pison 1. — Syrum nescis quem de grege novitiorum... Syrorum venalium.

(4) Plaut. Triumv.. 11, 4

(5) Juvenal. Sat. 1; Sat. VI — Martial X. 76; — Strab. VII, 3, 12; — Schol. Theocrit. V, 2

(6) Xenophon. Memorial. Socr. 11.

كثيرة باطلة ومن امثالهم على رواية سويد «سوري ضد فينيقي» ي
لص ضد لص او خبيث ضد خبيث . وذكر لهم استرابون مثلاً اخر
« كذبة فينيقية » (١)

والظاهر ان هوميرو هو اول من نشر هذه الاخبار عن الفينيقيين
فسوّد بها سمعتهم بين اليونان ان وصف احدهم بالبراعة في الخداع
والقدرة وايلاد الشرور بين البشر (٢)

الآن اليونان لم يراعوا قواعد الاستدلال في اطلاقهم بعض
الحوادث الخصوصية التي اثبتتها احد الشعراء على عموم الامة وكذلك
الرومان قد اكثروا من التهكم على الشعوب التي اذلوها لسلطانهم في
وصفها بانها صبورة وحاملة الضيم ومستعبدة
ومع ذلك فان بينها خصائص كثيرة تفصلها عن بعضها منذ
تبليبل الالسنه

وهذا الانفصال التام بين السرياني او الارامي والفينيقي والعبراني
يظهر انه قد تم وقوعه من عهد قديم جداً اي عندما قدم الاباء ونصبوا
خيامهم في ارض الكنعانيين لان يعقوب ولابان يوضحان المعنى الواحد
بعبارات عبرانية وسريانية متميزة عن بعضها كما لا تزال كذلك الى

(١) استرابون ٣ : ٥٥

(2) Homer. Odyss. XIV, 488,

اليوم (١) ويظهر ان العشيرة التي اختارها الرب لما انتهت الى الارض التي وعدتها اضطرت كرهاً ان تترك لغة بلاد الكلدان الارامية وتتعلم لغة القبائل التي دعاها الله لان تقيم بينها (٢)

وما خلا هذا البرهان المأخوذ من هذا الظرف الطبيعي عندنا شهادات من الاسفار الالهية تثبت ان العبرانيين قد تكلموا بلغة بني كنعان . وذلك لان الاسفار الالهية في معرض كلامها الكثير عن هذه اللغات المتقاربة لا تفرق مطلقاً بين اللغة الفينيقية او الكنعانية و (بين) اللغة العبرانية . بل بعكس ذلك تسمي العبراني بصريح المقال لغة كنعان (٣) واسماء المدن هي واحدة في كلتا اللغتين . وجواسيس يشوع عند عودتهم من مصر خاطبوا راحاب من غير صعوبة كما ان رسل الجبعونيين وغيرهم من الشعوب الكنعانية تكلموا امام الاسرائيليين من غير مترجم (٤) واهل العلم في زماننا قد توصلوا

(١) التكوين ٣١ : ٤٧

(٢) التكوين ١٢ : ٥ و ٦ - ١٣ : ١٢ - ١٤ : ١٣ - ٢٠ :

٩ و ١١ و ١٢ و ١٣ - ٢٣ :

(٣) اشعيا ١٩ : ١٨ - ويوسف ضد ابون ١ : ٢٢ ذكر

اللغة الفينيقية مریداً بها اللغة العبرانية (٤) يشوع ٢ : ٩

بما رأوا من الكتابات الى التحقيق بأنه ليس بين هاتين اللغتين الا فروق خفيفة لا تكفي لجعل كل واحدة لغة مستقلة. ولكن لم يكن ايضاً بين العبرانيين انفسهم لغات مختلفة (١) ؟ وليس عندنا في الحقيقة لاجل الحكم على تشابه هتين اللغتين الا بقايا قليلة من اللغة الفينيقية. ولكن الشهادات التي تقدمها لنا هذه البقايا مع كلام الكتاب المقدس واقوال القديس هيرونيم (٢) والقديس اوغستين (٣) اللذين نقباً في تلك اللغة قبل اندراسها تكفي لتثبت ان اللغتين المذكورتين كانتا في عهد ابراهيم ذاتي تقارب شديد وتناسب تام لانك كلما ارتقيت الى القديم ازدادت عندك مشابة الفينيقي للعبراني

(١) القضاة ١٢ : ٦ - ١٨ : ٣ - متى ٢٦ : ٧٣ -

مرقس ١٤ : ٧٠

(٢) ان القديس هيرونيم في شرح الآية ٢٥ من الفصل الخامس

من نبوة ارميا يقول : « ان لغة الفينيقيين يشبه اكثرها لغة العبرانيين »

لان قواعد النحو واكثر مفردات اللغة هي واحدة في كلتا اللغتين

(٣) قال القديس اوغستين في مسائله على سفر القضاة

(٧ : ١٦) : ان اللغة العبرية والفينيقية لا تختلف احدهما كثيراً عن

الآخرى

ويستج من ذلك ان اللغة الكنعانية كانت في ذلك العهد قد رُفعت الى اعلى درجات الجداى الى ان تكون لغة مقدسة . فاللغة الكنعانية او الفينيقية هي التي تنازل الله تعالى وكلم شعبه بها وهي التي نقلت الى اهل الارض قاطبة في جميع الاعصار اول وحي واول سنة ثلث من السماء

ولماذا خصت لغة ذلك النسل اللعين بهذا الجدا الرفيع ؟
العل ذلك لان الله بعنايته الغامضة يختار الاثيم وغير الموجود ليقدره ويجعله اداة لصنع العجايب الباهرة (١) فانه بحكمته يجب ان يخرج الخير من الشر كما يخرج النور من قلب الظلمة . فباية منه تنازل فاعطى كحسب رحمته القدية شريعته للخطاة بلغة الخطاة وجعل بذلك لغة النسل اللعين لغة البركات الفائضة

غير ان بعض العلماء قالوا بان الله آثر لغة الكنعانيين لجملة اسباب وزعموا انها هي اللغة الاصلية وادعى بعضهم خلافا لكل حقيقة ان ابراهيم لم ينقطع عن التكلم بها بين ارامي ما بين النهرين وقد ادخلها عند وصوله الى ارض كنعان بين القبائل المقيمة بتلك الارض (٢)

(١) ١ كورنثس ١ : ٢٧ و ٢٨

(٢) كلمة في مقالته عن اللغة الاصلية

ووفق غيرهم بين هذا الرأي وحوادث التاريخ بنوع ايسر قالوا ان كنعان من بعد لعنة نوح تنحى حالاً مثل رجل بغيض ومحروم عن جماعة سائر القبائل التي خرجت من السفينة . فينتج من ذلك ان عشيرته لم تشترك مطلقاً في جريمة برج بابل . ولما عاقب الله بُناة البرج ببلبة الالسنه لم يقع عليه اصلاً ذلك العقاب لانه كان بعيداً عن شنعار (١) وعليه فانه قد حفظ اللغة الاصلية التي كان يتكلم بها قبلاً . وكيفما كان الامر فانه لا يمكن الانكار انه بعد دعوة ابراهيم كانت لغة النسل المبارك والنسل اللعين في ارض كنعان واحدة

اما اللغة الفينيقية التي ليست الا فرعاً من اللغة الكنعانية فتبدو فيما بقي لنا من آثارها القليلة انها من عهد قديم تتفق في كل ما هو جوهري مع عبرانية الكتاب المقدس . وما فيها من المميزات هي اضعف كما تقدم القول من ان يجعلها لغة مستقلة خاصة بفينيقية . لان جلّ مميزاتها في لفظها هو ميل اصحابها الى كثرة استعمال الضم في الحروف واهمال الحذف في التهجئة الاخيرة من الكلمة ولكن بما ان اللغات السامية لا تكتب فيها الحركات تعلم من ذلك قلة اهمية الخصائص المذكورة

وكان حذف الحركات الطويلة او حروف المد خاصة اخرى
 من خصائص اللغة الفينيقية في الكتابة غير انه قد وجدت كتابة
 عبرانية من القرن التاسع قبل المسيح وذلك في ديبون من بلاد
 موآب (١) تشتمل على نفس هذه الخاصة وتدلُّ بوجه الاحتمال انه
 هكذا كانت اقدم طريقة لكتابة العبراني والفينيقي وسائر اللغات السامية
 وهذه التنبهات تثبت لنا في الاقل شدة قرب الفينيقي من العبراني
 وقلة ما بينهما من الاختلاف مما يجوز اكثر الاحيان خلط الفينيقي
 مع العبراني الصريح . غير ان الفينيقي قد فسد شيئاً فشيئاً مع كور
 الايام فساداً اقل من فساد العبراني وتقرب من الارامي او السرياني
 عقب الفتح الاشوري . ثم اوشك بعد غارة اليونان ان يندرس اندراساً
 تاماً الا انه لبث مع ذلك دائماً باختلاطه مع السرياني لغة قسم من
 الشعب خصوصاً في داخل البلاد الى ان جاءت اللغة العربية التي
 تقاربه فدفنته كما دفنت سائر اللغات السامية

قد تكلمنا هنا سلفاً عن الارامي او السرياني لكي لا نفصله
 مطلقاً عن الفينيقي فان اللغة السريانية دخلت في لبنان عند الفتح

(١) نشرها الموسيو كلرمون غانو سنة ١٨٧٠ في الحلة

الاشوري فاجتمع اغتان متخاصمتان وتغلبت الاولى منهما في اخر الامر لان اسماء المدن والملوك تثبت انه قبل الفتح الاشوري لم يكونوا يتكلمون في لبنان بل ايضاً في عامة الجهة التي قبل الفرات الا العبراني او الفينيقي لا غير . والارامي هو لغة اخرى من الطائفة السامية وهو وان كان شقيق العبراني او الفينيقي الا انه في التحقيق متميز عنه بخصائص بيّنة كما هو الامر مثلاً بين الايتالي والفرنسي . وهذه اللغة التي يظهر انها نشأت من عهد ببلّة اللغة الاصلية تفرّعت الى ثلاثة فروع مهمة اي السرياني الحقيقي الذي هو افسحها والذي كان لغة اهل ما بين النهرين والشام الخارجة والارامي وكان لغة اهل لبنان والشام الداخلة وهو اقل من الاول خلوصاً وصراحة ولو انه كان رصيناً متقناً . والكلداني او النبطي وهو اسحجها واقلها إحكاماً وكان لغة جبال آسية الداخلية في اشور وبابل (١) اما اهل الاشتغال باللغات من المحدثين فيعدون السرياني اقل اللغات السامية كمالاً لانه انقصها انسجاماً واتساعاً واقلها تماماً في احكام نحوهِ . وقد فسدت صراحته بما دخل فيه من الالفاظ اليونانية الكثيرة التي سلبته رونق اصلية . ولم يزل

(١) راجع تاريخ مختصر الدول لابي الفرج في ص ١٨ من الطبعة

يهبط من عهد غارة المقدونيين حتى اتّحى تماماً من لبنان في القرن الثامن عشر. ولم يتكلم به اليوم إلا قرّيتان في لبنان الشرقي اعني بهما قرّيتي معلولا ومار الياس

وذلك مما يذكر بما كان لهذه اللغة من الشرف العظيم في قسم كبير من قارة اسية. غير ان الكنيسة لم تهمل اللغة المشار اليها مع ما اصابها من الخمول فبقيت من ثم في لبنان لغة الطقوس الدينية عند الموازنة والسريان

ولم تعد ايضاً انصاراً اهل حماسة ينادون بحجدها القديم ويعالنون بانها كانت لغة عدن واللغة الاصلية امّ جميع اللغات التي نشأت عن بلبله الالسنه اذ انها تُفسر الاسماء الاولى باحسن انواع التفسير (١) الا ان اللغة الارامية بعد ما تزل بها من انحطاط مجدها لا تزال تتوقع من همة انصارها ان يعيدوها الى حالتها السابقة مقررّين انها كانت ملكة اللغات السامية . اما اهل العلم في العصر الحاضر فلا يرون في هذه الدعوى الا وهماً وطنياً مبنياً عند اللبنانيين على غلط تاريخي

(١) البطريك عميرة الماروني في مقدمة غراماطيقه السرياني

والبطريك بولس مسعد في كتاب خطي

واعلم ان ما قدمناه عن اللغات التي كانوا يتكلمون بها قديماً في لبنان يتعلق بغرضنا تعلقاً مهماً لانه يقرر تقريراً ساطعاً جميع ما قد اسلفناه عن الاصول الارامية والكنعانية . اذ لا ينكر ان اللغة هي مرشد امين يرتقي بنوره الى مهد الامة . وعليه فهو شاهد لا تُرد شهادته اللهم اذا استنطقه منتقد صادق لاجل الوقوف على علاقات شعب مع آخر ومعرفة ما ترك من الاثار في البلاد التي سكنها . والحال اننا منذ عهد الاباء نرى ان تكون لغتي الاراميين والفينيقيين كان قد بلغ تمامه في ما قبل الفرات ووراءه

وكانت كل لغة من هاتين منذ ذلك الوقت منقسمة ومتميزة عن الاخرى بخصائصها تميزاً كاملاً . وقد ابقت اتصالات الشعوب التي كانت تتكلم بهما آثاراً تاريخية (١) واقدم اسماء الجهة التي عمرتها تدل في كل محل على وجودها

وكان الاراميون والكنعانيون اول سكان هذه النواحي فاقاموا بها مع قبائلهم . ولكن اللغة الكنعانية والفينيقية او العبرانية لم توجد الا في فلسطين وفينيقية ولبنان وفي ما يجاورها وفي مستعمراتها ولا يوجد لهذه اللغة السامية اقل اثر معروف في مكان آخر .

وعليه فان الكنعانيين او الفينيقيين انما اقاموا منذ الاول في هذه الجهات
لا في جهة اخرى

ومن ثم فان نزول الكنعانيين او الاراميين في فلسطين وفينيقية
وسورية يظهر لنا حادثاً اولياً . فوجودهم هناك قد تقدم وجود كل
قبيلة اخرى قديمة مختلفة اللغة . ولذلك فهم وطنيون خالصون في هذه
الارض بمعنى انهم هم اول من قدم اليها قبل ان يبنوا لهم في اماكن
اخرى محلات متميزة . فهم اذاً اول من عزق ارضها واول من بني
فيها المدن واول من شاد فيها الممالك

الفصل السادس

في

البحث عن التاريخ الاولي في لبنان

ان الاصول الارامية والكنعانية التي تسكلمنا عنها لا بد ان تبقى
مبرقةً ببرايق الحقاء ان لم نسع على قدر الامكان في تمزيق ستور
الظلمات الحاجبة في كل مكان لتاريخ الازمنة القديمة . والسعي الذي
نسعا لا يكون على هدى اذا لم ننصب على طريقنا بعض اعلام لنعين
تعييناً تقريبياً المدة التي انقضت على لبنان ونقرر المبادئ الحقيقية التي

نسلك على هدايتها عند ازدحام الآراء الغريبة التي تميل اليوم الى هدم كل بناية تاريخية او اقل ما يكون الى تغشية الاعصار القديمة بظلمات كثيفة تضلّ عندها العقول القويمة لكثرة ما ترى من الآراء الجديدة لان كثيرين باستنادهم الى خطة فاسدة بدلاً من ان يكملوا بالحكمة بواسطة المكتشفات الجديدة بناية التاريخ القديم يُقدمون بكل جرأة على هدمها بما يخترعون من المذاهب الباطلة . وعلى ذلك يحلّ الريب والتردد محل الحقائق التاريخية الراهنة

غير ان اهل عصرنا جعلوا البحث عن التاريخ الاولي جلّ همّهم حتى امكن القول انهم فتحوا فتحاً عظيماً لمجد الله . فهضت جميع القرون الاولي تؤدى الشهادة للحقيقة وترنم لخالق العالم الذي اوحى الكتاب المقدس . لان ابجاث اهل العلم الاجتهادية والحفائر التي احتفروها بالحكمة في جميع انحاء الارض وما تكلمت به من النجاح في اكثر الاوقات كل ذلك قد اتى التاريخ بالافادات النفيسة والآثار المملوءة نوراً عن اصل شعوب المشرق وتاريخهم الاولي

ويهمنا جداً ان نراعي هذه الامور حق المراعاة ونبين مكانتها وميزاتها الصادقة بالنسبة الى لبنان . ومع كوننا نرغب في ذلك حبا في اظهار الحقيقة التاريخية انا مضطرين اليه قسراً بسبب ما لبعض العلماء الغلاة من الآراء المشطّة . اذ يظهر انهم لا يتوسلون بالاكتشافات

الجديدة الا الى رَكَم الظلمات على صدق الوحي الالهي وحوادث التاريخ القديم

اجل ان اخص الاكتشافات التي يمكن ان تمزق سجون الحنفاء عن تاريخ الاعصار الاولي هو اشد تعلقاً بمملكتي اشور ومصر الشيريتين منها بابلان. ولكنه لما كان ابلان قائماً على حدود هاتين المملكتين العظيمتين وكانت له اتصالات معها غير يسيرة اقتضى الامر ان يكون لتاريخه بعض الاشتراك في تاريخهما. وعليه فلا يمكن اثبات شيء فيما يتعلق بتاريخه قبل التحقق على منزلة التواريخ التي يظهر ان الآثار تعزوها الى هتين المملكتين الاوليين. وهنا نرى عصابة عظيمة من العلماء منهم مشغولون بالبحث عن الآثار الاشورية ومنهم يعنون بالآثار المصرية ومنهم يبحثون في الآثار القديمة وغيرهم ينقبون في طبقات الارض ومنهم يستقصون اصول معاني الالفاظ

فيترب علينا ان نبين آراءهم وشهادتهم وحججهم بالمنزلة التي هي عليها من الحقيقة. ولا شك ان هذه الخطة تؤدنا الى كلام طويل جداً اذا لم نقتصر من غير ميل ولا غرض على بيان ما هو صادق ومقبول تاريخياً من هذه الاكتشافات الغامضة وبقايا الاطلال والخرابة التي تُعيد الحياة الى تلك العصور المنسية. وعليه فاننا نشرع في بيان هذا الغرض عازمين عزماً صادقاً ان نسلّم بكل ما يكون ثابتاً ونطرح

كل ما كان بخلاف ذلك . فان من مقتضيات المؤرخ ان لا يبدل
سنة وتقليدات من تقدمه الا عند الشهادة الصريحة الموجبة للخلاف
فاعلم اولاً ان العلماء الباحثين عن الزمان المتقدم التاريخ يوردون
اعداداً هائلة مؤلفة من الوف ومئات الوف من السنين . غير ان هذا
العلم القاصر بعد ان حمل الناس على العجب مما اتى به من التقديرات
المدهشة قد أرجع الى دائرة التاريخ العام والى الاعصار المعروفة في
تاريخ البشر

زعم هولاء ان استعمال الناس للحجارة ادوات في اعمالهم كان
قبل اختراع الادوات النحاسية والحديدية وانه في اي محل وجدت
تلك الحجارة فذلك دليل على ان الناس سكنوه من قبل الزمن
التاريخي المعروف . لكن هذا الزمن المعروف عندهم بعمر الحجر قد
تقرر انه مرافق لبقية الاعداد التي تلتها والاعصار الحديثة ايضاً . وهكذا
جرى في جميع ما نسبوه لقرون متعددة قبل الحدود التاريخية . فهذه
الازمنة التي عزوها الى ظهور الانسان على الارض قبل الزمن التاريخي
لم تكن الا تقديرات لا اساس لها واورهاماً مجردة عن كل صحة اذ ان
المكتشفات تثبت بما هو صادق فيها اعظم الانباء التاريخية وتقرر
ظهور الانسان حديثاً على الارض بالاضافة الى اقوالهم وتأييد وحدة
البشر . هذا فضلاً عن ان لبنان على مثال القطر المصري لم يحصل

مطلقاً على عمر الحجارة والدهور السابقة التاريخ . لان بُناة برج بابل
 انما وصلوا اليه بعد ان كانوا قد تقدّموا في طريق التمدّن . ومسئلة
 البحث عن تحقيق الاصل التاريخي لا ينبغي فيها التعويل الا على
 الشهادات التاريخية

وعليه فمن حيث ان اكتشافات علم الجيولوجية التي سميت على
 غير صواب بالاكتشافات المتقدمة التاريخ لا تستطيع سبيلاً الى ايقاف
 البحث عن الامور التاريخية تحتم علينا ان نستنطق الاكتشافات الدالة
 على آثار التاريخ عن المدة التي انقضت على العالم . وان العلماء المشتغلين
 بالآثار الاشورية يزرعون ان يردّوا لبيروس (١) صدقة الذي قد
 فقده في عيون جميع المؤرخين كما انهم اجهدوا نفوسهم في مثل ذلك
 لمانشون . ولكن تعال ننظر هل يستحق ان يُعاد هذا الرجل الى اعتباره
 وهل فيه مزية توجب له الثقة التي ارادوا ارجاعها اليه ليجدوا عنده
 معوّلاً في شأن البحث التاريخي عن تعيين الازمنة الاشورية . فان
 كاهن بعل هذا كان بعد ايام الاسكندر وكتب تاريخاً عن بلاد
 الكلدان لم يبقَ منه الا بعض فقرٍ . ولكن هذه الفقر على قلتها تكني

(١) يحتمل ان يكون بيروس مشتقاً مما اشتقت منه بيروت

فيكون معناه السرو او الصنوبر او عشترت

تمام الكفاية للحكم على كون ذلك التاريخ هو مجرد حكايات . اما السبب الذي حمّله على ان يرفع اصول امته الى قدامة هذه صفقتها فهو معلوم عندنا . فان روح الوطنية هو الذي دفعه كما دفع سنكن يثُن ومانشون ايضاً ليوضح لليونان المتغلبين والمتباهين رئاسة واسبقية المشرق على بلاد الهلّاد الكثيرة الحكايات

وجرياً على هذه النزعة اخذ في كتابه الاول ينحدر اخبار المؤرخ الرصين عن ظهور أوتانس كل يوم من مياه البحر الاريتري (الاحمر) ودخوله فيها كل عشية . وذكر عن هذا المسخ ذي الرأسين الذي كان نصفه انساناً والنصف الاخر سمكة انه انما كان يخرج من قعر البحر للملح لاجل ان يعلم الكلدان العلوم والصنائع (١) الا ان هذه الحكاية المستحيلة مع كثير غيرها من الحكايات التي تشبهها تدلنا على ان هذا الرجل انما هو رجل خرافة لا رجل تاريخ

ثم ان البداءة الخرافية التي بدأ بها لا تحمل على الركون الى الارقام التاريخية التي ضمنها كتابه الآخر . فان هذه الارقام تشتمل على ربوات سنين لا يحصرها العدد حتى لا يتجرأ اجسر المشتغلين بالاثار الاشورية على اثباتها مثل ما اثبتها بيروس هذا . الا ترى انه قد ذكر

عشرة ملوك قبل الطوفان وزعم انهم ملكوا من عهد الورد الى حد
 كيسيتر اربعمائة واثنين وثلاثين الف سنة (١) ثم ذكر من بعد
 لطوفان سلالة اخرى مؤلفة من ٨٦ ملكاً ولم يسم منهم الا اثنين
 وخمسة وخمسة وسبعين وادعى انهم ملكوا اربعة وثلاثين الفاً وثمانين سنة (٢)
 ومثل هذه التواقيت المشطة التي لا تستند الى اساس والتي لم
 يتمكن احد من عدّها او تحقيقتها تدلّ اما على سذاجة او مكر من
 تجرأ على ايراد هذه الاكاذيب بحجة ان يفاخر بقدامة أمته . قال
 كيكرون : فلنزدربحنون وعجب او وقاحة البابليين الذين تنسب
 لهم اثارهم من القدامة حتى ٤٧٠٠٠ سنة (٣) وانما اشار بهذه
 العبارة الى المراقبات الفلكية التي عين مدتها بيروس بارقام لا تختلف
 كثيراً عما ذكره ديودور ويول الا فريقي
 ومن العلماء المحدثين ايضاً من عين لهذه المراقبات مواقيت غريبة
 ولكن من غير برهان . وقد اثبت العالم قنسان ان جميع معارف
 الكلدان والمصريين الفلكية كان يمكن تحصيلها بمراقبات تجري في

(١) في المحل المذكور ٢ . ٤ و ٤

(٢) في المحل المذكور ايضاً ٢ : ١١

(٣) كيكرون في كتابه عن الكهانة ١ : ١٩

مدى خمسين سنة وذلك بإسـط الوساطـط التي كانت للرعاة والبـدو
الاولين (١) وعليه فان المنتقد الصادق ينبغي عليه ان يطرح جميع
المـدات الفلكية ويعتبرها كأنها مبنية على غلط مادي

اجل ان بيروس في ما يلي من الاعصار قد جعل تاريخه اقل
بطلاناً واستحالة ولكن ما تقدم من امره يضطرنا الى القول بان الركون
الى مؤلف من مثله في كل مسألة لا يمكن اثباتها بشهادات اكيـدة
من غيره انما هو تلاعب بالحقيقة التاريخية . فان هذا المؤلف الذي لم
يتحرر بحسب ولا صدقاً ليس فيه شيء مما يحمل على الثقة به وعليه فان
المؤرخ لا يمكنه ان يعول عليه في شيء من الاشياء . والعلماء الذين
يركـنون اليه قصداً منهم ان يكثروا اعصارا شور حتى تتجاوز حدود
الازمنة المعينة في الكتاب المقدس فانما يعولون على ما لمعول عليه وعلى
ما لا قيام له

على ان ما نبهنا اليه ليس بغير ذي فائدة كما يمكن ان يتبادر الى
الذهن لا سيما مع اننا رأينا احد المؤلفين الرصناء قد جد في ان يرفع
تاريخ المشرق القديم الى مرتبة المعارف الحديثة لانه لما تكلم عن
بيروس قال ما يلي :

« ان اعداد المؤرخ بيروس التي يظهر ان لها قدرًا عظيمًا وانها مبنية على معرفة بالازمنة مقرونة بالعلم والضبط تجعل قدومها (اي قدوم سلالة جديدة) قبل التاريخ المسيحي بالفين وسبع عشرة سنة » (١) ولكنه يصعب علينا ان نفهم على اي برهان بني قوله « ان لهذه الاعداد قدرًا عظيمًا » مع ان لها خاصة خرافية في اكثر السلائل من شأنها ان تزيل الثقة فيما قاله عن البواقى . ام لعاءه وصفها « بان لها قدرًا عظيمًا » لان اكثرها مبني على ادوار سنين مؤسسة على تصورات باطلة قد طبقت تطبيقًا قسريًا على الحوادث والازمنة التي يصفونها بانها « مقرونة بالعلم والضبط » ؟ ولكن مثل هذه الاوصاف بدلًا من ان تجعل التاريخ « مقرونًا بالعلم والضبط » تنزع عنه بعكس ذلك كل قدر لانها تُظهر صاحب التاريخ مشتغلًا بمذاهب باطلة غير ملتفت الى البحث عن حقيقة عدد السنين . والاقدام على اعادة مثل هذه الاختلاقات والقول باهميتها وجعلها اساسًا للكلام عن تاريخ العصور العريقة في القدامة ان هو على رأينا الا حطّ التاريخ الى درجة الحكايات والاحلام ووسيلة الى خلط الحقيقة بالباطل

(١) فرنسيس ليرمان في كتابه عن تاريخ المشرق القديم

وبناء عليه فإنه لا يمكن الاقتصار على يبروس والركون اليه مطلقاً
 وحجة هذه القدامة العظيمة التي يُراد نسبتها الى اشور القديمة لا يمكن
 ان يُعَوَّل فيها إلا على آثار هذه البلاد او البلاد التي تجاورها . اذ ان
 هذه الاخرة العجيبة بما عليها من الكتابات التي بالخط المساري قد
 اعادت الى الحياة عالماً مدفوناً ومنسياً منذ ثلاثة الاف سنة ، فان
 نينوى وبابل وفارس بول وخرساباد يظهر كأنها قد نُشرت من مدافنها
 لتخبر مجدها الفات

ولا شك ان هذا الفتح الجديد العلمي الذي لم يكن في الحسبان
 قد افرح كل محب للحقيقة التاريخية . ونحن غني النفس ان نرد منهاه
 عند ما تتسنى لنا الفرصة . اما الان فاننا نستنطق هذه الآثار المكتشفة
 انرى فقط هل تستطيع ان تقدم لنا انباء حقيقية يمكنها ان تثبت في
 وجه التاريخ اوقاتاً متقدمة مثل ما يدعيه بعض المشتغلين بالبحث عن
 الآثار الاشورية

ونستعين للجواب عن هذه المسئلة الكبيرة باحسن العلماء معرفة في
 الآثار الاشورية . فان المؤلف المار ذكره والذي نقلنا كلامه عن يبروس
 يوضح لنا الحالة الحاضرة لهذه الاكتشافات قال « ان الكتابات
 المأخوذة الى اوربة والتي اكثرها مكتوب على الآجر قد جهزت لنا
 خمسين اسماً من اسماء الملوك الذين تولوا هذه المملكة (الاولى في

بلاد الكلدان) وهذه الاسماء لا تكون سلسلة ملوك متتابعين بل متفرقين في قرون كثيرة

ثم ان ما لوحظ من الاختلافات الخطية في الكتابات المشار اليها يسوقنا الى القول بانها كتبت في ازمة متخافة يظهر ان بعضها متباعد تباعداً معتبراً عن البعض الآخر

وفي مثل هذه الحال يستحيل ايضاً ترتيب اسماء الملوك التي وجدت الى الان في خرابات اور وارك وارسام (وتعرف اليوم بسورك وسماها بيروس لارنكة) ونيبور (واليوم نيفار) وسپارة (واليوم صغيرة وسماها جغرافيو اليونان هليوبول) مع تعيين مواضعهم الحقيقية في السلالات الاربع التي ذكرها بيروس (١) «

وهذه العبارة تدل دلالة كافية على ان الآثار لحد الان لم تأتنا عن هذه القدامة التخمينية الا بانباء مبهمه واسماء سلالات موهومة وكل ذلك من غير تاريخ ولا تبعية ولا يقين . ولكن المؤلف نفسه بدلاً من ان يرى المكتشفات الجديدة محققة لتقديراته اضطر ان يقر فيما يلي انه اتصل بواسطة البحث ان يعلم بان تواريخ السلالة العيلامية هي متأخرة بعصور كثيرة عن العصور التي اشار اليها في كتابه (٢) . وعليه فان

(١) فرنسيس لدرمان — كتاب التاريخ — ك ٤ ف ١ ع ٥

(٢) المجلة الاركيولوجية — تشرين الثاني ١٨٦٩

كل الامور لم تزل مبهمه وغير اكيدة وبعيدة عن ان تبلغ مبلغ التاريخ الصحيح كما كانت من قبل في كلام ييروس الحرافي وان نظرنا في كلام غيره من الباحثين عن اثار اشور زادت هذه النتيجة وضوحاً

فاعلم ان المسير او برت في مقالة له عن الارقام التاريخية القديمة بمملكة اشور (١) ذكر اسماء الأشخاص «لِمَو» الذين كانت سنة الاشوريين تدعى باسمهم مثل «الايبونيم» عند اليونان وهذا العلامة المسيحي بعد ان جد في التقيب والبحث نطق بهذا القول اللطيف وهو: كيفما كانت منزلة انباء نينوى ينبغي لنا ان نلاحظ معرفتنا القاصرة ولا نخالف الاخبار التاريخية الصادقة الواردة في اسفار الملوك (٢)

فانظر اذا الى الفرق بين هذا القول المملوء حكمة وبين دعوى ذوي الافكار الحرة من منتحلي العلم ولما تكلم المؤلف المذكور عما اكتشف من الاسماء المنسوبة اليها سلسلة طويلة من الاعصار قال: ان اسماء كثيرة خلا هذه الاسماء

(١) المجلة الاركيولوجية — تشرين الثاني ١٨٦٩

(٢) المجلة الاركيولوجية — تشرين الثاني سنة ١٨٦٨

لم تزل غير معروفة . فما وُضع منها قبل بعلم هو قليل جداً . وأكثر هذه الاسماء غير المرتبة بطبقات تختص بملك سردانبال السادس « (١) والحال ان هذا المؤلف يذكر عن بعلم انه كان نحو السنة ١٥٠٠ قبل المسيح . فاذاً عند هذا الزمن يبطل التاريخ المدقق والاكيد لبلاد الكلدان القديمة . ولكن ما بقي ليس الا تقديراً بين قليل الاحتمال او كثيره يعدم كل سند في الآثار بل كل قرب من الحقيقة متى وصل الى السنة ٢٠٠٠ قبل المسيح . واكبر الباحثين عن الامور الاشورية لم يتمكنوا الى الان ان يقرروا تاريخاً اقدم من هذا العهد . واما الذين يتطلبون الانباء الحقيقية قبل ان يقدموا على اثبات شيء فيقفون مباحثهم عن التاريخ قبل هذا الزمن الذي ليس فيه شيء مما يخالف حقيقة التاريخ المقدس

ودونك ايضاً شهادة اصرح ووضح لاحد البارعين بالآثار الاشورية قال فيثيان دي سن مرتين :

« ومن الامور التي تستحق الذكر هو انه لا توجد كتابة اشورية معروفة الى الان مؤرخة من اقدم عصور المملكة وليس ما يدل على انه يمكن اكتشاف شيء من ذلك يرتقي الى هذه الازمنة الاولى .

وكل هذه الكتابات بوجه الاجمال تختص بالسلالة الخامسة التاريخية التي تكلم عنها يروس وهي التي وصفها بانها هي السلالة الاشورية والتي تبتدى من سنة ١٢٧٣ وتنتهي سنة ٧٤٧...٠

اما الكتابات التاريخية التي استجلبت من خرساباد وغرود مباءتي سلاطين اشور مع التي اكتشفت في كوبونجيك في نفس موقع نينوى القديمة فتندرج كلها في هذه المدة ولا ترتقي بوجه الاجمال الى ما فوق منتصف القرن العاشر اعني قبل نكبة سنة ٧٤٧ بمائتي سنة لا غير وهذا هو اعلى حد تقف عنده الاثار التاريخية (ما عدا كتابة واحدة ومفترضة) في مملكة اشور (١) . ومن هنا تعلم اننا لم نزل الى الان بعيدين جداً عن الاعصار الطويلة التي ادعاها يروس وتابعة عليها بعض المحدثين

(١) فيثيان سن مرتين - المجلة الاركيولوجية ١٨٦٢ - ان هذا المؤلف قد توهم انه وجد سنداً اكيذاً لعلم التاريخ القديم في التوافق الذي ادعى وجوده بين السلالة الاولى من السلائل التي ذكرها يروس و (بين) المدة التي ترتقي اليها المراقبات الفلكية التي ارسلها كالستان من بابل الى ارسطو . وان هذا التوافق قد جرى في السنة ٢٢٣٤ قبل المسيح . الا ان ذلك مبني على رقم قد عرف غلطه اليوم في شان تاريخ

واما اسماء الملوك الاقدمين الموردة كأنها مختصة بازمنة اكثر قدامة فانما هي تقديرات محضة او ناشئة في الراجع عن غلط في القراءة فلا حقيقة لها ولا اساس . لان قطع الآجر المكتوبة عليها هذه الاسماء المزعوم بكونها عريقة في القدامة ليس فيها اصلاً ما يعين تاريخها وزمانها والاقدام على اثبات مثل هذا ان هو الاتوهم . اذ انّ الجزم بقدامة عريقة مثل هذه بمجرّد الاستناد الى ظاهر آجرة هو عمد الى ارتكاب الاغلاط الفظيعة

ويمحتمل أنه قد كتب عدة دفعات على تلك القطع من الاجر اما الاسم الواحد او كثير من الاسماء للملك واحد او اسماء ليست باسماء ملوك كاسماء عظماء المملكة واصحاب الاملاك والمهندسين . وعليه فان تشييد المذاهب التاريخية على اساس المسائل المشتبهة يذهب بثقة المطالعين

ومما ينبغي التنبيه اليه ان بلاد الكلدان في الازمنة القديمة كانت كبلاد كنعان اي ان كل مدينة ذات شيء من الاعتبار كان فيها

المراقبات التي ارسلها كالستان . لان كالستان المذكور لا يقول بابتداء المراقبات من سنة ١٩٠٣ بل من سنة ٤٧٣٠٠٠ كما هو مذكور في نص ديودور (٣١:٢)

ملوك وسلالات ملكية تتعاقب عليها اما مستقلة او خاضعة للملك آخر قريب اشد منها قوّة . ولدينا على ذلك البرهان الاكيد في شأن آسية الداخلية نتخذه من الجيش الذي قاده كدرلاومر اذ ان ذلك الجيش اجتمع فيه ملوك كثيرون كانوا قد اتفقوا على فتح بلاد كنعان التي كانت في ذلك الحين مشحونة من الملوك الصغار ايضاً (١) .

واذا كان الامر على هذه الصورة فكيف لا نخشى من الباحثين عن الاثار الاشورية والمصرية افطع الاغلاط واشنعها عندما نراهم يجمعون تلك السلالات الصغيرة التي في المدن المختلفة من الناحية الواحدة ويزعمون انها لم تكن متعاصرة في زمن واحد

والحاصل ان الازمنة التي اتصل اهل البحث عن الاثار الاشورية الى تعيينها في هذه القدامة العريقة لا تتخطى مطلقاً الف سنة قبل المسيح . ولا تستند في هذه القدامة العريقة الا على شهادات كتبت فيما تأخر من الزمن بالاف من السنين (٢) وذلك مما يحمل صاحب النقد الصحيح في كل حال على الارتياب فيها

وابتاتاً لما قلناه عن تاريخ اشور القديمة نورد لك كلام المسيو

(١) التكوين ١٤

(٢) فرنسيس ليرمان في كتاب التاريخ ك ٤ ف ١ ع ٥

كاباس الذي نَتَّب في القدامة احسن التنقيب وادقه قال :
 « لا شيء من التواريخ التقريبية يمكن اليوم ان يعين وقته بواسطة
 الكتابات المسمارية في مملكة كارا يهوذا . غير ان كتابة لاشور بانيبال
 ملك اشور (في القرن السابع قبل المسيح) تذكر فتحاً لبابل اجراه
 عيلامي يسمى كدُر نَنكدي اي قبل الاستيلاء على سوزا : ١٦٣٥
 سنة وقبل المسيح : ٢٢٨٠ . وهذا الفتح هو اقدم حادث ذكر في
 الكتابات المسمارية التي تتكلم مع ذلك عن ٣٥٠ ملكاً قبل سرغون
 وعن زمن الخرافات ولا نرى الى الان شهادة جديرة بالاعتبار في اي
 مدة كانت من تاريخ اشور تقتضي حدوداً اوفر اتساعاً من التاريخ
 المصري (١) » او تاريخ الكتاب المقدس

الكرولوجية المصرية

بعد ان فرغنا من تاريخ اشور القديمة المملوء من المبالغات بقي
 علينا ان نبحث عن تاريخ مصر . وهناك اعظم مشكل
 انه لا يخفى على احد ان مصر تدعى اكثر من بلاد الكلدان
 وبلاد اشور بقدامة عجيبة . ولها ازعام مدعومة بحجج اوفر اختلافاً

(١) الميسوكاباس في بحث له عن التاريخ القديم . فصل ٤ ص ١٢٨

للعقل ومستندة الى آثار أكثر عدداً قبلها مهرة من العلماء قد جدوا من سنين طويلة كل الجد ليتبينوا غوامضها ويكشفوا عن مخبأها. ولما كان هذا الفرع لا يتعلق بالصدد الذي نحن فيه الا تعلقاً عرضياً تعذر ان ندخل في البحث عن تفاصيله المتعددة لكان اشكالها والاختلاف الواقع عايمها بين العلماء الذين يشتغلون بالبحث عنها. واننا لنبلغ ما يقتضيه غرضنا اذا اقتصرنا على بيان الحالة الحاضرة للتاريخ المصري وكشف ما فيه من الامور الصادقة والكاذبة او المشكوك في صحتها اخذاً عن احسن المصادر الموثوق بها

ويهنا غاية الاهمية بالنظر الى النقطة التاريخية والدينية ان نعلم هل نلتزم التزاماً علمياً ان نسلم بآلاف السنين التي يودّ المشتغلون بالآثار المصرية ان يجبرونا على التسليم بها. او هل نستطيع ان نهمل ما جاء في الخطوط الهيروغليفية كأنه قاصر عن ان يكون سلسلة ارقام تاريخية. وعلى ذلك وجب ان نبحث اولاً كما تقدم لنا في الكلام عن اشور عن مكانة المؤلفين الاقدمين ثم عن منزلة الآثار

ان من الباحثين عن الآثار المصرية في ايامنا قوماً يسلمون بصحة التواريخ التي اوردها مانثون في سلائل مصر البشرية. وكاهن أبيس هذا يبدو لهم افضل من جميع المؤرخين الاقدمين بل افضل من

موسى عينه

وبموجب كلامه الذي افترضوه اساساً مكيناً قال المسير ماريات
مع اتباعه الاحداث بابتداء السلالة الاولى المصرية بعد انقضاء اعصار
الحكايات الكثيرة في سنة ٥٠٠٥ قبل المسيح (١)

اما بنسن ولبسيوس فيجعلانه في السنة ٣٨٩٢ (٢) وقدّر له
المسيو كاباس اربعين قرناً من السنين (٣) والعقليون يتمسكون اشدّ
التمسك بهذه الآثار الواهية متوهمين انهم يكذبون ما اثبتته الكتاب
المقدس فهم لذلك يرفعون اصواتهم بالضجيج ويكثرّون الارقام
العددية حتى ان جمهوراً من الكاثوليك هابوا صراخ علمهم المزعوم
وافتنوا بظواهرهم الخدّاعة وسلموا بارقام مانشون مكرّرين ذلك
القول الكاذب « ان الكرونولوجية (٤) ليست مقررة في الكتاب
المقدس » . ولكن ذلك غلط عظيم لان في الكتاب المقدس سلسلة
اجيال مذكورة بغاية التدقيق ومدداً لسنينها محسوباً بكامل الضبط .

(١) ماريات — في فهرست السلائل الذي اورده انرمان في
تاريخه ٣ (٢) استشهد بهما سميث في معجم التوراة في كلمة
« مصر » وكان بنسن قد عين اني سنة للخلقة قبل المسيح ولكنه بعد
(٣) المسيو كاباس في ابحاثه عن القدمة التاريخية ص ١٤

(٤) كلمة يونانية يراد بها علم الازمنة والارقام التاريخية وترتبها

اعمال الفكرة جعل ملك « تنس » في سنة ٣٠٥٩

نعم ان في هذا كما في سائر الاسفار الالهية مشكلات وغوامض الآ
ان وجود تلك المشكلات والغوامض ليس سبباً يحمل الكاثوليكي
على القول بنفي الاسفار الالهية او انها ليست وحي الله

ولاشك انه لو كانت اعداد مانتون صادقة لوجب الالتجاء الى
الوسائط الموفقة لكلام الكتاب المقدس مع هذه الافادات المزعومة بانها
لا تقبل ردّاً. ولكن الركون الى التفاسير القسريّة والمخالفة لكل تقليد
انما هو عمل لئيم يترك قومه فيتعلق بعدوه حالة كون الباحثين عن جميع
الآثار المصريّة يعترفون بان كل امر في علومهم الكرونولوجية لم يزل
واقعا تحت الريب. ولحسن الحظ نرى ان هذه الحسة لم تعمّ الجميع
لان علماء الكاثوليك الحقيقيين يجدون في ترجيع الارقام المصريّة الى
حدود التواريخ المذكورة في الكتب المقدسة

والاختلافات التي بينهم ناشئة عن المناظرات الفردية التي ليست
بذات شأن وعمّا يوجد من الفرق العظيم بين النص العبراني او السامري
وبين الترجمة السبعينية. وكلا النصين مع ذلك لا يخرجان عن حدود
الموافقة التامة للتعليم الديني. فان استعمال الكنيسة من الاول للترجمة
السبعينية قد جعلها مكرّمة. الا ان النص الاصلي ينبغي بمقتضى شرائط
التفسير ان يكون مفضلاً على ما سواه

وكيفما كان الامر فان هذه الاختلافات بالنسبة الى غلاة الباحثين

عن الازمنة المتقدمة التاريخ وعن الامور المصرية هي قليلة الاهمية .
 لان كلا الفريقين يأبى الركون الى كرونولوجية ترجمة السبعين . ومع هذا
 فان في انباء الكتاب المقدس الكرونولوجية وفي سائر الكتاب ايضا
 امورا عظيمة وبسيطة . رصينة ومتابعة . كلية ومكينة . اكدية وجلية
 تفضلها العقول المستقيمة على التقديرات المبهمة وغير المبتوتة التي جاء بها
 سائر الامم

وعلى ذلك انقسم العلماء في مسألة الكرونولوجية الى قسمين كبيرين
 اعني بهما حزب مانشون وحزب الكتاب المقدس . قال المسيو ماريات
 « كل يتعجب من مجموع الزمن المفرط الذي يؤدي اليه ما ذكره مانشون
 من السلائل . ومن جريدة السلائل التي اتى بها هذا الكاهن المصري
 نرتقي الى الازمنة التي تحسب عند سائر الشعوب ازمنة حكايات
 وخرافة واما عند المصريين فهي من الازمنة التاريخية حقيقة . والذي
 يظهر للعلم الجدي والظن انه اقل بعدا من الحقيقة في وسط هذه
 الشكوك انما هو القبول الصرف بجريدة مانشون (١)

وهنا لا بد من التنبيه على سوء استعمال الالفاظ ووضعها في غير
 امكنتها مما يولد في مثل هذه الامور تشويشا مكدرًا . او ليس ان

(١) استشهد به فرنسيس ليرمان في تاريخه لك ٣ ف ١ ع ١

وصف هذه التقديرات « بالعلم الجدي » مع انها لا تقدم شيئاً أكيداً « في وسط هذه الشكوك » هو وضع اللفظ في غير محله واساءة في استعماله ؟ وهل يسمى علماً هذا المسلك الشنيع الذي اختير السلوك فيه في وسط « الشكوك » والتقديرات والاقتراضات الغامضة ! وهل يصح ان توصف « بالجد » هذه الخطة التي تقدم على الاثبات في موضع الشك ؟ او لا يخالف الفطنة ان تتخذ كخطة صحيحة وحقيقية خطة تقودنا الى الضلال ؟

اما نحن فلا نرى في جميع ما مرّ لا حكمة ولا علماً جدّاً بل هناك اقرار ضمني بانه يتعذر تعيين كرونولوجية صادقة لمصر وان هؤلاء متحزون تحزباً اعمى لمانشون على موسى

هذا وان ميل الباحثين عن الآثار المصرية الى مانشون لا يحمل على الركون اليه بل يحذرنا من تصديق الزعمات العلمية التي يستخرجونها من اقواله . وعليه فانبحث بحث منتقد عادل عن الاسباب الحقيقية التي تحمل على عدم الثقة بمانشون

ان مانشون كان في ايام بطليموس محب اخيه (١) ولما كان كاهن

(١) بلوترك في ايسيس واوسير - ف ٢٨ . سنكل ص ١٤ .

وقد بحث العلماء ابحاثاً جديدة تجعل مانشون في القرن الثاني او الاول

قبل المسيح

ايس هذا في هليوبول جدّ في اتقان العلوم ولاسيا التاريخ . وصنّف تصانيف كثيرة لم يبقَ لنا منها الا نُبَذَ عن السلائل المصرية (١) . والذين قاموا بحفظ هذه النبذ هم اوساب وجرج سنكل ويول الافريقي وارتستين وبانودور واميان (٢) . وجميع هؤلاء قد شوشوا فهارس ماثون وبلبلوها . لان كل مصنف منهم قد اوردها بصورة مختلفة اختلافاً عظيماً . قال المسيوملر (٣) « ان شواهد يوسف والافريقي واوساب وسنكل هي شديدة الاختلاف فيما بينها بحيث لا يمكن الامتناع عن التسليم بان تاريخ السلائل وعدد الملوك والسنين ليست واحدة في كلام كل منهم »

والناقد الحكيم لا يجسر ان يدعي بان ذلك هو نص ماثون الحقيقي . ثم ان عدد السلائل الكثير الاهمية في هذه الكرونولوجية يختلف عند كل من هؤلاء المصنفين كما يختلف ترتيبها عندهم ايضاً . اما الافريقي الذي يفضل على سواه ولكن من غير حجة فقد اجتمعت فيه كل هذه العيوب كما تثبتة الاصلاحات المهمة التي اظهرها المسيو

(١) يوسف ضد ابيون ١ : ١٤ — اوساب في تاريخه وج سنكل

(٢) بانودور واميان كاتا راهبين مصريين في القرن الخامس

(٣) في مقدمته على نُبَذَ ماثون ص ٥١٧ من طبعة ديدو

دي روجي احد كبار الباحثين عن الامور المصرية معولاً في ذلك على
شهادة الاثار الماثلة الى اليوم (١)

وكل من له اقل المام بالحقيقة التاريخية يعلم ان تأليفاً من مثل
هذا قد تعاوره التحريف والفساد لا يصلح ان يُعول عليه في كرونولوجية
مدققة تاريخية. فان كان لا يستطيع الافتخار بالحصول على النص
الحقيقي لهذا التصنيف ولا يمكن الاطمئنان التام الى صحة احد اجزائه
وجب ان يكون الريب الواقع عليه لاحقاً لكل ما يصدر عنه . وكل
بناء يُرفع فوق هذا الاساس الرملي لا بد ان يدركه الخراب

وجميع ما قدّمناه ينبغي ان يقلل ثقة العلماء بتأليف مانثون الذي
انتهى الينا على غاية من التشويه كيفما كان في اول امره. الا ان كثيرين
من منتحلي العلم مشغوفون باثبات الحكايات الوثنية ولا يستصعبون
الا القول بصحة انباء الكتاب المقدس الصادقة

ومع ذلك فاننا لا نفتخر بالايام التعيسة التي انتهت بها الينا
تصنيف مانثون ولهذا نبجث عمّا اذا كان هذا التأليف بصرف النظر
عمّا سبق يقدم الضمانات الضرورية لليقين في كرونولوجية تاريخية . والحال
ان هذا الكاهن المصري ليس فيه الشرائط المطلوبة لان تكون شهادته

غير مردودة . لان الكهنة الوثنيين المصريين قد اشتهروا باصناف
الحكايات والخرافات التي كان يقصونها على المصريين وهيرودوت (١)
وسائر اليونان (٢) فضلاً عن انه كان في زمن بعيد جداً عن الحوادث
واخباره مشكوك في صحتها مع قطع النظر عما اكتشف من الآثار
لان جميع هذه الكتابات السريّة لم يمكن ولا تمكن ايضاً ان تقع تحت
البحث الضروري لليقين التاريخي . ثم ان اقوى عيب يوجب الريب
ايضاً في كامل تاريخ مصر القديم هو ان كرونولوجية مانثون موقفة
بوجه قسرى على المدّات السوتية

اولاً لان ١١ ٥٢٥ ٣٦٤ سنة من كرونولوجيته البطلية تؤلف
كما نبه اليه جرج سنكل ٢٥ مدة سوتية كل منها مؤلف من ١٤٦١
سنة وكل سنة من ٣٦٥ يوماً . واعلم ان مانثون لم يكتف بتوفيق
السنين المعتبرة عند الجميع سنين خرافية مع الازمنة السوتية . فان
شرل ملر لما حسب في طبعة كتاب مانثون تواريخ السلالات المختلفة
وجد جميع هذا التوفيق الخرافي في كامل سلسلة فهارسه

والحال انه قد ثبت من الآثار ان هذه المدة السوتية لم تكن
جارية عند المصريين الاقدمين وانها اختراع من المدرسة اليونانية في

اسخدرية . وزد على ذلك ان تقاسيم هذه السلائل المشهورة التي انتشر
ذكرها اي انتشار ليست في الاكثر كما بينه العلامة دي روجه (١)
الا اختراعاً من مانثون مخالفاً لكل ما جاءت به الآثار

ثم ان ما يتم بيان نقصان الحساب المصري وحيمة الكهنة الذين
كانوا يجعلونه سرّاً هو انهم كانوا ينادون فينيق الشهير (قُثُو او بُثُو)
من اقصى بلاد العربية بواسطة حساباتهم فكان يجي في آخر كل مدة
سوتية او اكثر من ذلك ليحترق في عش من الطيوب ويولد ثنية في
تجدد المدة وهكذا يصلح بظهوره اغلاط الكهنة الكرونولوجية لانهم
كانوا قليلي الاطمئنان الى صحة حساباتهم . وهذا الذكر الباطل لم يزل
منتشراً زماناً طويلاً بعد نهاية السلائل الوطنية تحت ولاية الرومانيين (٢)
وبعد انتشار الدين المسيحي . ونظم مثل هذه الخدع والاكاذيب
والحكايات والمسالك المطبقة بوجه قسري على الكرونولوجية ذلك مما
يبغث على عدم الركون اليها تماماً في عين الناقد البصير . والحال انه من
المعلوم ان تاريخ الامة والهيدوغليف والآثار والقبور وكتب الرتب

(١) في ابجائه عن الست السلائل الاولى مج ٢٥ من اكاديمية
الكتابات

(٢) تاقيت في تاريخه ٢٨: ٦

الدينية كل ذلك كان مسلماً الى ايدي هؤلاء الكهنة المعروفين بقلة
الامانة مع التعلق بالخرافات

ولو قدرنا ان هذه المصادر هي من الحقيقة بالمنزلة التي هي عليها
من الكذب وجب ان تعلم ان فهارس مانثون وسائر جداول السلائل
المصرية لا يمكن ان تفوز باعتبار تاريخي حقيقي الا بقدر ما تكون
محققة ومؤيدة بشواهد على الحوادث معاصرة لها. والحال ان الحوادث
والتواريخ التي يوردها مانثون لكي يكسوها بشهادته حلة من اليقين
هي ابعد من ان تكون معاصرة. اذ انه لم يؤلف كتابه الا بعد انقراض
جميع تلك السلائل بزمان طويل. واما سائر فهارس السلائل فان
بردي تورين على مثال مانثون ليس مورخاً الا من ايام البطلمة ومن
آخر عصر لولاية اللاجيين (١) وجداول ايده اوساتي الاول وفهرست
سكّاره هي ايضاً حديثة العهد

والذي يجعل تواريخ جميع الفهارس مشوبة بالريب والشك هو
انه كل مرة تسنت مقابلتها مع الاثار (وذلك مما لا يقع الا في النادر)
كانت مناقضة لها كل المناقضة

مثال ذلك ان مانثون يذكر عن ساتي الاول انه ملك خمسين

(١) المسيو دي فوكويه في الكتابات السامية ف ٤

سنة مع ان الآثار تذكر انه ملك ثلاثين فقط . قال المسيو ليرمان :
ولعل الارجح هنا انه يجب اصلاح رقم فهرس مانشون وذكر ثلاثين
سنة فقط مكان خمسين سنة للملك ساي الاول (١) . فان كان
مانشون قد زاد هكذا جميع الارقام التي لا يستطيع الوصول الى تحقيقها
فاي فرق يحصل بين تواريخه وبين الازمنة الصادقة لمجموع كرونولوجيته
ومهما كان من الامر لا بد هنا من تذكر المثل السائر : من كذب
مرة لا يصدق في سائر المرات . وعليه فهو ممن لا توجه اليه ثقة ولا
يستطاع اليه ركون . وهل ينبغي ان تنزل سائر الفهارس بهذه المنزلة ؟
لا علم لنا بذلك ولا حجة لان كل امر قد ركبته الريب الذي ينفي
كل كرونولوجية مدققة او تاريخية

قال العلامة دي روجه : ان كانت فهارس مانشون قد كسبت
شيئا من الاهمية باعتبار انها انباء تاريخية متخذة حقيقة عن موارد
مصرية فان الارقام المحقة بها اليوم لم تقوَ على معارضة الناقدين
المستنيرين بضياء الآثار

وكل مرة لم يستند كتبة الخلاصات التاريخية الى قانون بطليم

(١) فرنسيس ليرمان في التاريخ القديم ك ٣ ف ٣ ع

سقطوا في اغلاط كثيرة بينها الاكتشافات (١) « . وبناءً عليه فان
 فهارس مانثون هي حشو اغلاطٍ من جهة تعيين الاوقات
 وهذه هي عقبة لا ترتقى . الا ان التاريخ الصادق يتطلب دائماً
 اخباراً حقيقية معاصرة او مبنية على شهادات ترتقى الى الحوادث
 يمكن ان تنطبق عليها بوجه اكيد . وهل يكفي يا ترى ان يكتب
 المتقدمون على البردي والحجارة والرخام والنحاس والذهب لاجل
 اكتساب ثقة اعقابهم ورضاهم ؟ كلا ان كتابة او مخطوطاً او
 هيروغليفاً مهما كانت قديمة لا تخرج عن السنّة العامة لليقين التاريخي
 فان اوردت اعمالاً معاصرة امكن المؤلف ان يتحققها ولم يكن له
 غرض في تحريفها وجب علينا ان نصدق روايته . ولكنها اذا اوردت
 حوادث متقدمة على زمانها لم يكن لها اعتبار الا اذا امكن تحقيق
 رواية ناقلها

واول شرط يُطلب لاجل بيان قدر هذه الكتابات وهذه
 الآثار هو معرفة مؤلفها وزمانها . الا ان ذلك مما لا يتوصل اليه في
 اكثر الاوقات . ولا يُعرف في اي زمن اخذوا يدوتون فهارس وجداول
 السلاسل بنوع مدقق من غير ان يجروها مجرى القصص والحكايات
 وهذه هي مسألة جوهرية تنبغي معرفتها لاجل الوصول الى افادات

تاريخية حقيقة. وليس اليوم من يستطيع سبيلاً الى تحقيقها ولهذا لا يحق لاحد ان يحول هذه الاحتمالات الى حقائق تاريخية وينبغي لكل ناقد ان يخالف كل ما جاء من هذا القبيل

ولا ينبغي ان كلامنا هنا مبني على الملاحظة الكرونولوجية التي هي الغرض من أبحاثنا. وبعد ان اوردنا ما اوردنا من اسباب الريب والشك لا يتجرأ احد من البجشة عن الاثار المصرية ان يثبت بان الفهارس والارقام الكرونولوجية التي لدينا عن مصر القديمة تتضمن جميع الشروط المطلوبة لليقين التاريخي المدقق

فان كانت هذه الفهارس او هذه التقايدات قد كُتبت بعد وقوع الحوادث بزمن بعيد جداً وصدرت عن مصدر واحد مشكوك فيه اعني به هياكل مصر وحجبت عن عامة الشعب وامتلات من المناقضات بينها وبين الاثار فاي اعتبار جدّي يمكنها ان تفوز به؟ وما كانت هذه منزلته لايكـنه ان يسوق اليها الا تقديرات بين قليلة الاحتمال او كثيرته او افتراضات كثيرة الاضطراب تبددها اقل شهادة تاريخية كما تبدد الريح الغيوم الرقيقة. وكيف لا تبدد ازعام مؤلفين جاؤا بعد ثلاثة او اربعة الاف سنة موهومة يثبتون من دون حجة سلسلات لاتنتهي آخذين ذلك عن مجاميع من الحكايات والخرافات؟

اجل ان بعض المشتغلين بالآثار المصرية الذين افتنوا باكتشافاتهم هم احرار في ان يصدقوا كل هذا على علّته ولكن نسألهم بحجة الحق ان لا يدخلوا ذلك في التاريخ فان التاريخ ينهض للاحتجاج عليهم . لاسيا ونحن نرى اليوم احسن المشتغلين بآثار مصر متمكنين بجانب التحفظ والاحتراز تاركين الكرونولوجية في عالم الابهام وعدم اليقين وعليه فانه ليس في كل ما بحثنا عنه من انباء مصر القديمة ما يمكن ان يكون اساساً اكيداً لكرونولوجية تاريخية . فبقي علينا اذا ان نبحث عن المصادر التي هي اوفر اهمية واكثر صحة اعني الآثار التي اكتشف منها عدد ليس بالقليل منذ اوائل هذا القرن في ارض مصر ويجب ايضاً ان نستقصي بغاية العناية عما اذا كان التاريخ يجد له هناك سنداً متيناً يبني عليه كرونولوجية تاريخية حقيقية . ولا بد لنا في بادئ الامر من النقد في هذه الآثار اي ان ننبد منها ما كان غير معاصر للحوادث او ما كان محفوظاً في مجامع الكهنة ثم جدّوه على ما يوافق مشربهم . ولكن ليس هذا موضع الدخول في هذه التفاصيل ان الباحث عن المنزلة الكرونولوجية للآثار المصرية يقضي العجب اولاً اذ يجدها كلها بالتقريب من غير تاريخ واذا وجد تاريخاً لم يقف على المدة التي كان فيها ذلك التاريخ . فهي معدومة من كل ارتباط كرونولوجي

وهذا هو السبب الذي دفعهم الى ان يجعلوا لمانثون مكانة تاريخية ليكملوا به سلسلة السنين الناقصة في الاثار قالوا : ان الاثار في هذه الاحوال المبهمة تثبت كثيراً من الامور في الفهارس المخطوطة التي وصلت الينا وبالتبعة تكسيها اعتباراً تاريخياً ممتنعاً رده . ونحن نسلم بهذا البرهان بكل طيبة نفس في كل ما قد أثبت بالتطبيق الصحيح على الاثار . لان المعارضة هي غاية ما يقصد في مثل هذه الامور وهي كافية بشرط ان تكون الاثار معاصرة . ولكن التجاوز فيها الى ما وراء ذلك هو حيد عن الطريق التاريخية يوقع صاحبه حالاً في الابهام والحدس والتخمين فيمشي على غير رشدين الظلمات والمهالك لان هذه الفهارس والجداول تتضمن من غير شك اغلاطاً عديدة وفظيعة

ان مؤلف الفهرس الذي يسمي ملكاً يدل مثلاً قبره على صحة وجوده من غير ان يكون عليه مع ذلك ما يعين تاريخ ولادته ولا ايام ملكه ولا مدة حياته وموته لماذا ذلك المؤلف لا يتطرق اليه الغلط في تحرير التواريخ والمدات سواء جاء بها من عند نفسه او عول فيها على مصادر فاسدة ؟

ولكن هذه الصعوبة تزيد اعتياصاً اذا كان الكلام على ملك لم يذكر اسمه على الاثار . والحال اننا قلنا فيما مر ان اكثر الاثار المصرية

ليس عليها الا تواريخ ومدات غير أكيدة . ومن النادر ان تكون
مستوفية لجميع الشروط الضرورية لتعيين صحيح وهي معدومة دائماً
من سلسلة البلائل وتعيين ازمته الحوادث

وعليه فان هذه الاكتشافات لا تعطي الفهارس الموجودة ضماناً
كافية وكذلك الآثار ايضاً لا يمكن ان تتكامل بواسطة هذه الجداول
المكتوبة او المنقوشة وتضمن لها الصحة التاريخية . وعلى ذلك اصبح
معوّلاً في الكرونولوجية على شهادة اثار منفردة لان الآثار المعاصرة
هي وحدها التي يمكنها ان تكون اساساً لكرونولوجية تاريخية

فلنأخذن في البحث عنها اذاً على غاية من الاحترام ولكي يتسنى
لنا ذلك بادرفيقين وصحة نورد اقوال اشهر الباحثين المحدثين عن
الآثار المصرية

من العجيب ان آثار مصر القديمة التي يُقدّر انها عتيقة جداً لا
تأتي مطلقاً بذكر اصل المصريين الحقيقي ولا تخبر الا الحكايات
الباطلة المستحيلة عن مثل هذا الامر المهم . وعليه فانهم كانوا قد
ذهلوا كل الذهول عن تذكر هذا الاصل في العهد الذي اخذوا فيه ان
يجمعوا حكايات تاريخهم . قال دي روجه : ان التذكارات التاريخية
حقيقة سكمت سكوتاً تاماً عن مسألة اصلهم (١) . غير انه توجد اليوم

(١) دي روجه في ابجائه عن اثار السلاسل الست الاولى

براهين علمية على ان المصريين لا يؤلفون مطلقاً شعباً منفرداً كما زعمه بعض العلماء (١) . لان البحث في لغتهم وآثارهم يدخلهم في سلك سائر الشعوب . فهم من حيث اللغة يختصون بالنسل السامي . وهم ولا شك اخوة الكنعانيين

قال المؤلف المذكور: مما هو في الدرجة العليا من الاهمية انهم تمكنوا من معرفة كون المادة النحويّة في لغة مصر تكاد توجد تماماً في اللغات السوريّة الارامية وكلما ارتقيت في القدم رأيت في لغة مصر وجوهاً من التعبير تقارب الطريقة العمومية في اللغات التي من هذه الطائفة (٢) . والمصريون بعينهم قد صرحوا بهذا التناسب فيما تركوا من حكاياتهم . اذ يدعون انهم ابناء را اي الشمس ويعتبرون شعوب اسية المتقدمة ابناء رخت وهي ابنة الشمس (٣)

ان اخوة المصريين والكنعانيين الثابتة من غير ردّ تثبت في بادئ الامر جميع ابناء الكتاب المقدس وتُجبر المشتغلين بالبحث عن

الواردة في كلام مانثون ص ٢٢٧ . اكاديمية الكتابات ص ٢٥

(١) رنان في تاريخ اللغات السامية

(٢) دي روجه في المحل المذكور

(٣) دي روجه في مقالة له

الاثار المصرية ان لا يغفلوا مطلقاً في تفسير الاثار عن التقاليد التاريخية التي كانت عند الشعوب المجاورة . ذلك ولا شك هو ضياء افتتاحي يبسط الظلمات الاولى المغشية لآخرة مصر ولافاداتها الكرونولوجية . وعليه فان المصريين ليسوا اقدم من شعوب المشرق بل ليسوا على الخصوص اقدم من الكنعانيين او الفينيقيين المشاركين لهم بكونهم من نسل حام . وهذا النسل اللعين اصاب خيرات الارض مجازاة لنشاطه وجمع تقاليد التقدم المادي الذي تحقق قبل الطوفان . وعليه فان ما قدره لهم اصحاب البحث في الاثار المصرية والازمنة السابقة التاريخ من انهم كانوا في حالة من التوحش لم يخرجوا منها الا بعد الوف سنين هو مخالف لكل صحة فضلاً عن ان هذا التقدير هو مضاد لما جاء من الاخبار في الكتاب المقدس

والقبائل التي قويت على بناء برج بابل ترى اما كان يمكنها ان ترفع اهرام مصر؟ اذ ان اقدم آثار مصر تدل على كون الصناعة كانت متقدمة بعض التقدم في ذلك الوقت فضلاً عن ان الحاميين والكنعانيين لم ير عليهم عصر الحجارة والفلازات كما اثبت ذلك دي كاباس (١) . ومن عهد وصولهم الى الوطن الجديد الذي اختاروه كان قد ابتداءً

(١) ف كاباس في ابجائه عن القدمة التاريخية ف ٣٥٢

عندهم التمدن ونشأت الصنائع ووُضعت الكتابة الهيروغليفية . فحان
الان ان تتشع تلك الالهام التي كانت شائعة عند العموم في شأن
التوحش الاولي عند شعوب اسية . لان آثار اقدم الدهور قد اعطت
الكتاب المقدس شهادة جديدة ساطعة

نرى في اي عهد كانت البقايا القديمة ؟ قال المؤلف المشار اليه :
ان الآثار الماثلة الى اليوم لا تختص إلا بالسلالة الرابعة على ما حكى
مانثون المرشد الوحيد الحاوي قليلاً من الرصانة (وقد رأيت ضعف
منزلته في ذلك) وهو الذي اوصله اليانا اليونان انترشد به في البحث
عن العصور الاولى (١)

ولكن هذا العالم المتفرغ للآثار المصرية قد صرح لنا بموجب
المصادر التي بين يديه ان مانثون قد قسم من تلقاء نفسه الى سلالات
كثيرة سلسلة الملوك الذين لم تجعلهم اقدم الفهارس إلا سلالة
واحدة (٢)

ومن اهم الامور التي يجب التنبيه اليها هو ان السلائل الثلاث
الاولى الواردة في كلام مانثون لم تترك ادنى اثر . ولذلك فان
الفهارس الكرونولوجية باقية من غير ضمانة تاريخية . ومقدار سنيها

(١) في مقالته المذكورة ص ٢٣٦

(٢) في مقالته المذكورة ص ٢٤٠ و ٢٤٦ و ٢٩٣

لا يدخل في كل كرونولوجية تتطلب شيئاً من الدقة التاريخية
ثم ان العالم المذكور المتفرغ للبحث عن الاثار المصرية قد سعى فيما
يلي لايجاد موافقة بين فهارس مانثون وجداول بردي تورين وسلسلات
هيكل الابيين وقوائم سكّارة. غير ان ما فيها من الاختلافات العظيمة
والنقصان والزيادة التي توقفه عند كل خطوة تذكرنا بالجدّ الفاقد الثمرة
الذي جدّه العلماء قديماً ليضعوا توفيقاً بين الفهارس الخرافية لابطال
بلاد اليونان الاولين مثل الهرقليين وغيرهم ممن ترك اليوم في زوايا
الشك والريب. وكيف ما كان الامر من هذا السعي الحمود الذي لم
يأتِ بثمرة فاننا نسأل كل مؤرخ صادق ان يفيدنا عما اذا كانت
الاقتراضات والتخمينات تتصل في حين من الاحيان الى اعطاء اليقين
التاريخي لفهارس وصلت اليها في هذه الحالة من التشويش على يد
قوم متخالفين بعيدين جداً عن مركز الحوادث

ورغمًا عن الابحاث العلمية التي اجراها المسيو دي روجه ونتائج
نضطر الى القول ايضاً باننا في ظلمة القرون الخرافية ولم نباغ منها الا
الى فجر التاريخ فقط

ان اول ملك مصري وقفنا على اثاره هو سنافرو. وقد جعله
مانثون اخر ملك من السلالة الثالثة . واثار الملوك او خدّ امهم هي
متتابعة بعد ذلك من غير انقطاع بالتقريب الى اخر السلالة السادسة .

واما سائر السلائل التالية فدونك ما قاله عنها الميسودي روجه :
 ان السلالة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره هي مؤلفه في
 ارجح الظن من ملوك غير متتابعين (١) . فقد اثبت علم المحدثين
 اذا ما كان قد فكر فيه اوساب بالقرن الرابع قال في كلامه عن
 مصر : اذا كانت كثرة السنين تزيد ايضاً في هذه الكرونولوجية
 وجب القول ان **كثيرين** من ملوك مصر ملكوا في الاصح في
 وقت واحد

اما بنسن وهو من الباحثين المحدثين عن اثار مصر فقد توصل
 الى ان قال ان مانثون قد صرح بتعاصر السلائل ولكن النسأخ قد
 خلطوها وجعلوا واحدة بعد الاخرى (٢) . وفضلاً عن ذلك فان الآثار
 تدل ايضاً على وجود سلائل كثيرة متعاصرة
 واحسن الباحثين عن آثار مصر قد تحققوا بان ملوك السلالة
 الثانية عشرة ملكوا كما تدل عليه الآثار في موضعين مختلفين وان كثيراً
 منهم كانوا في عصر بقية السلائل (٣)

(١) دي روجه في مجلة اكااديمية الكتابات ص ٣٢٠

(٢) ذكره ملر في مقدمته على فقر مانثون ص ٥٢١

(٣) ستورت بول وقاموس الكتاب المقدس لسميث

والمسيو بلين وهو من الباحثين عن اثار مصر بعد ان نَقَبَ في
الكتابات الهيروغليفية أتي بالنتيجة الآتية قال :

انني متأكد على ان السلالة الثانية والعشرين التي بدؤها من
ششوب الاول في عهد الملوك المستضعفين الاخيرين من السلالة
العشرين قد ملكت في وقت واحد مع السلالة الحادية والعشرين
والسلالة السادسة والعشرين الى عهد بوخوريس الذي هو من السلالة
الرابعة والعشرين عند اخر ملك ششوب الرابع سنة ٦٨٤ قبل المسيح
فبوخوريس ملك قسماً من مصر وطهركا تولى القسم الآخر (١) ثم ان
رجلاً اخريدعى بلين ايضاً بحث ابجائاً جديدة واثبت ان السلالة التاسعة
والعاشرة والحادية عشرة والثالثة عشرة والسادسة عشرة والثانية والعشرين
والخامسة والعشرين انها سلاسل كانت في وقت واحد ومع تسليمه
ايضاً بارقام مانشون فقد نَقَصَ مجموع الارقام التاريخية التي في
الكرونولوجية . وبذلك قد زاد الريب في الثقة التاريخية (٢)

(١) ف . بلين في رسالته الى الفيكونت دي روجه . المجلة

الاركيولوجية ت ١ سنة ١٨٦٨

(٢) بلين في ابجائه عن كرونولوجية مصر المطبوعة في كريستيانة

سنة ١٨٧٣

ومع ذلك فان مشابهة الشعوب المجاورة لمصر تدعم التقليد والاثار لاثبات حقيقة وجود سلاسل متعاصرة . لان تقسم قبائل الاراميين اقساماً كثيرة وتعدد ممالك الكنعانيين وتفرق قبائل العرب في هذه العصور البعيدة تحملنا على ان نصدق بأنه جرى مثل ذلك في مصر

ومن هذا يظهر انه هكذا كانت سنة الاولين في الاعصار القديمة فضلاً عن ان آثار مصر تثبتها بشهادات صادقة . اجل انهم يحتاجون على تعاصر السلاسل لان الفراعنة يفتخرون بان سيادتهم كانت مطلقة واعمالهم نافذة في جميع جهات مصر . الا ان ذلك ليس دائماً حجة واضحة اذ ان من كان من الفراعنة اوفر قوة كان يتحذر كل الحذر من ان يتكلم في كتاباته عما يحدّد قوته

ومن كان منهم انقص قوة او كان خاضعاً لمن هو اكبر منه صرف كل عنايته ايضاً الى السكوت عن كل ما يضع حداً لاستقلاله وفي اسيرة القديمة لم يكن الملك الاكبر مانعاً لوجود جملة من الملوك الصغار يلقبون نفوسهم في الكتابات بالقباب التخم والتعظيم . فهذا اشمن عزر مثلاً لم يذكر مطلقاً على كتابته ان مملكته صيدون خاضعة للفرس . وعليه فان السيادة كان يمكن ان تكون بعض المرات مختصة بعرش كما كانت في فينيقية ولكن من غير ان تلاشي سائر الممالك التي

تتعلق بها تعلقاً كثيراً او قليلاً

ومع هذا فان الباحثين عن آثار مصر بايامنا لا يتوقفون عند جميع هذه الابحاث وهذه الحسابات بل يظنون ان الآثار بمفردها تكفي لاثبات قديمة مصر العريقة . ويزعمون انهم يميزون الاعصار والمدات البنائية على غاية من الاحكام . الا ان شهادات كثير من فحول العلماء تبين لنا ان قولهم هذا هو ادعاء وجسارة وتمنعنا من ان نسلم باقوالهم خصوصاً في ما يتعلق بالآثار الاولى . فهذا افلاطون الذي بحث عن امور مصر حق البحث قد اخبر بما يلي :

اذا عُرِضَت الامثلة في هياكل مصر لا يؤذن لا للمصورين ولا لكل احد ممن يتعاطى صناعة استحضار الهيئات اية كانت ان يجدد فيها شيئاً او ان يبتعد في اقل امر عما رُسمَ في شرائع البلاد . وهذا المنع لم يزل الى اليوم في ما يخص هذه الاستحضارات وجميع آثار الصنائع . واذا انتبهت الى هذه الامور وجدت ان الصور والنقوش المصنوعة من عهد عشرة الاف سنة (وهذا هو عدد حقيقي) ليست في شيء لا اكثر جمالاً ولا اكثر شناعة مما نُقش او صور في ايامنا وُشغل على موجب نفس تلك الصنعة (١)

(١) افلاطون في الشريعة ٢ : ٧ — ان افلاطون ذكر هنا

عشرة الاف سنة اتباعاً لزعم كهنة المصريين

ثم ان لا ترون الذي توغل في البحث عن امور مصر قد اضاف
شهادته الى شهادة افلاطون فقال :

ان هذه المصنوعات التي يشبه بعضها بعضاً مع انها وجدت في
ازمنة متتابعة قد أثرت في عين افلاطون الذي قابل ولا شك بين
كثير من تلك الاعمال المختلفة نفس التأثير الذي اولده فينا تمثال
نكتناغو الذي يقارب مصنوعات ايام منقحة وهو العهد الذي تنسب
اليه اوفر الاعمال المصرية اتقاناً وكماً . اما الفروق فانها دقيقة لا
تكاد تتجلى لنا . وبواسطة الدلائل الكرونولوجية المهيأة لنا من اسماء
الملوك نضطر الى نسبتها الى مدة واحدة (١)

وبناء على ما تقدم نقول : ان تقسيم الآثار المصرية الى مدات
بالاستناد الى الملاحظات الصناعية ليس مبنياً الا على الوهم والذوق غير
السليم . او ما يجب ان نخشى في جميع هذه الاسباب المؤدية الى
الغلط من ان يتعلق الباحثون عن الآثار المصرية بالالوهام والخيالات
الباطلة بينما يعتقدون انهم قبضوا على حقيقة اشد الاعصار قدامة ؟
وقد سعى العلماء في بناء كرونولوجية مصر على الافادات الفلكية

(١) لا ترون في تقريره عن المدنية المصرية . اكاديمية الكتابات

مج ١٧ ص ٧١

غير ان هذه المساعي العلمية لم تكن اوفر نجاحاً من غيرها . ودونك ما اتت به من النتائج نقلاً عن عالم شهير وقف حياته كلها على الابحاث الكرونولوجية قال :

ان التعيين العملي لبدء مدة فلكية ولنهايتها ولسائر متعلقاتها يقع فيه دائماً مدة غير معينة بين ١٥ الى ٢٠ سنة وذلك مما ينفي كل امكان بشأن الاستعمال الكرونولوجي . وهذا امر لم يتنبه اليه كثير من الحذاق ولا سيما الباحثين منهم عن آثار مصر مع ان ادمانهم على الملاحظات كان يوجبهم ان يعلموا الفرق الذي ينبغي وضعه بين مدة فلكية وبين امكان استخدامها مثل ميزان للازمنة . وقد نسبوا ايضاً من غير برهان للمصريين الاقدمين انهم كانوا يستعملون سنة مقدسة مرتبة على طلوع النجم سيرْيوس او سوطيس (الشعري) . غير ان البحث في الآثار لا يدل على شيء من ذلك

وكل ما كشف من التواريخ العديدة لم يرَ شيء منه مؤرخاً بسنة سيرْيوس . . . وهذه المدة هي حديثة ومرتبطة اشد الارتباط بالاختراعات النجمية التي تختلط بكل شيء في القرون الاولى من التاريخ المسيحي

ومع هذا فقد قيل ان بعض العلماء ممن ليس لهم الملم بالحوادث السماوية والحسابات الفلكية قد وقفوا على نص لثيون فيه شهادة على

استعمال سنة سير يوس . الا ان ذلك على ما قاله بيوت ليس الا
اختراعاً متأخراً (١)

هذا فضلاً عن ان معارف المصريين الفلكية كانت في غاية
النقص . والعبرانيون لم يأخذوا عن مصر الا سنة قمرية محضة قليلة
الاحكام . مع ان موسى ربي في قصر الفراعنة ولم يكن يجهل شيئاً من
علوم المصريين . غير انهم لم يهتدوا مطلقاً الى وضع سنة شمسية كاملة
بعض الكمال لان سنتهم ليست هي شمسية ولا قمرية كما ذكر ذلك
جمن وكنسورين

وقال الاقدمون ان المصريين كان عندهم ايضاً سنين مؤلفة
من ثلاثين يوماً (شهر قمرى) ومن شهرين ومن ثلاثة اشهر ومن
اربعة (٢) وقد زعموا عدا ذلك انه كان عندهم سنة مقدسة وسنة
مدنية وسنة شمسية وسنة قمرية وسنة غير معينة وسنة معينة ثم ادوار
ومسرات اي دور ابيس ودور فينيق وخصوصاً دور سير يوس اي
الشعري

(١) برنشون في الكرونولوجية العامة — في فصل مصر .

مجلد ١ ص ١٥٨

(٢) قارون وديودور وبلين وباوترك والقديس اوغسطين

وكنسورين والافريقي وقدران وغيرهم

ومن اوكد الاشياء هو ان كل مُلك هو مؤلف عندهم من مدة مستقلة ليس لها اتصال مع غيرها تبتدئ من شهر وسنة خاصة خارجة عن كل سلسلة موقّعة من يوم جلوس او تتويج السلطان المالك. فانظر الى هذا الخلط المريع

وهذا المانع الحائل دون اصلاح الكرونولوجية المصرية هو خطة لا يستطيع ركوبها. فان هنري مرتين الذي بحث عن الادوار المصرية بحثاً خصوصياً قد تكلم عن دور فينيق بهذا الكلام: بعد التحقق على ان دور فينيق كانت مدته عند المصريين خمسمائة سنة زاد اليان انهم لم يكونوا يعرفون ان يعينوا الزمن الذي تنتهي به الخمسمائة سنة وان الكهنة ايضاً كانوا منقسمي الرأي على تعيين المدة الا ان ظهور الطير العجيب الذي كان احذق منهم في الكرونولوجية هو الذي كان يُوقع الاتفاق بينهم. ولا اذعم ان كلام اليان شهادة اكيّدة ولكن يحق له ان يقول بان الكرونولوجية المصرية كانت متشوشة غاية التشوش حتى يتولد منها الريب في نهاية المدة المؤلفة من خمسمائة سنة (١)

فان كان الكهنة مؤلفو هذه الادوار وهذه الكرونولوجية

(١) هنري مرتين في مقالته عن دور فينيق . اكاديمية

المزعومة ما كانوا هم بنفوسهم يهتدون الى حلها . فكيف نهتدي نحن الان اليها مع تباعد الزمن؟

قال المسيو هريات : ان اقوى مانع من وضع الكرونولوجية المصرية منظمة هو ان المصريين بنفوسهم لم يكن عندهم قط شيء من الكرونولوجية . فان استعمال تاريخ معين كان عندهم امراً مجهولاً والى الان لم يثبت انهم لم يستعملوا تاريخ سني ملكهم الحالي . والحال ان هذه السنين لم يكن لها نقطة ابتدائية معينة لانها كانت احياناً تبتدى من اول السنة التي مات فيها الملك السالف و احياناً من يوم حفلة تتويج الملك الجديد . وكيفما كان تعيين هذه الحسابات فان علم المحدثين لا يقوى مطلقاً على ان يعيد ما لم يكن للمصريين (١)

ولا حاجة هنا الى ايراد شهادة المسيو دي روجه ودي كاباس عن امر الكرونولوجية المصرية لانهما يقران ايضاً ان ليس لمصر كرونولوجية معروفة

قد رأيت مما مرّ الدعائم الضعيفة الراكزة عليها اهرام تلك السنين التي رفعوها بجسارة الى السماء ليقلبوا بها سلطان الكتاب المقدس . الا ان هذه الدعائم وتلك الاهرام قد دُكت وانقلبت وليس شيء منها يثبت على الحنة

كلا ان الكرونولوجية التاريخية لمصر لم توجد ولا يكون لها وجود مطلقاً لان الآثار والمؤلفين لم يأتوا بالعناصر والمواد اللازمة لها. اذ ان اختلاف السلاسل وتعاصرها وفقدان كل مدة تاريخية عمومية وتجديد الحسابات عند قيام كل ملك من غير ارتباط بما مضى واسماء الملوك المبهمة والفترات الغير المعينة بين الملوك والحروب الداخلية وغارات الاجانب هي كلها موانع تعوق في كل آن من تواصل السنين تواصلًا مدققًا في الكرونولوجية المصرية

فلهذا قد خزيت جراءة كثير من العلماء الكثيري الادعاء الذين بمجرد استنادهم الى الاوهام الباطلة وسوء استعمالهم لبعض العلوم السرية كانوا يزعمون بوجود مدة عجيبة من العصور متجاوزة لجميع التقليديات الموسوية

وعليه فلا يمكننا ان نستند الى هذه الكرونولوجية اي كرونولوجية مصر استنادنا الى اساس علمي لاجل سرد الحوادث التاريخية عن الشعوب التي تجاوزها. وبناء عليه فلا يعجب احد اذا اينسا ان نركن ركونا اعمى الى اخبار مصر وخصوصاً الى كرونولوجيتها فيما يأتي من الانباء

ان المؤرخ يقبل بعل الفرع وحاسة الجميل جميع الافادات الموسومة بسمات الحقيقة وعليه فلا يمكنه ان يسلم بالحوادث المشكوك

في صحتها اذ يقبل التخمينات الملقاة على عواهنها. واعلم اننا لا نتكلم هنا الا في الكرونولوجية. ولو كنا لم نزل بعيدين عن استخراج هذه المادة المهمة نظن اننا تكلمنا ما به الكفاية. وفاء بالالزام الذي يفرضه علينا تاريخ لبنان المرتبط اشد الارتباط بتاريخ مصر. وهو ان نبحث عن قدر كرونولوجية مصر القديمة ونبدد ظلمات تلك الآلاف من السنين التي تدعيها. وهذا واف بمقصدنا اذ يمكننا ان نستنتج عن يقين مع المسيو كاباس ان الاكتشافات الجديدة لا تجر بالضرورة تنويعاً معتبراً في الافكار المقبولة عموماً في الكرونولوجية (١)

كرونولوجية لبنان

وبعد ان عرفت ان ليس من شيء ثابت تاريخياً في مزاعم الامم المجاورة للبنان المدعية تلك القدامة الراقية الى ما وراء العصور المعينة في الكتاب المقدس وجب ايضاً ان تدرك بناية تلك الافكار التي كانت لشعوب فينيقية وأرام فيما يتعلق بقدامتهم العجيبة الموهومة . اذ ان لبنان يجب ايضاً ان يفتخر بوجود يرتقي الى سلسلة اعصار طويلة

والامم كالأفراد ايضاً تحبّ ان تكون متسلسلة عن سلسلة اجداد طويلة. ولكنه لم ينجح احد في الدنيا مثل اهل المشرق في فن اختراع الانساب الخرافية التي لا حد لها (١)

قال يول الافريقي ان الفينيقيين يفتخرون بقدامة قدرها ثلاثون الف سنة (٢) ولعل المؤلف اراد بالفينيقيين في عبارة هذه الصوريين بوجه الخصوص. لاننا لا نعلم شيئاً عن المزامم التي كانت لسائر القبائل الكنعانية والارامية في لبنان فيما يتعلق بقداמתها. ويصعب كما يظهر ان يكون لجميعهم اعتقاد واحد من هذا القبيل. ولكن الصوريين كانوا قلماً يكون مشهورين بين الاقدمين في تربتهم هذه الى المبالغة بقدامة اصلهم

قال بلين : ان اكزينيفون ذكر ان ملكاً من ملوك الصوريين عاش ستمائة سنة وكأنه حسب انه لم يكذب كذبة كافية فزاد ان ابنه عاش ثمانمائة سنة (٣)

وهكذا جرى الصوريون بل جميع قبائل لبنان (على رأيي) على

(١) الرسالة الاولى الى تيموتاوس ١ : ٤ - طيطس ٣ : ١

(٢) ذكره سنكل في تاريخه

(٣) بلين ٧ : ٤٩ وقاير مكسيم ٨ : ١٣ ٧

مثال المصريين والاشوريين ونسبوا لنفوسهم سلسلة طويلة من الملوك (١) وذكروا عنهم انهم عاشوا الاقا من السنين او خلطوهم مع الالهة او مع المدات الفلكية كما وقع لاهل اشور ومصر وقصدوا بذلك ان يرفعوا تاريخ اصلهم الى ما وراء الحدود الحقيقية

ولا شك ان ذلك كان منهم بسبب تذكرهم المبهم للاباء الاولين (٢) . ولكن دعوى هذه القدامة لما كانت بدون برهان لم تكن لتستحق ان يُبحث عنها بحثاً جدياً

ان اول شهادة بعد شهادة الكتاب المقدس تستحق بعض الاعتبار لاجل تقرير كرونولوجية لبنان هي الشهادة التي اخذها هيرودوت عن افواه كهنة صور في شأن تأسيس هيكلهم ومدينتهم قال :

سألت كهنة اله هر كل عند محادثتي اياهم من اي زمن بُني هذا الهيكل . فوجدت انهم لا يتفقون مطلقاً مع اليونان لانهم اجابوني ان هيكل الاله بني مع مدينة صور وان صور قد بنيت منذ الفين وثلاثمائة سنة (٣)

(١) برفير ذكره اوساب في تمهيده الانجيل ١ : ٩

(٢) يوسف في العاديات ١ : ٣ و ٩

(٣) هيرودوت ٢ : ٤٤

على ان هذا العدد المعتدل في مقابلة كرات السنين التي تصادفها دائماً في الكرونولوجيات القديمة مما يعجب ويدهش ويبعث على الركون اليه . واعلم ان كهنة صور هم اعقل من كهنة عبدة الثور ابيس الذين قد فرغنا من الكلام عنهم . فهم لا يضلون مطلقاً بتاريخ خرافي بهذا المقدار مثل سائر كهنة الوثنيين . اذ انهم لم يخبروا هيرودوت ابداً بتلك الجداول الباطلة التي كانت معتقدة في مصر

وعليه فنحن الان نمشي على تربة امنن وامكن وهوؤلاء المؤرخون الفينيقيون هم بحسب روح امتهم اصدق واحسن حساباً من سائر الشعوب . وبهذه الشهادة يزرعون الصديق عن ربوات السنين التي كان الرومان واليونان ينسبونها اليهم . ويظهر خصوصاً ان تواريخ كهنة صور ارضت هيرودوت تمام الرضا . لان ابا التواريخ لم يكن صعب المقادة لقبول التواريخ والحوادث اذ انه كان اذا رأى عبارة ما او شعراً من الاوديسة او فقرة من اسقيل او سمع كاهناً او مخبراً ايأ كان كفاه ذلك للاقتناع

ولم يكن يطلب شيئاً فوق ذلك كما ان سامعيه لم يكونوا يتطلبون ما هو ازيد . وكان قد سمع مع العجب بأعداد المدات المصرية الغريبة ومع كل هذا فان هيرودوت لم يهتد ذلك عن ان ينبه الى ان هذه الكرونولوجية لا تتفق مع الكرونولوجية اليونانية . وبقوله هذا قد انتقد

ضمنياً على الكرونولوجية المصرية واثبت كرونولوجية فينيقية . وكأنه قد
شعر بالفرق البالغ بين العصور الخرافية التي سلم بها من غير صعوبة
تسليمه بقول شعري وبين المدات التاريخية التي اراد توفيقها عند
الشعوب المختلفة ليقربها بعض القرب من الحقيقة

وكل ما كان هيرودوت يحس به ينبغي على المؤرخ اليوم ان
ينجزه فعلاً . لذلك لا يستطيع ان يركن ركناً تاماً الى الازمنة القديمة
وعلى الناقد ان يميز قدر هذه التواريخ العتيقة ويوفقها مع سائر الانباء
التاريخية

والحال ان التاريخ الذي ذكره هيرودوت ولو انه كان اقل شبهة
من سائر التواريخ التي اطرحناها فمع ذلك ليس بمكتنف بالخصائص
التي تجعله اكيذاً . لانه لم يأخذه الا من مجرد محادثة بسيطة مع كهنة
ملقوت . فهو عارٍ عن كل برهان يثبت هذه القدماء الكبيرة

ولو ان كهنة صور كانوا يثبتون تواريخهم في سجلات محفوظة
فهل كانت سجلاتهم قديمة جداً ؟

فهذه هي مسألة يمتنع الجواب عليها جواباً اكيذاً . وعليه
فلا يمكن ان يُعطى هذا التاريخ الا قدراً مبهماً وتقريبياً لان هيرودوت
قد زار مدينة صور نحو سنة ٤٥٠ قبل المسيح . واذا اضفنا هذا العدد
الى عدد السنين التي عينها كهنة هر كل لتأسيس هيكلهم ومدينتهم

يكون ابتداء تأسيس المدينة في سنة ٢٧٥٠ ولكنة في الراجع لا يتوصل الى تعيين مدة التأسيس الاول لصور ولهيكل جزيرتها على وجه قريب من الصدق الا اذا حذفت ستائة او سبعمائة سنة من هذا التاريخ الفاقد التدقيق . ولا يمكن الارتياح في ان تاريخ كهنة صور يدل على تذكارات قديمة عريقة . لانه بهذا الاسلوب موافق لجميع التقاليدات ويشهد لوقيان بان هيكل هر كل الصوري بُني تقريباً في نفس العهد الذي بُني فيه هياكل مصر التي يباهي المصريون بقدامتها (١) اما اريان فيعده اقدم هيكل حفظ ذكره في التاريخ (٢)

هذا فضلاً عن ان المؤرخ يوسف ذكر تاريخاً لبناء صور اقل قديمة واكثر دقة قال . في السنة التي بُدئ فيها بهيكل اورشليم وهي الرابعة من ملك سليمان كان قد مضى على حيرام بالملك اثنتا عشرة سنة . ولكنة من بعد تأسيس صور الى وقت بناء الهيكل كان قد مضى مئتان واربعون سنة « (٣) وهو كلام نفيس لان مؤلفه اثبت انه اتخذ من سجلات صور وانه قابله مقابلة مدققة مع التاريخ المقدس

(١) لوقيان في الهة سورية ٣ (٢) اريان ١١ : ١٦

(٢) يوسف في العاديات ٨ : ٣

قد احدث المستشهدون لكلام يوسف اختلافاً مهماً في عبارته

اجل ان يوسف لم يأتِ بعبارة تتضمن هذا التاريخ ولكن طريقة
اتيانه بهذا الخبر مشفوعاً بالتأكيد تكفل لنا انه اتخذهُ عن مصادر
عديدة كانت بين يديه وانه اخبر به من غير ان يورد دائماً كلمات الخبر
الاول بعينه . وعليه فان شهادته من القوة بمكان

ولاجل تعيين هذا التاريخ تعييناً مدققاً ينبغي ان نتخذ نقطة
الشروع من بداية ملك سليمان الذي يجعله احسن الكرونولوجيين (١)
في سنة ١٠١٦ قبل المسيح . ففي السنة الحادية عشرة لملك حيرام التي

لان القديس هيرونيم اوصل ذلك الى ٣٤٠ سنة . غير ان هذا العدد
ينبغي ان يعد غلطاً من النساخ لان اوساب الذي كان يتعاطى النسخ
عادةً ذكر ٢٤١ سنة فغلط في سنة واحدة لا غير . وعليه فيمكننا ان
نعتبر النص الحالي للمؤرخ يوسف نصاً صادقاً واكيداً

(١) بيتو في حساب الازمنة . اوشر في تاريخ العهدين
واعلم ان شنترل والاب فرقورست يتبعان في ايامنا نفس هذه
الكرونولوجية (التاريخ المقدس المدة ٤ ف ٣ وشعب الله م ٤ : ٩١)
اما فرنسيس ليرمان فذكر هذه الحادثة في سنة ١٠١٩ قبل
ذلك بثلاث سنين وهو فرق لا طائل له غير ناتج عن سبب موجب
فهو على حد التاريخ الذي اعتمد عليه ت . برنتون اي سنة ١٠١٥

سليمان بعد ذلك باربع سنين اساسات الهيكل (١٠١٢) وكان قد مضى على بناء صور اذ ذاك مئتان واربعون سنة . وعليه فان هذا التأسيس يرتقي الى سنة ١٢٥٢ قبل المسيح اعني في اواسط القرن الثالث عشر .

واثبت يُستين ايضاً هذا التاريخ بنوع تقريبيّ لانه قال بتأسيس صور من المهاجرين الصيدونيين بعد سنة من حرب تروية (١) والحال ان المدة المبهمة لحرب تروية كانت اول تاريخ تقريبيّ ذكره المؤرخون الاقدمون الذين كانوا يوصلونها الى حد القرن الثاني عشر او الثالث عشر . وهذا الاتفاق بين مؤرخين مختلفين يقوي شهادتهما ويفرض انهما وردا منها قديماً

غير ان هذا التاريخ يولد مشاكل معضلة . فان كانت صور في عهد افتتاح يشوع مدينةً محصنةً او ابنة لصيدون قديمة جداً كما اثبتناه في الفصل السابق افليس من الواضح اذاً انه يستحيل ان تكون مبنية في القرن الثالث عشر ؟ الا ان هذه المناقضة الظاهرة يمكن ان تُشرح بطريقة بينة اذا سلمنا وفقاً للانباء القديمة بان صور قد أُسست مرتين في عهدين متباعدين

اما التأسيس الاول الذي اخبر به هيرودوت كهنه ملقرت فكان في عهد قديم جداً بُنيت فيه صور القديمة على اليابسة والهيكل على الجزيرة . اما التأسيس الثاني فبُنيت فيه على الخصوص مدينة الجزيرة وكان مفتتح حياة جديدة سياسية لصور وبداية لسيادتها كما سنراه فيما يأتي ومن ثم فان تقليدات الصوريين عن قدامة مدينتهم وعبرة يشوع التي تشهد باهميتها في عهد قديم لا تناقض مطلقاً شهادة يوسف بتأسيسها للمرة الثانية . وهذا الحادث يُلقى بعكس ذلك نوراً جديداً على تاريخ صور وفينيقية

ثم ان الاهمية التي علقوها على الاكتشافات المسماة بالسابقة التاريخ تدفعنا الى ان نريد على ما قلناه بعض ملاحظات متعلقة بلبنان فيما يخص هذه الافادات الجديدة المقدمة للآرولوجية . عرفنا قبلاً ان لبنان كان فيه قوم كثيرون يسكنون في مغاوره المتسعة . وهذه المغاور الطبيعية موجودة في كثير من صحوره . وقد اشاروا اليها من زمان قديم جداً وتكلم يشوع عن مغاور الصيدونيين التي ينبغي ان يكون المراد بها مغاور نيجا او عدلون (١)

واما استرابون فذكر ايضاً مغاور دمشق او ايطورية وقال ان كل

واحدة منها تسع أكثر من اربعة الاف نفس (١) . ويمكن ايراد عدد كثير منها كغاور نهر الكلب واميون وقديشا وافقا الخ . اما آثار سكن الانسان في المغاور فيمكن ان يوقف عليها بسهولة لان ما كان منها مسوداً بالدخان مشتملاً على شيء من الحطام والعظام دل على ان الانسان جاء اليه واتخذ ملجأ . فهذا البرنس دي لوين قد احتفر بعض احافير منذ بضع سنين في مغاور نهر الكلب فجاء منها بنتيجة حسنة لانه كشف في حفرة ما بين قطع عظام الحيوانات ذرات الاثدي آكلة العشب او آكلة اللحوم قطعاً كثيرة من الصوان مشغولة بهيئة سكاكين ومقاشط وازاميل الخ تشبه كل الشبه لما يوجد في اوربة . وليست هذه المغاور متفردة بوجود هذه الحطام القديمة بل ذكر حوادث مشابهة في غيرها من اماكن سورية (٢)

ولكن مثل هذه الاكتشافات يمكنها ان تدل على ان لبنان مر

(١) استرابون ١٦ : ٢ و ٢٠ . وهذه المغاور هي بالقرب من

قنوات

(٢) (حاشية للمترجم) وقد اكتشف احد الاباء اليسوعيين من

عهد قريب في مغارة انطلياس جملة من العظام والصوان المشغول بهيئة سكاكين وهي موجودة في متحف الحجارة بمدرستهم الكلية في بيروت

عليه عصر الحجارة او عصر آخر سابق التاريخ ؟ كلا . ان عصر الحجارة ليس مدة معينة . وما هو الا تقدم صناعي يختلف تاريخه اختلافاً عظيماً من شعب الى شعب ومن ناحية الى ناحية . والشعوب التي سقطت في وهدة التوحش اضطرت فيما يلي الى ان تبتدع من جديد الصنائع التي كانت قد نسيها عند ابتعادها من مركز هجرتها الاولى . ترى هل حدث مثل ذلك في لبنان ؟ كلا

ومع انه ليس من شيء يثبت بالاطلاق ان معادن النحاس والحديد في الجبال اللبنانية استخرجت من اول مجيء القبائل اليها وانهم كثيراً ما استخدموا الحجارة لحاجاتهم والمغاور لسكناهم . فكذلك ليس باقل صدقاً ان القبائل في ذلك الوقت لم تكن لتجهل استعمال المعادن ولم تكن معدومة من كل اداة معدنية . لان القبائل الاولى في لبنان وسورية التي كانت قريبة جداً من مركز البشرية لم تكن لتتوهم كسائر القبائل التي رحلت الى مسافات بعيدة في وهدة التوحش والبربرية او تنسى الصنائع خصوصاً عمل المعادن التي كانت معروفة عند توبل قاين ونوح في الازمنة المتقدمة الطوفان

وكان لنسل كنعان ولا سيما في لبنان نفس تلك الاهلية الممدّنة ونفس المعارف الاولى والاعمال التي كانت لنسل حام في مصر . فان مصادقة الادوات واسلحة الحجر في تربة اسية لا يمكن ان تثبت انهم

لم يكونوا يعرفون في وقت واحد استعمال النحاس والحديد قلما يكون
بنوع حصري

وهذا التعاصر هو بعكس ذلك ثابت بنوع واضح في فلسطين
ومصر اللتين كانتا في احوال مشابهة لاحوال لبنان والشعوب التي
استوطنته كانت عند وصولها متقدمة في الحضارة التي كانت قبل
الطوفان وفي جميع الصنائع الضرورية لجماعة متمدنة

هذا فضلاً عن ان الدلالة التاريخية لهذه الحطام هي قليلة الاهمية
لان ما يجري الى اليوم امام اعيننا يثبت لنا ان عهد الحجارة والمغاور
لم يزل مستمرًا الى الوقت الحاضر. وفي كل سنة عند اقتراب الشتاء
نرى قوماً كثيرين من البدو الفقراء يحملون خيامهم وينزلون من اعالي
الجبال طالبين منزلاً أكثر اعتدالاً عند البحر. واذا جاء الشتاء برياحه
العاصفة وامطاره وثلجه حتى تصير خيامهم غير صالحة للسكنى عدوا
نفوسهم سعداء اذا وجدوا لهم ملجأً آمناً في احدى المغاور القريبة .
واثاثهم مقصورة على ادوات فقيرة وكثيراً ما يضطرون الى الاستعاضة
عما ينقصهم بحرقه اولية اذ يسوّون بعض قطع من الحجارة على قدر ما
يستطيعون اليه سبيلاً لكي يستعملوها في ما يرومون . واذا عاد الصيف
يعودون الى الجبال مع خيامهم وذلك القليل من اثاثهم

واول ما يعتني البدوي عند رحيله هو ان لا يترك شيئاً من

ادوات الحديد او النحاس او اى معدن آخر كان لانه قاسى في جمعه
نصباً كثيراً. واما الحجارة التي سواها فلتأكده انه يجد منها في اى
محل كان قفلاً يُبالي بها فيتركها في المغاور طعمة لمن يأتي من اصحاب
العلم السابق التاريخ

وهذا يدل بالكفاية على انه لا يمكن ان يُستخرج من هذه
الاكتشافات قلما يكون في لبنان نتائج جدية لاجل تعيين مدة اقامة
الشعوب الاولى ومدة ظهور النحاس او الحديد

واذا شئنا تلخيص هذه الاسحات الكرونولوجية بموجب ما قدمنا
من الافادات واعطاء تواريخ تقريبية للممالك القديمة وللمدن المهمة
في لبنان جعلنا ذلك بوجه التقريب كما يلي :

صيدون	أسست في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح
دمشق	="
جبيل	=" الرابع والعشرين
صور	=" الثالث
بيروت	=" الثاني
حماة	=" الحادي
عكا	=" العشرين

الفصل السابع

في اديان لبنان القديمة

لا بد ان نبحث ايضاً عن المعتقدات الدينية عند القبائل التي
عمرت فينيقية واران والافاتنا عنصر جوهري من اصول لبنان التي
مرّ الكلام فيها. لان الاديان التي كانت اولاً مبدأ النظام الالهي الاوفر
قدرة على تهذيب هذه الشعوب والتي استمرت مدة آلاف من السنين
فائزة عندهم باعتبار عظيم وكانت اقوى محرك لجميع اعمالهم تقتضي مناً
بلا شك ان نصغي اليها اصغاءً خصوصياً . اذ انها عند المؤرخ اهم
جزء في حياة هذه الامم واعم سبب دفعها الى النشاط الادبي واسطع
ضياء استنارت به في آرائها ومشروعاتها . بما ان هذه القبائل قد اودعت
ديانتها أنفُس عنصر في وجودها . وهذه الاديان قد عكست كما تعكس
المرآة اشعة افكارهم وتقليداتهم وخواطرهم واهوائهم واغلاطهم
ومعاييرهم وفضائلهم

وان السطوة الدينية تتضمن مبدأ حياة لا ينكر مطلقاً انه اسعف
اسعافاً قويا على اعطاء هذه الشعوب هيئتهم الخصوصية وسمتهم الذاتية
فضلاً عن ان المعتقدات كثيراً ما يلزم اختلاطها باخبار التاريخ . ومن
دون هذا البحث الاولي يصعب علينا ان نفهم اسباب الحوادث

وارتباط بعضها ببعض . ثم ان العلاقات الشديدة التي بين هذه العبادات وتاريخ العبرانيين الشديدي الميل الى وثنية الكنعانيين وسيادة الديانة الفينيقية على سائر عبادات المغرب القديمة كل ذلك لا بد ان يرغب في مطالعة ما سنبينه :

ان النشاط العلمي الذي دفع اهل عصرنا الى البحث عن العنصر الديني في القبائل القديمة بلبنان قد فتح لنا مجالاً رحباً جداً حتى اضطررنا ان نقتصر على الاخبار المهمة خشية من ان يتسع بنا الكلام الى ما لانهاية له وعلى ذلك لا ندخل في الملاحظات الطويلة التي تقتضيها مقابلة هذه الاديان مع الاديان الغريبة ولا نحوم حول المباحث التي يتطلبها مثل هذا الموضوع ولكننا نجتهد في ان لا نتخطى الحدود اللبنانية ونجتري بالكلام عن الآلهة الوطنية او المجمعولة وطنية بواسطة عبادتها العامة . كل ذلك لئلا نخرج عن دائرة التناسب في تأليفنا

وقد تكلمنا عن القسم الخرافي في هذه الاديان من حيثية التاريخ فبقي علينا ان نبين المبادي والعواطف والرموز الدينية عند تلك الشعوب القديمة مع روح واميال واحتفالات واعیاد عبادتهم . ثم ان الافادات التي ترفع الغشاء الملقى على الديانات القديمة في لبنان كانت مقصورة في القديم على بعض فقر من كلام سكن يتن غير ان الابحاث الحديثة قد سدت ما وجد من الحلل الشامل للكتابات الفينيقية

والارامية بحيث يمكن اليوم ان تُتصور هذه الاديان الشهيرة تصوراً مدققاً لان المواد الكثيرة التي جمعها هولاء المشتغلون الذين لا يبالون بالاعتاب تقدم للناقد ايضاً واسطة لاجل تبديد الاغلاط العديدة التي حامت مدة طويلة فوق هذا العلم

١

في صفة هذه الاديان

ان الفينيقيين والاراميين كانوا شديدي التحمس في امور الدين وكانوا يكرمون الآلهة غاية الاكرام ويفرضون على نفوسهم لاسترضائها او احقاد نار غضبها اشق الاعمال واعظم النفقات وواجع الضحايا. وكان خضوعهم لسلطانها التقدير خضوعاً تاماً ورجاؤهم في حمايتها وخوفهم من غضبها كانا يضطراًّ انهم للالتجاء اليها في جميع حاجاتهم وكانوا ينسبون اليها جميع فوزهم ونجاحهم ويعتبرون ان كل ما يصيبهم من شرّ او نكبة هو مبتأت عن عدوها. وكانت العاطفة الدينية حيّة فعالة في قلوبهم ولكنّه لسوء النجته كانت الديانة التي كانوا متعلقين بها ممزوجة بالاغلاط الفظيعة

وعليه فبالضرورة كانت الامة والافراد معاً تتضرر من هذا الشر الداخلي الذي بثّ سمّه في جميع الترتيبات وجميع القلوب . لان

الديانات الوثنية والتهنأ الكاذبة وآدابها الفاسدة سببت بالطبع لشعوب لبنان اوحم النتائج لانها اعطت تمدنهم سمةً مادية وشهوانية واهبطتهم في وهدة فسادٍ وحشي

غير ان اساس الحقيقة او الحقيقة الناقصة التي كانت قائمة تبعاً لترتوليان في وسط اغلاط ما بين شديدة الشناعة او قليلتها قد كانت كافية مدة زمن طويل لاجل تمكين العلائق الالقية والمبادي الادبية التي كانت ضرورية لسعادة الممالك التي قامت في لبنان الى ان جاء الشك والريب فزعزعاها

كيف نشأت هذه الديانات القديمة او بالحري كيف فسدت في شعوب لبنان معرفة الاله الحق ؟ انه من الثابت ان الاسماء الالهية المحفوظة في هذه الديانات السامية تبين اكثر من الاسماء المحفوظة في الحكايات الوثنية عند اليونان والرومان ان معرفة وعبادة الاله الحقيقي الوحيد تقدمت ظهور تعدد الآلهة والوثنية . فهذا اسم ايل (القوي والاول) الذي كان الجبليون يطلقونه على اخص الهتهم والذي يوجد ايضاً بنفس هذه الصيغة تقريباً عند جميع القبائل الارامية حتى عند الكنعانيين وعند العرب (١) وعند الساميين عموماً والذي هو نفس

(١) ان اسم ايل يأتي في الاسماء الدمشقية المركبة مثل عزائيل

الاسم الذي كثيراً ما يطلقه الكتاب المقدس على الخالق عز وجل وهو نفس الاسم الذي كرهه يسوع المسيح على الصليب قبل ان يسلم النفس الاخير بقوله : ايلي ايلي لما شبتني . اعني الهي الهي لماذا تركتني (١)

اما بقية الاسماء الالهية في فينيقية و ارام فيدل اكثرها على حقيقة اوصاف الالهية و وحدتها مثاله : عليون اي العلي و بعل اي السيد (٢) وادوني اي سيدي وملك وملك اي الملك وهدد اي الوحيد و بعل شميم اي رب السماوات و آيون اي الازلي و كبير اي الكبير و قدم اي القديم الخ

وقد يوجد بين الاسماء الكنعانية المركبة مثل ايليل ملك صور والعرب يقولون اله والله والاشوريون ايلو . و الكتابات الارامية التي في حوران و تدمر والنبك دأت على وجود هذه الاسماء عند جميع بني ارام

(١) متى ٢٧: ٤٦

(٢) من الغريب ان اللاتين في القرون المتوسطة حرفوا كلمة بعل اي سيد بكلمة بيلوس Baylus ومعناها عندهم سيد ورب وملك . ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية Bailli وهو اسم قديم لصنف من مأموري العدالة

وأكثر هذه الأسماء ليس إلا أوصافاً أو نعوتاً يوصف بها الواجب الوجود غير المتناهي المنظور إليه من حيث صفاته وسائر علائقه المختلفة وكثير من هذه الأسماء له أصل مكاني أي أنه لا يدل على الإله بل على الهيكل أو على العبد. والقبائل الأولية لم تنس أيضاً إلهها الحقيقي عندما سُمّته بهذه الأسماء لأن سفر الحكمة يقول: إن الأصنام لم تكن في البدء وليست تدوم إلى الأبد (١)

وهذه الحقيقة مثبتة أيضاً باعتقاد أولئك الشعوب بأن دياناتهم كانت في أصلها أكمل ثم اعتراها الفساد شيئاً فشيئاً بقدر بعدها عن أصلها

غير أن اسم الله تعالى أن كان معروفاً أولاً ومحجوباً فلم تتأخر معرفته عن أن نظلم في هذه النفوس التي أصبحت أرضية وغليظة إذ أنهم تعودوا أن لا يحكموا على الله إلا بحسب الحواس وجعلوا كل اسم من الأسماء الإلهية الهماً مخصوصاً بحيث أن كل اسم وكل هيكل وكل مدينة كانت تدل على إله مخصوص متميز فصارت له عبادة محصورة وصفة وطنية محضة وليس من شعب بين الساميين حفظ للأسماء الإلهية معناها المطلق والحقيقي غير الشعب اليهودي أما الآخرون

فقد افسدوا معناها واطلقوها على الخليفة حتى جعلوا منها آلهة متعادية
 ان الشمس التي تسطع في السماء سطوع احسن صورة ممثلة
 للالهية أثرت على وجه الخصوص في ابصار هولاء الناس الذين
 كانوا نسوا الاله الحقيقي . ولذلك فان الشمس التي هي معدن النور
 واصل الحرارة والحياة وحكم النهار والليل والسنين والمصباح الذي
 يرتب الاوقات ومسير الكواكب والامم وكل ما هو على سطح
 الارض (١) قد اتخذوها نظير الاله المعبود او نظير مظهر ممثل
 لعبادته (٢)

هذا وان الانسان لضلال عقله كان قد عبر الهاوية غير المتناهية
 التي تفصل الخالق من الخليفة ثم كذب بحقيقة الالهية واخترع
 عبادة الاصنام . لان الشيطان لبث ازماتا طوية رئيساً على هذا
 العالم (٣)

(١) مكروب في الزحليات ١٧: ١

(٢) قال سزقيوس في شرح ديوان ورجيل المعروف بالاشعار

الايانية ان الجميع في تلك الجهات (السورية) يعبدون الشمس التي
 تدعى في لغتهم هيل ومنها هيلئوس اليوناني

(٣) يوحنا ١٤: ٣٠

هذا وان العبادة الفينيقية المقدمة لكرون او للزمن تدلنا على ان البشر تقدموا في طريق الضلال هذه اكثر تقدماً. لان الزمن وان لم يكن اوفر لمعائنا من الشمس لكنه اعم منها ولذلك استلفت انظار الفينيقيين حتى ظنوا بسبب تحمسهم الديني انه هو الاله العام غير المتناهي

وهذا الوجود السري القدير الذي لم يكن يمكنهم ان يروه في اي محل كان والذي كان يعمل في كل مكان بقوة لا تدافع جاراً كل شيء بمروءه السريع مفترساً اياه باضراره الوحشية ولكنه يعيد كل شيء في كل سنة الى حياة جديدة قد ظهر لهم انه اله الطبيعة الاكبر الجامع بين صفتي الاساءة والاحسان

وهذا الوجود الخفي والظاهر. المحسوس وغير المحسوس. قد ارضى عقولهم واهواءهم وافكارهم بعض الرضى فجعلوه الههم الاكبر وسموه خلد اي الزمن والمدة غير المحدودة والازلي. وغايه فان الشمس ما كانت عبادتها على هذا الافتراض الا تبعية من حيث انها قياس للزمن. ومن الاكيد ان الحكايات الوثنية عند الفينيقيين كانت مبنية على تصور الزمن الذي يشرح بسهولة صفات كرون والقسوة التي كانت تحمله على افتراس اولاده والذبايح البشرية التي كانت تقدم له ان تغير معرفة الله بتأليه الزمن والشمس لم يلبث ان تحول الى

اعتقاد الالهة الكثيرة عند العامة واصبحت الديانة التي ينبغي ان تكون رابطاً بين الله وخليقته وضمانة للفضيلة والالفة قد فسدت طبيعتها السماوية وتحولت الى معصية على الله نفسه والى فساد في الالفة البشرية . وعلى ذلك صار الاله الاول غير المتناهي عند اهل الشرق الزمن او الشمس المنظورة مع جميع الدولة السماوية والمظاهر الارضية . وعبادة الشمس والكواكب ونور النار جذبت اليها شعوب المشرق الاولين اشد الجذب ونسوا ذلك الذي مسكنه نور لا يُدنى منه (١) لاجل ان يكرموا مصدر النور المادي . قال اوساب :

« كل يعلم ان الفينيقيين والمصريين هم اول من نسبوا الالهة للشمس والقمر والكواكب وهم اول من صرحوا بانها العلة العامة للحياة والموت وهكذا ادخلوا بين الناس هذه القصص ومواليد الالهة التي بثوها في كل محل » (٢) وهذان الشعبان الخارجان من اصل واحد والمرشوقان بلغة واحدة لسبب نظرة حام الدنسة قد اقترفوا رذيلة جديدة اصلية ابعدهم عن الله وطرحتهم في تعاليم الوثنية الفاسدة قبل جميع الشعوب كما هو الراجح ونشرت بينهم عبادة الالهواء الخزية المعيبة وجعلتهم حجر عثرة في العالم القديم

(١) اولي تيموتاوس ١٦: ٦ (٢) في التمهيد الانجيلي ١: ١٦

ان الكنعانيين او الفينيقيين اذا لم يكونوا قد اخترعوا كل شيء في عبادة الشمس او الزمن فقد كانوا قلما يكون اغير الناس على نشر هذه العبادة في العصور القديمة . وسنكن يتن صرح بان الفينيقيين استنبطوا القسم الاكبر من هذه العبادات . قال ان الفينيقيين على الخصوص لم يعرفوا الهة طبيعية لهم الا الشمس والقمر وسائر الكواكب مع العناصر وبقية الاشياء التي لها تقارب معها غير انهم كانوا يعدون الارلى خالدة والبقية غير خالدة (١)

ثم ان عبادة الشمس والكواكب التي كانت بمنزلة اتباع لها تأصلت شديد التأصل في قلوب وعوائد اهل المشرق حتى لم يقدر على ترعها من نفوسهم الى الآن لاضياء النصرانية ولا جهاد الاسلام

وفي ايام ملوك قسطنطينية في اوائل القرن الخامس كان نون يقدم ايضا هذه الصلاة للشمس الهة صور وهي : يا ملك النار (٢) ومبدأ العالم هر كل استروقيتون ايها الشمس المنظم الازلي لحياة البشر انت

(١) سنكن يتن . فقرة ٨ : ١

(٢) الشمس اسم مذكر في لغة اولئك القوم فلذلك نصفها هنا

بما يوصف به المذكر اتباعاً للاصل

الذي تدور جميع الاقطاب بقرصك المحرق وترجع في دائرة الاثني عشر شهراً من السنة ابنة الزمن . فمن عجلك يزل العمر ويتكون الشبيبة والشيخوخة معاً وبميلاد سام تصدر صورة مثلثة للقمر المحسن الذي ليس له ام . بل من نيرانك المتلألئة يُشعل نيرانه المنعكسة عندما يجمع في كرة قرني ثور متعوجين . انت عين الهواء الذي تنيره وفي عجلك التي يحرقها اربعة رؤوس تأتي بالشتاء بعد الخريف وبالصيف عقب الربيع

واذا ما هجمت على الليل بانوارك يهرب عن عرشه متى ظهر نورك المفضض وبشرت بالنور رؤوس خيلك الجالحة من ضرب سوطك . ان مرجة السماء الواسعة بعد ان تكون مظلمة قبل اشراق لهيبك تترصع عند ظهور ضيائك بكواكب اكثر لمعاناً . واذا تبللت بمياه الاوقيانوس الشرقي حركت ندى شعرك الخصب ونشرت مطراً غزيراً وفرقت على الارض الخصبه شراب الندى الوطني واذا صبت في الاثلام المولدة مواهب كرس تني وتسمن السنابل تحت قرصك . يسمونك بعل عند الفرات وامون في ليبيا وآيس في النيل وكون في بلاد العربية ويوبتير (المشتري) في اشور وعلى هيكلك المعطر يأتي الطير فينلق بعد آلاف من السنين حاملاً بخالبه المعوجة اغصاناً طيبة الرائحة . وعند نهاية حياته يجدد مبدأها هو بنفسه ويولد نفسه بمفرده

فهو صورة الزمن الذي يستأنف ويتجدد. ينعق من شيخوخته ويتخذ
من اللهب حياة جديدة

انت بيون الذي يخفف الألم او الايتر الموشي المدعو استروقيتون
لان قمصانك المرصعة بالنجوم تنير السماء في ظلمة الليل. اعزني اذنا
صاغية واستجب لصلاتي» (١)

فهذه الصلاة التي تدل على حالة عبادة الشمس في لبنان عند
تداعي الوثنية للسقوط تثبت ايضاً بصراحة ما قلناه عن امتزاج
عبادات الشمس والزمن امتزاجاً باطنياً
ويستدل من كلام احد السياح المعاصرين الذي جال بلاد
العربية المتوسطة ان هذه العبادة التي كانت شائعة قديماً في لبنان لم
تُستأصل تماماً من البوادي المحيطة بسورية قال : لما طلعت الشمس
منيرة شهدت لأول مرة مشهداً غريباً تكرر وقوعه امامي حتى صار
مألوفاً اعني به العبادة الوطنية التي يقدمها البدو لهذا الكوكب. ولما
ظهر قرصها المنير في الافق حوّل البدو وجوههم نحو المشرق واخذوا
في تلاوة بعض الادعية من غير ان ينزلوا عن جماهم او يسادروا الى
الوضوء المفروض في السنة المحمدية

اما صلاتهم التي يجاب بها بعضهم بعضاً فدامت الى ان ظهر
إطار الشمس ظهوراً تاماً . وحالة طقوسهم الحاضرة تثبت انهم لم يزالوا
كذلك الى اليوم (١)

في اي زمن انتقل الكنعانيون الى عبادة الاصنام ؟ ليس من
يعلمنا ذلك بوجه حصري كما انه ليس من دليل اكيد على ان عقيدة
تعدد الالهة تغلبت عليهم في ايام ابراهيم فان ملكيصادق كان اذ ذاك
كاهن الاله العلي اله ابراهيم (٢) كما ان ملكي جوار المدعو كل منهما
بابيملك يظهر ايضاً انهما لم يعبدا الا اله ابراهيم واسحق (٣)

وكان الكنعانيون في الاقل يتساهلون تساهلاً تاماً في عبادة
الاله الحقيقي وليس من شيء في اتصالات ابراهيم معهم مما يُضاد
ديانة ابي المؤمنين

غير ان الاسرائيليين عند عودتهم من مصر وجدوا العبادة
الكنعانية فاسدة ومعيبة جداً حتى كانت اقوى موجب الى حكمه
تعالى بقتل جميع سكان البلاد الكنعانية

(١) بلعُراف في رحلته الى العربية المتوسطة ف ١ (سنة ١٨٦٣)

(٢) التكوين ١٤ : ١٨

(٣) التكوين ٢٠ و ٢٦

غير ان الفاتحين لم يجدوا في جميع تلك الناحية اقل هيكل لهدموه
لان هذه العبادة الوثنية لم تكن تُمارس وقتئذٍ الا في الغابات المقدسة
بالامكنة العالية

اما الهياكل العظيمة التي بُنيت بعد ذلك في كامل سورية
وفينيقية فلم تحمل الكنعانيين قطعاً على مغادرة طريقتهم الاولى في
العبادة

وبعد هذا الضلال الاول في سبيل تعدد الالهة بواسطة عبادة
الزمن والشمس وسائر الكواكب انتشرت الوثنية باسماء الله نفسها
كما قد مرّ الكلام عن ذلك. لان هذه العقول الغليظة قنعت بان كلاً
من هذه الاسماء يدل على اله متميز واتصل بهم الامر اخيراً حتى
اعتقدوا ان الاسم الواحد يدل ايضاً على آلهة متعددة في المدن المختلفة
وعند القبائل المتجاورة في فينيقية واران. وكان ايل وبعل وهدد وسائر
الاسماء التي ترجمناها آنفاً آلهة مختلفة عندهم وبعض المرات متعادية
وكان عندهم بعل صور وبعل صيدون وبعل حرمون وبعل بك
(هليوبول) وغيرهم وكان لكل منهم حقوق خصوصية في العبادة
وحكايات منفردة تميز كلاً منهم من الاخر. وهكذا تعدد بواسطة اسماء
الاله الحقيقي نفسها تصور الالهية الاولى الذي يستلزم الوحدة من ذاتيته
وهذه الاسماء الالهية الشديدة النقاوة قد دُنت اذ ذاك بعقيدة

كثرة الالهة. ومن ثم فان الرب قد اَطْرَح حينئذٍ هذه الالهاء اقله
اكثرها دنساً وقال: تدعينني رجُلِي ولا تدعينني بعدُ بعلي (سيدي).
فاني ازيل اسماء البعليم من فيها فلا تُذكر من بعد باسمائها (١)

٢

في الكلام عن الآلهة الفينيقية

ان سنكن يتن المؤرخ الوحيد للحكايات الفينيقية قد حفظ لنا
في الفقر القصيرة الباقية من تأليفه اخصّ التعاليم التقليدية في الاديان
الوثنية بلبنان. وقد اكتسبت هذه الفقر اهمية جديدة عندما بينت
مقابلات الديانات القديمة المشابهات للعديدة للعبادة الفينيقية مع عبادات
اشور ومصر وبلاد اليونان وتروية ورومية فضلاً عن ان القوم قد
تنبهوا الى ان هذه الديانات قد استعارت شيئاً كثيراً من ديانة شعب
الله. غير ان الفينيقيين المحدثين كانوا يدعون ان نفوذهم الديني لم
يكن مقصوراً على هذه الشعوب القليلة بل كانوا يعدّون نفوسهم على
ما قال بوسانيا (٢) نظير موالٍ على سائر الامم باسرها فيما يتعلق
بالعلوم الالهية. ولكن هذه الدعوى الغريبة اصبحت في القرون الاخيرة

(١) هوشع ١٦: ٢ و ١٧ (٢) بوسانيا ٢: ٢٣ ع ٧

ذكرى مبهمة للنفوذ الذي فازت به ديانتهم في كل محل في العصور الاولى حتى عند العبرانيين

وهذا العلم المتقدم الذكر له المقام الاعلى في الالهية لا من جهة فينيقية فقط بل من جهة جميع العالم الوثني ايضاً. ونحن لا ننظر الان في جميع هذه الحكايات وهذه التقاليد الا ما يتعلق بالتعاليم الدينية فقط

قال سنكن يتن : في البدء كان الهواء مظلماً مضطرباً بواسطة الروح (التنفخ) او بالحري لم يكن شيء الا روح الهواء المظلم والحلاء المختلط الشديد القتام. وكان الحلاء لانهاية له وفي مدة قرون طويلة لم يبرز شيئاً من العلوات (١) ولما احب الروح مبادئه (٢) حدث

(١) ان هذا الخبر عن تكون الدنيا يشبه في اوله مبدأ سفر التكوين شياً كلياً لان الروح يجعل الحلاء المظلم مضطرباً كما ان روح الله هنالك يرف على وجه المياه

(٢) ان هذا الروح الذي اضطرم محبةً نحو عناصر الحلاء يذكر صريحاً بكلام سفر التكوين « وكان روح الله يرف على وجه المياه » . كأن الروح كان حاضناً على شبه حمامة تلك العناصر التي كان ينبغي ان تتكون منها الدنيا

امتزاج ودُعي هذا الاتحاد شوقًا. وكان الشوق علة لوجود كل شيء .
غير ان الروح لم يعرف ما اوجده (١)

ولم يقتصر الكنعانيون والاراميون على التلاعب باسماء الله ولكنهم
على مألوف ترعة الشرقيين التقليدية ركموها في انساب متعددة وكثروا
رموز الالهية وشخصوا صفاتها واعمالها ثم تخطوا كل حدّ وعبدوا
الالهية في اخص مناظر الطبيعة كلها واتصلوا اخيرًا الى تأليه
الإنسان

قال سنكن يتن : انهم عبدوا مثل آلهة الذين احسنوا اليهم احسانًا
اثنًا وافردوا لهم بعد موتهم الهياكل والمعابد وادّوا عبادة دينية
لذكرهم وعظموا اعيادهم باحتفال

فنتج من ذلك انهم اعطوا اسماء ملوكهم لعناصر هذه الارض
ولن كانوا يعدونهم مثل آلهة » (٢)

وبهذه الطريقة توصل اهل الشرق الى عبادة كثير من الكائنات

(١) هذه العبارة تشير الى انهم كانوا يفهمون بالروح في
ذلك الزمن ذلك الذي لم يكن مخلوقًا اعني به الله لانه لم يصدر
عن الشوق الذي اصدر كل شيء

(٢) سنكن يتن فقرة ١ : ٨٧

والمظاهر الطبيعية التي تدل على الالهية بنوع اكمل . وهذا هو السر في
كامل العبادة الوثنية

الا ان اهل الشرق قد تفوقوا في تصوراتهم الشعرية حتى جعلوا
الاشكال المادية لباساً لاكثر التصورات دقةً وادخلوا الحس في
ارفع منازل الديانة فكانت عاقبة ذلك وخيمة على الشرقيين
وان قيل هل كان ذلك سبباً لان تكون ديانتهم حلولاً كما ذهب
بعضهم . قلنا ليس الامر من ذلك في شيء اذا تعمقت في البحث عن
روح هذه العبادات . لانهم اولاً لم يوجهوا عبادتهم الى الطبيعة بكماها
بل الى اعجب مظاهرها ولاسيما مظاهر الموت والحياة والانحلال والتجدد
كظهور الشيء وخفائه ودماره

هذا عدا انهم لا يعبدون اصلاً قوة الطبيعة ولا المظهر الفردي
ولكننا يعبدون مجموع ذلك المظهر من حيث انه ينبه الفكر والحس
الى الامر الالهي الذي يوجد ويظهر في العالم . فالاله ليس هو الطبيعة
ولا قواها ولكن الاله الذي يعتقده العابد يفترض انه حي وعامل في
الطبيعة . فالطبيعة وصفاتها واعمالها ليست مؤهلة مطلقاً ولكن آلهة
التي كانت موجودة سابقاً تصدر او تدبر هذه القوى الطبيعية وتظهر
بواسطتها في الترتيب الحسي

وكان الارتباط شديداً بين المظهر والاله والقوة الطبيعية والقوة

الالهية والرمز الحسي والكائن الذي ترشد اليه الغريزة وعليه فلم يكن
اذاً من مذهب حلولي حقيقي
قال سنكن يتن :

« وامتزج الروح والفضاء فولد منهما موط و يترجمه بعضهم بالطين
واخرون بفساد اختلاط وحلي (١) ومن موط هذا خرج اصل كل
ولادة وتناسل في كل شيء . فوجدت اذاً حيوانات معدومة الحس قد

(١) موط من الالفاظ التي اشتغل علماء اللغات في ايجاد
معناها شغلاً غير يسير . فاتفق موثر مع العلامة دي روجه على انها
مأخوذة من لغة المصريين . الا ترى ان الكلمة المصرية التي تلفظ
عندهم ماو او موت معناها الام او الموت . ويؤيدني ذلك من الصحة
الالفاظ الكثيرة المأخوذة في قصة الالهة عند المصريين
ولكن هذه اللفظة يمكن ان تكون تحريف ملط في اللغات السامية
اي طلاء او طين وهي محفوظة بلفظها ومعناها في كلمة ملاط
العربية . (ومنها الكلمة الفرنسية Email)

والذي يقرب هذا القول من الصحة هو التفسير الصريح المذكور
في المتن بل الاختصارات الكثيرة التي توجد في الفينيقي شبيهة بهذا
الاختصار

ابرزت موجودات فاهمة فسموها صفاسمى اي ناظرة الى السماوات (١)

واما كون الانسان خلق من تراب على ما فى الكتاب المقدس
فذلك امر قد تعلمه اليونان والرومان من الفينيقيين فدونك الشرح
الايكوري الذي اورده الشاعر نون عن تكون الدنيا بحسب معتقد
الفينيقيين (ديونيس (٥١ : ٤١) :

« ان ييروا (بيروت) هي مقام البشر المعاصرين للفجر اولدتهم احدى
الطبايع البدئية بسنة مجهولة اكن عفيفة واولية من غير ام ومن غير
زرع ومن غير مولد. ولما جمعت المادة التي لا زرع فيها تحت سلسلة
العناصر المربعة الذرات المشتبكة اكملت هيئة تامة واعطت لهذا النسل
الذي كان قد اولده الطين نفساً مما اجتمع من بخار المياه والنار والهواء
ثم اعطتهم الطبيعة شكلاً متمماً »

(١) صفاسمى مشتق من « صفه » بالعبراني ومعناها نظر
وتأمل واستشرف. ومن « شميم » اي السماوات. والمراد بهؤلاء الناظرين
الى السماء عبدة السماء. فالسما هي الاله المعبود عندهم. ولهذا كان
الله تعالى يوصي شعبه بالآلا يرفع بصره الى السماء (تثنية الاشتراع

وكانت هيئتها كهيئة بيضة (١) وعند ذلك سطع موط والشمس والقمر
والنجوم والكواكب العظيمة (٢)

ولما اخذ الهواء في اللمعان تكوّن عن سخونة الجو والارض رياح
وغيوم وسقطت مياه السماوات سقوطاً عظيماً (٣) ولكن حرارة
الشمس بعد ان فصلت اولاً وترعت كل شيء من محله عادت فارجمته
اليه وعرجت كل الاشياء بعضها مع بعض

وعندها لمعت البروق وصدعت الرعود فخافت الكائنات الفاهمة

(١) ان رمز البيضة الذي يشير الى الحياة قد ورد ذكره ايضاً
في قصتي تكوّن العالم الفينيقيتين المحفوظتين في تآليف الدمشقي .
وهذا مما يُثبت لنا ان البيضة الكثيرة الشهرة في غير ذلك من
الاخبار الوثنية كانت معتبرة عند الفينقيين قديماً جداً بانها
مبدأ العالم

(٢) هذا يوافق الكتاب المقدس في قوله : فصنع الله النيرين
العظيمين . . . والكواكب

(٣) هذا يشبه كلام الكتاب المقدس في قوله « وانفتحت
ميازيب السماء » عند كلامه عن خبر الطوفان

من هذا الضجيج فاستيقظت واخذت تتحرك برأ وبجراً ذكورها
واناثها (١)

وهذه الامور مكتوبة في قصة نكون الدنيا لتوت مع التذكارات
والتخمينات والشهادات عما علمه او عما استنبط عقله. وقد اشركنا
في معرفتها (٢)

ولكن هذه الكائنات الفاهمة كانت اول من قدس غلات

(١) وهذا شبيه بنعاس ادم وبقوله : ذكرًا وانثى خلقهم
(تكوين ١ : ٢٧)

(٢) ان المشابهة القوية التي بين قصة تـكـوـن الدنيا على
حسب معتقد اهل فينيقية وبين سفر التكوين في امور كثيرة تدني
من الصواب رأى بعض العلماء القائلين بان سنكن يتن اراد بتوه (توت)
موسى النبي عندما كان يكتب اسفاره الخمسة . اذ ان توت (توه)
معناه الكاتب

وان كان ابراهيم واسرائيل قد عبدا كاهنين في سورية وفينيقية
فلا يبعد ان يكون الناس هناك قد حفظوا بعض الذكر لموسى
الكاتب الاول . وسنكن يتن قد جعل توت كاتب سر لكون او
للازلي . وتوت هو من الهة المصريين ايضا

الارض فسمتها آلهة وعبدتها معتبرة انها مع آباؤها وذريتها مولودة منها وقدّمت لها التّقدم واهرقت لها السّكائب . وهذه الافكار التي كانت لهم في الالهية وعبادتها انما كانت ناتجة عن ضعفهم وصغر نفوسهم .
ومن الريح (الروح) حلفيا (١) ومن الامرأة باو (٢) التي معناها

(١) هذا يذكر تذكيراً صريحاً بكلمة الروح الواردة في التكوين (١ : ٢) . واما لفظة حلفيا التي شرحوها شروحاً غريبة جداً فهي مشتقة من « حلف » بالعبراني ومعناها اني واخضر ثانية واما اللفظ العربي « خلف » فهو اكثر قبولاً لانه بمعنى اعطى الحياة واولد

وعليه فان الروح حلفيا ليس هو بمقتضى هذا الاشتقاق في كلام سنكن يتن الا بمعنى روح الحياة والخلق الذي يبرز الحياة في الفضاء وهذه مشابهة شديدة مع الروح الذي كان يرف على وجه المياه لينها (تكوين ١ : ٢)

وتريد هذه المشابهة قوّة اذا علمت ان « يا » في التراكيب الفينيقية والعبرانية هي نفس اسم « يهوه » (الله) فمعنى حلفيا اذا روح الله الحي

(٢) ان باو المترجمة في المّتن بالليل هي عند كثير من المترجمين بمثالة « يهو » الواردة في سفر التكوين بمعنى الخلاء (وكانت الارض

الليل وُلد اثنان وهما آيون (١) وبروتوغون (٢) من اثمار الاشجار (٣)
ومن هولاء وُلد جن (الجنس) وجنية (التوالد) فسكنا في

خالية خاوية) اما المترجم فترجمها بالليل وذلك لان الليل في قصة
تكون الدنيا عند اليونان له عندهم نفس منزلة الخلاء . ولما شوه
الفينيقيون التقليدات الادلية التي لم تزل باقية آثارها الى الان في هذا
الخبر اخذوا يخبرون ان تكون العالم كان بواسطة اقتران اله والهة اي
روح الله ولية الخلاء . ومنهما وُلد البشر المائتون

(١) معنى ايون كما في اليوناني واللاتيني الدهر والحياة والمدة
والوقت ويظهر ان هذا اللفظ ترجمة عوَلَم بالعبراني وهو موجود في قصة
تكون الدنيا للدمشقي ومعناه الازلي . والفيلسوف المشار اليه يشبه
ايون بفان الارفي ويتكلم ايضاً عن الاله ييلواتن الذي هو نفس
الاله بعل يَتَن اي البعل الدائم . غير ان ايون يقرب بمعناه وصيغته من
حواء التي معناها الحياة او هو اسم حواء بعينه التي هي ام الجنس البشري
وام الاحياء

(٢) بروتوغون اي البكر او الانسان الاول هو ادم . ولا
يُعرف الان عن اي كلمة فينيقية ترجمت هذه اللفظة ويحتمل ان يكون
اسم ادم عينه لان الفينيقيين كانوا يستعملون هذه اللفظة دلالة على

فينيقية (١) ولما صارت حرارة الشمس حادةً رفعاً ايديهما الى السماء (٢) واذا ظناً انها هي ملك السماء المفرد سميها بعل شميم ومعناها

الانسان . ومن ثم فلا يبعد ان الابوين الاولين كانا يسميان ادم وحواء في الفينيقي ايضاً

(٣) ان هذه الاكذوبة المختلفة التي ذكرها سنكن يتن هي امر صبياني في نفسه . ولكن لها شبيهاً قوياً بجبر سفر التكوين عن شجرة المعرفة والثمرة المشوومة التي قطقتها منها حواء التي ينبغي ان يكون اسمها في الفينيقي مقارباً لاسم ايون

(١) ان المؤلفين الاقدمين كانوا يرون في هذين الاسمين اشارة الى قايين وقرينته . والحدثون منهم لم يتعرضوا لتخطئة هذا الرأي كما قال المسيورثان (في نبذة له عن فينيقية ١٨٥٨) ولم يزل في هذه العبارات كثير من الاسماء محفوظة في حالتها الاولى مع نهاية يونانية فقط . وليس من شيء يمنع التقدير بان هذا الاسم ايضاً جرى هذا الجرى وانه كتب في النص اليوناني « كيان » وفي النص الاصلي « قايين » . وذلك مما يثبت التقليدات التي جمعناها قبلاً والتي تنبئ بان لبنان كان مقاماً لقايين وللآباء الاولين

(٢) ان رفع الايدي نحو الشمس يدل بالكفاية على ان

عند الفينيقيين « رب السماء » وهي عند اليونان « زوس » (١) واما
سائر قصة الآلهة هذه فهو حكاية محضة

وعبارات سكن يتن هذه وكثير غيرها مما مر ذكره تشبه كما
لاحظنا مراراً عديدة شبيهاً قوياً لآيات كثيرة من سفر التكوين . بحيث
يصح القول ان مؤلفها بينما كان يجمع اخبار الحاق وفقاً لما كتبه موسى
صرف اقصى اشتغاله الى ان يخصصها بنفسه حاذفاً منها اسم يهوه
والوهم اي الله تعالى

وهو لا يرى شيئاً يرتفع فوق الحواس ولا يعلم البتة ما ينقله من

الفينيقيين كانوا يعدّون عبادة الشمس اولية عندهم . وعندنا البرهان
الصريح على انهم كانوا يوفقون الشمس مع كرون . يشهد بذلك الكتابة
التي وجدت على اسطوانة في بيروت (المجلة الاركيولوجية ١٨٧٢)

(١) سكن يتن فقرة ١ : ٢ و ٣ و ٤ و ٥ . وقد وجد في ام العواميد
(رنان في ارساليته الى فينيقية ٤ : ٥) اسم بعل شميم (رب السماوات) .
واسم الله (ديو) في اكثر اللغات الاربية مأخوذ من السنسكريت
(لغة الهند القديمة) اي ديث ومعناه السماء فديو وداوس معناه
ساكن السماوات او صاحب السماء وذلك مثل بعل شميم عند
الفينيقيين

التصورات الروحية التي في سفر التكوين . فمبادئه هي المادة والخلاء
والنفخة المدبرة . ولا تجده له تصريحاً بروح الله الوارد ذكره في التكوين
وفيا يلي من اختلافاته ترى كل شيء ينحط الى معادلة الانسان او
الكائنات المادية

وبعل شميم نفسه ليس عنده الا الشمس الصائرة حياة ونوراً
للعالم . وان كان غيره من المؤلفين الفينيقين او هو نفسه في محل آخر
من اجزاء قصة الالهة هذه يعتقد ان الزمن المسلوب المبدأ وغير
المحدود (١) وكون الوارد في خبر تكون العالم الارفي انه مبدأ جميع
الاشياء فمع ذلك يستدل ان هذه المعرفة غير التامة والكثيرة الابهام
كانت عنده متبيلة وغير اكيده . واما هنا فانها لا تتبين ولا يظهر
اعتقاد الروح الا ظهوراً بعيداً بواسطة نفخة الريح التي هي رمز اليه

(١) ان الدمشقي الذي اورد ايضاً اخبار الفينيقين عن
تكوين العالم يسمى كرون عادماً الشيوخة والحد والبدء ومكروب (١ :
٢٠) يصف هر كل كرون بانه عادماً البداية . غير ان هذه الاخبار
الوثنية ألفت بعد انتشار النصرانية . واما اسم هذا الاله في
الفينيقي فهو خلد وهو اسم لم يكن مجهولاً عند اليونان لاننا نجد عندهم
ألد وألديم بجذف الحرف الحلقي غير الموجود في لغتهم

ان المادة التي لا بداية لها والعلل الطبيعية الخضة وشبه التعطيل
اي اسم الله من غير ان يكون الاله متميزاً عن المادة هذا كل ما
يتبين من معتقد الديانات الفينيقية في عصر حديث بالاضافة الى
ما مضى

ولكننا نعلم مع هذا من تعاليم طال وهو فيلسوف فينيقي الاصل
ان الاعتقاد باله واحد روحي لم يكن قد انطفأ نوره في فينيقية لانه
كان يعلم ان الخلاء قد دبر بواسطة وجود فاهم

فاخذ عنه فلاسفة اليونان وشرعوا يعلمون هذه الحقيقة من بعده
بموجب التقليدات الفينيقية. هذا واننا لا نذهل عن القول بان مذهب
الجواهر الفردة الذي يستعان به على شرح تكون الدنيا ينسب في
الاصل الى مسخ او مخ الفيلسوف الصيدوني ثم اخذه عنه ذيمقراط
اما فيثاغور المعروف عند الاقدمين بانه هو الذي جمع تعاليم
الفينيقيين عن مواردها فهو في الراجح احسن من حفظ لنا هذه التعاليم
الدينية التي كانت متبعة في فينيقية وسورية فيما يتعلق باصل الالهة
والدنيا. قال :

ان الايتر السامي والمائع والخلاصي هو دائماً في حركة وكل ما هو
في وسطه خالد وبالنتيجة الهى. فالشمس والقمر وسائر الكواكب هي
اذاً الهة لان الحرارة منبع الحياة هي دائمة فيها . فالقمر يستمد نوره

من الشمس وهكذا بين البشر والآلهة رباط اتحاد بسبب الحرارة التي يشترك فيها الانسان معهم . ولهذا السبب يعتني الله بنا . ولكن القدر هو مسبب العناية بأسرها في التدبير العام والخاص (١) . وهو تعليم كما رأيت مشحون بالاغلاط وبذهب المادة يلخص كل ما مر عليك الى الان خالطاً به المبدأ الروحي الذي كان مقدساً أولاً عند الفينيقيين وما رأينا من المشابهات العديدة بين خبر تكون الدنيا عند الفينيقيين وبين سفر التكوين يأذن لنا ان نستخرج نتيجة مزدوجة . أولاً ان هذه الاخبار الفينيقية كما سردناها عليك لم تتكن من ان تلبس هيئة خصوصية الا من بعد وصول العبرانيين الى فلسطين . ثانياً ان هذه المشابهات هي حجة قوية على العلماء الزاعمين بان الديانة الفينيقية هي كلها اشورية او مصرية . لان التقاليدات الفينيقية الاصلية الوطنية الموسومة بسمة ظاهرة من التقاليدات اليهودية لا تسوغ القول بانهم استقوا بغزارة مياه تعاليمهم من موارد بعيدة

قال القديس اثناس : ان الفينيقيين لا يعرفون آلهة مصر وكذلك المصريون لا يعبدون الاصنام التي يعبدها الفينيقيون (٢)

(١) اسكندر بوليستور فقرة ١٤٠

(٢) القديس اثناس في خطابه ضد الامم

ومن المؤكد ان الفينيقيين والاراميين لم يقبلوا مطلقاً عبادة آلهة اشور والفرس مثل هرمزد ومتره الموءكد بان اصلهما اشوري

ومع هذا فلا ندعي بما تقدم انكار النفوذ الذي فازت به التصورات الدينية عند الفينيقيين في اتصالاتهم التجارية التي كانت مستمرة لهم مع جيرانهم خصوصاً في مدة استيلاء الاشوريين والمصريين على اوطانهم وقد كانت الاقتراضات عند الفينيقيين امراً معتاداً. كما ان الاقتداء باهل مصر ايضاً في امر آلهتهم كان احياناً في فينيقية سنة متبعة

ولكنه لا يستدل من ذلك ان مصر او اشور اعطتا فينيقية ديانتها او ان نفوذ هاتين الامتين ساد سيادة معتبرة في المدن الفينيقية. ونرى انه يمكن القول من غير خشية مع ما يوجد من ظلمات الابهام المعشية لهذا النفوذ الديني من شعب الى شعب. ان الفينيقيين كان لهم تقاليد دينية وطنية حقيقية هي اساس لديانتهم وانهم في علاقاتهم مع الشعوب الاجنبية قد علموهم من حكاياتهم وطقوسهم اكثر مما اخذوا عنهم

واثار العبادات الاشورية والمصرية التي وجدت في فينيقية في كل عصر لم تكن الا اقتراضات جزئية يمكن ان تُنسب على الاكثر الى الاجاب المقيمين بالبلاد او الى اصحاب السيادة منهم فيها. ولكن الهوس الوثني الذي كان يدفع العبرانيين الى الالهة الكنعانية يثبت السطوة.

والبهجة التي كانت لديانة الفينيقيين اذ ذاك في الشرق
 اما لبنان فكان يؤثر على الخصوص في الخيلات الوثنية تأثير
 بهجة عظيمة لما فيه من الاماكن العالية والاسرار والهياكل والمواقع
 الرائقة والاشجار الخضرة والقمم الشاهقة والوهاد العميقة (١)
 وعلى ذلك فانهم بدلًا من ان ينقادوا انقياد العبيد الى الاقتداء
 بسائر الطوائف جاراتهم جعلوا عندهم مركز نشر العبادات الوثنية .
 ولما كانوا يذهبون بتجاراتهم الى شعوب اسية واوربة وافريقية تركوا
 في كل محل طابع دينهم وترعتهم . والحوادث التاريخية متفقة ان اعظم
 نفوذ ديني كان للشرق على العالم القديم هو مخصوص بالفينيقيين اكثر
 من غيرهم من شعوب المشرق وذلك انما كان من ارداء تجاراتهم

(١) ان المسيودي فوگوي قد شرح بعض ذلك في المجلة
 الاركيولوجية (حزيران سنة ١٨٦٧) . ولا يار في مقالة عن الصليب
 ذي العروة

في التثنية والتثليث

كان للتثنية والتثليث أهمية كبيرة في الحكايات الوثنية الفينيقية وفي ديانة السوريين والاشوريين والمصريين . وقد وجدت هذه التصورات العددية ممثلة على الآثار القديمة الفينيقية والسورية المكتشفة حديثاً (١) حتى صار لا يمكن الارتياح في أهميتها وعليه وجب ان ندخل هذه المسئلة الجديدة في جملة اخبار الآلهة الفينيقية والسورية . وكان هذا المذهب عند الشرقيين الاقدمين من كتبة الحكايات الفينيقية امراً يقينياً . فهذا فرقود الذي كان (على ما قاله سويدا) قد استعار قصة الالهة التي اخبر بها عن التقليدات الفينيقية زعم بوجود ثلاثة آلهة خلقوا الدنيا

وكانت لهم في القديم عقيدة شائعة ان العدد الوتر ولاسيا المؤلف من ثلاثة هو الهى (٢) ولم يكن التثليث عند الفينيقين تصوراً دينياً مجرداً ولكنهم كانوا يمثلونه على اثارهم بالفعل قال المسيو دكس : تمكنت من ان الاحب في بعض الابنية التي

(١) اميان مركلين ٢ : ١٤ Virg. Eclog VIII, 75 (٢)

هي اكثر قدامة عند الفينيقيين أن عدد الثلاثة الآخذ اصاه بلا شك
عن تصور سرّي هو محفوظ في كامل امورهم . لانهم يبنون مثلًا ثلاث
صاعات او ساعة كبيرة منقسمة الى ثلاث دوائر منصفة وفي زخارفهم
يصنعون ثلاثة نقوش او نقشًا مثلًا ويصورون على عمد النذور ثلاث
اصابع او ثلاثة آحاد مجتمعة من اسفل او يكرّرون هذه الثلاثة
الاحاد ثلاث مرّات . واما الرسوم الرمزيّة فيجعلونها دائمًا على هيئة
تتكوّن عنها ثلاثة طنوف وثلاثة اطراف . ويظهر لي من هذا ان
عدد الثلاثة الذي كان في الراجع رمزيًا هو من مميزاتهم التي اختصوا
بها (١)

والقائلون بتعدّد الالهة في المشرق تصوروا اولًا الاله الوحيد
والخالق كأنه زوج اي ذكر وانثى ثم اوجدوا منه آلهة مقابلة له
سموها وجهه واسمه ومظهره . ومن هنا تأتت الثانويّة . ثم وُلد من
هذا الزوج اله اخر متممًا للتثليث (٢)

الا ان التثليث على هذه الصورة التي كانت تروق المصريين لم

(١) دكس في ابجائه عن الانبار الفينيقية ص ٤٣

(٢) دي فوگري في متفرقاته ص ٥٤ . وفرنسيس ارمسان في

الحروف الاشوريّة ٥

يكن معتقداً في لبنان الا قليلاً ولكنه كان معتقداً في الاكثر على صورة اخرى . والفينيقيون والاشوريون يجعلون الاشخاص الثلاثة في مقدمة المملكة الالهية ويندر ان يكون الثالث ولداً للاولين

ان التثليث الجبلي (الذي كان لاهل مدينة جبل او جبيل) له الالهية الكبرى في ديانة لبنان . اما الآلهة المعروفة اكثر ما يكون في هذه المملكة القديمة فهي ايل وتموز وعولم ثلاثة اسماء تكون عنها التثليث الاول عند الجبليين

ولكن هذا التثليث كثر وانتشر باضافة اسماء متولدة عن اسامي الآلهة الاولى . فقد ذكروا مع ايل عليون ومع تموز ادوني ومع عولم كرون . وعندهم ايضاً تثليث ثالث مؤلف من اوران (السماء) وملك وتوت (حرمش او هرمس وهو عطار) (١)

وينبغي ان تعلم ان الاسماء المؤلفة منها هذه التثليثات لم تجمع على طريق الاتفاق ولكن الآثار الفينيقية المأخوذة عنها تدلنا ايضاً على اسباب تقاربها

(١) سنن ياقن فقرة ٢ : ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ — وقد تكلم بلوترك عند ذكر مدينة جبل عن الاله ملكندروس وما هو في التحقيق الانقل لاسم ملك عند اليونان

اولاً ان ايل ولو انه وُضع في نسبة سنكن يتن مثل ابن لاوران وابن ابن لعليون او هبسيست الا انه مع ذلك ليس متميزاً عنه لان الطريقة النسبية المألوفة عند الساميين تضع في سياق واحد اسماء الهية يضمها المعنى من غير تفريق. وعليه فان اسماء ايل وتوت (القدير) وعليون (العلي) واوران (اله السماء) ما هي الا نعوت لاله واحد ويؤيد ذلك ان الفينيقيين لم يكونوا يميزونها تمييزاً حقيقياً لانهم كانوا يعتبرونها جميعها مثل الشمس

وكان تموز وادوني عند الاقدمين ايضاً الهماً واحداً. فهذه نسخة الكتاب المقدس اللاتينية العامة ترجمت تموز بادوني (١)

والقديس هيرونيم مع جمهور المترجمين اثبت هذه الترجمة بالحوادث التي جرت على رأى منه ومسمع. قال : ان ذاك الذي نسميه ادوني يُسمى في العبراني والسرياني تموز (٢) وذلك لان الحكاية الوثنية تخبر

(١) حزقيال ٨ : ١٤

(٢) الظاهر ان تموز مختزل من تمزوز وهو مشتق من مَزَز وهو اصل ممات في العبراني بدلاً من مسس ومعناه ذوب وحلل. وعلى هذا يكون معنى تموز المنتصر كمرس او المختني مثل ادوني. والشهر الذي يوافق يونيو عند السريان شهر حزيران الذي يشتق كما يُقال من الحندير

ان هذا الشاب الحسن المنظر الذي كان عاشقاً لقنوس (الزهرة) قُتل
 في شهر يونيو ثم عاد الى الحياة . وهاتان اللغتان تطلقان هذا الاسم على
 الشهر المذكور الذي فيه تحتفل النساء بعيدة السنوي باقيات عليه اولاً
 كما يُبكي الميت ومترغات بعد ذلك بعودته الى الحياة (١)
 واسف في موضع آخر « على ان بيت لحم قد ظَلَّت بسنديانة
 لتموزاي ادوني وانه في المغارة التي بكى فيها الطفل يسوع قديماً
 صنعوا مناحة لعاشق الزهرة » (٢) . وهكذا القديس كيريل
 الاسكندري (٣) وتاودوريت (٤) مع التاريخ الفصحى يبينون ايضاً
 وحدة هذين الاسمين (٥)

الوحشي الذي قتل ادوني او عليون . وتموز يوافق ايضاً شهر يوليو وكان
 هذا الشهر قديماً يبتدئ في يونيو بحسب اصطلاح السريان كما نبّه الى
 ذلك القديس هيرونيم

- (١) القديس هيرونيم في شرحه لسفر حزقيال ك ٣ : ١٤ و ٨
- (٢) القديس هيرونيم في رسالته الى بولين . وكتاب الفرض
- الكهنوتي الروماني ثبت قوله في خبر وجود الصليب المقدس
- (٣) القديس كيريل في شرحه على سفر هوشع ١٨
- (٤) تاودوريت في شرحه على حزقيال ٨
- (٥) ان القديس ميليتون (النخب السريانية لكريتون) في

غير ان ليد (١) لا يُفَرَّق بين تموز وعُرس . ولكن ادوني الفينيقي
كان ايضاً صياداً فيمكن تشبيهه على ذلك بمرس واما مَلِك فلا يفترق
في معناه عن ادوني (ربي)

اخيراً ان عولم وكون سام (٢) وتوت يؤلفون تشليثاً متفق
الجنس . فكرون اي الزمن غير المحدود له اجنحة يطير بها مثل الزمن
فيمحيط بالمسافة والمدة . وعولم (٣) او خلد (٤) لم يكن يدل عند
الساميين دلالة مختلفة فهو عندهم ايضاً بمعنى المدة والازلي والدائم

النص السرياني لمحاته لا يفرق ايضاً بين تموز وادوني الجبلي

(١) ليد في الشهور ٤ : ٤٤

(٢) ان كليكا يسمي كرون ابن سام في تاريخ سنة ٥٣٦

(٣) الكلمة اليونانية اولم وفي العبراني عولم معناها ايضاً الزمن

الخفي والطويل وخصوصاً الازلية . وقد وُجد هذا اللفظ في الآثار

الفينيقية (جسين في الآثار الفينيقية ص ٣٥٤ و ٣٩٤)

(٤) ان اسم خلد قد ترك آثاراً في فينيقية لانه كان في

الجنوب هيكل قديم وكان يُسمى على ايام الرومانين Mutatio Helda

(اي محطة خلد) ويُسمى الان خلد . وبمعنى الحياة الدائمة يوافق

كرون او عولم في الاخبار الوثنية الفينيقية

واما توت فهو في قصة تكون الدنيا لسكن يتن الرفيق الملازم
لكرون ومستشاره الحكيم ومختارعه اللبيب ورسوله الذي يستعير من
الزمن اجنته ولكنه على الخصوص محدد الازمنة والمورخ فيما يكتب
هذا وان تقارب او اتحاد هذه الجماعات الثلاث الجبلية امر لا
يمكن ان يتوجه اليه ريب . وان كانت هذه الاسماء الالهية توضح
لعبدتها بعض دقائق فلم تكن تلك الدقائق الا طيففة اولا ويرجع
انها لم تستنبط الا بقصد ايجاد التثليث

ولم تكن هذه العلاقات الوثيقة بين كل جماعة ثلاثية فقط وانما
كانت بين الجماعات الثلاثية الثلاث الجبلية بحيث صح ان تُخلط في
وحدة اساسية

قال سكن يتن : ان ايل هو عين كرون (١) وفي غير موضع
لا يفرق بينه وبين عليون الذي هو نفس ادوني لان « عليون او العلي
الذي هلك في محاربة الوحوش الضارية » (٢) هو بداءة غير متممة
لحكاية ادوني الذي قتله في الصيد خنزير بري . اذ ان المكان
والقتال وظروف الوفاة التي هي متوافقة في خبري ادوني وعليون تدل

(١) سكن يتن فقرة ٢ : ١٨ و فقرة ٤ و ٥

(٢) سكن يتن ٢ : ١٣

دلالة كافية على توافق هذين الشخصين . هذا عدا عن ان التقاليد
ببلاد اسية لا تفرق بينهما مطلقاً

وقد عرفنا فيما مرّ ان عليون هو ايل بعينه . ومن ذلك يصح لنا
ان نتلج ان ايل وقوز وعولم هي كلها اسماء مختلفة لسمى واحد في
التثنيات القديمة . وهكذا قل عن التثنيين الباقين . نعم ان العنصر
الانثوي سيدخل فيما بعد في هذه التثنيات لاجل تكثيرها لا لنقض
هذه الوحدة الاساسية

وبيان ذلك ان آلهة جبل كانت في وقت واحد مفردة ومتعددة
وعلى الخصوص ثلثة . واذا كنا نبحث بقصد ايجاد اربطة الوحدة بين
آلهة الشرق فمع ذلك لا ننكر مطلقاً مذهب الاعتقاد بتعدد الآلهة
لان الشعوب السامية ما خلا الشعب العبراني لم تحفظ الا تصوراً
مبهماً عن الالهة التي كانوا ينسبونها الي كثير من الاشخاص .
وعليه فان القول بان الشرق كان موحدًا هو مخالفة لكل الحوادث
لواضحة

واذا تتبعنا بقية المراكز الدينية اللبنانية علمت بوجود تقارب
عظيم بين آلهة جبل وسائر فينيقية . على ان هذا التقارب اذا قيل انه
لم يكن بينهم منذ الاول فقد كان ولا شك في الازمنة الاخيرة . قال
القديس تاوفيل الشاهد العياني ولاسيا فيما يتعلق بمجتمعات المشرق : ان

الذين يعبدون كرون يسمونه ايضاً بعل ولكن الرومانيين يسمونه ساترن
(زحل) (١)

غير ان بعل هذا الشديد القرب من كرون او عليون يظهر كأنه
الاله الاخص لصوره . فهو يؤلف التثليث المشهور في هذه المدينة مع
ملقرت وهركل الصوري . وهؤلاء الآلهة الثلاثة في صور هم اله واحد
في التحقيق بثلاثة اسماء مختلفة فبعل معناه سيّد عبّدتِه ومعنى ملقرت
بحسب اصل اشتقاقه ملك المدينة (٢) ولكنه بموجب كلامهم عن
ولاية الآلهة لم يكن ملك المدينة الا اله بعل
وكانوا يسمونه اكتفاءً بشهرته مَلِك ومَلِك . وقد وجدت ككتّابة
في جزيرة مالطة تثبت ذلك صريحاً وهي « الى السيد ملقرت بعل
صور » (٣)

والكتاب المقدس مع عبادة اهل قرت حدثت (قرطجنة) يوثيدان

(١) القديس تافيل في رسالته الى اوطوايك ك ٣٠٣ مات هذا

القديس الذي كان اسقفاً على انطاكية سنة ١٩٠

(٢) يشتق ملقرت من « ملك » بمعنى ملك ومن قرت اي مدينة

محصنة . ومن هنا تعلم بان هذا الاسم ليس الا تخصيص لقب الملك

بمدينة صور (٣) جسين في الاثار الفينيقية بمالطة

حقيقة هذه التسمية لبعل . وعليه فان هر كل هو الاله البائع والدوَّار والجوَّاب او الفاتح (١) ومع ذلك فانه لا يفترق في هذا عن ملقرت الذي كان ملكاً الهياً لا على مدينة صور بمفردها بل على تجارتها وجميع مستعمراتها ايضاً . وهذا امر لا يدخل تحت حكم الشك ولا سيما اذا عرفت ان اليونان ينسبون لهر كل ذينك الهيكالين العظيمين اللذين كان الصوريون قد افردوهما لبعل ملقرت (٢)

فينتج من ثم ان الالهة الثلاثة عند الصوريين ليسوا في الحقيقة الا الهاً واحداً بثلاثة اسماء

اما ثلوث مدينة صيدون فهو اقل شهرة ولكنهُ اعظم فائدة اذ الظاهر من امره انه انعكاس تاريخي . فان سنكن يتن يذكر اولاً

(١) اتينا فيما مرّ بتفسير اسم هر كل وهو مشتق من الها . وهي ال التعريفية وركل اي دار وجال . ولعلّ بعل وُصف بالدوَّار والجوَّال لا لسبب تجارة صور لا غير ولكن ايضاً لسبب العادة التي كانت عند الصوريين وهي انهم يحملون اصنامهم في جميع بعوثهم التجارية وتأسيساتهم الاستعمارية وذن بعض المؤلفين ان هر كل ليس معناه اله التجارة بل الاله المقاتل والمخارب او اله الفتوحات الصورية

(٢) هيرودوت ٢ : ٤ وغيره

خنا (او كنع) وهو بلا مرء كنعان التاريخي بعينه. ولكنه زاد على ذلك

انه اول من سمي فينيق (١)

وفينيقي الذي معناه النخل في اليونانية يُطلق على اله اخر لاسمه

نفس هذا المعنى في الفينيقي وهو دامور او تامور (النخل) الذي هو

ابن اوران (السماء) مثل كرون (٢)

فالثلاثة اذا يؤلفون اول ثالث عند الصيدونيين غير ان صيغة

اليونانية تحمل على الشك فيما اذا كان هذا الثالث مقبولا من

الاقدمين

وقد تكلم سنكن يتن عن الهين اخرين لا شك انهما صيدونيان

متلبسان بهيأة يونانية وهما اجروس وهليوس (الصياد والجزاف) ابنا

هيسوران اللذان اعطيا اسميهما لطائفة الصيادين (٣) اي الصيدونيين

(١) سنكن يتن فقرة ٢: ٢٧ (٢) سنكن يتن فقرة ٢: ٢٢

(٣) سنكن يتن فقرة ٢: ٩ — اجروس وهليوس هما تفسير عند

ارباب الحكايات لكلمة صيد بالعبرانية ومعناها صيد الوحش والسمك

معاً. وهيسوران ابوهما هو بعل شميم بعينه سيّد السموات. وقد وُجد في

الكتابات الفينيقية اسم الاله «صيد» مقابلًا في النصّ الفينيقي للادل

منهما وصيدون للآخر (دي فوگوي في متفرقاته ص ٣٨)

وهكذا يختلطان مع صيدون الذي مر ذكره آنفاً (١) لان اسميهما
ترجمة حرفية لاسم مؤسس صيدون

(١) سنكن ين فقرة ٢: ٢١ - ويُمدح صيدون بحسن صوته
واستنباطه لصناعة الغناء . ولعل السبب في ذلك ما كان يتغنى به
صيادو السمك من الاغاني . ولكننا نظن ان صيدون يُعدّ مثل اجنور
الذي يشتق اسمه في الراجح من الهاء التي هي ال التعريف ومن كذور
اي القيثارة وهي الالة الفضلى من آلات الطرب عند الفينيقيين

فهرس

الجزء الثالث

الفصل الخامس

صفحة

٣٩٧

في الاصول الكنعانية بلبنان

٤٢٢

١ مملكة صيدون

٤٣٢

٢ = صور

٤٣٨

٣ = اكزيب وعكاء

٤٤٠

٤ = اكشاف

٤٤١

٥ القينيون والقنزيون والفرزيون والقدمونيون

٤٤٨

٦ العموريون والحثيون والحويون

٤٥٣

٧ مملكة حاصور

٤٥٧

٨ = قادش

٤٥٩

٩ = افيق

٤٦٢

١٠ مملكتا ام الجلجال وعيئون

٤٦٤

١١ صيدون

صحة

٤٦٧

٤٦٨

٤٨٣

٤٨٤

٤٨٥

٤٨٧

١٢ صرفت

١٣ صور

١٤ اكزيب

١٥ عكو او عكاء

١٦ اكشاف وقادش وعيون

١٧ آيل

الفصل السادس

في البحث عن التاريخ الاولي في لبنان

٥٠٠

٥١٦

٥٤٧

١ الكرونولوجية المصرية

٢ كرونولوجية لبنان

الفصل السابع

في اديان لبنان القديمة

٥٦٠

٥٦٢

١ في صفة هذه الاديان

٦٧٤

٢ في الكلام عن الالهة الفينيقية

الفصل الثامن

في الغزوات الاولى بلبنان

١

احوال الكنعانيين والاراميين في لبنان القديم

ان جميع الانبياء القديمة متوافقة على ان الكنعانيين والاراميين كانوا اول من سكن لبنان بل اول من استوطن جميع الجهة التي سميت عند قدومهم ارض كنعان و ارام . وان قلت كيف كانت حالة اولئك الشعوب الاولين وهم في باحة غير الدهر والمهاجرات والغارات التي صارت باسية الاولى الى الخراب والدمار عدة مرات ؟ وهل كانت لهم يد قوية بتلك الحوادث العظيمة ؟ او هل اصابهم ما يصيب الانساب المتعادية عند اختلاطها ؟

قلنا هذه هي مسائل ذات بال لا يتأتى لتاريخ تلك القرون العريقة في القدم ان يرد عليها جوابا شافيا . ولكنها لما كانت تمزق ظلمة الاشكال عن حال البشر في اوائل انتشارهم وتعلمنا كيف كان ابتداء الحضارة عندهم تحرينا ان نجمع كل ما لدينا في هذا الشأن من هذه الانبياء . نعم انها لا تنفي بالمطلوب من جميع الوجوه ولكنها تكفي لانارة البصائر فيما يتعلق بذلك الزمان

كانت آسية قديماً مشهداً للمهاجرات والحروب وازدهام الامم التي وقفت حركاتها بمقتضى التقاليد والآثار في آسية الداخلية غير متخطية الى لبنان . اما الشعوب الكنعانية ولا سيما الفينيقيين الذين كانوا يقيمون بالشغور البحرية فقد استغنموا تلك الراحة التي اتاحتها لهم الايام وباشروا الحروب في الاماكن القاصية لاجل ان ينشروا اصول التمدن الذي كان قد نبت فيهم وكبر حتى صار دوحه باسقة الاغصان وبسبب جهدهم واقدامهم واستنباطهم ساروا في هذا السبيل سيرة سريعة للغاية حتى اصبحوا في الراجح اوّل سابق في مضمار الحضارة الاولى من حيث الصنائع والفنون التجارية

غير ان الممالك التي كانت قد نشأت في كل جهة من جهات اسية بعد ان اشتدت وعظمت قوتها لم تكن لتترك في سلام تلك الممالك التي أسسها اولاد حام وأرام . لان الطمع والحرص يدفعان اهل القوة والحرب الى ان ينشروا لواء سلطانهم ويقتلوا من سلطان مجاورهم خوفاً من ان يهاجموهم اذا امكنتهم الفرصة فيأخذوا ارضهم غنيمة باردة . قال ايوب : ان الارض دُفعت للمنافق (٢٤ : ٩) .

وهكذا كانت اسباب الغارات والغزوات في اول الامر

ان المملكة التي اسسها غرود هي اوّل مملكة ظهرت في التاريخ انها ذات فتوحات وغارات . وكانت في القديم توصل غزواتها الى حد

ارض ارام وكنعان. الا ان المملكة المذكورة كانت تنزل بمغزويها من
الاذى والضر ما كان قد اصابها اولاً لان الظاهر من التحمينات المبينة
على الاثار القديمة ان الشعوب الآرية (١) التي من نسل يافث شنت
عليهم الغارة فدوخت الكوشيين ثم الشعوب التورانية التي كانت
تحت قيادة كدرناكتا ملك عيلام وذلك نحو سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح
وكانت احدى السلائل العيلامية مستولية قبل ذلك على قنم
كبير من تلك الجهة وكانت لها سطوة غالبية على الملوك الصغار
المتشطرة لبلاد الكلدان واشور وما بين النهرين وبابل (٢) على ان
تقسم آسية كلها في ذلك العهد الى كثير من الممالك الصغيرة المستقلة
كان يسهل لمحارب جسور ذي اقدام ان يفتح تلك الجهات الواسعة
فيدوخ ملوكها ويضرب عليهم الجزية او يضمهم الى جملة رعاياه

زحفة كدر لاعومر الاولى على لبنان
وكان كدر لاعومر اول محارب هاجم تلك الممالك الراضعة بالامن

(١) هم الفرس الاقدمون . وظن برنوف ان الساميين الغربيين
كانوا يقولون « ارياما » او اريام عيلام . اما العرب فقالوا عراق

(٢) انرمان في تاريخه ١ : ٤ و ٣

والسلام والمنتشرة في لبنان وضواحيه. وفي رأي علماء الآثار الاشورية ان هذا الاسم مشتق من لغة التورانيين بتستر (شوشن) وعرب من الاجزاء التي توجد في الاعلام المأخوذة من الكتابات البلدية في الناحية المذكورة مثل كدر مابوغ الذي يلقب ايضاً بالظافر على المغرب (١)

ان كدر لاعومر خليفة مفتتحي بلاد شوشن لما نازعه الشوق الى الافتتاح سار بمقدمة جيشه وعبر الفرات وشن الغارة على اسية المتقدمة وبذلك دلّ اهل الاعصار التابعة على معبر الفرات وانهم طريقاً وطئته جيوش اسية وافريقية مرّات من بعده
ان هذه الطريق لو قطعت قليلاً نحو الجنوب لكانت سارت سيراً مستقيماً في بادية آرام ولكن امكن اهل اسية الذين كانوا اهل بدابة اذ ذاك ان يتبعوها من غير ان يجدوا فيها من المشقة ما لاقتة الجيوش العظيمة لاهل الفتوحات المتأخرين
غير ان المعبر الذي كان معروفاً عند جميع الاقدمين وقرّ به التجار

(١) لنرمان في المحل المذكور — وقيل ان كدر لاعومر هو كدر لاعمري المذكور بعد كدرنا كمتا في الكتابات المسمارية عن السلالة العيلامية (لنرمان في الحروف الاشورية)

والعساكر لتجوز الغرات كان عند مدينة تفسح وهي مدينة مشهورة في
اسية القديمة

وفي الراجح ان كدر لاعور عبر النهر الكبير من ذلك الموضع ثم
حمل على اسية المتقدمة . ومن المعبر المذكور كان يستطيع ان يتقدم في
شالي ارض ارام ويدوخ في طريقه لبنان الشرقي . ومع ذلك فان
الدلائل ترجح لنا ان ثبت بانه دخل في البادية وتوجه تواء الى دمشق
بطريق تدمر

فدوخ هذه المدينة وسار من هناك مطمئناً الى فتح وادي الاردن
فاستولى عليها بايسر سبيل لان جميع الملوك الذين كانوا متقاسمين تلك
الناحية لسبب ما كانوا عليه من الاختلاف لم يستطيعوا ان يتصدوا
لمقاومتهم فغلبهم على امرهم وضرب عليهم جزية سنوية وعاد
مكلاً بالمجد ممتلئة يده من الغنائم وكان ذلك في نحو سنة ١٩٠٠
قبل المسيح (١)

(١) قد تبعنا في هذه التواريخ ما هو مقبول عند جمهور العلماء
وليس من شأننا الان ان نبحث عنها بحثاً خصوصياً . وقد تقدم
لنا في الفصل الخامس من هذا الكتاب قول كافٍ عن هذه المسئلة
الغامضة

زحفتة الثانية

ولبت اولئك الملوك صابرين مدة اثنتي عشرة سنة على مشقة
النير الذي القي على اعناقهم لأول مرة ولم يجسر احد منهم على خلعه .
ولكنهم في السنة الثالثة عشر اتفقوا جميعاً على رفض اداء الجزية
لكدرلاعوس . فابتدع عيلام حينئذ تجهيز جيش عظيم ليعاقبهم وفي
السنة التي بعدها مشى عليهم مع ثلاثة ملوك من حلفائه . وهم ارافل
ملك شنعار او بابل واريوك ملك الآسار او اشور (١) وتدعال
ملك الامم

وفي هذه السنة دخل في لبنان كدخوله اول مرة ولكن ليس
من شيء يدل على انه وجد قوماً عصاة اضطرأ الى اخضاعهم . لانه
لم يشرع في حرب الا في جنوبي حرمون الاكبر عند عشتاروت

(١) ان الاشوريين يسمون المدينة المدعوة اليوم كلخ شرغت
القائمة على دجلة ألو اشور (مدينة الاله اشور) وجميع المشتغلين
بالبحث عن الآثار الاشورية متفقون على انها مشتقة من اسم الآسار
المذكور في التكوين (١٤ : ١١)

قرنيم (١) وهناك مع حلفائيه ضرب الرفائيين والزوزيين في هام
والاييمين في شوى (سهل) قرينائيم (٢)
ثم سار وضرب الحوريين في جبلهم سعيير والاموريين المقيمين
في حصا صون تamar. وعند ذلك تواطأ خمسة من ملوك الكنعانيين
الذين كانت مما لكهم في جهة الاردن الاسفل في الوادي المشغول اليوم
ببحر لوط وتعاهدوا على ان يحاربوا اولئك الغرباء الآتين لاخت بلادهم
وهم بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشنآب ملك ادمه
وشمشير ملك صبوئيم وملك بالع وهي صوعر فصافوهم للحرب في
غور السديم. وفي غور السديم انهزم ملكا سدوم وعمورة فسقطا
هناك والباقون هربوا الى الجبل وغنم الملوك العيلاميون جميع اموال
سدوم وعمورة وجميع ميرتهم ومضوا واخذوا لوطاً ابن اخي ابراهيم
اسيراً (٣)

-
- (١) ولم تزل اخرة هذه المدينة ماثلة عند تلّ عشترة وراء
الاردن في ارض الجولان
(٢) لا يُعلم على التحقيق موضع هذا السهل. وينبغي ان يكون
في جنوبي المدينة السابقة اي في غور الاردن بالقرب من قرينائيم المدعوة
اليوم قرية (٣) تكوين ١٤: ١٣

غلبة ابراهيم لكدر لاعومر

وكان ابراهيم بن عابر ابو المؤمنين مقيمًا يومئذٍ عند بلوطات ممرا لان الرب كان قد امره بان يهجر بلاد الكلدان التي غلبت عليها الوثنية ليفصله بذلك عن الامة الكافرة ويُعدّ في اعقابهِ الحماكية لكواصب السماء كثرة (١) مجيئ المسيح فادي الجنس البشري ولذلك قال له: انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك الى الارض التي اريك. وانا أجعلك امة كبيرة وباركك واعظم اسمك... ويتبارك بك جميع عشائر الارض... ان جميع الارض التي تراها لك أعطيتها (٢) اما ابراهيم فركن الى هذه المواعيد الربانية وشخص الى غور ممرا واقام هناك مطمئنًا مستريحًا الى ان جاء من افلت واخبره بما حلّ بلوط ابن اخيه فلما سمع ابراهيم ان ابن اخيه قد أُسر صمم على استنقاذه وجرد حشمه وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر وجدّ في اترهم الى ان انتهى بعد اربعة ايام الى الربى المشرقة على بحيرة ميروم (الحولة) ورأى العيلاميين معسكرين عند لايش على ضفة الاردن. وان ابراهيم تحوّل

(١) تكوين ١٥: ٥

(٢) تكوين ١٢: ١ و ٨ و ١٣ و ١٤ و ١٧

حالاً جميع التحولات المقتضاة لاجل ان يصدق الحملة عليهم ومن ثمَّ
تفرق عليهم هو وعبيده ليلاً فكسروهم وأتبعهم الى حوبة التي عن
يسار دمشق (١) على مسافة أكثر من ثمانية وسبعين كيلومتراً.
واما يوسف المؤرخ (٢) فزعم انه أتبعهم الى ما وراء الموضع المذكور
وانه قطع البادية حتى اتصل الى صوبة التي يُقال انها تدمر او احدى
المدن القائمة على عُدَوَيِ الفرات. وعلى ذلك فيكون ابراهيم قد دحر
العيلاميين من آسية المتقدمة وابعدهم الى ما وراء النهر الكبير. على ان
نصرة ابراهيم هذه التي انقذت دمشق من ولاية هولاء الملوك المشاركة
يمكن ان تعدّ موجبةً لتقليد الدمشقيين القائلين بان ابراهيم كان ملكاً

(١) ان على يسار دمشق قرية تدعى جوبر وفي بعض التقاليد
القديمة انها هي نفس حوبة التي وقف فيها ابراهيم عند لحاقه بالملوك
العيلاميين. وزعم بعضهم ان حوبة هي اليوم قرية برزة وهي ابعد من
الاولى عن دمشق في جهة الشمال الغربي. وقال احد المرسلين الاقدمين
ما يلي : « ان قرية برزة في فم السهل. وكانوا يسمونها قديماً حوبة .
والى هذا الموضع اتبع ابراهيم الملوك العيلاميين الاربعة الذين اخذوا
لوط اسيراً وغنموا امتعته » Lettres édif.

(٢) يوسف في العاديات ١ : ١٠١

على هذه المدينة (كما رواه نقولا الدمشقي) (١)

وكيفما كان الامر فمن الثابت ان ابراهيم استرجع ابن اخيه من يد هولاء الملوكة الاشوريين وجميع المال ورد النساء وسائر القوم .
فاجاب عاد ابراهيم من كسر كدرا لعومر منتصرا خرج الملوكة والشعوب الكنعانيون للقتال . واخرج ملكيصادق ملك شليم خبزا وخمرا لانه كان كاهنا لله العلي وباركه وقال : مبارك ابراهيم من الله العلي (٢) وان هذا الانتصار الذي اتاه الله لابراهيم قد انقذ عامة آسية الداخلية من ولاية هولاء الغرباء الجائزين الذين لما رأوا لحاقه بهم ابتعدوا عبور الفرات حتى لا يعودوا الى اجتيازهم مرة اخرى مدة اعصار طويلة

وعند ذلك اخذت جميع ممالك لبنان الصغيرة تتنعم بالامن والاستقلال : امرين لم يحصل لهما الا بهمة ابراهيم . اما ممالك الشواطئ الفينيقية على وجه الخصوص فانها في ارجح الظن لم تُصب بشيء من آثار هذه الغزوة الاولى العيلامية ولم يحدث لها اقل حادث يعوق انتشار صناعتها وحضارتها فتتعمت في تلك الدهور القديمة بسلام لا مثيل له وطمانينة تُضرب بها الامثال . ولذلك كانوا يقولون : شعب

(١) يوسف في العاديات ٢٧ : ١ (٢) تكوين ٥٤ : ١٤ - ٢٠

ساكن مطمئن على عادة الصيدونيين (١)

فكان انتصار ابراهيم اذا خلاصاً لارض كنعان باسرها ولبنان كله مع جميع الجهات الى حد النهر الكبير نهر الفرات فهو على هذا كمفتتح تلك البلاد وحقوق الافتتاح كانت توليه سلطانا غير مدافع للاستيلاء عليها وحقق بذلك وعد الله الذي وعده بجميع هذه الارض ملكاً له ولنسله. وهكذا اخذ ابراهيم مثل مخلص يثبت قواعد بيته وكسب حقوقاً مقدسة على ارض كنعان

٥

حال لبنان القديمة

وهذا الامر يعلمنا فوق ذلك بما كانت عليه حال لبنان في ذلك العصر القديم فاذا قابلت هذه الحوادث بالعوائد الحاضرة قضيت العجب من توافقها . فان غزوات البدو من العرب التي تتصل احياناً الى حد تخوم بادية سورية لا تحصل بغير هذه الصفة وان شيوخ القرى اذا هاجمهم مهاجم ينضمون عصبة واحدة لمقاومته كما فعل ماولك غور الاردن هذا اذا امتنع عليهم الاستعانة بسلطان الحكومة . واما اذا كانوا

عاجزين عن الدفاع بعد انضمامهم فيؤدون للبدو مطالبهم ويلبثون
عرضة لتجدد عودتهم كل سنة

وهذه المشابهة العجيبة تبين من وجه آخر ان كل ما حدث من
الامور كان ابتدائياً غير مكمل في عهد غزوة كدرلا عوس. لان المدن
المحصنة وصناعة تحصينها كلاهما كان مجهولاً في ذلك العصر. والا فلو
كان للعصاة اسوار ومتاريس فلماذا لم يلجأوا اليها ويدفعوا بها هجمة
الغرباء او قلما يكون يضعوا فيها عيالهم واموالهم؟ ولماذا لم يهرع الملوك
المشاركة بعد كسرتهم الى حصن من الحصون التي افتتحوها مثل لايش
ودمشق لو كان للحصون وجود اذ ذاك؟ وكيف اخلوا تلك الارض
باسرها من غير ان ينضموا للمدافعة؟ او ما رأيت ان المدن
انتهبت من غير حصار وان المغلوبين لم يجدوا لهم ملجأ الا الفرار الى
الجبال (١)

ثم ان الجيوش الزاهية في الغزوات تدل بتألفها على انه لم يكن
قد قام اوانذار ولا مملكة من الممالك الكبيرة التي نشأت في ما يلي
من الزمان. وعدد الملوك الذين قادوا تلك العصابات القليلة سواء كان
ذلك من جهة الغازين او المغزوين لا يدع وجهاً للريب في ذلك.

فضلاً عن ان ابراهيم لم يُغر تلك الغارة لاجل ان يسترجع ابن اخيه
ويثأر صغار فلسطين الا بنفسه من غير استعانة باحد غيره

اما الملوك العيلاميون فكان تحالفهم على شبه تحالف ملوك
الاردن ولم يكن بينهم رابطة اشد استحكاماً. وان ظهر من خبر
الكتاب المقدس ان كدلا عومر كان المتقدم بتلك الغزوة لكنه ليس
من شيء يدل على ان سائر الملوك كانوا تحت ولايته. حتى ان اسمه لم
يذكر اول الجميع عند تعداد اسماء الملوك الغازين والظاهر انهم كانوا
متساوين جميعاً في كل شيء. ويمكن القول ان هؤلاء الملوك كانوا اذ
ذاك يسكنون الخيام كما كان ابراهيم

واذا علمت ما اُخص به البدو من محبة التنقل والضرب في
الارض هان عليك ان تعرف كيف تأتى لهم ذلك الفتح البعيد في زمن
لم تكن استنبطت فيه اقل واسطة جديدة للدفاع عند شعوب متقسية
الى ممالك كثيرة قليلة الاهمية

ومما ينبغي التنبيه اليه ضعف عسكر الغزاة ويزيد تغفلهم مما يثبت
ان الفنون الحربية حتى الابتدائية منها لم تكن معاومة عندهم كما هي
عاليه عند البدو في ايامنا. الا ترى انهم مع كثرة جيشهم ~~ككبسهم~~
عدد قليل من العبيد فكسروهم ولم يتمكنوا من الاجتماع للمدافعة
عن نفوسهم فان قلنا ان ثلاثمائة عبد غير محنكين في صناعة القتال

امكنهم ان يبتغثوهم ليلاً ويفرقوا شملهم في اول وهلة كان ذلك امراً
محتماً تصوره . ولكنهم في النهار التابع بعد طلوع الشمس جدوا في اثرهم
مسافة تربي على ثمانية وسبعين كيلومتراً حتى اضطروهم ان يعبروا
الفرات ويتروكوا سلبهم وذلك مما يدل دلالة كافية على ان ترتيباتهم
في ذلك الزمان كانت ابتدائية ناقصة

كم كان عدد ذلك العسكر ؟ وهل الظروف التي رافقت كسرتة
تأذن في ان يُقال انه كان اكثر من بضعة آلاف ؟ وهل كان
لابرهيم مع حكمته ان يهاجم عسكرياً منتصراً كثير العدد بثلاثمائة
رجل فقط ؟ ان هذه الملاحظات العامة هي على ما يبدو لنا بمنزلة
كبيرة من الاهمية للحكم على حالة لبنان وحالة الدنيا في ايام ابرهيم
فان الجيوش العيلامية التي مع قلة عددها قد ابعدت فتوحاتها واجبرت
الشعوب ان يرفعوا لها الخراج السنوي هي اقوى دليل على ان احسن
الجهات مركزاً لم تكن بعد معمورة ومأهولة الا بقليل من السكان
لان المدن لم تكن الا قرى غير محصنة ولم يكن للملوك من مملكة الا
ارض قرىتهم ومراعي قطعانهم . او كان تأتى لابرهيم ان يقيم بارض
كنعان مع مواشيهِ العديدة لو ان تلك البلاد كانت كثيرة السكان
عامرة بالاهل

قلنا ان الصنائع كانت اذ ذاك في عهد صباثا يُحيط بها ظروف

كثيرة لا تساعد على نمائها. ومن هذا نستنتج ان الكنعانيين والفينيقيين
 لما كانوا معدودين عند القدماء من اكثر الناس تقدماً في الصنائع
 واوفرهم اصابةً للسعادة الدنيوية وجب ان تكون الشعوب التي
 تجاورهم لا اكثر تقدماً منهم ولا اوفر سعادة

٦

استيلاء الرعاة على مصر

ولما ان عاد للكنعانيين والاراميين استقلالهم بواسطة غلبة ابراهيم
 اصبحوا آمنين الجنب محفوفين بالطمأنينة لا يخشون مهاجمة من غريب
 ولم يعض عليهم روح من الحين حتى صاروا اعزاء اقوياء وشئوا الغارات
 على مجاوريهم. ذلك امر تثبته الانباء القديمة وتؤيده الآثار الماثلة .
 والظاهر انه لما استفحل امرهم واشتدت شوكتهم اطلقوا غزواتهم على
 مصر جميعها وأن اربع سلال فينيقية من الملوك المعروفين بالرعاة وهي
 الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة بحسب
 رواية مانثون قد استولت على تلك البلاد قطعة طويلة من الدهر اي
 نحو ١١٣٧ سنة او ١٠٣ سنين لا غير وفقاً للحسابات المختلفة (١) .

(١) قد علمت مما مرّ ان الاعداد التي يذكرها مانثون ويول
 الافريقي لا اعتبار لها مطلقاً والكرونولوجية المنسوبة اليهما لا تستحق

والحال ان هؤلاء الملوك كانوا فينيقيين على ما قال يول الافريقي
وسنكل عند استشهادهما بكلام مانثون عن السلائل المذكورة (١)
وقبل هذا الخبر جماعة كثيرة من كتبة الاقدمين والمحدثين

اما يوسف المؤرخ فقد خالف مانثون وعارضه اشد معارضة زاعماً
ان الملوك الرعاة ان هم الا عبرانيون من اجداده الذين اقاموا دهرًا
طويلاً في ارض مصر ثم خرجوا منها خروجاً جلب اشد الضرر على
ظالمهم (٢) وقد تلقى رأيه بالتسليم فريق كبير من الشراح والمفسرين
المسيحيين وعلى ذلك كان اهل العلم منقسمين بين المذهبين المشار
اليهما . غير ان قراءة الخطوط القديمة قد كشفت النقاب عن هذه
الحوادث ذات البال بالنسبة الى مصر . وقد لخص احد الكتبة
المحدثين شهادتها في اصل الملوك الرعاة فاليك كلامه :

ماذا كان الملوك الرعاة ؟ تلك مسألة يمكن ان يُجاب عليها في
هذه الايام فان تاريخهم الذي خيّم عليه ظلمات الاشكال وتجرّد

في عيون اهل النقد التاريخي اقل ثقة

(1) Manéthon Sebeun. Frag. ap. Hist. græ. Car.
Müller. vol. II. p. 568 et seq. عن كلامه في

السلالة السابعة عشرة : ان الملوك الرعاة كانوا اخوة للفينيقيين (Chron.)

(2) Joseph. Contr. Ap. I, 14 ; — Euseb. Chron. Arm.
I, 21 ; — Præp. ev. X 13.

عن كل نبأ معاصر له اخذ الان في ان تتشع عنه غيوم الابهام
 بواسطة اكتشافات الموسيو ماريات . كان هولاء الملوك اخلاطاً من
 طوائى البدو المتنقلة من العربية وسورية ولكن معظمهم كما ورد
 ايضاً في نخب مانشون انما كان من الكنعانيين . اما القبيلة التي كانت
 فيهم صاحبة الامر والنهي ورثة الكلمة النافذة فهي قبيلة مسماة
 هكذا على الآثار الفرعونية وهي نفس قبيلة الحثيين التي وجدها ابراهيم
 مقيمة بارض كنعان (١)

ومع هذا فقد قال الموسيو كاسباس « ان اسماء الملوك الرعاة لها
 هيئة خاصة لا تأذن في القول باشتقاقها من اللغات السورية الارامية
 واحق ما يُقال في الرعاة انهم قدموا من شرقي مصر » (٢) ولكن
 شعوب المشرق كانوا اذ ذاك كنعانيين على الخصوص واما مسألة
 رد اسماء هولاء الملوك الى صيغة سامية فليست بالعقبة الصعبة المرتقى
 اذا تُنَبِّه الى التغيرات الغريبة التي لحقت بها عند المصريين
 وعليه فلا يتأتى لاحد ان ينكر ان القبائل الكنعانية اشتركت مع
 الرعاة في غزاة مصر . وذلك مما يُدنى من الاحتمال اشتراك الفينيقيين

(١) فرنسيس انزلمان في تاريخه ك ٣ ف ٣ و ٢

(٢) الموسيو كاسباس في كتابه : الرعاة في مصر ص ٢٧

وشعوب لبنان في الغارة المذكورة تحت قيادة الملوك الرعاة. ومع هذا فلا يبعد التقدير بان القبائل الكنعانية القريبة من مصر اصابته اجزل قسط في تلك الحملة. لانها اندفعت الى ذلك القطر كما اندفع اليه العرب من سواحل البحر الاحمر لما رأوا فيه من الخصب والريف ولأنه كان لهم الملبأ الوحيد في ايام مجاعاتهم وجذب اراضيهم (١) نعم ان اسم الرعاة الذي يطلق على هؤلاء المفتحين ناف في الظاهر لشعوب لبنان ولاسيا متعاطي التجارة منهم ولكن عدا انه لا يدل على طائفة معينة فمعلوم ان الفينيقيين سكان الثغور البحرية قد سارعوا الى الانتفاع بالفوائد التي نجمت عن فتح الكنعانيين اخوتهم واستقلوا بالتجارة والملاحة والمحاصيل والمعادن ومكثوا صلاتهم مع مصر وحملوا اليها بضائعهم ومصنوعاتهم (٢). وعلى ذلك فان نفوذ فينيقية اتصل الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر اليها فيما يتعلق بالصنائع والآداب والديانة

وقد تم هذا الفتح بايسر سبيل لان مانثون صرح بان المصريين لم يجسروا على القتال قال: على حين غفلة قدم قوم من المشرق لحملوا

(١) التكوين ١٢: ١٠ - ٤٢: ٢

(٢) مانثون كما استشهد به يوسف المؤرخ (ضد ابيون ١: ٤)

على بلادنا واستولوا عليها من غير مانع ولا قتال . فدوخوا ارباب الامر واحرقوا المدن وهدموا هياكل الآلهة وما تركوا شراً الا عملوه فذبحوا فريقاً واستاقوا النساء اسيرات مع الاولاد» (١) . ولكن الآثار اثبتت ان مانشون قد غالى بوصف قسوة الملوك الرعاة وما هدموا من البنايات في ارض مصر . والظاهر انهم بعد ان افراطوا في مفتتح نصرتهم عادوا فقرروا قواعد النظام والترتيب في جميع الارض التي ملكوها . ولم يجأوا فقط قدر الآثار الاولى ولكنهم نقشوا عليها اسماءهم ودونوا اخبار ما اثرهم كما انهم رفعوا هم ايضاً ابنيةً حديثة (٢)

وبعد ان تولوا ولاية طويلة لا يمكن تقدير مدتها ولو بوجه التقريب اخذت مملكتهم في الضعف على حين كان ملوك الصعيد يصلحون ما فسد من امرهم وينفخون في الاهلين روح الوطنية والمدافعة عن بلادهم . فلما انتشبت الحرب اضطر الملوك الرعاة ان يغادروا ما اقتنحوه ليعبروا البرزخ ويعودوا الى اسية وكان ذلك نحو سنة ١٦٠٠ قبل المسيح

(١) يوسف المؤرخ في الحل الآنف

(2) Rev. Archéol. Art. de M. Mariette, 1868.

زحفات المصريين على اسية

فلما انبعثت مصر من رقدة الخمول لم تقتصر على استرداد تخومها ولكنها هبت لتنتقم من الذين ظلموها وتكيل لهم بازيد ما كالوا لها ولذلك اعلنت على آسية بكاملها نار حرب استمرت متقدمة خمسة قرون وتقدم ملوك السلالة الثامنة وكسروا اولاً الكنعانيين المقيمين بفلسطين . واما طوطمس الاول (ابن طوط) في القرن الخامس عشر قبل التاريخ المسيحي فابعد غزاته الى ما وراء فلسطين وجاء الى ضواحي دمشق ونازل الروتن موقعة شديدة فغلبهم وكانوا جمعوا له جموعاً كثيرة . غير ان طوطمس الذي كان قد عرف منزلتهم من القوة ظهر له ان ولاية المصريين في سورية لا يتسنى لها مطلقاً ان تكون متمكنة الدعائم اذا لم يجد في تذليلهم غاية الاذلال ويقصد آخر حدود ارضهم ويدوخ اقاليم ما بين النهرين لتتقاد صاغرة الى طاعته . وعند ذلك جاز البادية حتى اتصل الى الفرات فعبره عند قرقيسيا (١) ونصب هناك عمداً نقش عليها خبر عبوره (٢)

(١) كانت هذه المدينة قائمة عند شاطئ الفرات الايسر وكانت

تفسح على العدو اليني (٢) فرنسيس ليرمان لك ٣ ف ٣ : ١

وكانت هذه الحملة اول باعث على انتشاب الحروب الطويلة بين افريقية وآسية حروب اتت بمضار عظيمة على لبنان لان الفريقين عند اصطدامهما سحقا ما يفصل بينهما من الممالك الكنعانية والارامية اشد سحق . ولكن فينيقية والمدن البحرية لم ينلها ضرر من هذه المهاجمات الاولى . واما الروتن الوارد خبرهم على الآثار المصرية فهم في ارجح الرأي عبارة عن عصبة جميع الممالك الصغيرة الممتدة من لبنان الشرقي الى جميع بلاد ما بين النهرين الارامية . وكان الامراء الاراميون في آسية الداخلية قسماً من هذه العصبة وهم مصورون على الآثار بجانب روساء آسية الداخلية . ولا يظهر ان واحداً من الملوك كان له شيء من السيادة على سائر المتحالفين ولكنهم كانوا في المرتبة سواء . وذلك مما يثبت ما قد مناه عن كيفية نشوء الممالك اولاً في لبنان

وقد تتبع فراغة (١) مصر في زحفاتهم على اسية طريقاً واحداً وهي انهم كانوا يقطعون بلاد كنعان فيصلون الى مجدو ومن هناك كانوا يجوزون الوهاد التي فوق بحيرة طبرية في جهة

(١) فرعون علم جنسي على جميع ملوك مصر مشتق من فعور (الملك) او من فرع والشمس)

قدس اي بحيرة الحولة ومنابع الاردن عند لايش ثم ينزلون في المضائق التي تسير السفح الغربي لحرمون ولبنان الشرقي . فاذا وصلوا الى وادي الليطاني الذي كان اذ ذاك بحيرة كبيرة وساروا على العدو الشرقية انتهوا الى بعلبك ثم يبلغون الى وادي العاصي ويسيرون على مدوة النهر المذكور الى حد قدس الكبيرة اي حمص وحماة حيث يدخلون في البادية ذاهبين نحو قرقيسيا . وهناك كانوا يعبرون الفرات ويدخلون في بلاد ما بين النهرين . هذا فضلاً عن ان الكتابات المصرية لا تخبر الا عن حملات المصريين باسية نحو بلاد الكلدان وما بين النهرين . ولا تذكر مطلقاً خبر زحفة على اسية الصغرى وتراقية ولا على الهند (١)

٨

كسرة الروتن

الا ان الروتن هاجت بهم النخوة الى خلع طاعة المصريين فجمعوا جموعهم وتهيأوا للقتال وحرشوا كنعاني فلسطين على نبذ سلطان فرعون . وامتنعوا جميعاً عن رفع الخراج لطوطمس الثالث وكان شاباً حديث عهد بالملك . فزحف هذا عليهم وادركهم في سهل عسقلان

قريباً من مجدو وخبر هذه الواقعة مكتوب في اخبار ملكه السنوية على جدار طويل من هيكل قرناق وهذا ملخصة : في الحادي والعشرين من باشنس (ايار) عند فلق الصبح عبي طوطمس صفوفة للقتال واسند يمينه الى ساقية قينا ومد يساره الى الشمال الغربي من مجدو . وكان طوطمس يتولى الامر في قلب الجيش وقد اجتمع اليه الاعداء من كامل المدن المهمة في فلسطين والاقاليم الارامية الواقعة بين لبنان الشرقي والفرات . ولما حق اللقاء دُحر اهل اسية وفروا نحو مجدو . ولكن حامية الحصن خافوا لما رأوا المصريين يدخلون مع الفارين فاغلقوا ابوابه واضطرو القواد ان يرتقوا الى الاسوار بواسطة الحبال . واما بقية الجيش فتبدد في الجبال . وبعد ايام قليلة اجبرت مدينة مجدو التي « تساوي الف مدينة » ان تسلم من غير قتال . وكان الرؤساء المتحالفون قد لجأوا اليها جميعاً ولم يلق طوطمس بعد ذلك مقاومة يعتد بها ولم يكن مسيره في وهاد لبنان واقاليم آرام الى حد الفرات الا مسير منتصر ظافر واستولى في طريقه على مدينة دمشق ودبق وحمص وحماة وغيرها من الاماكن الحصينة . واما الرؤساء الذين لم يشهدوا وقعة مجدو فابتدروا اداء الطاعة له حتى ذلت جميع الاعناق لهذا الغازي . وكان طوطمس بعد نهاية وقعة مجدو قد جند كتائب برمتها من مغلوبيه الذين كانوا يتسارعون الى خدمته . وبعد

ان رتب الحامية في اخص مدن الروتن الثلاث التي على عين الفرات عاد الى مصر ومعه عدد كثير من الاسرى والرهائن. ولكنه في الربيع القابل رجع مع عسكره مرة ثانية وعبر الفرات عند قرقيسيا حيث بنى حصنا منيعا لم تزل اخبته ماثلة الى اليوم ولكن الروتن المقيمين فيما وراء الفرات نغني بهم الاشوريين الكلدانيين لم يتولد فيهم من الحمية ولا ما حملهم على الدفاع عن اوطانهم (١) وقد يصح القول بوجه الاحتمال الكلي ان هذه الغزاة وقعت حالا قبل افتتاح الاسرائيليين

٩

زحفة طوطمس على فينيقية

وبعد اربع سنين من الحوادث التي مر الكلام فيها زحف طوطمس على فينيقية وضرب الخراج على عامة الجهة المشار اليها حتى تغور البحر. قال فرنسيس لزمان في الحل الآنف: وكان في جملة الخراج الذي فرضه عليهم الخمر والبر والأنعام والعسل والحديد. وكانت تونيب وهي احدى مدن الجبل الشرقي على مقربة من دمشق وارواد في الطرف الشمالي من فينيقية من عداد المدن التي فتحها اذ

(1) De Rougé, Etude p. 37; Annales de Thoutmès III; — Fr. Lenormant, Man. d'hist. III, 3, 2; — Robiou Hist. anc. V. 9; — Maspéro, Hist. Anc. II.

ذاك . وفي السنة التالية وجّه جيوشه الى بلاد الروتن لما كان قد حدث بها من الفتوق وكانت مدينة قدس قد جاهرت بالمعصية والخروج عن الطاعة فدوّخها واضطرها لتجديد الاستكانة والخضوع . ولما انتشرت اخبار نصرته تراكّض الامراء الاشوريون المقيمون فيما وراء الفرات لتجديد طاعتهم له . وكان ذلك في السنة الثلاثين من ملك طوطمس المذكور . ولكنه في السنة الرابعة والثلاثين من ملكه جدد اهل قدس ما تحزّب من تحصيناتهم وآذنوه بالعصيان فجرد عليهم عسكره واستولى على مدينتهم عنوةً

اما قوّه ان طوطمس فتح ارواد وانها كانت في الطرف الشمالي من فينيقية فنظنه غير صحيح . لان ارواد في ذلك العصر القديم ما كان ينبغي ان تكون في هذا المحل البعيد والكتابة المصرية لا تذكر موقعها . اما لفظة « اراتو » التي توافق في الظاهر لفظة « ارادوس » اليونانية فلا يحتمل ان توافق الاسم الحقيقي لارواد في الفينيقية . الا ان في وادي العاصي مدينة قديمة تدعى اراتوس والعرب يسمونها الرستن كما ان الاراميين يدعونها اراتون وهي اشد موافقة للفظه اراتو المدونة في الكتابات المصرية من اسم جزيرة ارواد . هذا فضلاً عن ان طوطمس من حيث انه لم يقد مطلقاً عمارة بحرية كما تشهد بذلك الكتابة المشار اليها كان مستحيلاً ان يفكر في تدوين

جزيرة من الجزر . ومما يزيد قولنا وضوحاً هو ان الكتابة المصرية يمكن ان تقرأ فيها هذه اللفظة « ألاتو » وقال كبار الباحثين عن الآثار المصرية في هذه الايام انها « الات » وهي مدينة على الشاطئ الشمالي من البحر الاحمر

واما ما يتعلق بالفتوحات البحرية فاثبت المسيو كاباس : ان هذه الفتوحات نسبت الى طوطمس الثالث لغلط في قراءة الكتابات . حتى لو افترضنا ان المصريين اقتتحوا فينيقية حقيقة لما صح ان يكون ذلك موجباً للتغيير في داخلية لبنان لان الفراعنة كانوا يتركون لكل ناحية او مدينة اقتتحوها ملوكها وشرائعها وعوائدها وديانتها فلها الاختيار المطلق ان تعقد سلماً او تبشر حرباً او تبرم معاهدة الى غير ذلك . وجل ما يطلبونه ضريبة سنوية يفرضونها على مغلوبهم وجماعة يتجندون في جيشهم تقوية لهم على حرب العدو . ولكنهم لم يكونوا مطلقاً يجعلون الاقاليم المفتوحة على شبه اقاليم مصر ولا يولون عليها حاكماً مصرياً . واما الحامية المصرية التي كانوا يجعلونها في بعض المدن الكبيرة فما كانت الا لاجبار المغلوبين على القيام بالشرايط المفروضة عليهم . وكانوا ايضاً يطلبون فوق ذلك رهائن ويربون في مصر خلفاء الملوك الذين في ذمتهم . وتلك كانت احسن ذريعة لتقرير نفوذهم وغرس عوائدهم سريعاً في الجهات التي يضمونها الى ارضهم . وليس

من شيء يدل على ان احداً من ملوك الفينيقيين رُبي في مصر. ولكن ملوك ارام خضعوا لهم فقط ودانوا لسلطانهم وهذا حجة على القائلين بان المصريين افتحوا فينيقية. وكان ترتيب الفتوحات على هذه الصورة اشبه بحكومة مؤلفة من اهل الاقطاعات (مقاطعية) خفيفة الوطأة على الممالك المطيعة. لان تلك الممالك كانت كثيرة العدد وكان المصريون عند كل تغير في الملك مضطرين الى تجديد تلك الفتوحات جميعاً

١٠

زحقة الاسرائيليين

هذا وان غزاة اخرى يظهر انها جرت عقيب غارة طوطمس احدثت تغييراً اعظم في حالة لبنان السياسية. نريد بهذه الغزاة فتح الاسرائيليين للارض المقدسة. وكانت ارض كنعان جميعها في ذلك الحين ملكاً للكنعانيين. ولكنهم مع تعدد قبائلهم لم يكونوا متحدين في مملكة واحدة قوية بل انهم كانوا منقسمين الى ممالك كثيرة صغيرة. وكان لكل مدينة ذات شيء من الاهمية ملك مخصوص وفي اكثر الاوقات يكون خصماً او عدواً لمن جاوره من الملوك. ولما كان بنو كنعان على هذه الحال من الانقسام لم يكن يتيسر لهم ان يظفروا في مقاومة الاعداء والحال ان عسكر الاسرائيليين كان مؤلفاً من ستمائة

الف والف وسبعائة وثلاثين (١) . ومع هذا فانهم لم يتنبهوا الى هذا الخطب المحقق بهم الا عندما زحف عليهم الجيش بقوة لا تدافع فدك مما لكهم وخرّب قراهم وذبح ملوكهم وشتت شمل قبائلهم . وكان من الواجب ان يسارع المصريون لنجدتهم بما لهم عليهم من حق السيادة « ولكن هذه السيادة كانت اسماً بلا مسمّى » (٢) اي ليس لها من حقيقة في خارج الكتابات المصرية . لان الفراعنة اذ ذاك كانوا مشتبكين في جملة قلاقل داخلية بل في كثير من العراقل التي تلت وفاة طوطمس الثالث

وحالما ادرك موسى جهات الاردن الشرقية همّ بفتح ما تقدم الاردن من ارض كنعان فكسر سيجون ملك حشبون واستولى على مدنه وجميع ارضه ثم مشى على مملكة باشان ليستولي على بقية تلك الناحية (٣)

وكان عوج الاموري قد انشأ لنفسه هذه المملكة الكبيرة وجعل قاعدتها مدينتي عشتاروت قرنائيم وادرعي وكان جميع اهل تلك البلاد من كنعانيين وaramيين ينحشونه ويذهبونه

(١) عدد ٥١: ٢٦ (٢) انزمان في المحل الآنف

(٣) تثنية الاشتراع ٨: ٣

وكان هذا الكنعاني من نسل الرفائين اي الجبابرة . ويُعلم كبر
جثته من كبر سريره الذي وُجد في مدينة بعلبك قاعدة العمونيين .
وذلك السرير كان من حديد ولم يكن طوله اقل من تسع اذرع في اربع
عرضاً . على ان ملكاً هذه قامته صاحب اجناد يشابهونه القى الرعب
في قلوب بني اسرائيل ولكن الله قال لموسى : تصنع به كما صنعت
بسيمون ملك الاموريين . اني اسلمتهُ ليدك هو وجميع ارضه (١)
اما عوج فخرج على الغزاة في مقدمة جنده وهو واثق ببطشه وقوته
وعبي المصاف للحرب في ادرعي (واليوم دارا) وهي مدينة حصينة
كانت قاعدة مملكته . ولما انتشبت الحرب قُتل عوج وبنوه وجميع قومه
حتى لم يبقَ لهم شريد فتقدم الاسرائيليون حينئذٍ وفتحوا جميع مدنه
حتى لم تبق قرية الا اخذوها ستين مدينة كلها محصنة بأسوار شاهقة
وابواب ومزاليج وضربوا بحدة السيف كل من ادركوه . وكانت المملكة
التي افتحوها اكبر قسم من الارض التي في عبر الاردن وهي من وادي
ارنون (التي تعرف اليوم بوادي الزرقاء) في الجنوب الى حرمون (جبل
الشيخ) الذي كان الصيدونيون يسمونه سريون والاموريون يسمونه
سنير (٢) وتمتد في جهة الشرق الى حد سلكة (صلخد) محيطة بارض

(١) تثنية الاشتراع ٢: ٣ — عدد ٢١: ٣٤ (٢) تثنية ٩: ٣

جلعاد (الجولان) وارجوب (تراكونيت وتعرف اليوم بالجبا) ويطور
(ايطورية وتعرف اليوم بالجادور) وهذه الارض الواسعة الكثيرة
الخيرات أعطيت لنصف سبط منسى وهو اكثر الاسباط عدداً وكان
فيه اثنان وخمسون الفا وسبعمئة مقاتل

وبعد هذا الظفر العظيم الذي تمّ لموسى بقدره الله اخذ ينظر من
قمة جبل نبو الى سائر الارض الموعودة التي كان قد طال شوقه اليها
ويتأمل في هذا الجبل الحسن اعني لبنان ويتوق اليه (١) ولكن
الرب قال له: ولكنك الى هناك لا تعبر (٢) لانه كان قد اكل ما
ندبه الله اليه فسلم امارة جيش الرب الى يشوع بن نون الذي اختاره
الله خليفة له. ولكنه قبل ان يغادر شعبه شاء ان يعلمهم من قبل الله
بتخوم الارض المقدسة التي سيفتتحونها فكان لبنان برمته داخلا في
حدود تلك الارض وهي تبتدىء في الجنوب من برية صين ومن
طرف بحر الملح او الميت واما من الشمال فقد صرحت الفاظ الكتاب
المقدس بتخومها تصرّحاً بيناً بقولها: وهذا يكون لكم التخم الشمالي من
البحر الكبير (المتوسط) تخطون لكم الى جبل هور (جبل النصيرية وهو

ومعنى سريون الذي يذوب ومعنى سنيرسن النور

(١) تثنية الاشتراع ٣: ٢٥ (٢) تثنية ٣٤: ٤

المسمى برجيل عند الاقدمين) ومن جبل هور تخطون لكم الى مدخل حماة ويكون منفذ الحد الى صدد (التي تبعد تسع ساعات عن حمص على طريق تدمر) ثم ينفذ الى زفرون (وهي بلدة في شمالي حمص تبعد عنها مسافة اربع ساعات) وحصر عينان (وهي القريتين) (١) وهذا يكون حدكم الشمالي . وتخطون لكم التخم الشرقي من حصر عينان الى شافام (واعلمها كفر وهي بلدة على مسافة ساعتين في الجنوب الغربي من صدد) ثم يهبط من شافام الى ربله شرقي العين (منبع العاصي) وينحدر ويأسي جانب بحر ككارة . . . (بحيرة طبرية) شرقاً (٢) فهذه الحدود تشتمل ولا شك على لبنان الغربي بأسره وعلى قسم كبير من الشرقي

(١) معنى حصر عينان قرية العين وهي بلدة بطريق تدمر في بيسط من الارض وفي اطرافها ينابيع غزار . ولكنه قد وجدت كتابة (Waddington, Inscr. de Syr. N° 237. 1) اثبتت انها بلدة نزلة (Nazala) التي قيل عنها في فهرست بوتنجر انها على مسافة ١٢٦ ميلاً من دمشق و٧٦ من تدمر

(٢) العدد ٣٤ : ٧

فتح الارض المقدسة

ولما انقضت ايام المنساحة على موسى كليم الله امر الرب يشوع خليفته بالسير الى افتتاح الارض المقدسة قهياً عند ذلك لعبور الاردن وبعد ثلاثة ايام في التطهير حمل الكهنة تابوت العهد وخاضوا به في النهر فوقفت المياه المنصبه حينئذ في مجاريها وسلك جميع اسرائيل في اليبس وهذه المعجزة التي اجراها الله لشعبه ادخلتهم في قلب الوطن الجديد الذي اختاره الله لهم ودلت على الخوارق التي كان سيد الكل مزماً ان يظهرها فيه . ألا ترى ان اسوار اريحا سقطت عندما نفخوا بالابواق وان الملوك الذين اجتمعوا لنصرة ادونيصاداق ملك اورشليم ضربهم يشوع ضربة عظيمة وأمر الشمس بالوقوف ليستتم نقمته من اعدائه (١)

فلما تفرقت عصبة ملوك الجنوب وولت مدحورة من امام اسرائيل تألفت عصبة اخرى في جهة الشمال من ملوك الكنعانيين في خلق كثير مثل الرمل الذي على البحر . ويهمننا ان نذكر اخبار هذه العصبة لان كثيراً من المتحالفين فيها كانوا ملوكاً على لبنان والحرب انما

اشتعلت ناريها في ارضه . وكان يابين ملك حاصور زعيم اولئك المتحالفين على قتال الاسرائيليين . وكانت مملكته كما اسلفناه في الفصل الخامس من هذا الكتاب رأساً لجميع الممالك وذات كلمة نافذة في كل منها بشمال فلسطين ولبنان الجنوبي (١) فلما انتشرت اخبار غلبة العبرانيين ارسل الى جميع الملوك يستنهضهم ويستحثهم على الدفاع فاجتمع اليه الاموريون والحثيون والفرزيون واليبوسيون في الجبل والحويون تحت حرمون في ارض المصفاة وجميع الكنعانيين المنبثين من حد بحر كسارة شرقاً الى دور الى البحر الكبير غرباً . وهؤلاء المقاتلة الذين كعدد رمل البحر كثرة كان فيهم طائفة عديدة من الفرسان مع ان الاسرائيليين لم تكن لهم معرفة مطلقاً بالقتال على الخيل ولديهم ايضاً راصب للحرب كثيرة جداً لم تسبق للاسرائيليين عادة بها (٢) قال المؤرخ يوسف ان تلك الجيوش كانت مؤلفة من ثلاثمائة الف راجل وعشرة آلاف فارس وعشرين الف مركبة (٣)

وكان يابين ملك حاصور قد جعل على كل قطعة من الجيش زعيماً كيوباب ملك مادون وملك شرون واصلشاف وغيرهم ممن

(١) يشوع ١١ : ٥

(٢) يشوع ١١ : ١٠ (٣) في العاديات ٥ : ١٨

كانوا يحاربون دفاعاً عن حياتهم واطنانهم. وكان اجتماعهم جميعاً على مياه ميروم (الحولة) (١)

ولما سمع يشوع باجتماعهم وتبشيرهم لقتاله وعرف ما عندهم من القوة والمراكب والخيول وقع الرعب في قلبه ولكن الله استلصك من خوفه ووعدته بالنصر الصريح وقال له: «لا تهرب وجوههم فاني مثل هذا الوقت من غد اجعل جميعهم صرعى امام اسرائيل» (٢) فخرج يشوع حينئذ عليهم حتى انتهى الى الجليل الاعلى في اليوم الخامس (٣) وسار في مقدمة الاسرائيليين المتلهبين شجاعةً واقداماً ولكن من غير ان يدري بهم العدو. وعند ذلك اخذ اهبةً للحملة وانقضَّ على الاعداء بغتة (٤) فالقى الرعب والبلبلة في صفوفهم

- (١) قال يوسف في العاديات : (٥ : ١٨ و ١٩) «انهم نصبوا خيامهم في يروثة وهي بلدة في الجليل الاعلى قريبة من قادش» ولكن ليس في الجليل الاعلى ما يوافق هذا الاسم الا قرية بركة الواقعة في شمالي صفد وبها يُسمى الجبل الذي يحاذيها بقرب جبل كنعان. فلو قدرنا ان حاصور هي حصيرة كما نظنه لكان متحتماً على يابن ان يقطع جبال بركة لينتهي الى ميروم (٢) يشوع ١١ : ٦
- (٣) يوسف المؤرخ في المحل الانف (٤) يشوع ١١ : ٧

وضربهم ضربةً عظيمةً حتى لم يبقَ منهم باقٍ . وكان يشوع قد احكم اختيار مواطن القتال بحيث يتمكن من جر جيوش الكنعانيين الى وعوث وادي ميروم حتى يتمتع الجولان على خيولهم ويستحيل عليهم دفع مراكبهم . وبذلك التقى من البلبال في عسكر الكنعانيين ما لا يساويه الا كثرة عددهم . وعند ذلك تحول القتال الى هزيمة وفرت الاعداء الى الجبال الشمالية . اما رجال يشوع فتبعوا الفارين وجدوا في اثرهم الى صيدون الكبيرة ومياه مسرفوت (١) وبقعة المصفاة (٢) شرقاً اما الاسرائيليون الفائزون بالظفر فانهم لم يبقوا على احد من

(١) معنى هذه الكلمة « المياه الحارة » ولعل ذلك لبعض ملاحات كانت هناك او لبعض ينابيع سخنة غابت اليوم عن الوجود . وزعم المسير رنان ان هذه المدينة كانت عند تخم سهل عكاء عند اول رأس اعني به الرأس المسمى المشيرفة . غير ان نص الكتاب الذي يتكلم عن صيدون البعيدة جداً عن هذا المكان يقضي بحالية الزعم المذكور

(٢) كانت بقعة المصفاة (اي المكان المرتفع) في الجبال التي شرقي صيدون الى حد جبل الريمان وتومات جزين . ولا نكسر ان الطريق من الحولة الى صيدون تشتمل على وهاد عميقة

اعدائهم وادركوا كل من ركن الى الفرار وضربوه بحمد السيف (١)
وهكذا افنوا كل ذلك العسكر الكثير العدد. ولما شاع خبر هذه
الهزيمة دبَّ الرعب والهول في قلوب الكنعانيين في كل موضع
حتى ان الصيغونيين الذين كانوا اصحاب تجارة متسعة في ذلك الزمان
لم يجرأوا على التظاهر باقل نجدة لاخوانهم المكسورين وانكسروا
على ما نزل بهم من الضيم والقتل من غير ان يقدرُوا لا على الاخذ
بشارهم ولا على توقيف زحفة اعدائهم

ان هذه النصره التي فاز بها الاسرائيليون ملأت ايديهم غنائم
تقاسموها بحسب مراسيم شريعتهم. وكان ممكناً ليشوع بعد انتصاره
ان ينشئ له طائفة من الحياالة ويستعين بالمركبات على حرب اعداء
شعبه ولكنه لم يشأ ذلك بل عمل بما امره الرب عرّقب خيلهم واحرق
مراكبهم بالنار وضرب اعناق الاسرى جميعاً. ولما علم ان الفرصة لا
تصاب في كل حين اغتتم تلك النهزة فهاجم كثيراً من الاماكن واخرج
منها العدو. وكان من امره انه وضع الحصار اولاً على حاصور رأس
المدن الكنعانية شمالاً. وكان ملكها قد لجأ اليها مع بقية من عسكره
فاخذ المدينة ونهبها ثم جعلها طعاماً للنار. اما سكانها من رجال ونساء
واطفال مع يابيين ملكها فضر بهم بحمد السيف ولم يبق نسيه (٢) ثم

اخذ بقية الاماكن الحصينة وعاملها كلها على حسب ما امره الله بنفس
تلك الشدة اي انه ذبح ملوكها واستأصل سكانها واحرق بالنار بيوتها
ودمر حصونها ودكها دكاً . وكان ذلك عقاباً من الله على جرائمهم

ولاسيما على ما كان لهم من العبادات الفاسدة

ولكن يشوع ابقى ما كان من القلاع مبنياً على جبال او تلال
لمعرفته انه اذا عرضت حرب تكون ملجأ لشعبه يقوون فيه على الدفاع
فضلاً عن ان خيول الكنعانيين ومراكبهم لا تستطيع وصولاً اليها . اما
حاصور وحدها فاستتناها يشوع ولم يعاملها بهذه الرأفة اما لان
ملكها كان اكبر جرماً من سائر الملوك المتساندين واما لان
خراب هذه المدينة كان موجباً لنشر هيبة اسم اسرائيل في جميع
تلك الارض

ولا شك ان هذه الهيبة ألحمت الكنعانيين ان ينشثوا عصبية
اخرى وردعتهم عن المقاومة والقتال دفاعاً عن اوطانهم . غير ان من
كانوا متحصنين في قلاعهم اعجزوا الاسرائيليين في اكثر المدن عن
تذليلهم وقهرهم . لان الجليل الذي يحتمل انه قد دعي من ذلك الوقت
بجليل الامم (١) لم يتصل العبرانيون مطلقاً الى افتتاحه بكمالهِ

ولكن موقع هذه الناحية الداخلة برمتها في دائرة لبنان يضطربنا الى التنقيب عما اصاب هنالك يشوع من اسباب الفوز وما اعترضه من العقبات

ليس في المدن الكنعانية الشمالية مدينة اظهرت من نفسها عجزاً او ضعفاً عند حملة عسكر العبرانيين مع انه كان دائماً ظافراً . ولم يتلاف احد من ماوكهم خراب مملكته فسالمهم وخضع لهم (١) ولكن شجاعته لم تذهب سدًى فانهم ابقوا بما ابدوه من المقاومة كثيراً من مدنهم في جهة الشمال وبقي لهم لبنان بكامله تقريباً رغماً عن هجمات عسكر موآف من ستائة الف مقاتل وعدهم الله بفتح تلك الارض

وليس بمنكر ان الله ابقاهم عقاباً للامرائيليين اذا كسروا نير شريعته ونجدة لهم اذا اتابوا اليه ثائبين . ومع ان شعبه كان في ذلك الوقت مؤمناً شاء مع ذلك ان يجعله في امان وطمأنينة بما ابقى الكنعانيين في جهات الشمال درءاً لما لعله يعرض من الخطر . ولما شاخ يشوع وطعن في السن قال له الرب : انك قد شخت وطعنت جداً وقد بقيت اراضٍ للامتلاك كثيرة جداً : جميع الجليل . . . كل ارض

الكنعانيين ومعاراة التي للصيغونيين (١) الى افيف الى تخوم الاموريين
 وارض الجليلين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعل جاد تحت
 جبل حرمون الى مدخل حماة. كل سكان الجبل من لبنان الى مياه
 مسرفوت كل الصيغونيين ساطردهم من وجه بني اسرائيل وانت
 تقسمها بالقرعة لاسرائيل كما امرتك (٢)

هذا وان يشوع قبل وفاته بقليل استدعى جميع اسرائيل شيوخهم
 ورؤساءهم وقضاةهم وعرفاءهم وذكر لهم الشرائط المربوط بها ذلك
 الوعد الالهي بقوله: بالرب الهكم تتشبثون كما فعلتم الى هذا اليوم. لقد
 طرد الرب من بين ايديكم امما عظيمة شديدة ولم يثبت في وجوهكم
 احد الى هذا اليوم. الواحد منكم يهزم ألفا لان الرب الهكم هو المحارب
 عنكم كما وعدكم. فاحتفظوا جدا بان تحبوا الرب الهكم ولكن اذا
 ارتددتم واختلطتم ببقية هؤلاء الامم الذين بقوا معكم وصاهرتموهم
 ودخلتم بينهم ودخلوا بينكم فاعلموا ان الرب الهكم لا يعود يطرد

(١) ومعنى معاراة المغارة وتاتي ايضا بمعنى المنحدر اي الموضع
 الذي يلتوي فيه الجبل ونظن ان تفسيرها بهذا المعنى اوفق من
 تفسيرها بمعنى المغاور والجزم بانها اشارة الى مغاور عدلون وغيرها

(٢) يشوع ١٣: ٦٤

اولئك الامم من وجهكم بل يصيرون لكم وهقاً ومعثرةً وسوطاً على جنوبكم وشوكاً في عيونكم حتى تضحلوا من هذه الارض الصالحة التي اعطاكم الرب الهكم (١)

وهذه الكلمات تدل على ان خيانة الاسباط الاثني عشر كانت بفردھا فيما يلي من الزمان سبباً في خلاص تلك البقية من الكنعانيين وعلى ذلك فان القبائل الكنعانية في لبنان والجليل الاعلى وسواحل البحر ابشت سائلة . والمدن التي ثبتت على الهجمات او التي امتنع الهجوم عليها فسكانت كثيرة . واما صيدون الكبيرة فلم يقع فيها من غزاة الا غزاة واحدة في اطراف تخومها ووقف المفتتحون عند هذا الحد ولم يتعدوه

وكذلك صور التي وصفها يشوع بالمدينة المحصنة (٢) لم تكن دخلت تحت سيادة الاشوريين . وهكذا الكزيب وعكا . ودور كانت من جملة المدن التي امتنعت على الاعداء (٣) . واما الممالك الداخلية كجشور ومعكة ورحوب وافيق فلم يستول عليها الاسرائيليون ايضاً وكانت تحده من جهة الشمال الارضين المأهولة بشعب الله

(١) يشوع ٢٣: ١٣

(٢) يشوع ٢٩: ٢٩ (٣) قضاة ١: ٣١

انصباء اسرائيل في لبنان

وماذا كانت قسمة اسرائيل في لبنان ؟ ان يشوع بعد ان قضى ست او سبع سنين في حرب متصلة فتح فيها احدى وثلاثين مملكة كنعانية وذبح ملوكها اتصل بكل طمأنينة الى قسمة الارضين التي نزل فيها الاثنا عشر سبطاً . فكان الاسباط التي حلت في ارض لبنان ثلاثة لا غير ما عدا نصف سبط منسى الذي كان قد اقام في عبر الاردن في اواخر منحدرات جبل الشيخ . وهذه الاسباط الثلاثة هي سبط نفتالي واشير ودان . اما الاخير فلم يصب على الحقيقة قسمته في لبنان ولكنه اقام بها في ما تأخر من الزمان مستعمرة مشهورة كما سيجي

ومن المشكلات تحديد التخوم التي كانت للسبطيين الاخيرين من بني اسرائيل في جبل لبنان . وذلك لان اكثر المدن التي ذكرها يشوع قد غابت اليوم عن الوجود ولاسيا لانه لم يذكر لها حدوداً مضبوطة على حد ما هو مألوف اليوم في الجغرافيات الحديثة ولكن اورد اسماء المدن وما يتبعها من الاراضي وربما كانت اراضيها داخله في اراضي غيرها من الممالك وذلك امر كان يقتضيه في تلك الايام تعدد الممالك الصغيرة . واما رؤوس المدن بل غيرها ايضاً كانت تطلق

على جميع ما هو تحت ولايتها من الاراضي . وهذه هي الحدود التي
يمكن تعيينها بوجه تقريبي لسبطي نفتالي واشير
ان قبيلة نفتالي كانت في عبر الاردن شرقاً فتبتدئ تخومها
من مدينة يهوذا القريبة من منابع النهر المذكور الى حد بحيرة ككنارة
(طبرية) وتتأخم من جهة الجنوب قبيلة زبولون ومن الغرب قبيلة
اشير

اما حدودها من جهة الشمال فكانت في الراجع عند الوادي
الذي يُسائر جبل حرمون (وادي التيم) وجبل عيون الواقع
غربي هذا الوادي ثم نهر الليطاني (١)
ان اخص مدن نفتالي التي بقيت منها الى الان آثار تدل عليها
هي قادش او قادش نفتالي (وتسمى اليوم قدس) وحاصور (وتعرف
اليوم بحصيرة) وعين حاصور ويروئن ورامه (في جنوبي اليرموق)
واصاب بنو جرشون من عشائر اللاويين ثلاث مدن وهي قادش
ومحاجرهما وحملت دور ومحاجرهما وقرتان ومحاجرهما (٢)
وكانت قادش في شمالي الارض المقدسة من اكبر المدن التي

(١) ٣ ملوك ١٥ : ٢٠ - ٤ ملوك ١٥ : ٢٩ - ٢ اخبار

الايام ٤ : ١٦ (٢) يشوع ٣٢ : ٢١ - ٣٢ : ١٩ وما يليه

يلجأ اليها بنو اسرائيل وكل غريب نازل فيما بينهم ويهرب اليها كل قاتل
 نفس سيوياً فلا يموت من يد ولي الدم الى حين وقوفه امام الجماعة (١)
 على ان في جعل موسى بعض المدن ملاجئ للقتل حكمة عظيمة ادركها
 من جاوره من الامم فاتبعوا سنته وامنوا كل قاتل لاذ بهيا كلهم
 وهكذا اهل هذا الزمان ايضاً فانهم لا يضرون من استجار بمعابدهم
 ومساجدهم شيئاً ووجه الحكمة في هذا الترتيب الذي سنه موسى
 واضح لان شريعة القتل كانت في ذلك الزمن سائغة اذ كان لكل ذي
 رحم حق في ان يقتل قاتل ذي رحمه . فوجب من ثم وضع مثل هذا
 الامر تلافياً لما يقع من حوادث القتل الكثيرة ظلماً وعدواناً

اما قبيلة اشير (اشير ثامن اولاد يعقوب ومعنى اسمه السعيد)
 فنزلت في الشاطئ البحري الى حد الكرمل الذي اتصلت في ارجح
 الظن الى امتلاك معظمه . ولعابها قد امتدت شرقاً الى وادي قيشون
 الى تخوم زبولون عند حد الارض القديمة لصيدون او فينيقية (٢)
 وكان يحدها من الشرق تخم نفتالي بقرب السنديانة المسماة اليوم القزوة
 وكانت من الشمال منتبهة الى صيدون الكبيرة ومدينة صور المحصنة
 ولكنها لم تتوصل مطلقاً الى افتتاح جميع القسمة التي عينت لها ولذلك

وقفت حدود اراضيها الحقيقية في جهة الغرب عند الجبال المطيقة بعكاء
 وصور لان تلك السهول بقيت ولا شك في يد كنعاني فينيقية . ومع
 هذا فقد كان ممكناً للاشوريين ان يمتلكوا الرابي التي في منحدر الجبال
 ويزلوا ايضاً في قسم من السهل المشار اليه . ولكن تخمهم لم يكن ليتجاوز
 كثيراً الاماكن التي تسمى اليوم كابول وعمه وبصة ووادي القمح وهي
 ارض كثيرة الخصب حسنة الموقع . واليها اشار يعقوب في نبوآته بقوله :
 اشير طعامه دسم وهو يُعطى ملذات الملوك (١) وكان موسى ايضاً
 قد انبأ بغنى اشير قال : مباركاً يكون اشير بين البنين مرضياً عند اخوته
 وفي الزيت يغمس رجله نعلك الحديد والنحاس ومدى ايامك
 راحتك (٢) ومن هذا تعلم ما كانت عليه الارض التي وقعت في
 نصيب اشير من الخصب والريف

اما تخم هذه القبيلة شمالاً فالدلائل متظاهرة انه لم يتخطَ مطلقاً
 مجرى نهر الليطاني . وامام الجرى المشار اليه لم نقف على اقل اثر
 للبرانيين مع ان الآثار اليهودية والتقليدات الربية كثيرة جداً في جنوبي
 النهر المذكور . نعم يمكن رفعها الى الازمنة الاولى من احتلال

(١) تكوين ٤٩ : ٢٠ (٢) تشيعة الاشتراع ٣٣ :

الاسرائيليين (١) ولكنه يمكن القول بالظن الراجح ان نهر الليطاني ومضايقه العماق هي الحد الطبيعي والتاريخي الذي لم يتخطاه الاسرائيليون مطلقاً الى لبنان ولو انهم كانوا وعدوا لبنان بكامله

واخص مدن اشير التي لم يكتشف لها الى الان اثر هي : اكشاف وكابول وامنية وقنة (بالقرب من صور) وحمون (وتعرف اليوم بحامول عند الراس الابيض) واما اللاويون من عشيرة جرشون فاصابوا في هذا السبط اي سبط اشير اربع مدن وهي مشال ومحاجرها وعبدون ومحاجرها وحلقت ومحاجرها ورجوب ومحاجرها (٢) . غير ان هذا السبط وان كان قد اخذ احسن قسمة واجل نصيب من تلك الارض ضرب عليه الخمول استاره حتى لم يظهر منه قاضٍ ولم يفز في لقاء لان الفينيقيين كانوا قد ذلّوه ولاشوه . ولم يميّز منه احد بآثرة الا حنة ابنة فنوثيل التي قال عنها الكتاب انها كانت لا تفارق الهيكل متعبدة بالاصوام والصلوات ليلاً ونهاراً وانها كانت تعترف للرب

(١) ان المعابد اليهودية التي هي اخص آثار الاسرائيليين لا يرتقي تاريخها الا الى عودتهم من الجلاء

(٢) يشوع ٣١ : ٢١

وتحدث عنه كل من كان ينتظر فداء اسرائيل (١)

ان سبطي اشير ونفتالي اصابا احسن قسم من الارض الموعودة ولكنهما كانا مقابل عدو شديد عظيم القوة ذي عبادات فاسدة ومادات غير قوية فكان يخشى من تسرب عباداته اليهما كما يخشى من فتكه وصولته

وفي القرن الخامس عشر قبل المسيح (١٥٠٠ - ١٤٣٠) وقعت بين الفريقين تلك الواقعة التي اضطربت لها جميع ممالك لبنان بل وصل تأثيرها الى الشرق والغرب . وعقبت تلك الواقعة جملة سنين تصرمت بالسلام والامن . ولكن ذلك السلام لم يكن الا سلاماً ظاهراً قضت به ضرورة الاحوال . سلام اضطراري كانوا يتهيئون في خلاله لاستئناف القتال باشد من قبل . فان الكنعانيين في النخوم الشمالية كانوا مقيمين في المدن التي امتنعت على يشوع او التي جددوا بناءها من غير ان يتعرضوا باذى لجيرانهم الاسرائيليين لمعرفة انهم لم يزالوا قاصرين عن التصدي لمن كانوا قد جددوا جبابرتهم وتركوهم صرعى في ميدان القتال (٢)

ولو ان الاسرائيليين ثبتوا على السلوك في السبل القوية لما كان

الله ترك فتحهم ناقصاً ولكن اسلم شعبه الذي يحبه جميع ارض لبنان
وان صفة الامانة لله التي كانت راسخة في اذهان الاسرائيليين صارت
ولا شك مجلبة لنجاة العالم القديم وخلاصه . لان العبرانيين كان بيدهم
اذ ذاك ترتيب حالي الارض من خير وشر فلو انهم كانوا قد استولوا
على جميع الثغور الفينيقية وقبضوا على زمام الملاحة لكانوا نشروا في
الارض حضارة روحية مبنية على اعتقاد الاله الحق بدلاً من تلك
الحضارة المادية المبنية على عبادة الاوثان التي كان يبشها اولئك
الكنعانيون في ارجاء البسيطة . ولو كان الاسرائيليون ضموا الى قوتهم
قوى ممالك لبنان لكانوا تمكنوا عند اجتماع القوتين من ان يضموا في
مملكة واحدة عبرانية جميع الاجزاء المتفرقة في اسية الغربية . ولـكانوا
استطاعوا ان يصدوا عنهم هجمات مصر واشور وربما توصلوا الى
فتح هاتين المملكتين واصابوا السيادة برّاً وبحراً ومدّوا في العالم نفوذهم
وشوكتهم القوية بل الخلاصية وادخلوا في كل موضع عبادة وشريعة
الاله الحق

وان ما ذكرناه بوجه التقدير قد ورد التصريح به على لسان
الانبياء (١) الا ان فساد ذلك الشعب الذي استودع مواعيد الله

قضى بملاشاة جميع تلك الآمال والمقاصد التي قصدتها الله لطفًا
 بالبشرية (١) قال الرب: احفظوا انتم رسومي ولا تأثوا شيئاً من
 هذه الرجاسات. اذ جميع هذه الرجاسات صنعها اهل الارض الذين
 من قبلكم فتنجست الارض. لئلا تقذفكم الارض اذا نجستموها كما
 قذفت الامم الذين من قبلكم (٢)

الفصل التاسع

١

في التجاء الكنعانيين الى جبل لبنان
 لما دخل العبرانيون ارض كنعان كان عدد سكانها في ارجح
 التقديرات اربعة او خمسة ملايين لان الكتاب المقدس يثبت انهم
 كانوا اعظم واكثر عددًا من الاسرائيليين وكان الاسرائيليون ثلاثة
 ملايين. والحرب التي اصلاها عليهم يشوع باصر الرب لم تستأصلهم
 عن اخرهم كما تشعر به نصوص الكتاب المقدس. لانك اذا استثنيت

(١) القديس هيرونيم في شرحه على الفصل العشرين من نبوة

حزقيال (٢) احبار ١٨ : ٢٧ و ٢٨

بعض مدن اخذت عنوةً فضرب جميع سكانها بحمد السيف علمت ان الكنعانيين انما كفل الفرار بنجاة العدد الاكبر منهم . وهكذا كان مقصد الله عز وجل فانه صرّح مراراً بوجوب مضايقة الكنعانيين حتى يضطروا الى مغادرة اوطانهم شيئاً بعد شيء والفرار الى غيرها من الاماكن

ولذلك كان الله يلقي الرعب في قلوبهم عند دنوّ شعبه منهم ويسلّط عليهم الضربات والوحوش الضارية والزناير وغير ذلك (١) ولا يبعد عن الصدق القول بان الكنعانيين الذين هلكوا او لبثوا في فلسطين لما فتح العبرانيون الارض المقدسة كانوا نحواً من نصف مليون

٢

مصير الكنعانيين الى لبنان والارواديون

فإذا كان اذاً مصير سائر الكنعانيين الذين يربون على ثلاثة ملايين . هذه مسألة في اعلى مكان من الاهمية بالنظر الى تاريخ لبنان القديم . اعلم ان الكتاب المقدس لا يذكر شيئاً عن تفرّق القبائل

(١) خروج ٢٣: ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ — تثنية ٧: ٢٠ و ٢٢

— يشوع ١٢: ٢٤ و ١٨ . واخبر اليان ايضاً (Hist. anim. XI, 28)

ان الفلسطينيين اي الكنعانيين اضطرتهم الزناير الى مغادرة اوطانهم

الملعونة من نسل كنعان ولكنه سكت عنهم بعد تشتتهم كما لو انهم كانوا قد استصلوا عن آخرهم. اجل انه ذكرهم فيما يلي مراراً كثيرة ولكنه اذا اراد من استمروا منهم في مواطنهم الاصلية او الفينيقيين الذين كانوا قد عمروا ثغور لبنان البحرية قبل قدوم شعب الله. واذ قد امتنع علينا الاستعانة بأنباء الكتاب فيما يتعلق بهذا الشأن تحتم ان نستنطق الاحوال والتقاليد لعلها تهدينا الى ما تتجلى به الحقيقة

لما طرد الكنعانيون من الجنوب الى الشمال لم يتمكنوا اولاً من الفرار الى بلاد العربية التي كانت مسالكها مسدودة في وجوههم ولكن عدداً يسيراً صار الى ثغور فلسطين (١) فاقام هناك او جاز الى مصر او لبيبة لما كان بين تينك الامتين من الانقسام. وعليه فان معظم المهاجرين شخص صوب لبنان مستجيراً بجباله فوجد الطرق مفتوحة امامه ولاقى فيه ملاذاً يأمن به من هجوم اعدائه الذين القوا الرعب في قلبه

واول قبيلة كنعانية لم يمر عليها زمان طويل في لبنان حتى اصاب قسماً من العزة كافياً انما هي قبيلة الاروايين. وهذه القبيلة التي تنتسب الى تاسع اولاد كنعان كانت قليلة العدد في اول

امرها وقد لبثت دهرًا بين القبائل الكنعانية غير ذات شأن وبال لاننا لم نَرَ قط في الكتاب المقدس لا ذكرًا لارضها ولا لما تقلب عليها من حوادث الزمان وانما ذكر فقط اباهما الذي تنتسب اليه عند تعداد بني كنعان (١) نعم ان بعضًا من المؤلفين توهموا انه هو عراد الملك الذي قاتل الاسرائيليين مريدًا منعهم عن الدخول في الارض المقدسة فكان اول من قتل من ملوك الكنعانيين (٢) ولكن بين الاسمين فرقًا لا يسوغ القول بوحدهما. واطن ان الحامل لهؤلاء على ما قالوه انما هو تشابه الاسمين كتابةً في لغات المغرب ولم ينظروا الى اختلافهما من هذه الحثيثة في اللغة التي نُقلا عنها

فالكتاب المقدس اذاً لم يأتِ مطلقاً بذكر قبيلة ارواد قبل الفتح الاسرائيلي كما انه لم يورد اسمها على حد غيرها من بعض القبائل الكنعانية في جملة الامم التي امر شعبه ان يتقدموا باهلاكها وذلك اما لقلّة ما كان لها من الاهمية وقتئذٍ واما لانها كانت داخلة في قبيلة اخرى اعظم منها. وتلك الجزيرة الصغيرة التي اتخذتها لها سكناً

(١) تكوين ١٠: ١٨ - ١ اخبار الايام ١: ١٦

(٢) عدد ١: ٢١ و ٣ - ٤٠: ٣٣ - يشوع ١٢: ١٤ - قضاة

تثبت ما كانت عليه اوانشذر من قلة العدد. ومع هذا فانها بلا شك
قد اقامت اولاً بفلسطين وانحصرت في ضمن النجوم التي عينها موسى
لجميع بني كنعان وعين حدها الشمالي عند صيدون (١) لعامة العهد
الاول

فليس من وجه الريب اذا في ان قبيلة ارواد اتخذت اول مقام
لها في الجزيرة التي تنسب اليها. وليس لنا من نبي اكيذ يدل على زمن
معين انتقل فيه هؤلاء القوم الى الموضع المذكور ويمكن التقدير بان
انتقالهم كان في ايام تزل فيها بهم من البلايا والمخاوف ما اضطرهم
الى مهاجرة ارض كنعان وطنهم. وليس من ايام تاريخية تحوج الى
المهاجرة مثل ايام غارة الاسرائيليين التي قضت بالتشتت في العالم القديم
على ذرية كنعان

والظاهر ان قبيلة ارواد الصغيرة توجهت اولاً نحو صيدون حيث
حسبت انها تلاقى امناً وملاذاً. ولكن الفارين كانوا قد تقاطروا الى
صيدون من كل مكان حتى ضاقت بهم ولم يعد مستطاعاً لها ان
تقوم بكفائتهم وفي ارجح الظن انها قدمت لهذه القبيلة التي وفدت
عليها اول الجميع مراكبها البحرية موعزة اليها ان تسير بها اترتاد محلاً

يوافق سكانها . فزلت القبيلة المشار اليها في تلك المراكب الصيدونية
 واخذت تشق مياه البحر حتى اداها المطاف الى جزيرة غامرة تبعد نحواً
 من اربعين ساعة فاختارتها مقاماً لها . وقد حفظ ابناؤهم حتى في
 اواخر اجيالهم ذكر الجميل الذي جادت عليهم به مدينة صيدون . وعلى
 ذلك فانهم كانوا يحسبون نفوسهم كما قال استرابون (١) كشرّد
 صيدون خالطين بهذه العبارة المبهمة امر اقامتهم بارواد مع هربهم
 من فلسطين ومساعدة صيدون لهم . وهذا التقدير الذي قدرناه يظهر
 لنا انه موافق لجميع الانباء التي لدينا في شأن اقامة قبيلة ارواد
 بجزيرتها (٢)

ان هذه الجزيرة التي تبعد عن البرّ نحو ألفي متر لم تكن اذ ذاك
 الا ارضاً ذات صخور لا نبات فيها . اما التربة التي تجدها الان في
 شرقها وجنوبها فما هي الا رمال مجتمعة في المرفأ القديم وانقراض
 مركومة من بقايا البناءات الخربة . وعليه فلم يكن في هذا الصخر الجرد
 القائم فيما بين المياه الا مقام ضيق على هيئة بيضية تحترقه ربوة صغيرة

(١) استرابون ١٥ : ٢ و ١٣

(٢) قد نقضنا فيما مضى اقوال علماء الآثار المصرية الزاعمين
 ان الاروايين كانوا في شمالي لبنان فلا حاجة الى العودة الى ذلك

يبلغ سطحها مسافة ثمانمائة متر طولاً في خمسمائة عرضاً ومن ثم
فكان ينبغي للرضى بهذا الصخر القاحل مقاماً صبراً وتجدد وشجاعة او
ضرورة محوجة

ومن ثم جدّ هولاء القوم المهاجرون في الاشتغال بذلك الملاذ
الذي اتخذه مأمناً لهم من اعدائهم ناورين ان يحولوا صخوره القاحلة
الى مرفأٍ بحري يكون محطاً لتجارات القسم الشمالي من لبنان. فاخذوا
يقطعون من صخوره الكبيرة حجارةً يبنون بها مدينتهم ولم يلبثوا طويلاً
حتى كثر عدد البيوت واحاطوا الجزيرة بسور منيع علوه نحو عشرة
امتار يقيمهم بمرّة واحدة من مهاجمة عدوّ ومن طغيان مياه البحر.
والآثار الماثلة منه الى اليوم هي من اعظم ما يُرى من البنايات
الفينيقية القديمة كأنها برهان عياني على قدم هذه البناية (١) وفي
الجانب الغربي من الجزيرة خليج صغير لم يزل الى اليوم احسن

(١) ان أساس السور القديم ظاهرة الى اليوم حول الجزيرة
وقد كانت مبنية على الصخر او على اشغال مصنوعة في البحر لاجل
تنظيم المداميك ومحيط الجزيرة وحتى لا يضيع شيء من اجزاء سطح
الجزيرة. وبعض القطع العظيمة الراكزة الى اليوم في امامها يبلغ
طولها ثمانية عشر متراً في ثلاثة ثمانية - رنان في بعثة فينيقية ١ : ١

مرسى في سورية فجعله هولاء السكان الاولون مرفأً اميناً ومحصناً. ولا شك انهم لم يتقاعدوا عن الانتفاع بتلك الجزيرة الصغيرة القريبة من جزيرتهم وهي التي تدعى اليوم بالحلبس اذ فيها الى اليوم آثار بنايات قديمة (١) ولا تمكن حال الاروادين على هذه الصفة لم يلبثوا مدة حتى اصابوا سعادة عظيمة ونشروا لواء سلطانهم على الثغور التي تجاورهم وملاؤها من معاملهم وعمروها بالمهاجرين منهم واقاموا فيها مدناً زاهرة اتتهم بغاية المنفعة واعلمت مقدرتهم. واصبحت مملكتهم من اكبر ممالك فينيقية شوكة وعزة

٣

زمن تأسيس ارواد وآراء المؤرخين في ذلك بقي علينا قبل ان ننتقل الى الكلام في بقية المهاجرات الكنعانية الى لبنان ان نتكلم عن زمن تأسيس ارواد لانه من الامور المشككة التي ينبغي التصدي حلها . ترى هل نكتب شططاً ان قلنا انها

(١) لو توصلنا الى معرفة التاريخ الذي يرتقي اليه هذا الاسم لامكننا التقدير بان اهل ارواد الاولين جعلوه محبساً للجرمين منهم. ولكن الاسم ثبت قلما يكون ان المكان المذكور كان محبساً ايام ولاية العرب

اسست عقيب الفتح الاسرائيلي ؟ ولكن جلةً من المؤرخين يعدونها
احدث من ذلك العهد الذي ندعيه لها بكثير

وهكذا قال قوم من كبار كتبة التاريخ في عصرنا وبعضهم زعم
انها بنيت حينما استولى الاشوريون على لبنان (١) وقد اتوا لاثبات
دعواهم بادلة هي في الظاهر متينة . فان اوساب في كتابه كروسيكون (٢)
قال ان تأسيس مدينة ارواد كان في السنة الرابعة من الاولمبيادة
السابعة اي في السنة ٩٤٧ قبل المسيح . وكذلك اسطفان البزنطي وغيره
من الكتبة الذين هم احدث عهداً من اوساب قد اثبتوا صحة هذا القول
ومع ان هولاء المؤرخين لم يأتوا بنبا يصلح لان يكون دليلاً تاريخياً
او تقليدياً الا انه لا يمكن اطراح كلامهم من غير اسباب داعية . فاذا
صح ان نقول اجلاً لشهادتهم ان ارواد طراً عليها اصلاح او تكبير
في ذلك العهد ~~كسائر~~ المدن اخواتها فان لدينا مع ذلك ادلة جلية
لا تسوغ لنا ان نسلم بان هذه المدينة لم تكن قد بنيت قبل الزمان
الذي ذكره بمدة طويلة

انك اولاً ترى تناقضاً غريباً بين المؤرخين فانهم يزعمون مشايعة

(1) Movers, Die Phonizern. I, 12.

(2) Euseb. Arm. Chron. Lib. II. Canon. Olymp. 7.

لثلاث يوسف (١) ان سكان جزيرة ارواد هم حقيقة من ذرية ارواد ابن كنعان ثم يقولون تبعاً لاسترابون ان الذين بنوا الجزيرة المشار اليها قوم هربوا من صيدون لم يكن لهم من اتصالية مع قبيلة ارواد وكان ذلك بعد ان هبطت صيدون عن رفيع مقامها ومضى على سقوطها امد طويل . وفي ذلك ما فيه من الخلط التاريخي . ولا يتأتى القول بان مؤسسي ارواد قدموا من الثغر البحري القريب منها كما يتبادر للذهن في اول وهلة . لان الشاطئ المقابل لها ليس فيه ادنى اثر يدل على ان الارواديين اتخذوه مقاماً لهم في اول الامر . ولا ننسى ان هنالك ثلاث مدن مسماة باسم ثلاث من القبائل الكنعانية وكثرة ليس فيها ما يشير الى الارواديين الا مدينة انطربوس . الا ان هذه المدينة لم تؤسس الجزيرة مطلقاً بل بعكس ذلك بُنيت بعدها بزمان طويل . وفضلاً عما تقدم فان جميع الانباء التاريخية والتقليدية تشهد شهادة متفقة ان ارواد لم تبناها مدينة من مدن الثغور التي حولها بل بضد ذلك قد استت فيما يلي من الزمان جميع المدن التي كانت تحت ولايتها . او ليس ان مدينة طرابلس التي كانت مركز المحالفة الفينيقية والتي بنى اهل ارواد اعظم قسم فيها دليل على ان الجزيرة المذكورة

ترتقي الى قدامة اعرق ما ذهب اليه المؤرخون . وهل يصدق ان
المخالفة الفينيقية التي اشار اليها حزقيال النبي (١) بصريح العبارة لم
تنعقد الا عندما دانت فينيقية لاشور وزال عنها استقلالها . وهل
يحتمل ان المفتحين صبروا على انعقاد تلك المخالفة الجاهرة بعداوتهم
والعمل على قلعهم . كل ذلك مما يُجاب عنه بالنفي وليس من وجه
لصدقه . وعليه فان طرابلس وارواد كانتا قبل ذلك بزمان طويل
اما طرطوس التي هي ابعد من طرابلس فقد أدت شهادة نفيسة
على قدامة ارواد . لان طرطوس التي تعتبر من اقدم مدن العالم (٢)
كانت بلا ريب مهجراً للفينيقيين في عهد متقادم والحال ان ديون
كريزستوم لما خطب في اعيان طرطوس ذكرهم بشرف تسلسلهم
عن اهل ارواد مصرحاً ان الارواديين هم الذين بنوا مدينتهم (٣)
وعليه فان هذا التقليد كان شائعاً في طرطوس . اما الآثار الاشورية
والمصرية فيتحذ منها ادلة وحجج اقوى مما تقدم اثباتاً لقدامة ارواد
ففي متحف بريطانية مسألة مخطمة تمثل دخول تغلت فلاسر الاول مع
جيوشه الى جبل لبنان وتثخن فتمه لجزيرة ارواد . « فركب سفينة
من سفن هذه المدينة يريد الصيد في البحر وذلك امر لم يسبقه اليه

(١) حزقيال ٢٧ (٢) نون وديونيس ٨٥ : ٤٠
(٣) Dio Chrys. Orat. XXXIII

احد من ملوك اشور. ثم سطر في عداد مفاخره انه قتل خنزيراً بحرياً بيده» (١) فلم يبقَ اذاً لاثبات قديمة المدينة الا ان يعين زمن ملك تغلت فلاسر الاول. والحال ان القوم مختلفون في ذلك فقال فريق انه ملك في القرن العاشر اي سنة ٩٥٠ للمسيح وزعم آخرون انه ملك في القرن الثالث عشر وقالوا انه لما كان قد افتخر بفتح مصر استحال ان تُطبق في ذلك العهد اثار مصر على اثار اشور (٢) ومهما يكن من الامر فان مدينة ارواد كانت قد بُنيت قبل التاريخ الذي عينه اوساب بمائتي سنة في الاقل

واما اثار مصر فترتقي الى زمن اقدم لان الكتابات المؤرخة من ملك رعمسيس الكبير الي في القرن الرابع عشر قبل التاريخ المسيحي تجعل اراتو عند وصفها لآسية الداخلية في شمالي لبنان. وقد ذكرت هذه المدينة بعد ذلك جملة مرار في فتوحات الفراعنة (٣) ومن الاكيد ايضاً ان مدينة تُدعى اراتو قد ذكرت في جملة فتوحات طوطمس

(١) فرنسيس لترمان في تاريخه ٢٤٢: ٤

(٢) قيّان دي سن مرتين في المجلة الاركيولوجية ١٨٦٢

(٣) دي روجه في رسالته عن هجمات الاعداء على مصر نحو

القرن الرابع عشر - المجلة الاركيولوجية ١٨٦٢

الثالث الاولية وذلك في التواريخ السنوية الهيروغليفية التي كانت
للملك المذكور

ويُستدل من نفس الكتابة ان اراتو هذه ليست هي مدينة
ارواد اذ قد قيل فيها ان « طوطمس سلبها كل ما فيها من الحبوب
وقطع كل ما فيها من الاغراس » (١) والحال ان ارواد كانت فوق
صخر قاحل فمن اين لها ان تكون غنية بالحبوب او ان يكون فيها اغراس
ومن اين للعسكر البرتي كعسكر طوطمس ان يدخلها ويستولي عليها .
وعليه فان كتابات طوطمس الثالث انما تتكلم عن مدينة الرستن لا
عن مدينة ارواد

ولم تُشر الكتابات المصرية الى مدينة تُدعى اراتو قائمة على شطوط
فينيقية الا في ما تأخر من الزمن وفي تاريخ اقدم من التاريخ الذي
ذكره اوساب . ومن ثمَّ فان جميع انباء التاريخ متفقة على ان مدينة
ارواد بُنيت عقيب فتح الارض المقدسة وحلول شعب الله بها كما تقدم
القول . ولمنع موقعها تنعمت مدة طويلة بالسلامة والخصب وكان
سكانها قوماً اهل شجاعة واقدام حتى القوا هيبتهم في كل من جاورهم

(١) دي روجه في نص الكتابة المشار اليها — المجلة الاركيولوجية

وما لبث ان قدم الى جوارهم قبائل اخرى كنعانية من بني جلتهم
فاقامت بما والا هم من الثغور معترة بسطوتهم آملة انها تجد عندهم ملجأ
وملاذآ في آونة الخوف

٤

العرقيون والصاريون

واما العرقيون وهم بنو عرق (١) سابع اولاد كنعان فجاءوا
واقاموا بين ارواد ولبنان على ربوة ذات صخور مشرفة على سهل
جميل المنظر مقابل جون عكار. وتلك الربوة القائمة على مسافة نحو من
خمسة واربعين كيلومتراً صوب جنوبي ارواد ونحو تسعة كيلومترات
من البحر تسمى الى اليوم تل عرقة وفي اسفلها ايضاً جدول يُسمى نهر
عرقة واما القرية التي ترى هناك فما هي الا بقية حقيرة في وسط كثير
من الاخربة العظيمة. ولكن هذه الاخربة تكفيها كما قد كفت اكثر
المؤلفين للاستدلال بان ذلك الموضع كان قاعدة لقبيلة عرق الكنعانية
فجدت القبيلة المذكورة في فلاحه الارض خاصة وفرقت مستعمراتها
في معظم ذلك السهل حتى اتصلت بسعيها الى حالة حسنة وسعادة

(١) معنى عرقي الهارب او المطارد - تـ كوين ١٠ : ١٧ -

كبيرة. وكانت هذه المدينة تسمى قيصرية لبنان في ايام الرومانيين والصليبيين وكانت ذات شأن واهمية. ولم يمضِ على عرقة زمن حتى طحمت اليها مطاعم جارتها القديرة فاخضعتها لشرائعها وجعلتها كالعبدة لها تشتغل في حراثة الحقول لتقوم لها باقواتها

اما الصماريون وهم ابناء صمار (١) عاشر ابناء كنعان فاستوطنوا في مكان اشد قرباً من ارواد اي في السهل الذاهب من عرقة نحو الجزيرة المشار اليها. لان هذه القبيلة في ارجح الظن هي التي وُجدت في ما تأخر في هذا الموضع اي في مدينة صميرة (٢) . وهي مدينة قديمة ينبغي ان تكون نفس مدينة صميرة او صميرة القائمة بعيداً عن الشاطئ والنهر الكبير

والظاهر ان الصماريين بنوا غير هذه من المدن ايضاً لان في جهة

(١) معنى صماري الصوف او الفرع — تكوين ١٠ : ١٨ —

١ اخبار الايام ١ : ١٦ — وتوهم بعض المؤلفين ان الصماريين هم نفس السامريين وهو خطأ لان بين الاسمين فرقاً بعيداً

(٢) استرابون ١٦ : ٢٢ — بطليم ٥ : ١٥ — بلين ٥ :

١٧ — ميلا ١ : ١٢ — وقد دلت الآثار الاشورية على انها كانت

تسمى في القديم صمرون

الشمال مدينة أخرى تُدعى صخرة وذلك ما بين طرطوس والمرقب .
 والمقاطعة الواقعة فيها المدينة المذكورة تدعى صمرين وهو لفظ يقرب
 جداً من اسم صمار المنتسبة اليه قبيلة الصماريين . وظن بعضهم ان
 صمر جبيل كانت من جملة مهاجر الصماريين التي انشأوها في لبنان
 بارض الجبليين . وبعض المترجمين القدماء (١) حتى القديس
 هيرونيم (٢) ينسبون اليهم ايضاً اهمية اكبر مما مرّ مستشهدين على
 ذلك بالتقليد الذي يعزو اليهم تأسيس مدينة حمص (٣) وعلى هذا
 فان الصماريين قد بنوا اخص ممالك سورية المجوّقة من بعد سقوط
 قدس الكثيرة الشهرة في الآثار المصرية (٤)

(1) Targ. Hierosol ; — Jonathas et Onkelos; Version arabe etc.

(٢) القديس هيرونيم في مسائله على سفر التكوين ١٥ : ١٠

و ١٨ .

(٣) وقد ذكر في بعض ترجمات التوراة القديمة الى لغات المغرب
 ايندسة بدل حمص اي Edesse بدل Emesse اما طبعة رهبان
 القديس مبارك (Ed. Migne) فقد اصلحت هذا الغلط . وفي ظننا انه
 لا يبعد ان تكون حمص نفس قدس اي المدينة المقدسة المحكي عنها
 في الكتابات الهيروغليفية (٤) توهم البعض ان مدينة

السينيون

اما السينيون وهم ابناؤ سين (١) ثامن اولاد كنعان فاقاموا
 كالصاريين والعرقين في شمالي لبنان. قال القديس هيرونيم « كانت
 بالقرب من عرقة مدينة تدعى سيني Sini خربت بالحروب ولم يبق منها
 الا الاسم » (٢) وبروكرد الذي كان من رجال القرن الخامس عشر ذكر
 ايضا انه كان بالقرب من نهر عرقة مدينة تدعى سين او سينوخيس (٣)
 فنسبها الي قبيلة السينيين الكنعانية . وفي ايامنا نرى شرقي بانيس
 بالقرب من بلدة محلاً يسمى قلعة السين وهو حصن بناء الصليبيون ولم
 يزل مسمى باسم محله القديم . اما تقليدات الربيين المذكورة في ترجم
 انكلوس فتخبر عن السينيين انهم اقاموا ايضا بشمالي لبنان ولكن في
 محل اكثر اتجاها الى الجنوب اي في ارتوسية وهي مدينة بحرية

صيرة ورد ذكرها في بعوث طوطمس الثالث تحت لفظ طمارة .

ولكننا لا نعرف شيئاً اكدًا لا عن اسم هذه المدينة ولا عن موقعها

(١) معنى سيني الوحل او الدغل . تكوين ١٠ : ١٧ — ١ اخبار

الايام ١ : ٥ (٢) القديس هيرونيم في مسائله على سفر التكوين ف ١٠

(3) Brocard. Rudim. Novit: fol. 168; — Bridenbach. Itiner. an 1486, cité par Gesen. Thes. v. ٦٦٥

في سهل عرقة كانت ذات شأن واهمية في زمانهم (١) ولكنه
يمكن التقدير انهم انتشروا الى ابعد من هنالك في جهة الشمال حتى
وصلوا الى نهر السين الذي في ارض اللاذقية عند البحر . ويحتمل
ايضاً ان يكونوا قد انتشروا في لبنان . وتكلم استرابون عن ملجأ
للصوص في الجبل كانوا يدعونه سنّا (٢) ولا يبعد ان يكون قد
هاجر قوم من السينيين الى سفح جبل صنين فاقاموا هناك ودُعي الجبل
باسمهم

(١) وذهب اوساب بخلاف ذلك زاعماً ان اهل اورتوسيا
من سلالة الصماريين . وكانت اورتوسيا في ارجح الاحتمالات على مسافة
اثني عشر كيلومتراً من طرابلس في جهة الشمال وذلك على شاطئ
البحر بالقرب من مصب النهر البارد

(٢) استرابون ١٦ : ١٨ و ٢٠ . وبالقرب من صيدا ايضاً قرية
تدعى درب السين اي طريق سين وذلك اقعاً من تفسير طمس
لانه فسرهُ بطريق الصين (Routes de la Chine) ولعل فريقاً من
قبيلة السينيين تزل في وادي السنيق القائمة به قرية درب السين

الحويون والجرجسيون وغيرهم

وترجوم اورشليم يذكر شهادة قديمة عن التقليد اليهودي تحدد المكان الذي لجأ اليه الحويون. وقد ترجم اسم الحويين بالطرابلسيين دلالة على ان الجهة التي لاذ اليها الحويون في لبنان بعد طردهم من فلسطين كانت تدعى في أيام المترجم بطرابلسية لبنان (١) وعلى ذلك فان الحويين اقاموا بالسهل الذي رُفعت فيه بعد ذلك مدينة المحالفة الفينيقية

وذهب غليم الصوري ومن تابعه ان جرجاش (٢) خامس ابناء كنعان بنى بيروت ودعاها بلفظة مشتقة من اسمه اي جريش فصاغ اليونان منها بعد ذلك بريس Bérís او بریت Béryte كما قالوا بيل Byblos في جبل. فلوان هذه الشهادة كانت مستندة الى ابناء اكثر قديمة وافر احتمالاً لا يمكن عدّها كصدى لتقاليد قديم يؤذن بمهاجرة قسم من قبيلة الجرجاشيين الى سهل بيروت في عهد فتح يشوع. ومع

(1) Targ. Hier. Jonath. cité par Dom Calmet. Comm. du X^e ch. de la Genèse

(2) Quaresm. Elucid. in Terr. S. Tom. II p. 909 ; Adricom. Loc. Ext. 10.

ومعنى جرجشي المدرة والفخار والكثير العمل

هذا فلا شك ان قسماً كبيراً من هذه القبيلة لبث مقيماً عند بحيرة
الجرجسين (١)

٧

اقامة الكنعانيين بجبال النصيرية

ثم ان القبائل الكنعانية تواردت على الاقامة ببلبنان الجنوبي حتى
ملأته بالسكان فاضطرت بعد ذلك ان تتحوّل شيئاً فشيئاً الى شماليه
وتسطو على وهاده وتختلط في كثير من الاماكن بالفينيقيين والاراميين
النازحين هناك . اما الشعوب التي كانت ساكنة نحو منابع الاردن
تحت اسماء مختلفة فلم تضطر الى مهاجرة مساكنها الا تدريجاً بحسب
تقدم فتح الاسرائيليين . ولما رحلت مذعورة مما دهمها ورأت ما يتنعم
به سكان ارواد وجوارها من الراحة والامن اختارت الاقامة بالجبال
التي تحدها شرقاً . وهذه الجبال تدعى اليوم جبال النصيرية نسبة الى
اكبر قبيلة من سكانها الحاليين وعند هذه القبيلة تقليد اتصل اليها
من آباؤها خلفاً عن سلف وهو ان اجدادهم طردوا من فلسطين
طردهم يشوع (٢) واثباتاً لهذا الاصل ودلالة على الحل بقي الى

(١) متى ٢٨ : ٨

(2) Thomson, The Land and the book. XVI

ايامنا في سفح حرمون بوادي الحولة ثلاث قرى اعني بهنا عين فيت وزوراء وغجر يسكنها قوم من نفس النسل المشار اليه يشبهونهم في الهيئات والملامح بل عندهم نفس ما عند اولئك من العوائد والتقليدات الدينية والوطنية . ولكن هذا العدد القليل من العشائر الساكن في ذيل حرمون لبث متعلقاً اشد بالتعلق بوطنه الاول ليعرفنا بهذه الدلائل والمشايات والتقاليد ان النصيرية ما هم في الحقيقة الا جماعة من مهاجرة الكنعانيين

وربما كان البطوريون (١) ابناء اسماعيل من نفس ذرية الاسماعيليين الساكنين اليوم في الجبال المشار اليها . اما مهاجرة هذه الشعوب فكانت ضرورة بالقرب من الزمن الذي استولى فيه شعب الله قسراً على الارض المقدسة . ولما جاء العنصر الاسلامي بعد ذلك احدث بعض التغيير في الشعوب المذكورة ولكن من غير ان يتصل الى تدميرها

(١) البطوريون قوم من سلالة اسماعيل — ١ اخبار الايام ١ :

٣١ — فلما ضايقهم الاسرائيليون بالحروب والقتال تحولوا نحو الشمال الى

لبنان الشرقي حتى لبنان الغربي

وفي سفح المنحدر الشرقي من هذه الجبال التي صارت كنعانية قامت مدينة حماة الشهيرة التي تكرر ذكرها في التوراة مراراً عديدة والظاهر أنه يجب عدّها في جملة المدن الكنعانية وحسبانها منزلاً لقبيلة حماة آخر أبناء كنعان (١) ولكنه ثابت ان هذه المدينة أُسست قبل طرد الكنعانيين بزمان طويل

وقد قلنا في ما مضى ان هذه المدينة التي رحل اليها في ما بعد طارئة من الصيدونيين يظهر لنا انها ذات اصل ارامي رغمًا عما يوجد من المشابهة بين اسمها واسم ابن كنعان . لان الاسم لا يصلح ان يكون حجة كافية للدلالة على اصل مؤكد متى امكن تفسيره بالخلاف ولا سيما اذا كان هذا الامر في تناقض مع الانباء التاريخية . والحال ان حماة واقعة في خارج التحوم التي عينها موسى لقبائل الكنعانيين (٢) وعلى ذلك فمن العبث طلب توفيق الاماكن مع الترتيب الذي يسرد فيه موسى ابناء كنعان او بالحري عشائره فلو ان حماة كانت كنعانية لما تمكنا من معرفة السبب الذي لاجله وقفت

(٢) تكوين ١٠: ١٩

(١) تكوين ١٠: ١٨

تقوم الارض الموعودة للاسرائيليين عند ابوابها من غير ان تتخطاها .
ولما تمكنا ايضاً من ان نعرف لاي سبب لم يتقدم شعب الله باهلاك
هذه القبيلة الكنعانية كسار قبائل كنعان

٩

اليطوريون و بعلبك

وكان في لبنان الشرقي الى حد طريق حماة شعب كثير من
الحويين الذين كانوا مقيمين بجبل لبنان من جبل بعل حرمون الى
مدخل حماة (١) وقد تكلم استرابون عن هؤلاء السكان يطوريين
الذين ترتقي هجرتهم الى عهد متقدم قال « ان الجبل كله من عند
لاذقية لبنان هو مأهول بقوم منيطوريين والعرب وكلهم اردياء
والذين يسكنون السهل يتعاطون فلاحه الارض ولكنهم في اكثر
الافاق عرضة لغزوات الاولين ويحتاجون الى التعاون لاجل الدفاع
عن نفوسهم » (٢)

ان بعضاً من المؤلفين استدلوا من مباني بعلبك الجبارية على ان
العناقين والحويين والرفائين وغيرهم من الجبارة الذين غابت
اسماؤهم عن التاريخ بعد فتح اسرائيل قد لاذ قسم منهم بشمالى لبنان

الشرقي فبنوا او جددوا مدينة الجبابة هذه (١) وهذا كله مجرد تقدير وحس لان هذه المباني لم يكن ليتمكن تشييدها على غير الجبابة

١٠

الحثيون

ثم ان الآثار المصرية تقدم لنا ايضا نبأ مهماً في شأن اقامة الكنعانيين ببلبنان الشمالي في عهد حملة العبرانيين على الارض الموعودة اذ قد ذكر في هذه الكتابات منذ اوائل السلالة التاسعة عشرة شعب جديد يوشك ان لا يكون له قبلاً تسمية في تواريخ طوطمس الثالث وهو موصوف بأنه سكن شمالي سورية ونهض لقتال جميع قوات المفتحين المصريين . ويسمى خيتا (Kéta) في الكتابات الهيروغليفية وختي (Khatti) في كتابات اشور السامرية

ان طوطمس الثالث لم يكن وجد بعد في وادي العاصي الا شعب الروتن كما تقدم اثبات ذلك . ولكن رعمسيس الاول وخلفاءه هم الذين وجدوا هذا الشعب الجديد . قال المسيو ليرمان ملخصاً آثار رعمسيس الاول وخلفائه « كان عند عدوتي نهر العاصي في كامل الارض الواقعة بين ضفة الفرات الشمالية وجبل ثور والبحر (وهي جهة

كان قد اعرض عنها المفتحون المصريون الى ذلك الحين) مملكة الحيتا الذين من ذرية كنعان . والظاهر من امرها انه لم يتعرض لها احد من ملوك مصر المسمى كل منهم طوطمس وامنلوب . فهذه القبيلة صارت في وقت قريب قوّة جداً حتى نشرت لواء سلطاتها على القبائل التي تجاورها ومدت ايضاً نفوذها حتى الى جنوبي اسية الصغرى . ولما كان الحيتا الذين هم من سلالة الرعاة ذوي مملكة واحدة واصحاب جيش عديد تاقوا الى التسلط على عامة سورية وان يستحقوا سلطان مصر الخارجي مقابلة لما كان قد فعله احمس » (١) فكيف يُفسر ظهور هذا الشعب العظيم بغتة في وادي العاصي . فان كان هؤلاء الحيتا هم نفس الحثيين أفلا يكون ذلك دليلاً على ان هذه القبيلة برمتها كانت مقيمة بارض كنعان . وانكر قوم كون الحيتا هم نفس الحثيين اما لان وطن الحثيين هو فلسطين واما لانه مذكور عن واحد من هؤلاء الحيتا انه ذهب بقبيلته الى طوطمس الثالث الى ما بين النهرين (٢) ولكننا اذا سلمنا بوقوع المهاجرة الكنعانية التي تقدم الكلام فيها فان التوفيق بين الحيتا والحثيين مع نشأة قبيلة كبيرة

(١) فرنسيس ليرمان في تاريخه ٣ : ٣

(٢) بولس بوشر في المجلة الاركيولوجية سنة ١٨٦٤

كنعانية تتسلط على شمالي لبنان لا يتولد عنه شيء من المشكلات الجدية لأنه لم يكن يمتنع في زمن طوطمس الثالث على واحد من حثي فلسطين ان يذهب ويقدم بنفسه قبيلته في جهة ما بين النهرين التي كان ملك مصر قد فتحها حينئذٍ خصوصاً وقد ذكر عنه انه كان مصحوباً بقوم من العرب والاراميين . وكثرة فيما بعد ذلك هاجرت القبيلة المذكورة متقلة من ارض كنعان الى شمالي سورية . ولما اختلط هؤلاء المنهزمون بالاراميين الذين كانوا آهلين تلك الناحية وهبوا اسمهم ونفوذهم للممالك المنشأة في وادي العاصي وفي ما جاوره وانشأوا محالفة عظيمة قابلة لرد هجمات جميع المفتحين من مصر . فقد ظهر لك من هذا سهولة التوفيق بين هاتيه الحوادث

ومع هذا فلا ينبغي ان تنسب جميع هاتيه القوة والعظمة الى قبيلة الحثيين بمفردها مهما قُدر عددها (١) والآثار المصرية تذكر بالقرب منهم في وادي العاصي قبيلة الاموريين . وكثرة من عهد ابراهيم لم يكن الحثيون يسكنون اكبر قسم من فلسطين فقط (٢) بل كان اسمهم يدل ايضاً في اكثر المرات على جميع الكنعانيين (٣) . ولا

(١) الحثيون هم ابناؤا حث اي الهول ثاني ابناؤا كنعان

(٢) تكوين ٢٣ (٣) تكوين ٢٧ : ٤٦ - ٢٨ : ١٤ - يشوع ١ : ٤

شك فان الكنعانيين الذين لجأوا الى شمالي لبنان اطلق عليهم المصريون القليلي المبالة بالاسماء الغريبة هذه التسمية بالمعنى المشار اليه . وهوؤلاء الحثيون المقيمون بالشمال مع ملوكهم وممالكهم ليسوا بغير مذكورين في الكتاب المقدس : فانهم تحالفوا مع سليمان وكانت لهم يد ايضا بالحوادث بعد ذلك العهد بزمان طويل (١) واما المصريون فترجموا هذا الاسم الى لغتهم الهيروغليفية بلفظ خيتا . وكان ينبغي مع ذلك ان يكون لقبيلة الحثيين اكبر قسم من هذه الممالك القديمة التي استمرت زمانا طويلا . هذه اذا القبيلة التي تسلطت بسطوتها على وادي العاصي

١١

ارجعية الكنعانيين في لبنان

وهكذا كانت اول نتيجة عن تراحم الكنعانيين المغلوبين على الرحيل الى ارض لبنان فانتقل السلطان من ايدي آرام الى ايدي كنعان وكان الاراميون الى ذلك الحين يعمرن جميع الجهة التي سميت من بعد بسورية المجوفة ويشغلون بواسطة القبائل الجبلية والبيروتية معظم ثغور لبنان

ويستدل من الحكايات القديمة ان جبل هي التي كانت صاحبة

الإرجحية في لبنان سواء كان ذلك من حيث اقتدارها او من حيث تجارتها. على ان وصول شعب برمته من نفس ذرية الكنعانيين شدد قوتهم والتي اليهم مقاليد السلطان الاكبر واعلى مكانتهم وسطوتهم بما لا مزيد عليه وغير تغييراً تاماً حالة تلك الجهة من حيث السياسة والتدبير. ثم انتشرت القبائل الكنعانية ونشأ عنها شعب مختلط كانوا يسمونه متأخراً بالشعب السوري الفينيقي (١). ومع ذلك فان الممالك الكنعانية ابت فيما ولي من الزمن ان تقبل في جملة حليفاتها لا مدينة جبل ولا مدينة بيروت فتسلط الكنعانيون بمفردهم تحت اسم فينيقيين على الجهة المذكورة محزين اعظم قسم من الغزاة والمجد ولكن هؤلاء الكنعانيين كانوا قد قدموا الى لبنان مستصحبين مساوئهم وعباداتهم الشريرة. اما القبائل التي كانت تسكن في اسافل لبنان واعاليه فقد كانت بلا شك اكثر نشاطاً وعملاً واقل غناء وسعياً وراء الشهوات الحسية فلذلك حافظت اكثر من غيرها على الاستقامة الطبيعية وحسن الآداب ولم تكن قد اطلقت بعد انفوسها عنان الاميال الفاسدة التي كانت لنسلها. ذلك امر يستتبع من حفظ الله لهم برحمته بينا انه اسلم اخوانهم بعدايم للهلاك بسبب كثرة مآثمهم. غير ان الذين كانوا قد افلتوا من عدل الله انتشروا بينهم من غير ان

بتركوا طرقهم الفاسدة حتى دنسوا منزلهم الجديد برجاسات وثلثتهم ونشروا بين السكان الاقدمين سوء تصرفهم وبثوا الشر في اعقابهم حتى صارت فينيقية في اواخر الوثنية من اعظم جهات الارض فساداً

ومع ذلك لم تنتشر رذائلهم الا انتشاراً بطيئاً لانه لا شبهة في ان الفينيقيين كانوا احسن السكان من حيث تعاليمهم وآلهتهم . وما كان عندهم من النشاط والحمية والاقدام لا يدل مطلقاً على انهم كانوا شعباً منفسد الآداب . بل كانت خلائقهم بعكس ذلك جافية دالة على العز والأنفة وكان عندهم من الصفات والفضائل الطبيعية ما يستوجب العجب ويورث الاندهال وهذا السر الحقيقي في استمرار سعادتهم زماناً طويلاً . والله الذي لا يبغض شيئاً مما خلقه شاء ان يجازي الخير الذي وجده في هذا الشعب الكنعاني او الفينيقي رغماً عن اللعنات التي كان قد لعن بها نسله ولهذا كافأهم باحسن خيور هذه الدنيا فادام لهم السعادة عصوراً طويلاً ومتعمهم بمملكة متسعة وطوقهم بقلائد المجد والغنى . هذا فضلاً عن ان القصص الذي اثره بهذا النسل كان قد اخذ جهرة غضبه . واكبر نتيجة نجمت عن تراحم الكنعانيين في لبنان انما هي سرعة انتشار سعادتهم المادية وامتداد تجارتهم ومستعمراتهم . وسنبحث عن ذلك في الفصل الآتي

الفصل العاشر

١

في المستعمرات الاولى اللبنانية

المستعمرات ابهج مجد سطع سناؤه فوق هامة فينيقية بل المع
الاشعة المنبعثة عن توقد ذكائها واشتعال جذوة الفطنة في رجالها .
كيف لا وقد كانت اكبر مورد لسعادتها واعظم منبع تفجرت منه
مياه عظمتها واقوى دعامة لقيام سوق تجارتها وبسط لواء سلطتها .
وكانت الشعوب في تلك الايام لا توجه لها همًا الى سوى التخریب ولا
تفكر في غير العيث والافساد ولم يكن بينهم من تعلق باسباب الحضارة
وتمسك باهداب التمدن وأدى الى اكثاف المدر الا الشعب الفينيقي
وبعد ان حرم الله الكنعانيين ارضاً دنسوها برجاساتهم وما آثمهم
عاد بعد اترال ذلك العقاب الشديد بهم فا قال عثرتهم برحمته وسلم اليهم
حكومة الدنيا وجعلهم آلات لانشاء اول حضارة عملت في مجموع
الامم عملاً قوياً . فبواسطتهم انعطف الرب ووقع الاتصالات المتواترة
بين الشعوب المنبثة على ظهر البسيطة ووجه افكار البشر الى اما كن
اصلهم والى الامة المحافظة على الحقيقة والديانة الخالصة . بهم احيا
نفائس التقاليد التي آل امرها الى الانحاء واعد الطرق اذلك الفتح

الروحي . فتح المسيح الذي ينتظره اسرائيل في ارض كنعان التي انقلبت
ارضاً مباركة

اما اخص الاسباب التي دفعت الفينيقيين اولاً الى تعاطي
التجارة ثم اقامة المستعمرات البعيدة فهي خصب تربتهم ونوعية
محاصيلهم وغنى غاباتهم التي ابتدروا الانتفاع بها بواسطة حرفتهم . نعم
انهم وردوا فيما بعد موارد اخرى غير مواردهم . ولكن موارد ثروة
ارضهم هي التي وردوها اولاً وقد كانت راس مالٍ ضروري لهم في
بادى الامر ولا نكير فانهم اصابوا سطوة نافذة في الوجهة التي سعت
وراءها افكارهم

ان ذكاء الفينيقيين هو العلة الاولى لمشروعات ومستعمرات هذه
الامة العظيمة وهو اخص محرك اعطى ذلك الشعب قوة لان ينتشر
وعلاً اكثر ارجاء الدنيا من بنيهِ . اما ميلهم الطبيعي الى التجارة فجرهم
اولاً الى متاجرات يسيرة يحمولونها الى بلاد الاجانب فكانوا يجولون
الارض من قرية الى قرية (١) ومن مدينة الى أخرى ومن ناحية
الى سواها ويسوون شئونهم في كل أين على وجه الحكمة وطرق

(١) الكلمة الدالة على التجارة في الفينيقي هي « ركل » وهي في
الاصل بمعنى دار وذهب . ومنها هركل اله التجارة عندهم

السداد. غير انهم لم يقصروا اعمالهم على التجارة ولم يحصروا فيها همهم بل مدّوا ايديهم الى جميع الحوادث العظيمة في العالم القديم ولكن لما اذلتهم دول المشرق العظام وقهرتهم بطلت جميع تلك المستعمرات مع بقاء العلل المادية على ما كانت عليه

اما اقوى الاسباب التي دفعت الفينيقيين الى الرحيل واضطرتهم الى المهاجرات البعيدة فانما نشأت عن الحركات الثائرة فيما حول لبنان ولاسيما عن طرد القبائل الكنعانية من اوطانها بعله فتح اسرائيل . شخص لعين البصيرة تلك الجماعات المتراكمة وذلك الانقلاب العظيم الحادث في لبنان عن قدوم شعب عديد يفوق المليونين عدداً دمر على ارضه . فكان من الضرورة المحتممة لتلك الامة الغريبة ان ترتاد لها منزلاً بعيداً . فخاضت حينئذ المصاعب واقتحمت الاخطار وصممت على امر يكون به حياتها ونعيمها او شقاؤها وهلاكها . وعلى ذلك فان هذا الحادث هو الذي ساقها الى المستعمرات الكبيرة . وليس لنا في ظلمات الاعصار المتقدمة نبأ صريح يدلنا على انها تترقى الى زمن اقدم من افتتاح العبرانيين

ولما تحركت الحواطر وهاجت الاشواق في الناس الى انشاء المستعمرات كان في فينيقية عدة اسباب اسعفت على ايقاد تلك الحركة وساعدت على اضرام جمرتها . لان لبنان كانت فيه علل سياسية

من ألفتة وتجارية شأنها ان تؤيد هذه المشروعات والمهاجرات ولما شاءت العناية الالهية تنفيذ مقاصدها التمدنية اعطت ذلك الشعب الجمل بكثير من الحلال الطيبة المقيم في سفح لبنان جميع الذرائع اللازمة لاجل اتمام منوياتها العظيمة . فجعلت البحر مفتوحاً مدة اعصار طويلة في وجه هؤلاء القوم الشجعان وابعدت عنهم كل عدو يخشونه ثم ان المرافى والمراسي الامينة والغابات العظيمة من السنوبر والسرور الصالح لبناية السفن ومعادن النحاس والحديد للقيام بمستلزماتها والصوف والقنب لاجل صنع القلوع والحبال مع ما عندهم من العدد العديد من الشبان المطبوعين على حب التنقل كل ذلك كان يدهو الشعب المذكور ان يستولي على مملكة البحر والتجارة . وهذه المنافع العديدة جعلت فينيقية اول دولة بحرية واستعمارية وجعلت فيها اشهر سوق للتجارة استمرت زاهرة الى حدود القرن المتوسط شرقاً وغرباً

وكانت المدن الفينيقية كلما رأت أمة مولدة القلاقل او محبة الفراغ والبطالة ترسلها الى مكان بعيد لاجل ان تنشئ او تحدد مستعمرة تعود عليها بالرج . هذا وان المشاجرات السياسية التي كانت للشعب الفينيقي القديم قد دفعت الفريق المغلوب في اكثر المرات ان يرتاد له ملجأ يأمن فيه الضيم بان يرحل الى مكان بعيد يقيم

فيه . فقد وضح ان العلة الداعية الى بقاء هذه المعاملة زماناً طويلاً انما
كان حب الثروة المستتر بحجاب التجارة الرائجة وكل من رأى الفينيقيين
حتى في آخر زمان تجارتهم مقيمين على الاعمال وجاهدين في الاشغال
نسب اليهم ذلك . قال القديس ايرونيوس لا زال الصوريون الى يومنا
هذا ذوي نزعة شديدة الى التجارة يدفعهم الطمع بالربح الى ان
يتجولوا البلدان ويجوبوا الافاق (١) وقال لوسيانوس ان الفينيقيين لتجار
اشد ولوعاً بالاسفار من آلهة البحار وهم لا يقصرون تطوافهم على
بحر بون تيكسان والميوتيد والبوسفور كما تفعل الآلهة بل يخوضون ايضاً
بحر اليونان والبربر جميعها متغربين عن بلادهم غير راجعين اليها الا نحو
اواخر فصل الربيع بعد ان يطوفوا السواحل جميعها (٢)

هذا وليس في عكوف الفينيقيين وانصراف هممتهم الى المكسب ما
يحملنا على العجب والاندهال لاسيا وان فيرجيل الشاعر اراد مطلق البشر
لما خاطب الشوق ناسباً اليه انه يفضي بالقلب الى الرلوع بالذهب والجوع
الى الدرهم

لكنه ليس من دليل على ان الباعث على مهاجرات الفينيقيين الاولى
انما كان الرغبة في المال وتوسيع نطاق التجارة . لان القبائل السامية التي

(١) ايرونيوس في كلامه على نبوءة حزقيال فصل ٢٧

(٢) لوسيانوس في الكلام عن تكساريس

غزت مصر واستولت عليها وهي التي يقال لها قبائل الرعاة ويسمونها
 مانيطون بفينيقية قد كان دأبها شن الغارات ورعاية المواشي . وعلى
 هذه الشاكلة كان قدماء الكنعانيين الذين قطنوا سواحل افريقية الشمالية
 وهم الذين يلقبون بفينيقيي^٢ ليلية فانه لم تكن لتلوح عليهم الاسماء الرعاة
 والحراثة وقد توطنوا والحالة هذه اسيا الصغرى وقبرس وغيرها من جزائر
 البحر المتوسط

فليس فيما تقدم دليل على ان هؤلاء المهاجرين قد كانوا تجاراً
 وعليه فلا تكون الرغبة في الربح سبب مهاجرة الفينيقيين غير ان ملازمتهم
 الاسفار سولت لهم التجارة فاخذت بمجامع قلوبهم وتوفرت لهم اسبابها
 حتى انشأت ما انشأت السلالة الكنعانية من المستعمرات الاولى في
 الاماكن البعيدة

هذا ومهما يكن من امر مهاجرات الفينيقيين فقد كان بادئ بدء
 سبب تمدن شعوب آسية واليونان واوربة وافريقية الذين قد كانوا بعد في
 حالة الهمجية

وفضلاً عن ذلك فان الفينيقيين الاقدمين قد كان دأبهم السعي
 وراء هذه الاعمال الخطيرة في تثقيف الشعب وتهذيبه فاحلتهم
 مهارتهم في الفنون على اختلاف انواعها مقاماً سنياً من السيادة
 واكسبتهم رفعة على جميع اترابهم ومعاصريهم . وكفلت لهم بسالتهم في

الحروب ودرايتهم بالامور بكبح الشعب الجموح وتذليله لهم
قال بنبونيوس ميلا في كتابه عن حال المسكونة ان الفينيقيين قوم
محنكون يلقون الرعب في مواقف الحروب ويأتون السلم من ابوابها .
قد اخترعوا حروف الهجاء واختلقوا صناعات مختلفة فهم الذين ارسلوا
السفن في البحار وهم اول قوم حاربوا فيها . قد تولوا الشعوب عن خبرة
ودراية وجمعوا بين الحزم في الاحكام والعزم في الحروب

وليس بالامكان ان نذكر على وجه التخصيص زمان ابتداء مهاجرات
الفينيقيين والكنعانيين وفيما مر من الكلام على الايكسوس اي ملوك
مصر الرعاة دليل على ان الفينيقيين ان لم يكونوا هم الذين غزوا
مصر فلا يخلو ان يكون لهم يد في غزوها اذ ذاك تهيأ لهم انشاء
المستعمرات في الارض المصرية . وهذا كلام تلوح به اقاويل بعض
الوثنية . فان القول عن فينكس وقديم انها استوليا بادى بدء على
تيبة المصرية ثم على صور وصيدا ثم انها جازا من هناك الى بلاد
اليونان (١) مجال للاحتال ان يكون ذلك عبارة عن استيلاء

(١) من تاريخ اوسابيوس مجلد ٢ وقال كونون في اخباره خبر

٣٧ ان عاصمة الفينيقيين كانت على عهد قديم تيبة المصرية وذكر
ايرودوتوس سفر ١١ فصل ٣٣ حادثا يؤيد ما نحن في صده وهو ان
الفينيقيين اختطفوا كاهنتين من مدينة تيبة المصرية فذهبوا باحداها الى

الفينيقيين على مصر او عن عزل الملوك الرعاة

فينتج مما مرّ ان مهاجرات الفينيقيين الاولى يجب ان يُحدد زمانها منذ دخول الاسرائيليين ارض كنعان . وان غيرهم من القبائل الكنعانية المهاجرة قد صاروا شيئاً فشيئاً تحت سلطة الفينيقيين

ثم ان الشعوب الذين ترحوا عن بلادهم لهجوم الشعب الاسرائيلي عليهم انقسموا على ما ينبي التاريخ الى ثلاث فرق وفيرة العدد لا تقل الواحدة عن مئآت الوف من الرجال . فالفرقة الاولى جازت بمصر الى ليلية . والثانية مرّت بفنيقية وaramية وتراسية . اما الثالثة وقد كانت اقلّها عددًا فركبت السفن الصيداوية وارسّت في بلاد اليونان . فلنأخذ الآن في الكلام على هذه الفرق الثلاث

فالفرقة الاولى التي رحلت عن ارض كنعان هي التي كانت مقيمة في الجهة الجنوبية حيث ابتداء يشوع فتوحاته ولاذت بارض فلسطين كما لاذ اولاد عناق (١) . غير انها لم تقم هناك الاّ مدة وجيزة وذلك لان تلك الارض لم تسع هذا الشعب الكثير فاذا ذاك التزم المهاجرون ان يجتازوها الى ما سواها ولما انتهوا الى مصر السفلى لم يستطيعوا السكنى فيها لكثرة قاطنيها فنكبوا عنها الى بلاد ليلية حيث انبثوا في جميع انحاء افريقية

افريقية وبالاخرى الى دودونه

الشمالية واختلطوا مع سكانها ولما كانوا على جانب عظيم من الذكاء والجد في العمل والدراية في الامور اضحوا ولهم السيادة على من سواهم من تلك الانحاء وعقدت بينهم وبين شعب ليبية عقود زواج حصل عنها ذلك الشعب الذي يدعوه الاقدمون بالليبي الفينيقي وهو الذي ابتداءً تمدن بلاد افريقية وانشأ فيها المستعمرات ووفر لها اسباب الثروة والنجاح. وقد حفظ لنا بروكوب دليلاً جديراً بالاعتبار على مهاجرات الكنعانيين الى افريقية وعلى تعيين زمانها وذلك الدليل هو كتابة قد حفرتها على الحجر ايدي تلك القبائل المهاجرة. قال العلامة المقدم ذكره ان هؤلاء الشعوب بنوا قلعة في نوميدية حيث توجد الآن مدينة تيجيسيس (١)

وهناك يرى على جوانب عين ماء غزيرة عمودان من الحجارة البيضاء وقد كتب عليهما بالاحرف الفينيقية هذه الكتابة: «نحن اناس هاربون من امام ذاك اللص يشوع بن نون» (٢) وقد ذكر ذلك إفاكر (٣)

(١) تيجيسيس يُقال لها في يومنا هذا البردي. وهي من اعمال

نوميديا القديمة في جنوبي شرقي سيرتة (قسنطين)

(2) Procop. Bell. Vand, 10, 11.

(٣) افاكر تاريخ الكنيسة ١٨:٤

ونيثافور (١) وايدته تاريخ باسكال (٢) واوسيبوس (٣) وسنسالا (٤) والقديس ايزيدور (٥) بقولهم ان الافريقيين هم اولاد كنعان كالفينيين. ثم اردف تاريخ بسكال قوله ان هؤلاء الهاربين من امام يشوع قد شيدوا مستعمرات حتى في اسبانيا. وما يُنبئ ايضاً عن مهاجرة الكنعانيين الى لىية ويثبت في وقت واحد معاً التقليد اليهودي شهادة تلمود اورشليم اذ فيه ما نصه «ان الجرجازيين الذين لم يؤمنوا بالله تعالى ولّوا هاربين الى افريقية» (٦). بناء عليه فان مثل هذه الابنية والتقاليد والشهادات لما يستوجب النظر اليه ويستحق الاعتبار

وما من مجال للشك في حقيقة هذه الشهادات في وجود كتابة تمييزيس فان جميع ما يطرأ على الكتابة والشهادات من الاعتراضات يسهل دحضه وذلك لان الاعتراضات على حقيقة يثبتها مؤرخون ثقة ليست إلا اوهاماً لا طائل تحتها. واما تفاصيل بروكوب عن

(١) نيثافور تاريخ الكنيسة ١٧: ١٢

(٢) تاريخ باسكال الجزء الاول صفحة ٤٦ - الجزء الثاني

صفحة ٩٦

(٣) اوسيبوس الجزء الثاني من تاريخه صفحة ١١

(٤) سنسالا صفحة ٨٧ من تاريخه

(٥) S. Isidore, Orig. IX, 1, 12.

(٦) Talm. Hier. Schab. C. 6 fol. 35.

موضع الكتابة فهي غاية في البيان تحمل الواقع عليها ان يحكم بان هذا المؤرخ قد شاهد عياناً ذلك الموضع او انه وقف على رواية صادقة مدققة تذهب بكل ما يطرأ من الريب. واما ما يظهر من احد الاعتراضات انه محتمل فهو ناشئ عن التباس جغرافي بين مدينتي تيجيزيس وتنجيس فان مدينة تنجيس موقعها في موريتانيا بالقرب من الاوقيانوس وهي لم يستول عليها جيوش جيستينيان في اثناء محاربتهم القاندايين . اما مدينة تيجيزيس فهي من مدن نوميديا بالقرب من سيرتا (وهي التي تُدعى في يومنا هذا قسطنطين) وفيها كان قد اشتدت الحرب القانداية وقد حافظ سكان افريقية القدماء كل المحافظة على تقليد هذه المهاجرة لانهم لم يبرحوا يدعون ذواتهم كنعانيين وذلك على عهد القديس اغوستينوس (١) ولم يكن المؤرخون الدنيويون يجهلون هذا التقليد على وجه مطلق فان يوسف المؤرخ قد ذكر اسماء البعض منهم وهم الذين كانوا ينسبون اسم افريقية ومستعمراتها الى اولاد ابراهيم . قال هذا المؤرخ : يروى ان اوفران شن الغارة على ليبة واستولى عليها واقام فيها نسله من بعده ومن ثم دُعيت تلك الناحية باسم افريقية (٢) فهذه الرواية هي مطابقة لتقليد الليبيين الوطني كما نقله باوتارك (٣) عن

(1) S. Aug. Comm. in ep. ad. Rom.

(2) Jos. Ant. 1, 15.

(3) Plutarch. sect.

يوبا « من فاق الملوك علماً بفن التاريخ » وقال ايضاً العلامة العربي ابن خلدون (١) ان تقليد شعوب افريقية الاسلامية يُنبئ بان هؤلاء القوم من نسل العمالقة وربما انهم اختلطوا مع الكنعانيين الهاربين واما ما كان من امر الفرقة الثانية فانها توجهت على اليابسة نحو الشمال وماذت من مستعمراتها القسم الغربي من اسية العليا وجنوبي اوروبا . وما خلا القبائل التي مكثت في فينيقية وaramية شيد هؤلاء الكنعانيون على الطريق التي كانوا يتقدمون فيها شيئاً شيئاً نحو المغرب عمارات عديدة في سورية العليا واسية الصغرى . ولما انتهوا الى شمالي اسية سلكوا الخطة التي كانت تؤدي في ذلك الحين بشعوب اسية الوسطى الى المغرب فينبشون في بلاد اليونان وايطالية وبعض الجزائر تحت اسم البالازيجيين (٢) فهوؤلاء الشعوب المهاجرون كانوا قد جمعوا بين ام

(١) ابن خلدون في مقدمته

(٢) كثير من اللغويين يخلطون هذا الاسم مع اسم فلسطينيين (مهاجرين) او بالاستينيين . فهذا خطأ . تساعد على دفعه الابنية المصرية فالليونانيون اخذوا هذا الاسم عن اليوناني *πελαργοί* Abian. Hist. III. 23 Strab IX, Etym. والسبب في ذلك ان هؤلاء الشعوب كانوا يشبهون اللقاتي بتيهانهم او انهم كانوا يلبسون ثياباً ملونة بالايض والازرق شبيهة بريش اللقاتي . وربما كان السبب في تسميتهم بذلك الاسم لانهم

وقبائل وألسنة وعوائد مختلفة . فلم يجد الكنعانيون صعوبة في الحول
 فيما بينهم ومنهم خرج عدد عديد من الفروع التي تنسب اليها الامة
 اليونانية وغيرها . وبعض الروايات القديمة تمثل لنا هؤلاء البالازيجيين
 كلمة كثيرة العدد والسواد الاعظم منها ينسب الى الشعب الارياي
 وهم قوم يشهد لهم بعضهم الابنية التي يسهل على المرء ان يقتفي اثر
 رسومها من فينيقية حتى اليونان وايطالية . وهؤلاء البالازيجيون كانوا
 مولعين بكل ما هو عظيم وجليل القدر مائلين الى حب الاستعارات
 وعلى ما يظهر انهم قد ادخلوا فيما بينهم كثيراً من الكنعانيين القادمين
 من فينيقية

وقد قضى احد العلماء ايام حياته في البحث عن مصانع اولئك المشيدين
 المنقطعين النظر فأدّى به البحث فيها ونصوص التاريخ الى ان كان
 في هذا الشعب الذي خفي امره لتقادم عهده قبائل الكنعانيين او
 الفينيقيين التي ترحت الى المغرب في الزمان الذي عيناه نحن . وهالك
 نتيجة استقصاءاته العلمية . قال

« لم يُطلق اسم بالازيجي من زمان مديد على ناحية اسية
 الصغرى وخصوصاً على القسم المجاور للثغور وعلى البالابوتر وجميع بلاد
 قد جمعوا بين قبائل مختلفة . وعلى كل يستحسن بأن يقال ان هذا الاسم هو
 مشتق من الكلمة اليونانية παλαίος التي معناها برابرة الزمان السالف

اليونان فقط بل يُطلق ايضاً على قسم من ايطالية قد عُرف بعدئذٍ ببلاد اليونان الكبرى . ثم امتد هذا الاسم تقريباً الى جميع الجزائر المنتشرة في البحر المتوسط من ثغور ايطالية الى ثغور اسية . وذلك كافٍ لان يُقال ان سكان تلك الانحاء الاولين او بالحري اقدم سكانها المعروفين قد خرجوا من امة البالازيجيين القديمة . ومع ذلك لم يبقَ لهم هذا الاسم الاصيلي في كل مكان ساروا اليه بل تقلب عليهم عدة اسماء منها الاركاديون والبالافلاغونيون والسيكاوبيون (١) والجبابرة والليبيتون

(١) قد فسر راوول روشات (في تكلمه عن هر كول الصوري صفحة ٦٠) اسم السيكاوبيين تفسيراً في غاية من الموافقة . فاطلاق هذا الاسم على العملة الكنعانيين هو من رأيه . هالك ملخص تفسيره . قد يمكن ان يكون بادىً بدىً اسم السيكاوبيين نعتاً متداولاً بين الشعب انما هو صادر اما من استعمال مصباح المعدن الذي كان يضعونه على أجبتهم اناس من دأبهم تجويف الصخور لاستخراج المعادن والحجارة الكريمة او من عادة التوشيم المعهودة بالشعوب الاسيوية وشعوب العالم الجديد في اعصر التمدن الاولى . فالسيكاوبيون هم الآن محسوبون على وجه العموم عملة فينيقيون يُشهد لهم بتدوير المعادن ونحت الحجارة وشأنهم الجولان طلباً لتشييد المدن . واخبر عنهم اوربيد قال : (Herc. fur. 944) كان هؤلاء العملة يبنون طبقاً لطريقة الفينيقيين ونظهم

والتيраниون والايونوتريون الخ واما اليونانيون فكان آخر اسم عرفوا به
ولا تزال نرى حتى يومنا هذا من الآثار اليونانية واللاتينية نحواً
اربعمائة مدينة قد عرفت بانها كانت مسورة بأسوار بناها السيكلوبيون
من حجارة عظيمة . وكل من هذه المدن هي من عجائب المستعمرات
البلازيجية

وجاء في التوراة انه في زمان دنو موسى مع الشعب العبراني من
سواحل البحر المتوسط الشرقية اعني فينيقية وارض كنعان قد كان في
هذه البلاد شعب عديد ذو قدرة ترتعد منه فرائص العبرانيين . وهالك نص
ما ورد في التوراة : « ان الشعب الساكنين فيها اقوياء والمدن حصينة
عظيمة جداً ورأينا ثم ايضاً بني عناق . . . وجميع الشعب الذين رأينا هم فيها
اناس طوال القامات وقد رأينا من ثم الجابرة جبابرة بني عناق فصرنا
في عيوننا كالجراد وكذلك كنا في عيونهم » (١)

واما المدن التي كان يقطن فيها هذا الشعب القوي فهي مدينة
حبرون وساران ومسيذا وصور الخ

وقبل زمان قليل او بعده ظهر قوم غرباء بعيدو الشهرة في اوربا
وهم الذين شيدوا مدينة سيسيونه وارغوس وميسان ودودون

(1) Num. XIII, 29, 33.

ودلفوس ومدناً عديدة غير هذه (١) كانت أسوارها مبنية من الحجارة العظيمة على هيئة غير مهندمة . وهذه الأسوار لم تزل حتى يومنا هذا . أما المدن المذكورة فهي لا ريب أقدم مدن أوربا وليس للتاريخ أن يثبت لنا مدناً أكثر أقدمية منها . ومرجع هذه المدن إلى زمان أرسل فيه نسل عناق أناساً إلى الجهات الغربية وذلك بعد أن ملأ أرض كنعان من القرى العظيمة والحصنة . ولم تزل أبنية أرض كنعان الأولى المتينة البنيان قائمة على أساسها إلى يومنا هذا . وهذه الأبنية كانت في ذلك الزمان وفي عهد داود النبي ترعب قلوب من صمم على غزوها ولذا نرى هذا الملك المرتل قد جاء في موضعين من أناشيده بما يدل على قلة رجائه في الاستيلاء عليها أن لم يأتِ إله الجنود إلى نجدة قال : « من يلقني إلى مدينة حصينة أو من يهدينني إلى أذوم . » (٢)

نعم لم تذكر التوراة أن نسل عناق الذي شيد في فينيقية وأرض كنعان المدن العديدة المكنفة بالأسوار الحصنة بأناس ذوي قوة غريبة قد ترحل إلى أسية الصغرى . غير أنه لما كان البحر من جهة

(١) قد اعتبر البعض أن دول تاسالية وأركادية وكورينتس

وتيب وميسان القديمة العهد بين مدن بلاد اليونان والجزائر هي منتسبة إلى البالازجيين

(٢) الزامير : مز ٥٩ عدد ١١ ومز ١٠٧ عدد ١١

والمفازات من اخرى لم يكن سوى سبيلين مسلوكين لامة ذات شعب
عديد طالما كان اناس منها يُجبرون على مزايلة وطنهم الاصلي لمزاحمة
الشعب العبراني لهم وهو تحت قيادة موسى فمن ثم كان من المحتمل
كل الاحتمال ان بعض القبائل الكنعانية اخذت طريق الجنوب والبعض
طريق الشمال . اما المهاجرون الذين توجهوا نحو الشمال فسكنوا بلاد
اليونان واسية الصغرى وما ثبت لنا ذلك هو ان هؤلاء القبائل كانوا في
اثناء سيرهم تنسب اليهم الاماكن التي كانوا يقيمون فيها والتي كانوا
يمرون بها . فاسم كازيوس الذي كان يُدعى به جبل على تخوم بلاد
العرب وبلاد كنعان المقام عليه هيكلا قديم للمشتري (باعال) قد
سُمي به جبل آخر في الطرف الشمالي من فينيقية . وسارون الذي سُميت
به مدينة في ارض كنعان كان اول اسم لمدينة تريزين في البالابوتر .
وخليج ارغوس كان قد دُعي في البلاد سارونيق ومن المحتمل ان المهاجرين
الذين شيدوا مدينة ارغوس كانت لهم اول مرحلة في جبل ارغوس
كبادوس . واسم ايناقوس اول ملك لارغوس قد دُعي به ايضا اول ملك
لسنوبا في بفلاغونية والسبب في ذلك اما ان هذا الزعيم في اثناء سيره
كان قد ترك مهاجرين اتخذوه ملكا لهم او ان زعيما آخر ايناقيدي قد حل
فيما بينهم . ولا ريب ان المهاجرين الذين شيدوا مستعمرة دوريد في اسية
الصغرى ومستعمرة دوريد في مكدونيا هم اناس كانوا قد خرجوا من

مدينة دور القديمة الكائنة على شاطئ فينيقية

فاوميروس وجميع المؤرخين من بعده اعلنوا ان مدينة دودونه بالازيجية الاصل وهالك ما هتف به هذا الشاعر: «ايها المشتري الملك الدودوني البالازيجيكي الساكن بعيداً والمالك على مدينة دودونه المعرضة للريح الشمالية» (١)

وحسبما رأى هيرودوت المؤرخ ان الفينيقيين هم مؤسسوا مدينة دودونه في ابيريا (٢). اما مجي اولاد دودونيوس من ارض كنعان وحلولهم في الجبال ما بين احراش ابيريا فهو ما ذهب اليه العلامة ميكاليس

وعلى كل فبرهاننا هذا المبني على مضاربة الاسماء المؤثرة بمجد ذاتها تؤيده هذه الفقرة للكاتب قارون. «يسكن نواحي اوربا عدد وافر من الامم وهذه النواحي قد دُعيت اما باسم اخذته عن مكان آخر واما باسم الذين شادوها (٣). وقد صرح الجغرافيون القدماء ان اليونانيين والكرانيين والايوليين والتاسالايين والمكدونيين والتراسيين والابيريونيين وكذا سكان جبل اتوس وجبل اوليب والبارناس الخ هم مستعمرات بالازيجية اتت كما هو مؤيد من الجميع من شواطئ البحر المتوسط الشرقية «

(1) Iliad. XVI. 233.

(2) Herodot. II. 54-58.

(3) Varr. IV.

ويظهر انه يوجد بعض المناسبة ما بين هذا الشعب البالا زجي
 الغريب والشعب الكنعاني . غير ان هؤلاء المهاجرين من المشرق خذلوا
 بعد ان وسعوا في ذلك العهد القديم نطاق سلطانهم وعماراتهم توسيعاً
 غربياً . فبعد ما قضوا بعض اجيال بين مباشرة اشغال واكتساب مجد
 لم يبق لهم من ذكر في صفحات التاريخ واضمحلوا وما لكرمهم فضل على
 تعاستهم . ويظهر كما حدث لباقي الكنعانيين ان لغنة لا مناص منها
 ما برحت في اثر تلك الامة الكنعانية حتى زمن انقراضها التام وذلك
 ليحصل لها وجه المشابهة . فتقرض قبائلها او تنشأ فيما بين الاعم الغريبة
 وتفقد الى الابد اسمها ولغتها (١)

لكن اي نشاط مدني لم يبدِه هؤلاء البالا زجيون في زمان نجاحهم
 وفخرهم . ان التواريخ تثبت بانهم لم يبثوا في اسيرة الصغرى واليونان
 وايطالية وجزائر البحر المتوسط جزءاً فقط من المعارف العملية والفنون
 بل مجموعاً كاملاً من الاعتقادات والفنون والآداب التي تنبئ بالكفاية
 عن اسبقية وطنهم وعن نفوذهم القوي في موطنهم الحديث . ولا شك
 ان ينبوع هذا النجاح هو الخلق الكنعاني الذي تخلقت به هذه الفرقة
 القديرة

(١) واخبر هيرودوت (٥٥ : ١) انهم اعرضوا عن لغتهم ليتعلموا

لغة من كانوا يعيشون بينهم

وَأَنَا لنعجب حتى يومنا هذا وندهش من ابنتهم العظيمة . فاي تأثير لم يكن لهذه الابنية في قبائل بلاد اليونان الاولى ايام كانت خالية من روح التمدن . لعمرى ان مهارة هؤلاء الغرباء في الفنون الاكثر لزوماً جعلتهم فوق البشر قوةً في عيون ناظرهم

ففتحت القبائل القاطنة في بلاد اليونان نحوهم ورغبت في التدرب بالفنون والعيشة في الهيئة الاجتماعية . فتهدت لهم سبل التمدن الذي سطعت شمسُه في بلاد اليونان قبل ان سطع في سائر بلاد اوروبا . وذكر هؤلاء الابطال والاندھاش من اعمالهم العجيبة انشأ بين شعوب اليونان الساذجة تلك الحكايات الوثنية الكاذبة التي ملأت بطون تواريخ اليونان الاولى في تكلمها عن الجبابرة ومشيدي المدن وعن المخترعين وغيرهم الذين يشبهون الآلهة في افعالهم . ولا شك في اننا نتعدى الحدود التي ضربت لنا لو اردنا ان نتبع في تلك القصص آثار الفينيقيين او الكنعانيين بين البالازيجيين . لكننا اكتفينا في ذكر اصلهم المحتمل وسطوتهم العامة

اما الفرقة الثالثة فانها ركبت البحر (١) وقد نظمها الفينيقيون بنوع خاص واليهم تنسبها الحكايات والتاريخ . وكان قديم (٢) زعيم

(1) Tacit. Hist. XI. 14.

(٢) كلمة قديم معناها إما مشرقى وأما قديم

هؤلاء المهاجرين الوهمي او الحقيقي وكان معظمهم كنعانيين . فخرجت تلك العمارة التي كان يركبها قديم مع اصحابه من مرقا صيدا (١) قاصدة بلاد اليونان . وكانت صيدا في ذلك الزمان المدينة البحرية الوحيدة التي أوى اليها الكنعانيون الهاربون وفيها أعد لهم اسطول كافٍ لنقلهم

وقد جاء في التواريخ والخرافات القديمة ان سكان المستعمرات والمهاجرين الفينيقيين اجتمعت تقريباً كلها حول قديم . اما قديم فهل جال في خاطره حين اقلع من صيدا الى اي ناحية يقدم وفي اي ارض يُسكن اصحابه مشيدي المستعمرات . . . ؟

واذ لم يكن وقتئذٍ فن الملاحة معروفاً تمام المعرفة فكان من اللازم تفضيل السير في الشواطىء على سواه وهذه الحالة وحدها تدعونا الى ان نقول ان سفر قديم كان على هذه الطريقة . لكن يسهل علينا ايضاً اقتفاء اثره في الجزائر المنتشرة في اسية الصغرى اولاً في رودس حيث انشأ مستعمرات كهنوتية (٢) ثم في جزائر السيكلاد (٣) واخيراً في

(١) وكان ايضاً اهل صور يدعون حاول قديم في مدينتهم

ولكن الرأي الاول ارجح وذلك واضح من ان صيدا في العهد القديم عظمت على سواها ولم تكن صور وقتئذٍ الا حديثة العهد

(2) Zeno. Rhod. Frag.-Diod. v. 58

(3) Thucydid, 7, 8.

سموتراس (١) . واصحاب الخرافات القديمة تبلغه شواطئ الباسي عن طريق طراسيا (٢)

فالباسي هو اقليم من بلاد اليونان في شمالي الاتيك تجاه جزيرة اوبه وهذه الناحية التي غزاها الفينيقيون هي وعرة وكثيرة الغدران غير انها خصبة التربة يمكن الوصول اليها من كل جانب . فالباسي ممتد في قسمه الجنوبي من الهاليكون الى السيتارون وهو قائم في الوادي الخصبة الذي يسقيه نهر ازوب . لكن في القسم الشمالي من هذا الاقليم لا يرى سوى جبال الابونسيان الوعرة . ولما نزل اصحاب قديم من السفن وحاولوا في هذا الساحل وجدوا ان الاونيين والهيانتين يقطنونه وهم لا يزالون متساطين على جميع بلاد الاتيك . فسكج قديم جماعهم بقوة السلاح واخضعهم لاوامره واسكن اصحابه فيما بينهم . ثم شيد قلعة قدميه ومدينة تيب التي دُعيت طويلاً باسم قديم وبقيت قاعدة بلاد الباسي الوحيدة لزمان مديد (٣)

ولا يخالو اسم او بناية من هذه الناحية الا وفيه آثار قديم والفينيقيين . فاسم الباسي نفسه الذي أُعطي لها فيما بعد يذكر بعبادة البقرة التي هي رمز عن الحياة وعن استرته البعيد الشهرة في فينيقية .

(1) Ephor. Frag. 12.

(2) Apollodor. Bibl. III. 4.

(3) Pausan, IX, 5, 1, 2 — Strab. IX, 2, 3.

ومن ثم امتدت سلطة المهاجرين الى بعد في سائر بلاد اليونان . فقدم
نفسه نشر لواء السلطة الفينيقية في بلاد بعيدة . وقيل ان ضرورة مامة
الجاته الى ان يزابل الباسي فشيء مدينة سيرا (١) . ثم توجه الى ايلريا
حيث انشأ بعض مستعمرات وهناك ضريحه (٢) اما الباسي فلم تزل
اكبر مستعمرات الفينيقيين في بلاد اليونان

واختلس بعدئذ الايوليون المقيمون في تاسيليا من القدميين بلاد
الباسي فتاب طبعهم الحشن وخرافاتهم الفارغة عن سمو عقل الفينيقيين
المتوقد وعن ابطالهم العظام .

فهذه التفاصيل العامة التي اخذناها عن التاريخ في شأن مهاجرات
الكنعانيين العظيمة وتشديد المستعمرات الاولى لفينيقية . ومع كل ذلك
لا يبعد التصديق ان سكان المدينتين العامرتين في ذلك الحين في بلاد
فينيقية قد حاولوا تشييد بعض المستعمرات في البلدان الغربية وذلك
قبل مهاجرة القبائل الكنعانية العظيمة الى بلاد المغرب . غير ان هذه
المستعمرات الاولى لمدينتي جبيل وصيدا لم يك لها وقتئذ اهمية عظمى
وليس لدينا دليل يحقق لنا قبل هذا الزمان تاريخ وجودها

(1) Timagor. Frag. 2.

(2) Phylarch. Frag. 40.

في مستعمرات جبيل وبيروت وصيدا

ما نراه في الاعصار التاريخية فان مدينة جبيل او بيلوس كانت هيكلًا بعيدة الصيت يتقاطر اليها الناس اكثر من تقاطرهم اليها لكونها مدينة عامرة ومتسلطة . ولذا يستدل على مصانع مهاجريها في قبرس بعبادتها وعوائدها الدينية . فعبودان ادونيس واسترته هما مشتركان بين سكان جبيل وقبرس في مدن كثيرة (١)

وبعد تأسيس مدينة بيروت توجه اول مهاجري جبيل نحو قبرس وشيدوا فيها بعض المدن اخصها سينيوم وهي اول مدينة شُيّدت في هذه الجزيرة (٢)

وما من حاجة تدعو الى البحث عن شأن مؤسسي هذه المدينة الاولين فهو ثابت ان هذه المدينة كانت في عهدٍ قديم كلها فينيقية ودليانا على ذلك رسومها وكتاباتُها التي تعبر عن الالهية العظمى التي بقيت لها زمانًا طويلاً ثم ما كان لها والمليكة من المركز الممتاز بين مستعمرات الجزيرة

(1) Herod. I. 105 — Pausan. I. 14. Plin. v, 35.

(٢) وتُدعى هذه المدينة في يومنا هذا لرنكا . واما رسوم المدينة القديمة فاضحت تلالاً قرب المدينة الجديدة على شاطئ البحر ولم يزل مرفأها ظاهرين

قيل ان قطان جبيل شيدوا مستعمرات أخرى لكننا ليس لدينا من نصوص مؤكدة سوى لمدينة مالوس في جزائر السيكلاذ وبييلوس في جزيرة من جزائر النيل . على ان تأكيد هذه النصوص هو ضعيف وهي مأخوذة عن اسطفان دي بيزانس الذي ينسب بكلام صريح تينك المستعمرتين الى بييلوس (جبيل)

وطمع ايضاً اهالي بيروت في ان تُدعى مدينتهم عاصمة نظير جبيل المجاورة لها . فشيدوا في قديم الزمان مستعمرات وذلك لتوسيع نطاق تجارتها وتعزيز سلطتها . انما التاريخ لم يحفظ لنا ذكراً صريحاً لتلك المستعمرات . وقد ظن بادئ الامر ان في مذهب الكيريين الاكثر انتشاراً في مدينة بيروت طريقة امينة لمعرفة مصانعها الاستعمارية .

ولا ريب في ان هذا المذهب كان له شأن خطير في المستعمرات الفينيقية لان التقليد الذي حصل عليه سنخونياتون (١) يُنبئ ان نسل الكيريين شيد اولياً هيكلًا على قمة جبل كاذيوس في مدخل ارض مصر . وكذلك في غير واحدة من المستعمرات كانوا يتمذهبون بمذهب الكيريين خصوصاً في سموتراس والنواحي المجاورة لها . ولكن لو امعنا النظر جيداً في مذهب الكيريين لوجدنا انه ليس فيه اقل اثبات يدل على ان للشعب البيروتي يداً في المستعمرات التي كانت على هذا

(1) Sanchon. Frag. II, 17.

المذهب . ونسأل عن هذا المذهب الذي كانت عليه جميع المدن الفينيقية هل كان كثير التمسك به في مدينة بيروت حتى انها استطاعت دون غيرها على بثه في المستعمرات وجعله اثرًا مميزًا لعماراتها ؟ فهذا ما نحن ببعيدين عن اثباته بنوع مطلق

وكان لمدينة صيدا في تأسيسها وتوليها المستعمرات الفينيقية عصر مزهر على انها وان لم تكن الاولى بين المدن فهي لا شك العاصمة التي فازت على سواها سلطةً ومجدًا في اول عهد المستعمرات . ففي ابان ثلاثة اجيال متوالية انشأت في سائر اقسام العالم القديم مستعمرات مكملة بالنجاح وما انفكت ان تواصل زيارة ذوي المستعمرات الكنعانيين المنتشرين في المغرب وقد اعتنت بافتتاح مكاتب تعود عليها بالنفع فيما يتعلق بالصنائع والتجارة . وفي اثناء عصرها الزاهي الزاهر لم تكن هذه المدينة لتتوانى عن اجتناء ثمار المنفعة من النفوذ الحائزة عليه البلاد المصرية والاشورية التي كانت حينئذٍ تتناوب السلطة على اسية السابقة ولا ريب في ان مدينة صيدا كانت قد أسست في العصر التي تقدمت دخول العبرانيين ارض الميعاد مراكز جمة تجارية في يابسة اسية ولا نستطيع ان نثبت منها الا مدينة لايش التي موقعها بالقرب من ينبع نهر الاردن على بعد مسافة يومين عن صيدا والمشيدة على الطريق التجارية التي كانت تصلها جنوبًا ببلاد العرب وشمالًا ببلاد الشام

وداخلية آسية . وجاء في التوراة ما نصه : ان الشعوب الساكنين بمدينة لايش هم مطمئنون على عادة الصيدونيين وكانوا بعيدين من الصيدونيين وليس لهم بينهم وبين احدٍ علاقة (١)

غير ان مستعمرة لايش تدل على مزية الصيدونيين في مباشرتهم الاشغال اكثر منها على سياستهم الاستعمارية . فكل شيء في شعب هذه المدينة يدل على انه يأبى متانة البنيات واتقانها . وهذه المستعمرة لم يكن محافظاً عليها تمام المحافظة ولا مبالى بها ولا من علاقة لها خطيرة بالعاصمة فهي جل ما يُقال عنها انها مرحلة للقوافل لانه لما استولى عليها الدانيتيون مفاجأة لم ينشط قط مخلوق في مدينة صيدا للاخذ بثأر اخوانهم اللايشيين المنكوبين . وعلى هذا الوجه اصبحت هذه المستعمرة بين ايدي الظافرين دون ان يعارضهم معارض في شأنها

وقد انشأت مدينة صيدا في ما بعد مستعمرات متينة البنيان رغبة في تجارتها وصنائعها وذلك منذ القرن الخامس عشر بعد مهاجرة القبائل الكنعانية العظيمة . واذ كان من عهد قديم صيد الاسماك ونسج الارجوان من خصائص الصيداويين فليس من مجال للشك بان في العصر الصيداوي نشأت امكنة لصيد الاسماك او صنع الارجوان ومستودعات للبضائع ومكاتب ذات اهمية ولاسيا في جزائر بحر آجه وفي

أكريد وقبرس وشواطئ أسية الصغرى والبالابوتز وفي افريقية . ويظهر ان المستعمرات الفينيقية التي وجدت في البحر الشمال والاوكسين والبروبونتيد والوجه يجب ان تنسب الى مدينة صيدا لان الاساطيل اليونانية المصنوعة في هذه النواحي البحرية منذ زمان طويل قد اوهنت جميع قوى فينيقية وذلك في العصر السوري

ومما يجعلنا ان نذكر على وجه محتمل كون اغلب مستعمرات مدينة صيدا المشيدة على عهد سطوتها لم تكن قط في اعين سكانها مستعمرات حقيقية بل مراكز تجارية او مدناً استستها قبائل كنعانية أخرى انما هو عدم تنويههم بها في مصكوكاتهم الاستعمارية فالكتابة المنقوشة على تلك المصكوكات المتكرر ضربها على عهد انطيوخوس الرابع هي دليل على مستعمراتها الاولى جزيل القدر لا ريب في صحته . ولم تكن كتابة هذه المصكوكات لتمثل سوى اخص مستعمرات الصيدوايين ولكنها وان كانت غير كاملة فهي مع ذلك تدل على النواحي حيث كانت تقاليد اولئك الاولين الذين شيدوا المستعمرات تجعل اهم ابنتهم وسطوتهم الماضية ازاء مباراة الصوريين ذات الفخفخة

فيقرأ في تلك المصكوكات للصيدونيين كمب ار افا او كيت او صور . فكمب او ككابه اسم قديم لقرطاجنة العظيمة . وافا او هيبو هي على سواحل افريقية . وكيت او كيثيو هو اسم قديم لقبرس يشير

الى مستعمرات جزائر البحر المتوسط واليونان ومدينة صور المبنية على
اليابسة الاسيوية . فلنثبت ان كان ممكناً هذه الادعاءات التقليدية لمدينة
صيدا

يظهر ان الغرض من نقش اسم مدينة صور على المصكوكات
الصيداوية كسائر اسماء المدن التي كانت مدينة صيدا قاعدة لها لم يكن
سوى ردّ على افتخار مدينة صور بكونها قاعدة الصيدايين . وليس من
شيء يوجب الرجوع الى هذه المنازعة الوطنية . فقد ابناً كفاية ان مدينة
صيدا لها وحدها الاسبقية في النسب الفينيقي . وفي النصوص التاريخية
برهان قاطع على ان الصوريين هم صيداويي الاصل فصلوا عن هؤلاء
كفصن عن جذعه وغرسوا في جزيرة صور وسواحلها

وقد مرّ بنا الكلام ان مدينة كيت (كيثيون او سيسيوم) كان
يُظنّ انها مدينة ومستعمرة جبيل ومع ذلك ما لبثت صيدا ان نقشت
اسمها على مصكوكاتها ببياناً لكونها قاعدة لها وذلك لاجل نسبة سكان
جبيل تأسيس مدينة كيت اليهم . ولن المحقق ان المدن الثلاث جبيل
وصيدا وصور تولت جزيرة قبرس ان تتابعاً وان تواتراً . ومن المحتمل
ان كيت او كيتيم كان اولاً اسماً لهذه الجزيرة ككلها وعليه يكون
لهذه الادعاءات الحاصلة من الجهتين أس وذلك لعدم التفريق بين
الجزيرة والمدينة . وان كانت حكايات سينيراس ملك جبيل وحكايات

بينغمليون ملك صور تنبي بتسلطهما على جزيرة قبرس فالحكايات
الصيداوية تنبي ايضاً بتسلط بالوس عليها وهو الذي غزاها وقاوم زماناً
طويلاً توسر بن تلمون في امر ابتناؤه مدينة سالمين ولم يدعه ان يشيدها
حتى ايقن بانه قد اصبح عاجزاً عن رده . ولكن بعدها لم يزل بالوس
متسلطاً على القسم الاعظم من الجزيرة (١) . اما التواريخ فانها لا تثبت
الا تسلط صور على الكيثيين . وقد اجبرهم هيران الاول على دفع
الخراج العادي (٢) . فينتج من كل ذلك ان مدينة كيت كان قد
شيدها الكيثيون من زمان طويل وان مدينة جبيل جعلتها مستعمرة
لها ومن بعدها صيدا فصور

واما افا او هيبو وكمب او قرطاجنة فهي اسماء اختارتها صيدا
لتثبت ادعائها في بنیان المستعمرات الافريقية دفعا لما كانت تفتخر
به مدينة صور من انها دُعيت عاصمة لهاتين المدينتين وقتاً طويلاً . وفي
الزمان الذي ضربت فيه هذه المصكوكات المقدم ذكرها لم تكن
الغاية في ضربها سوى بيان فخر سلف وامر تاريخي محض لهاتين العاصمتين
لان صور نفسها فقدت منذ اجيال كل سلطان على افريقية . ولكن
ليس يخلو من فائدة لتاريخ المستعمرات الفينيقية البحث عما اذا كان

(1) Virgil. CEn. I, 619.

(2) Menand. ap. Joseph. Ant. VIII.

في الاعصار الاولى من أس حقيقي لذكر مدينة صيدا الوطني رغماً عن
تعاقب الحوادث التي جعلت هذه المدينة في المرتبة الثانية بين المدن
الفينيقية

اما قرطاجنة فحسب التقاليد القديمة فكان تشييدها في زمان غير
معروف . ومما يخبر فيليستوس صاحب تاريخ صقلية ان هذه المدينة
الشهيرة بُنيت قبل حرب ترواده بزمان . وقد صرح ابيان بانها أُسست
قبل هذه الحرب بنحسين سنة فاستناداً الى قول هؤلاء الاعلام رأى
أكثر المؤرخين ان مدينة قرطاجنة قد سُيِّدت مرتين . ففي المرة الاولى
بناها الصيداويون وهي الأكثر قديمة وفي المرة الثانية بنائها مهاجرو
مدينة صور وهي الأكثر حداثة . وكان هذا الرأي سائداً في العهد القديم
حتى ان الشعراء كفيرجيل واوفيد دعوا قرطاجنة العاصمة الافريقية
في زمان اندثار ترواده

واول اسم دُعيت به هذه المستعمرة الصيداوية كان ككَّاب او
ككب كما يُرى ذلك منقوشاً على مصكوكات صيدا الاستعمارية او
بالاخرى كما ذكر بعض مؤلفي اليونان كاسطفان دي بيزانس واوستاش .
قالوا وكان السبب في تسميتها بذلك هو انه بينما كان مشيدو
المستعمرات يحفرون اساس القلعة عثروا على رأس حصان وكان لهذا
الاتفاق تهلل عظيم في قلوب القوم واحتسبوه كدليل سعيد وبشرى

العظمة والشهامة لهذه المستعمرة الحديثة النشأة . وصحة هذه التقاليد تثبتة المصكوكات القرطاجنية التي كان ينقش عليها في الغالب رأس حصان ودُعيت ايضاً هذه المدينة قديماً باسم بيرزا لكونها محصنة . واما اسم قرطاجنة التي دُعيت به حين رممها الصوريون فعناه مدينة حديثة . وفي ذلك برهان قاطع على ان هذه المدينة كان قد شيدها الصيداويون فمن ذلك ينتج ان الصيداويين لم يكونوا يفتخروا عبثاً بتشييد هذه المدينة التي يدعوها غويداس اعظم مدن الدنيا واقدرها

وما خلا هذه المواضع المهمة كان الصيداويون يتولون ادارة مستعمرات عديدة في اقسام العالم الثلاثة المعروفة وقتئذٍ . وهذه المستعمرات يصعب تمييزها من المستعمرات الفينيقية . نكتفي بذكر حالة هذه الابنية الاولى العامة

وكان ذلك العصر الصيداوي الاستعماري عصر نجاح وفلاح وما زال الى ان فاجأه الزمان الفوضوي الذي افضى بجميع فينيقية ومستعمراتها الى الخراب ولم ينتهِ الا باعادة الحكم تحت رئاسة الصوريين



الفصل الحادي عشر

في الشوكة الصيداوية

لا يخفى ان قوة صيدا الحقيقية ومصدر عزّها كان من تسلطها على الابحر . فالقبائل التي سكنت في سالف الازمان جميع ارياف البحر المتوسط كانت في حالة همجية لا تقوى على بناء زورق يثبت لدى ملاطمة الامواج . فهذه الحالة كانت السبب في ثروة الصيداويين المتجرين وجعلتهم مدى اجيال عديدة ولاية بلا اقران على جميع البحور المعروفة وقتئذ . وكان قد مضى زمان طويل لما ان مراكب المهاجرين الزاحفين على بلاد مصر وسفن المتجرين الذين كانوا قد تعاطوا التجارة اخافتهم ببعض مسابقة مهمة . وهذه القوة البحرية كانت السبب في تسمية القسم الشرقي من البحر المتوسط بالبحر الصيداوي

وقبل ان انفردت صيدا بالقوة البحرية كانت قد استغنت الجزائر الصغيرة القريبة من الشواطىء والمقابلة لاسوارها فابتنتها مرفأ لها فجاء اجمل مرفا في العالم القديم . وقد اتخذته مثالا لها مدينة صور وارادوس وكثير من المدن الملاحية عندما ابتنت لها مرفا في بحورها . وانشئت حول هذا المرفأ معامل وفيرة للعمارات البحرية حيث كان

مِهْرَة الصنّاع يبنون الاساطيل الصيداوية الشهيرة ويرسلوها في البحار.
 وكان مجتمع من الصخّور قليل الارتفاع يمتدّ الى الجهة الشماليّة محاذياً
 لشاطئ البحر قد أُستعمل لصنع المرفأ والعمارات واللازمة لتتّميم ما رسمته
 الطبيعة وبذلك تيسر لهم بناء مرفأ بديع مقبول كان يعجب منه
 سيلاكس. وفي القسم الجنوبي من هذه الصخّور كان ملجأ آخر وهو المرفأ
 المفتوح

ان هيئة هذه الاماكن تحمل على الظن ان مدخل المرفأ الداخلي
 كان بين سور المدينة والجزيرة الصغيرة التي لم تزل عليها قلعة الصليبيين
 الى الآن. ولا ريب ان ما بينهما من المسافة يصلح ان يكون مدخلاً
 حسناً دون ان يفتح المرفأ من جهة البحر لانه يكفي اليوم ان يمدّ
 جسر ذو اربعة قناطر صغيرة ليكون وصلة بينهما. فعلى هذه الصورة
 كان المرفأ الذي تخرج منه اساطيل صيدا المشهورة فتسلط على البحر
 المتوسط

اما هذا المرفأ في يومنا فقد تبدلت هيئته وصار اكثر خراباً من
 المدينة نفسها وذلك لما تأتّى عليه من الاسباب الداعية لردمه من جراف
 رمال البحر ومساعي فخر الدين والجزار الذين تولوا الاحكام فليس له
 اليوم في عدة مواضع من العمق سوى متر واحد

وما من تقاليد ولا آثار تنبئ عن زمان ابتداء الصيداويين

للاسفار الجرية . انما الامر المقرر عندنا هو ان الاسرائيليين لما اتوا صيدا وجدوها مزهرة وقبل ذلك بيسير انضم اليهم المصريون انضمهم الى امة جالية الشأن . وقد علمنا ان قوة صيدا البرية كان ابتداؤها عندما تشتت شمل الشعوب لاول مرة . ومن ثم كان على الملك مهما كان اسمه ان يعمل بموجب السلطة ويدبر شؤون الدولة كما في سائر القبائل الكنعانية . لكن الى اي حد من المدن والقرى المجاورة امتد فيما بعد سلطة هذا الملك ؟ وهل تولى حقيقةً التسلط على ملوك فينيقية الآخرين لما تكلمت مساعيه بالنجاح او تسلط عليهم بقوة نفوذه الصادر عن ثروته واتساع نطاق تجارة عاصمته وشهرتها ؟ فمن المقرر ان لقب ربة الذي اتخذته صيدا من ذلك الحين معناه في لغة الكنعانيين الاقدمين القادرة . وكل شيء يحملنا على الظن بان المدينة التي تلقب بهذا اللقب كانت قاعدة لمجموع بلاد متحدة مثل ربة عمون وربة مراب الخ

ومع ذلك فالارجح انه ليس لصيدا نفوذ على سائر القبائل الكنعانية الا ادبياً وليس سياسياً . فانها في واقع الامر لم تشترك في كل حروب الكنعانيين الداخلية لما افتتح يشوع ارض الميعاد ولما اشتعلت الحرب بين الاسرائيليين وامم الجليل . فاذاً لا يسوغ الظن بان سلطة صيدا الحقيقية تتعدى في ايام عزها الحدود التي عيناها قبلاً لدولة صيدا اعني الشسع الضيق الممتد على الساحل في سفح جبل لبنان من

نهر الدامور الى جبل الكرمل

اما جبيل ومستعمراتها بيروت على ما روت الاخبار القديمة انهما لم تشتركا في شئون صيدا وسائر القبائل الكنعانية لانهما لما كانتا ارايتين كانتا تسيران في الاعمال على خطرٍ مخالف كل الخلاف . وارواد وصور لم تكونا وقتئذٍ الا اماكن لا شأن لهما لكنها كانتا تُعد ان لهما عزاً مستقبلاً بكبدٍ ونشاط . فاذا سلطه صيدا لم تكن عظيمة في البر

ولقد حدث بُعيد استيلاء الاسرائيليين على ارض كنعان امرٌ ذو شأن يبين باجلى بيان ان صيدا ولو كانت عظيمة ومهابة لم يكن لها قوة هائلة في داخلية البلاد . فان الدانيتين كان نصيبهم في التقاسم ارضاً غير فسيحة قرب يافا لكنها ضاقت بهم اذ لم يطردوا منها الكنعانيين فبنو عمون تحصنوا فيها وما لبثوا ان ضيقوا على الدانيتين في الجبال فكان من ثم امرٌ واجب ان تتخفف قبيلة الدانيتين هذه عن ارضها الضيقة لكثرة السكان وذلك بان تتخذ لها مستعمرة بعيدة . فالتحجت خمسة من اشجع ابطالها ليسعوا في ايجاد ارض مواقفة فذهبوا في استقصائهم الى ان وصاوا قرب لايش (١) . فهذه المدينة كانت في سفح حرمون

(١) لايش كلمة عبرانية معناها اسد قوي شجاع . فان كان اسم

دان الذي دعيت به فيما بعد يوجد في سفر التكوين وتثنية الاشتراع فما ذاك الا لانه كُتبهُ النسخ غلطاً عوضاً عن الاسم القديم

الكبير بقرب ينبوع الاردن الصغير كما تبين ذلك الشهادات القديمة . فهذه كانت مستعمرة لاهل صيدا « وكان هؤلاء الشعب ساكنين على عادة الصيداويين آمنين مطمئنين وليس من يزعمهم في ارضهم ولا من يتسلط هناك وكانوا بعيدين من الصيداويين وليس لهم بينهم وبين احد علاقة (١) . »

فالرسل الخمسة بادروا الى دعوة اخوانهم لهذه الغنيمة السهل قبضها قائلين : « قوموا بنا نصعد على لايش لأننا رأيناها ارضا صالحة جدا وانتم متقاعدون فلا تتوانوا عن المسير لتذهبوا وتملكوا الارض . فانكم عند اتيانكم تصادفون شعبا مطمئنا والبلاد واسعة وقد دفعها الرب الى ايديكم مكان لا عوز فيه لشيء مما في الارض » (٢) . فحسب الدانيتيون ان البلاد اصبحت ملكهم فساد منهم ستائة رجل مع عيالهم ليستوطنوا في لايش وقد استصحبوا في طريقهم يونتان اللاوي الذي كان عند مينا يعبد الله تعالى عبادة خرافية . وقد ذكر الكتاب المقدس عن عبادة مينا واللاوي فصلا مطولا لانها كانت بدء خيانة اسرائيل (٣) ولكنها ليست من موضوع تاريخنا . ثم اتى الدانيتيون لايش على حين لا يتوقع

(١) سفر القضاة فصل ١٨ عدد ٢

(٢) سفر القضاة فصل ١٨ عدد ٩ و ١٠

(٣) سفر القضاة فصل ١٨ عدد ١١

هجومهم واشتولوا على المدينة واعملوا السيف في سكانها واحرقوا البيوت
ليفنوا الكنعانيون عن آخرهم وخصوصاً ليطهروا هذا المكان الذي دنسته
جرائم الظافرين والمغلوبين ثم جدّدوا ابنة المدينة ودعوها باسم دان (١)
الذي ورثوه عن ابيهم دان بن اسرائيل . ولكن اول ما اهتم به هؤلاء
الاسرائيليون الفاسدون هو انهم « نصبوا في مدينتهم صنم ميخا وكان
يونتان بن جرسوم بن منسى هو وبنوه كهنة لسبط الدانيتين الى يوم
جلاء الارض . » (٢)

فهذه المدينة التي كان اساسها الخيانة وسفك الدماء تدّينت
بدين لا يرضاه الله . فتابوت سيلوح وشريعة موسى عادا عند هذا
الشعب نسياً منسياً لا تدور على محورهما ديانتهم فكان دان اول من
نادى بالخيانة ولسوء حظ هذه القبيلة تمت فيها نبوة يعقوب القائل :
« يكون دان شعباً ناعياً على الطريق وافعوناً على السبيل يلسع رسغ الفرس

(١) دان لم يزل هذا الاسم محفوظاً بمعناه العربي قل القاضي
بقرب نبع الاردن الصغير ولم يبق هناك الا اطلال لا شأن لها وليس
إلا اكداس الردم تنبؤنا ان الاسوار كانت مبنية من حجارة البركان
السوداء الجميلة وهي سالمة منذ ٣٠٠٠ سنة

(٢) سفر القضاة فصل ١٨ عدد ٣٠ و ٣١

فيستط الركب الى الوراء « (١) . فان هذا الافعوان يقدود اخوته في معارج الوثنية . او المرجح ان نجاح الدانيتين دفع مستعمرات أخر مثلهم الى شمالي فلسطين . وامرٌ مستصعب ان تكون حركة المهاجرة هذه الناجحة قد سكنت فجأةً . ولذا يوجد حتى اليوم على تخوم لبنان بعض اسماء من قبيلة دان كدليل على غيرها من الاسماء مثل شعلبين (سلابين) تبنين (بمنه) عكره (عكرون) الخ (٢) . على انه وإن لم يكن من نصوص تثبت لنا تلك المهاجرات الحديثة فهذه الاسماء تجعل لنا استيطان الشعوب الاسرائيلية جنوبي لبنان شبيهاً بالحقيقة

وما جاء في سفر القضاة من قوله « ولم يكن من ينقذ لايش لانها بعيدة عن صيدا » (٣) يردنا الى سياق ما نحن في صددده . والحال لايش هي من صيدا على مسافة نهار طويل او بالاكثر نهارين قصيرين ومع ذلك لم يكن لصيدا وقتنر طريقة حكيمية منظمة تبلغها هذه المسافة البرية ولم يبادر احد من المارك الكنعانيين الى محالفتها للحمامة عنها . فهكذا فقدت هذه المستعمرة القرية لكونها خارجة عن سعة يد صيدا العظيمة . واما السكينة التي بات فيها الدانيتيون بعد قتلهم صيداوي لايش

(١) سفر التكوين فصل ٤٩ عدد ١٧

(٢) يشوع فصل ١٩ عدد ٤٢ و ٤٣

(٣) سفر القضاة فصل ١٨ عدد ١٨

لم تكن الا لتزيدنا عجباً واندهاشاً وذلك اذا غزيت مدينة تابعة لمملكة
قادرة ولم ترحف الى الغازين أليس ذلك دليلاً على الضعف الزائد في
مملكة ترى قتلة تابعيها وغازين مدنها يتمتعون بسلام وطمأنينة مما جنته
فواحشهم وغزوهم وستائة دانيتي يزدرون قوتها على مقربة منها ؟

ورغمًا عن هذه الدلائل على ضعف قوة صيدا او بالحري على
عجزها في البر كان لهذه المدينة وسع النفوذ وذلك من حيث قوتها البحرية
واتساع نطاق تجارتها وتقاطر الناس الى سوقها . فملك هذه القاعدة الذي
كان ينظر اليه جميع مجاوريه بعين الاعتبار لامتيازات واموال من شأنها
ان تأخذ بعقول البشر كان له نفوذ لا يُدفع على سائر المملوك والمدن
المجاورة وشوكة لتتميم مقاصده الكثيرة . وهذا كله لم ينبجم عن قوة بل
عن نفوذ هذا الملك الذي كان محوراً مجتذباً لجميع القوات النشيطة
في الجوار . ولولا ذلك ما استطاعت صيدا توسيع نطاق هذه التجارة
وهذه البحرية وهذه المستعمرات الناجحة التي ملأت العالم القديم
وكيف كانت علاقات صيدا العظيمة وباقي بلاد فينيقية مع المصريين
عندما حارب شعوب لبنان العليا الفراعنة مدافعةً عن استقلاليتهم ؟ أكان
الفراعنة وقتئذٍ ولاة عليهم ؟ فلمن المقرر انه لم يُنقش على الآثار المصرية
ولا دُونَ في لوائح الثائرين او المدحورين اسم الصيداويين ولا عاصمتهم ولا
مدينة من مدنها . ولا غرو أنه لاجل بعد المسافة الفاصلة بين الصيداويين

والمركز الحديث الذي اتخذهُ بنو كنعان في وادي نهر العاصي بعدما طُردوا من اراضي فلسطين لم يكن لصيدا من منفعة في تواطىء اخوانها الحثيين او الكاتيين على المصريين . ولو انخرطت صيدا في سلك هذا الاتحاد لآدَى بها ذلك الى ان تتحمل في كل غزوة قوة الصدمة الاولى وهي لا ترجو من محالفيها نجدة على الجيوش المصرية . وعلى كل ليس لصيدا من غرض سياسي في اليابسة الاسيوية وضيق مساحة ارضها جعلها ان تنظر بعين خالية من الغرض الى القتال المشتبك بين اناس يتنازعون الاستيلاء على ارض مجاورة لها . وكانت قوة صيدا تنحصر في البحر والفراعنة لم يكونوا ليقدروا على مقاومتها فيه . فاستكفت بهذه السلطة وتجنبت ما يفتح سبيلاً للمصريين لئلا يزع شيء من سلطتها وما كانت صيدا لتخاصم المصريين اذ ليس لها من ارب في ذلك .

فهذه الحال كما لا يخفى كانت مدعاة الى التفريق بين صوالح الصيداويين وصوالح الكنعانيين القاطنين شمالي لبنان . فلذا لما تواطأ الارواديون والاراكيون الحثيون على مصر كان الصيداويون حلفاء امنا لهذه البلاد . نقول حلفاء لان الكتابات الهياروغليفية المختضة بذلك الزمان وان ذكرت قبائل فينيقية وصناعتها واموالها كدليل على انها كانت خاضعة للملك مصر فليس مع ذلك من براهين قاطعة تؤيد هذه الكتابات . فادل عبارة على هذه الآثار هي كلمة (خراج) ومع ذلك لم يكن يراد بها

احياناً ألا بمعنى هدايا معطاة عن طيبة خاطر وحسن علاقات . ولم يتعد باقي العلاقات التي انبأت عنها الآثار المصرية بين مصر وفينيقية غير ما يقتضيه طيب الجوار الموجود وقتئذ بين تلك الدولتين . ولم يخلُ الصيдаويون من دواعٍ خطيرة جداً تدعوهم الى ان يراعوا المضرين المقتدرين في اسية وذلك حباً بصالح تجارتهم البرية والبحرية . واذ لم يكن لصيدا من طمع في اليابسة تركت مصر تفعل ما تشاء مراعية في الحروب على قدر ما يستطيع خواطر الفريقين حسب عادة الممالك ذات المتاجرة صيانة لقوتها البحرية . واما القول ان الصيдаويين قد ضحوا لنجاح تجارتهم استقلاليتهم وسلطتهم فهو مخالف لنصوص الآثار والآراء المعول عليها ولذا نقول انه عُقد بين كلتا الامتين تحالف حصل منه للصيдаويين منافع جمة من جهة تجارتهم لاسيا البحرية ويظهر ان هذا العقد التحالفي كان قاعدة سير عوجهها ايام ذلك العصر الصيداوي . ولذلك يسهل علينا ان نعرف اخلاص فينيقية الغريب لمصر ويمكننا ايضاً ان نعلم ما كان لصيدا في تلك الايام من القوة العجيبة المتزايدة . وهل كان ممكناً لمدينة خاضعة لغيرها ان تملأ العالم القديم من مستعمراتها وسطوتها ؟ أما كان تدأخل الفراغنة في شؤون صيدا وهم الذين يبغضون الاسفار البحرية عن مبدأ ديني مما يقضي على بحرية صيدا بالهلاك العاجل ؟ فهذا الرأي في ماهية العلائق السياسية بين فينيقية ومصر في

زمان فتوحات الفراعنة في اسية ارتآه بعض من تكلموا عن كتابات مصر القديمة وهم يجلّون التمدن المصري القديم وينسبون الى اهل صيدا في الملاحة فخرًا ينقشه الفراعنة احيانًا مع الفخخة على مصانع ملكهم . قال المسيو لوزمان قولًا وهو صدى اقوال المتكلمين في عصرنا عن كتابات مصر القديمة « ان الشعب المصري لم يكن ماهرًا في الملاحة فضلًا عن انه كان عنده من الخرافات ما يبعث اليه البحر إذ كان يعتبره نجسًا لكونه مُلك سيت إله الشر وخصم اوزيريس . فكان المصري اذا تزل في مركب ليسافر بحرًا اعتقد انه رمى بنفسه الى عدو له وانه اضحى نجسًا نظرًا الى الدين . وبناء على وجود هذه الخرافات عند الشعب المصري فلا يتأتى للفراعنة في اي زمان كان أن يجعلوا لهم بحرية . فاذا إن لم يكن للاشوريين وهم في منتهى سطوتهم عمارة في البحر المتوسط إلا مراكب سيليسا وفينيقية ولا للفرس إلا مراكب الهنديين والسيليسيين والفينيقيين فوجه اولى انه لم يكن للوكة مصر في ذلك البحر إلا عمارة الفينيقيين ولا سيما اهل صيدا

«واذا سلمنا ان فراعنة الدولة الثامنة عشرة كانت بحريتهم الحرية في المتوسط من الفينيقيين فيتعذر علينا والحالة هذه ان لا نسلم بان عمارتهم كانت كذلك في البحر الاحمر . وان الصيداويين كانوا بحارة المراكب الحرية التي كانت تنقل ما ترسله من الجيوش لاختضاع بلاد العرب

الجنوبية مستودع كل محصولات الهند الفاخرة وابقائها تحت طاعتها . وإلحال
ان ركوب البحر الاحمر لمن اصعب الامور ويستوجب بحارة محنكين .
ولما اراد فيما بعد ملوك الدولة السادسة والعشرين ان يكون لهم بحرية فيه
لم يروا بداً من ان يتقدموا الى الفينيقيين في ذلك »

مما تقدم ينتج ان هذه الغزوات البحرية المؤلفة جميعها من الفينيقيين
لم تكن إلا عن تحالف تجاري بين دواتين مستقلتين . ومن ذهب الى
غير ذلك فقد حط من قدر صيدا بانها رضيت بذل وعبودية لا يدرك
سببهما . فان صيدا لم يفتحها قط الفراعنة : وهل كان لهم ان يستولوا
على سلطنة البحر بدون عمارة ؟ او لم يكن ضرباً من الجنون محاربتهم
لها بالجنود المصريين اصحاب الحرافات المتقدم ذكرها ؟ وهل يسلم هؤلاء
البجارة الشجعان نفوسهم الى الدولة المصرية بدون دفاع بل بدون ان
ينخطر لهم الفكر في خلع نير الاجانب على حين كانت قبائل من سلاتهم
يتبادرون الى خلعه ؟ كلا فان تاريخ فينيقية لا يأذن بالظن ان تلك
القاعدة العظيمة وسائر مدن فينيقية ترضى بالنزل عن مركزها وذل

بكذا